

عبد الرحمن البرقوقي

الذخائر والعبريات
مُعْجَمٌ مُتَقَنٌ فِي مُجَامِعِ

الجزء الثاني

مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
القاهرة/ ت: ٩٣٦٢٧٧ - ٩٢٢٦٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمِنْ سُبْحَانِهِ نَسْتَعِينُ الْعَوِيذَ وَالتَّوْفِيقَ

فَهُوَ الْمُسَدَّدُ إِلَى سِوَاءِ الطَّرِيقِ

« وبعد » فَإِنَّا نَفْتَحُ هَذَا الْجُزْءَ الثَّانِيَّ مِنْ « الذَّخَائِرِ وَالْعَبَقِيَّاتِ » بِصَدِّ
مِنْ عِبَقِيَّاتِهِمْ فِي أَكْثَرِ الْمَعَانِي الَّتِي أوردنا ما أوردنا من عِبَقِيَّاتِهِمْ فِيهَا ، فِي
أَبْوَابِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ ، وَكَانَ الْمُتَوَقَّعُ أَنْ تَفْتَحَ هَذَا الْجُزْءَ بِسَائِرِ عِبَقِيَّاتِهِمْ
فِي التَّعَاذِي ، وَفِي الْمَرَضِ ، يَبْدَأُ أَنَا قَدْ اسْتَحْسَنَّا أَنْ نُصَدِّرَ هَذَا الْجُزْءَ الثَّانِيَّ
بِطَائِفَةٍ مِنْ عِبَقِيَّاتِهِمْ فِي مَعَانِي شَيْءٍ تَنْدَرِجُ فِي الْأَبْوَابِ السَّابِقَةِ ، وَذَلِكَ
لِأَمْرَيْنِ : أَمَّا أَوَّلُهُمَا فَلأنَّ فِي هَذَا الصَّنِيعِ مُبَادَرَةً بِاسْتِذْرَاكِ مَا قَدْ كَانَ يَصِحُّ
إِيرَادُهُ هُنَاكَ ، وَأَمَّا الْآخَرُ : فَذَلِكَ لِأَنَّا لَمْ نَسْتَحْسِنْ أَنْ نَفْجَأَ الْمُتَصَفِّحَ لِهَذَا
الْجُزْءِ بِمَا عَسَى أَنْ يُفْرِغَهُ وَيَنْفِرَ مِنْهُ ، وَتَنْقَبِضَ نَفْسُهُ عَنْهُ ، عَلَى أَنْ هَذِهِ
الْعَبَقِيَّاتِ وَإِنْ جَاءَتْ فِي الْبَيِّنِ وَفَصَلَّتْ بَيْنَ عِبَقِيَّاتِ الْبَابِ الثَّلَاثِ غَيْرِ
أَنَّهَا جَاءَتْ كَالدُّرَّةِ الْفَرِيدَةِ تَفْصِلُ بَيْنَ ذَهَبِ الْقِلَادَةِ ؛ إِلَى مَا فِي ذَلِكَ مِنْ
اسْتِرَاحَةٍ لِلْقَارِئِ وَتَنْقُلُ بِهِ مِنْ مَعَانِي قَدْ تَكَثَّرْنَا مِنْهَا إِلَى مَعَانِي أُخْرَى قَدْ
يَسْتَرِيحُ إِلَى جِدَّتِهَا ؛ وَبَعْدَ أَنْ تَفْرُغَ مِنْ هَذِهِ الْعَبَقِيَّاتِ نَعْطِفُ عَلَى عِبَقِيَّاتِهِمْ
فِي التَّعَاذِي ، وَفِي الْمَرَضِ ، وَقَانَا اللَّهُ جَمِيعًا بِحُكْمَتِهِ ، وَخَقَفَ - إِذَا هُوَ قُوْدَرُ
عَلَيْنَا - وَطَأَّتَهُ .

عِبْرِيَّاتٌ شَتَّى

تدرج في الأبواب السابقة

سمو أخلاق الخلفاء الراشدين

ومما يُؤثر في باب حسن الخلق ما حدّث به العُتبيُّ^(١) في إسناد ذكره قال: دعا طَلْحَةَ بنُ عُبَيْدِ اللهِ أبا بكرٍ وعمرَ وعِثْمَانَ رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِمُ، فأبْطَأَ الغلامُ - الخادم - عنه بشيءٍ أراده، فقال طَلْحَةُ: يا غلامُ، فقال الغلامُ: كَبَيْكُ، فقال طَلْحَةُ: لا لَبَيْكُ؛ فقال أبو بكرٍ: ما يسُرُّني أني قُلْتُها وأن لي الدنيا وما فيها، وقال عمر: ما يسُرُّني أني قُلْتُها وأن لي نصفَ الدنيا، وقال عِثْمَانُ: ما يسُرُّني أني قُلْتُها وأن لي حُمْرَ النَّعَمِ^(٢)؛ قال العُتبيُّ: وصمّت عليها أبو محمد - هو طَلْحَةُ - فلما خَرَجُوا من عِنْدِهِ باع ضَيْعَةً بِخَمْسَةِ عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَتَصَدَّقَ بِشَمَنِها... فهل رأيتَ أو سَمِعْتَ بمثل هذا الأدب العُلويِّ الرَّبانيِّ وأنت إذا نظرت إلى هذا الحديث من أيِّ أقطاره رأيتَ أدباً باسِقاً ومُحَلِّقاً سامياً! فهذا الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُنْكَرُ في كِياسَةِ وأدبِ قَوْلَةٍ

(١) هو أبو عبد الرحمن محمد بن عبيد الله... بن عتبة بن أبي سفيان: شاعر أديب راوية للأخبار والأدب... تابعت عليه مصائب في أولاده الذكور الستة في الطاعون الذي كان بالبصرة سنة ٢٢٩ هـ فرثاهم بمراث كثيرة منها قوله:

كَلَّ لسانِي عن وصف ما أجد وذقت نُكْلاً ما ذاقه أحد
ما عالج الحزنَ والحِراةَ في الاحشاء من لم يمت له ولد
وله من الآيات السائرة:

قالت عهدتك مجنوناً فقلت لها إن الشباب جنون برؤه الكبر
(٢) النعم: الإبل خاصة والعرب تقول: خير الإبل حمراها وصهبها؛ لأن الحمراء أصبر على الهواجر، والصهباء أحسن حين ينظر إليها

أبي محمد لغلامه : لا ليبيك ، ثم يجيء بعده عمر فينكر هو الآخر إنكاراً لا يحظ فيه التأدب مع الخليفة أبي بكر ، وكذلك فعل عثمان مع عمر ، وأخيراً يكفر أبو محمد عن هذه البادرة بخمسة عشر ألف درهم ... لا جرم لقد أدبهم المصطفى صلوات الله عليه ، الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه .

طلحة بن عبيد الله

وهذا طلحة بن عبيد الله هو الصحابي الجليل أحد العشرة المبشرين بالجنة^(١) وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين أسلوا على يد أبي بكر ، وأحد الستة أصحاب الشورى^(٢) وأحد أغنياء الصحابة ، وأحد أجواد قريش ، بل كان نبي الجود ، إن كان للجود نبي ... وقد كان يقال له : طلحة الفياض ، وطلحة الجود ، وطلحة الخير ، يقال إنه فرّق في يوم سبعمائة ألف ، باع أرضاً له من عثمان بن عفان بسبعمائة فحملها إليه ، فبات ورؤسله تختلف بها في سكك المدينة حتى أسحر^(٣) وما عنده منها درهم واحد ويروى أنه وصل أعرابياً من أقاربه بثمانمائة ألف درهم ؛ وكان لا يدع أحداً من بني تميم عائلاً إلا كفاه ، ووثقه ووثق عياله وزوج أيامهم^(٤) وأخدم عائلهم وقضى دين غارهم وكان يرسل إلى السيدة عائشة إذا جاءت غلته كل

(١) وقال له سيدنا رسول الله يوم أحد : إنه قد أوجب ؛ أي أتى بما أوجب له الجنة .

(٢) أي الذين عهد إليهم الفاروق رضى الله عنه أن يتشاوروا ويختاروا من بينهم خليفة بعده .

(٣) أسحر : صار في السحر ، والسحر : ما قبل انصداع الفجر

(٤) الأيايم جمع أيم والأيم من النساء : التي لازوج لها بكرأ كانت أو ثيباً ومن الرجال : الذي لا امرأة له .

سنة بعشرة آلاف... إلى آخر أنباء جوده وكرمه ؛ ولما انقضى يومُ
الجل (١) خرج عليُّ بن أبي طالب في ليلة ذلك اليوم ومعه قَنَسِيرٌ (٢) ، وفي
يده شُعْلَةٌ من نارٍ يَتَصَفَّحُ القَتْلَى ، حتى وقف على طاحنة فقال : أَعَزُّهُ عَلِيٌّ
أَبَا مُحَمَّدٍ أَنْ أَرَاكَ مُعَفَّرًا (٣) تحت نجوم السماء وفي بطون الأودية : شَفَيْتُ
نَفْسِي وَقَتَلْتُ مَعَشِرِي ! إِلَى اللَّهِ أَشْكُو عَجْرِي وَبُجْرِي (٤) ثم تمثل (٥)
قَتِي كَانَ يَدِينِيهِ الْغَنَى مِنْ صَدِيقِهِ إِذَا مَا هُوَ اسْتَعْنَى وَيُبْعِدُهُ الْفَقْرُ
قَتِي لَا يَعُدُّ الْمَالَ رَبًّا وَلَا تُرَى بِهِ جَفْوَةٌ إِنْ نَالَ مَالًا وَلَا كِبْرٌ
قَتِي كَانَ يُعْطِي السَّيْفَ فِي الرَّوْعِ حَقَّهُ

إِذَا تَوَبَّ الدَّاعِي وَآشَقَّتِي بِهِ الْجُزْرُ (٦)
وَهَوْنٌ وَجِدِي أَنِّي سَوْفَ أَعْتَدِي عَلَى إِثْرِهِ يَوْمًا وَإِنْ نَفَسَ الْعَمْرُ
وقوله قتي كان يدينه الغنى من صديقه... البيت : هو معنى جميل مطروق
وفيه يقول إبراهيم بن العباس الصولي في محمد بن عبد الملك الزيات :

(١) هو تلك الواقعة التي نشبت بين علي وبين عائشة ومن معها ، وكانت عائشة
تمتطي جملاً فسمى ذلك اليوم يوم الجمل
(٢) هو خادم علي

(٣) معفراً : أي ملصق الوجه بالتراب ويقال للتراب : العفر . والعفر
(٤) أي ما ظهر من أمرى وما بطن ، وأصل العجر : العروق المنعقدة في الظهر
والبجر : العروق المنعقدة في البطن ، وقال الأصمعي : هو قول سائر في أمثال العرب
يقال : لقي فلان فلانا فأبته عجره وبجره

(٥) هذه الأبيات لسلمة بن يزيد بن مشجعة الجهني أحد الصحابة يرثي أخاه لأمه
(٦) ثوب الداعي ، فالتويب : التلويح بالثوب مع صوت فيه استغاثة وقال عمرو
ابن العلاء : التويب : الترجيع من ثاب يثوب إذا رجع يريد : إذا رجع الداعي دعاه
بعد دعاه ، يصفه بإجابة الصريخ وقوله : وتشقني به الجزر ، يصفه بكرم الضيافة

أَسَدٌ ضَارٍ إِذَا مَا نَعْتَهُ وَأَبٌ بَرٌّ إِذَا مَا قَدَّرَا
يَعْرِفُ الْأَبْعَدَ إِنْ أَثْرَى وَلَا
يَعْرِفُ الْأَدْنَى إِذَا مَا اقْتَرَا

ويقول الأديب أبو بكر الخوارزمي :

رَأَيْتُكَ إِنْ أَيْسَّرْتَ حَيِّمْتَ عِنْدَنَا لِزَامًا وَإِنْ أَعْسَّرْتَ زُرْتَ لِمَا مَا
فَمَا أَنْتَ إِلَّا الْبَدْرُ إِنْ قَلَّ ضَوْؤُهُ أَعْبَّ وَإِنْ زَادَ الضِّيَاءُ أَقَامَا
وقد تقدمت أبيات لعبد الله بن الزبير الأسدي في هذا المعنى؛ وما أبرع
أبياتا لابن المعتز يقول فيها :

إِذَا مَا أَرَادَ الْحَاسِدُونَ انْهِدَامَهُ بِنَاهُ إِلَهُ غَالِبِ الْعِزِّ قَاهِرُهُ
وَمَاذَا يَرِيدُ الْحَاسِدُونَ مِنْ أَمْرِي تَزِينُهُمْ أَخْسِلَاقُهُ وَمَا تَرَاهُ
إِذَا مَا هُوَ اسْتَعْنَى اهْتَدَى لِاقْتِحَارِهِمْ

ولا تهتدي يوماً إليهم مفاقرُهُ^(١)

وكانوا كزرايم كوكباً يبصاقه فرد عليهم وبهله ومواطره^(٢)

حادث تلاقى فيه الكرم بالشجاعة والمروءة

والحياء والنبل

تحدّث رجلٌ من الأعراب قال : نزلتُ برَجُلٍ من طَيْبٍ ، فَتَحَرَ لِي نَاقَةٌ

(١) المفاقر : وجوه الفقر ، أو جمع فقر على غير قياس كالملاح والمشابه

(٢) هذا البيت كما قال بعض العرب :

رَمَانِي بِأَمْرِ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيئًا وَمِنْ جَالِ الطَّوِيِّ رَمَانِي

الجمال والجمال : الناحية ، والطوي : البئر ، يريد : رماني بما عاب عليه .

فَأَكَلْتُ مِنْهَا ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ نَحَرَ أُخْرَى فَقُلْتُ : إِنَّ عِنْدَكَ مِنَ اللَّحْمِ مَا يُغْنِي ^{عَنْ} وَيَكْفِي ، فَقَالَ : إني والله لا أطعمُ ضيفي إلا لحمًا عبيطًا ، قال : وفعل ذلك في اليوم الثالث ، وفي كل ذلك آكلُ شيئًا ويأكلُ الطائيُّ أكلَ جماعة ، ثم نُوتِي بِاللَّبَنِ فَأَشْرَبُ شَيْئًا وَيَشْرَبُ عَامَّةَ الْوَطْبِ ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ ارْتَقَبْتُ غَفْلَتَهُ ، فَاضْطَجَعْتُ ، فَلَمَّا امْتَسَلْنَا نَوْمًا اسْتَقْتُ قَطِيعًا مِنْ إِبِلِهِ ، فَأَقْبَلْتُهُ الْفَجَّ ، فَأَنْتَبَهَ ، وَاخْتَصَرَ عَلَيَّ الطَّرِيقَ حَتَّى وَقَفَ لِي فِي مَضِيقٍ مِنْهُ ، فَأَلْقَمَ وَتَرَهُ فَوْقَ سَهْمِهِ ، ثُمَّ نَادَى بِي : لَتَطْبُ نَفْسُكَ عَنْهَا ، قُلْتُ : أَرِنِي آيَةً ، فَقَالَ : انْظُرْ إِلَى ذَلِكَ الضَّبِّ ، فَإِنِّي وَاضِعُ سَهْمِي فِي مَغْرَزِ ذَنْبِهِ ، فَرَمَاهُ ، فَأَنْدَرَ ذَنْبَهُ ، فَقُلْتُ : زِدْنِي ، فَقَالَ : انْظُرْ إِلَى أَعْلَى قَفَّارِهِ ، فَرَمَاهُ ، فَأَنْتَبَ سَهْمِهِ فِي الْمَوْضِعِ ، ثُمَّ قَالَ لِي : الثَّالِثَةُ وَاللَّهُ فِي كَيْدِكَ ، فَقُلْتُ : شَأْنُكَ يَا بَلِّكَ ، فَقَالَ : كَلَّا ، حَتَّى تَسْوِقَهَا إِلَى حَيْثُ كَانَتْ ، قَالَ : فَلَمَّا انْتَهَيْتُ بِهَا قَالَ : فَكَّرْتُ فِيكَ فَلَمْ أَجِدْ لِي عِنْدَكَ بَرَّةً تُطَالِبُنِي بِهَا ، وَمَا أَحْسِبُ الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى أَخْذِ إِبِلِي إِلَّا الْحَاجَةَ ، قَالَ : قُلْتُ : هُوَ وَاللَّهُ ذَاكَ ، قَالَ : فَأَعِزُّدْ لِي عَشْرِينَ مِنْ خِيَارِهَا فَخُذْهَا ، فَقُلْتُ : إِذْنُ وَاللَّهُ لَا أَفْعَلُ حَتَّى تَسْمَعَ مَدْحَكَ ، وَاللَّهُ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَكْرَمَ ضِيافَةً وَلَا أَهْدَى لِسَابِيلٍ وَلَا أُرْحَى كَفَا وَلَا أَوْسَعَ صَدْرًا وَلَا أَرْغَبُ جَوْفًا وَلَا أَكْرَمَ عَفْوًا ، مِنْكَ ، قَالَ : فَاسْتَحْيَا فَصَرَفَ وَجْهَهُ عَنِّي ، ثُمَّ قَالَ : أَنْصِرْفِ بِالْقَطِيعِ مُبَارَكًا لَكَ فِيهِ ...

• قوله : عبيطًا : يقال : عبيط فلانٌ نائمه : إذا نحرها من غير داء ولا كسرٍ وهي شابةٌ سميئةٌ ، والعبيط أيضًا : اللحم الطريُّ غير النضيج ، والوطب : سقاء اللبن خاصة من جلد ، والفج : الطريق الواسع بين جبَّتين ، والجمع : فجاج ؛ واختصر الطريق : سلك أقرَّبه ، وفوق السهم : مشقُّ رأسه حيث

يقع الوتر ، وآوله : فَأَنْدَرَ ذَنْبَهُ : أى أَسَقَطَهُ ، وقد نَدَرَ الشَّيْءُ يَنْدُرُ نَدُورًا : سَقَطَ أو سَقَطَ من جَوْفِ شَيْءٍ أو من بين أشياء فظهر ، ومنه نوادر الكلام وهي مَأَشَدَّتْ وخرجت عن جمهوره فظهرت . وقوله : ولا أرغب جوفًا : من الرُّغْب وهو : سَعَةُ البَطْنِ وكثرة الأكل ،

حلم وأدب وسمو خلق

رَوَى المُبَرِّدُ : أن رجلا من أهل الشام قال : دخلتُ المدينة ، فرأيتُ رجلا رارِكبًا على بُغلة لم أرَ أحسنَ وجهًا ولا سَمْتًا ولا ثوبًا ولا دابةً ، منه ا فقالَ قلبي إليه ، فسألت عنه فقيل لى : هذا الحسن بنُ عليِّ بن أبي طالب ، فامتلأ قلبي له بُغْضًا ^(١) وحَسَدْتُ عاليا أن يكون له ابنٌ مثله ا فصرتُ إليه ^(٢) ، فقلت له : أنت ابن أبي طالب ؟ فقال : أنا ابنُ ابنه ، فقلت : فيك وبأبيك أُسْبَهُما ، فلما انقضى كلامى قال لى : أَحْسَبُكَ غريبا اقلت : أجلُ قال : فإل بنا فإن احتجتَ إلى منزل أنزلناك ، أو إلى مال آسبناك ، أو إلى حاجة عاوناك ، قال : فانصرفتُ عنه ووالله ما على الارض أحدٌ أحبَّ إلى منه ... وقال رجل لرجلٍ من قريش : إني مررتُ بقومٍ من قريش يشتمونك شتمًا رَحِمْتُكَ منه ا قال القرشى : أفسمعتنى أقول إلا خيرا ؟ قال : لا ، قال : إياهم فارحم ... وقال ابن مسعود : إن الرجلَ كَيْتَظْلِمُنِي فَأَرْحَمُهُ ا وقال رجلٌ للشعبيِّ كلاما أفدَعُ له فيه ، فقال له الشعبيُّ : إن كنتَ صادقًا فغفر الله لى ، وإن كنتَ كاذبًا فغفر الله لك ... ويروى أنه أتى مَسْجِدًا ، فصادف فيه قوما يغتابونَه ، فأخذ بعَضَاتِي الباب ثم تمثل بقول كَثِيرِ عَزَّةَ :

(١) لأن الرجل من أشياخ معارية بن أبي سفيان رضى الله عنه (٢) توجهت إليه

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَائِمٍ مُخَامِرٍ لِغَزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ
وقال محمود الوراق :

إِنِّي شَكَرْتُ لِظَالِمِي ظُلْمِي وَغَفَرْتُ ذَاكَ لَهُ عَلَى عِصْيِي
وَرَأَيْتُهُ أَسَدَى إِلَى يَدَا لِمَا أَبَانَ بِجَهْلِهِ حِلْيِي
رَجَعَتْ إِسَاءَتُهُ عَلَيْهِ وَإِحْسَانِي فَعَادَ مُضَاعَفَ الْجُرْمِ
وَعَدَوْتُ ذَا أَجْرٍ وَمَحْمَدَةٍ وَعَدَا بِكَسْبِ الظُّلْمِ وَالْإِثْمِ
فَكَأَنَّمَا الْإِحْسَانُ كَانَ لَهُ وَأَنَا الْمُسِيءُ إِلَيْهِ فِي الْحُكْمِ
مَازَالَ يَظْلِمُنِي وَأَرْحُمُهُ حَتَّى بَكَيتُ لَهُ مِنَ الظُّلْمِ

خير ما يرزقه العبد

قال بعض الملوك لبعض وزرائه - وأراد محنته - : ما خير ما يرزقه
العبد ؟ قال : عقلٌ يعيش به ، قال : فإن عديته ؟ قال : فأدبٌ يتحلى به ،
قال : فإن عديته ؟ قال : فمالٌ يستتره ، قال : فإن عديته ؟ قال : فصاعقةٌ تريح
منه العبادَ والبلاد ...

لاتزال العرب عربا

ما حافظت على زيها

كان الأحنف بن قيس يقول : لاتزال العربُ عرباً ما لبست العمام ،
وَأَقْلَدَتِ السُّيُوفَ ، ولم تعددِ الحِلْمَ ذُلاً ، ولا التَّوَاهُبَ فيما بينها صَعَةً ...
« قوله : ما لبست العمام ، يريد : ما حافظت على زيها ، وقوله : وتقلدت
السُّيُوفَ ، يريد : الامتناع من الضَّيْمِ ، وقوله : ولم تعددِ الحِلْمَ ذُلاً ، يقول :
ما عرفت موضع الحِلْمِ ، وذلك أن الرجل إذا أغضى للسلطان ، أو أغضى

عن الجواب وهو ما سُورَ لم يُقَسَلْ : حَلْمٌ ، وإنما يقال : حَلْمٌ ، إذا تَرَكَ أن يقول الشيء لصاحبه مُنتصرا ولا يخاف عاقبةً يَكْرَهُها . فهذا الحِلْمُ المحض ، فإذا لم يفعل ذلك ورأى أن تَرَكَهُ الحِلْمُ ذُلٌّ فهو خطأٌ وسَفَهَةٌ ؛ وقوله : ولم تَرَ التواهُبَ بينها ضَعْفَةٌ ، نحو من هذا ، وهو : أن يَهَبَ الرجل من حَقَّةٍ مالا يُسْتَكْرَهُ عليه ... وكان يقال : أحيوا المعروف بإماتته ، ومعنى ذلك : أن الرجل إذا امتنَّ بمعرفه كَدَّرَهُ ؛ وقيل : المِنَّةُ تَهْدِمُ الصنِيعَةَ ، وقد قال قيسُ بن عاصمِ المِنْقَرِي : يا بَنِي تَمِيمِ ، اصْحَبُوا مَنْ يَذْكُرُ إِحْسَانَكُمْ إِلَيْهِ وَيَنْسَى أَيْادِيَهُ إِلَيْكُمْ ...»

توقير العالم والشريف والكبير

والترفع عن الوضع

كان زياد بن أبيه يقول : أوصيكم بثلاثة : بالعالم ، والشريف - يعنى العظيم القدر - والشيخ - يريد : الذى تقدمت به السن - فوالله لأوتى بوضع سب شريفا ، أو شابٍ وَتَبَّ بشيخ ، أو جاهلٍ اهْتَهَنَ عالما ، إلا عاقبتُ وبالغتُ ... وقال عُمارة بن عقييل بن بلال بن جرير لبني أسد ابن خزيمة :

يا أيها السائل عمدا لأخبره بذاتِ نفسى وأيدى الله فوق يدي
إن تستقيم أسد ترشد وإن شغببت فلا يَلُمُّ لائِمٌ إلا بنى أسد
إني رأيتكم يُعصى ككبيركم وتكنعون إلى ذى الفجرة النكيد^(١)

(١) تكنعون : تخضعون ، من كنع يكنع - بالفتح فهما - كنوعا : خضع ، والفجرة اسم لكل قبيل ، من فجر الرجل يفجر فجرا وفجورا : انبعث فى المعاصى ، والنكيد : اللئيم ، من النكد - بالتحريك - وهو الشؤم واللؤم

فَبَاعَدَ اللهُ كُلَّ الْبُعْدِ دَارَكُمْ وَلَا شَفَاكِمُ مِنَ الْأَضْغَانِ وَالْحَسَدِ
 فرأى عصيانهم الكبير من أفبح العيب وأدله على ضغن بعضهم لبعض
 وحسد بعضهم بعضا ، والوضيع ينقلب إلى الشريف لأنه يرى مُقاولته نخرا ،
 والاجترأ عليه رجحا ، كما أن مقابلة الشريف للثيم ذل وضعة قال الشاعر:
 إِذَا أَنْتَ قَاوَلْتَ اللَّثِيمَ فَإِنَّمَا يَكُونُ عَلَيْكَ الْعَتَبُ حِينَ تُقَاوَلُهُ
 ولست كمن يرضى بما غيره الرضا ويمسح رأس الذئب والذئب آكله
 قال المبرد : وفي هذا الشعر بيتان يقدمان في باب الفتك - وفي باب الغرم
 والشجاعة والإقدام - وهما :

فَلَا تَقْرِنَنَّ أَمْرَ الصَّرِيمَةِ بِأَمْرِي إِذَا رَامَ أَمْرًا عَوَّقْتَهُ عَوَاذِلُهُ (١)
 وَقُلْ لِلْفَوَادِ إِنَّ نَزَابِكَ نَزْوَةٌ مِنَ الرَّوْعِ أَفْرِخُ أَكْثَرَ الرَّوْعِ بَاطِلُهُ (٢)

قال المبرد : وقد امتنع قوم من الجواب - أي من مقابلة اللثيم - تبلا
 - يريد ترفعا - وعواضعهم تُنْجِي عن ذلك - أي أن مراكرهم تدل على
 أن امتناعهم ترفع - وامتنع قوم عيبا بلا اعتلال - يريد دون أن يبدو اعلة لهذا
 الإعراض عن اللثام - وامتنع قوم عجزوا واعتلوا بكراهة السفه ، وبعضهم
 معتل برفعة نفسه عن خصمه ، وبعضهم كان يُسبُّه الرجل الركيك من
 العشيبة ، فيعرض ويُسبُّ سيده قومه ، وكانت الجاهلية ربما فعلته في الذحول

(١) فلا تقرنن : من قرنت الشيء بالشيء : شده إليه ، وكذلك قرنته إليه ،
 والصريمة : العزيمة

(٢) إن نزابك نزوة : فالنزوة : المرة من النزو وهو الوثوب إلى فوق ، يريد :
 إن تسلط عليه الفزع والرعب فاضطرب ، وأفرخ يريد : أفرخ روعك ، ومعناه : لينخرج
 عنك رعبك ويذهب فزعك كما تفرخ البيضة إذا انفعلت عن الفرخ فخرج منها وقوله :
 أكثر الروع باطله ، يريد : ليس الأمر على ما تحاذر

- جمع دُحُل وهو: النار - قال الراجز:

لَمَّ بِجِيلَا كَلْمَا هَجَانِي مِلْتُ عَلَى الْأَغْطِشِ أَوْ أَبَانِي
أَوْ طَلَحَةِ الْخَيْرِ قَتَى الْفَيْتِيَانِ أَوْلَاكَ قَوْمٌ شَأْنُهُمْ كَشَانِي
مَا نَلْتُ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ كَفَانِي وَإِنْ سَكَتُ عَرَفُوا إِحْسَانِي
وقال أحد المحدثين :

إِنِّي إِذَا هَرَّ كَلْبُ الْحَيِّ قَلْتُ لَهُ إِسْلَمْ وَرَبُّكَ مَخْنُوقٌ عَلَى الْجِرَرِ (١)
وفي مثل اختيار النذيل لتتكافأ الأعراض قول الأخطل :

شَقَى النَّفْسَ قَتَلَى مِنْ سُلَيْمٍ وَعَاسِرٍ وَلَمْ يَشْفِهَا قَتَلَى غَنَى وَلَا جَسِيرٍ
وَلَا جُشْمٍ شَرَّ الْقَبَائِلِ لَهَا كَبِيضِ الْقَطَا لَيْسُوا بِسُودٍ وَلَا حُرِّ
وَلَوْ يَبْنَى ذُنْيَانَهُ بُلَّتْ رِمَاحُنَا لَقَرَّتْ بِهِمْ عَيْنِي وَبَاءَ بِهِمْ وَتَرَى
وقال رجل من المحدثين وهو حمدان بن أبان اللاحقي :

أَلَيْسَ مِنَ السَّكْبَائِرِ أَنْ وَغَدَاً لَيْلٍ مَعْدَلٍ يَهْجُو سَدُوسَا
هَجَا عِرْضًا لَمْ غَضْنَا جَدِيدَا وَأَهْدَفَ عِرْضَ وَالِدِهِ اللَّبِيْسَا (٢)
وقال آخر :

اللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَوَالِدِهِ وَاللُّؤْمُ أَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَمَا وَوَلَدَا
قَوْمٌ إِذَا جَرَّ جَانِي قَوْمَهُمْ أَمِنُوا مِنْ أَوْيَمِ أَحْسَا بِهِمْ أَنْ يُقْتَلُوا قَوْدَا
اللُّؤْمُ دَاءٌ لِيُؤْبَرِ يُقْتَلُونَ بِهِ لَا يُقْتَلُونَ بِدَاءٍ غَيْرِهِ أَبَدَا
وقال أحد المحدثين هو - دَعْبِل بن علي الخزاعي - :

(١) الجرز: جمع جرة وهي: الجذب كالجز والاجترار

(٢) يريد: جعله هدفًا يرمى، واللبيس: مستعار من قولهم ثوب لبيس إذا كثرت

لبسه فأخلق

أما الهجاءُ فدَقَّ عِرْضُكَ دونه والمدحُ غنك كما عَلِمْتَ جليلُ
فأذْهَبُ فأنتَ عتيقُ عِرْضِكَ إنه عِرْضٌ عَزَزْتَ به وأنتَ ذليلُ
وقال آخر :

تُبِّتُ كَلْبًا هَابَ رَمِي له يَتَّبِعُنِي من مَوْضِعِ نَائِي (١)
لو كُنْتَ من شيءٍ هَجُونَاك أو لو بَدَتْ لِلسَّامِعِ والرَّائِي (٢)
فَعَدَّ عن شَتْمِي فَإني أَمْرُو حَلَمْنِي قَالَهُ أَكْفَانِي
وقال دعبل أيضاً :

فلو أَني بُبِيتُ بهَا شِمِي خُوِّلْتُهُ بنو عبيد المدانِ
صَبَرْتُ على عَدَاوَتِهِ ولسكن تَعَالَى فَأَنْظِرِي بَيْنَ ابْتِلَانِي

ووقف رجلٌ عليه مُقَطَّعاتٌ على الأحنفِ بن قيس يُسَبُّه ، وكان عمرو
ابن الأَهمُّ جعلَ له ألفَ درهمٍ على أَن يُسَفِّه الأحنف ، فجعل لا يَأَلُو أَن
يُسَبَّهُ سَبًّا يُغْضِب ، والأحنفُ مُطْرُقُ صامتٌ ، فلما رآه لا يُكلمه أقبل
الرجلُ يَعْضُ إِبْهَامِيهِ ويقول : يأسوأُتاه ، والله ما يمنعه من جوابي إلا هَوَانِي
عليه ... وفعل ذلك آخرُ فأمسكَ عنه الأحنف ، فأكثَرَ الرجلُ ، إلى أن
أراد الأحنف القيامَ للغداء فأقبل على الرجل فقال : يا هذا ، إِنَّ غَدَاءَنَا قد
حَضَرَ فَانْهَضْ بنا إليه إِنَّ شئتَ فَإِنَّكَ مُدُّ اليَوْمِ تَحْدُو بِجَمَلٍ تُقَالُ (٣).

عبرة

قال المنصورُ لعمرو بن عُبيد : عِظْنِي قال : بما رأيتُ أو بما سمعتُ؟

(١) يتبعني : يريد تلحقني شتائمك على سبيل المجاز

(٢) يريد : لو أحس بك الأعمى والبصير

(٣) الثفال من الإبل : البطيء الثقيل الذي لا يكاد ينهض ...

قال : بما رأيت ، قال : مات عُمَرُ بنُ عبد العزيز وَخَلَّفَ أَحَدَ عَشَرَ ابْنًا وبلغت تَرَكَتُهُ سَبْعَةَ عَشَرَ دِينَارًا ، كُفِّنَ مِنْهَا بِخَمْسَةِ ، واشترى موضعاً لقبره بدينارين ، وأصاب كلُّ واحدٍ من أولاده ثمانية عشر قيراطاً من دينار... ومات هشام بن عبد الملك تَخَلَّفَ أَحَدَ عَشَرَ ابْنًا أصاب كل واحد من أولاده أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ ، قرأيت رجلاً من أولاد عمر بن عبد العزيز قد حَمَلَ في يوم واحد على مائة فَرَسٍ في سبيل الله ، ورأيت رجلاً من أولاد هشام على قارعة الطريق يسأل الصدقة ...

لا تشكُّ إلى غير الله

حدَّث بعضهم قال : سمعني شريحُ القاضي وأنا أشكو بعضَ حالي إلى صديق لي ، فأخذ يدي وقال : يا ابن أخي ، إياك والشكوى إلى غير الله عز وجل ، الصديقُ يُخزِنُه ، والعدوُّ تُشَمِتُه ؛ انظر إلى عيني هذه - وأشار إلى إحدى عينيهِ - وقال : والله ، ما أبصرتُ بها شخصاً ولا طريقاً مُنذُ خمسِ عشرة سنة ، وما أخبرت بها أحداً إلى هذه الغاية سواك ...

نبالة ومروءة

حدَّث العسجديُّ قال : جاء رجل إلى أبي إسحاق الكسائيُّ ليلاً فقال : ما جاء بك ؟ قال : رَكِبْتُ دَيْنُ ، فقال : كم هو ؟ قال : أربعمائة درهم ، فأخرج كيساً فأعطاه ، فلما رَجَعَ عنه بكى ، فقال له أهله : ما يبكيك ؟ فقال : بُكَّائِي أني لم أبحث عن حاله وألجأته إلى الذل ...

دعوة الله

قال أعرابي :

وإني لأُغْضِي مُقَلَّتِي عَلَى الْقَدَى وَالْبَسُّ ثَوْبَ الصَّبْرِ أَيْضًا أَبْلَجَا
وإني لأدعو الله والأمر ضيقٌ عَلَيَّ فَمَا يَنْفُكُ هُنَّ أَنْ يَتَفَرَّجَا
وكم من فتى ضاقت عليه وجوهه أصاب لها في دعوة الله تخرجا

* * *

كلمات في السؤال

قال الأصمعي : سمعت أعرابيا يقول : قوتُ الحاجة خيرٌ من طلبها من غير أهلها... قال : وسمعت آخر يقول : عزُّ النزاهة أشرف من سرور العائدة قال : وسمعت آخر يقول : حُلُّ المِنِّ أَنْقَلُ من الصبر على العَدَمِ ... وفي الحديث الشريف : والذي نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يذود إلى الجبل فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق خيرٌ له من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه .

كانوا يرَوْن أن الملوك لا يُسْتَجَى من مسألتهم

ولمناسبة السؤال نورد عليك مايلي : كان كبيد بن ربيعة الشاعر المخضرم شريفا في الجاهلية والاسلام ، وكان نذر أن لا تهب الصبا (١) إلا نحر وأطعم حتى تنقضى ، فهبت بالاسلام وهو بالكوفة (٢) مقيرٌ مُسْلِقٌ ،

(١) الصبا : الريح التي تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار وتسمى القبول لأنها تستقبل الكعبة

(٢) يقال : إنه أقام بالكوفة في عهد عمر بن الخطاب ولم يزل بها حتى مات في آخر خلافة معاوية عن خمس وأربعين ومائة سنة ، رحمه الله

فَعَلِمَ بِذَلِكَ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ - وَكَانَ وَالِيهَا لِعَثْمَانَ بْنِ عَمَّانَ - وَكَانَ
أَخَاهُ لِأُمِّهِ - فَنَفِطِبُ النَّاسَ وَقَالَ : لِأَنَّكُمْ قَدْ عَرَفْتُمْ نَذْرَ أَبِي عَقِيلٍ وَمَا وَكَّدَ عَلَيَّ
نَفْسَهُ ، فَأَعَيْنُوا أَحْكَامَ ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِمِائَةِ نَاقَةٍ وَأَيَّاتٍ يَقُولُ فِيهَا :

أَرَى الْجَزَارَ يَشْحَدُ شَفَرَتَيْهِ إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُ أَبِي عَقِيلٍ ^(١)
أَشْمُ الْأَنْفِ أَصِيدُ عَامِرِي طَوِيلُ الْبَاعِ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ ^(٢)
وَفِي ابْنِ الْجَعْفَرِيِّ بِمَا نَوَاهُ عَلَى الْعِلَّاتِ وَالْمَالِ الْقَلِيلِ ^(٣)
بِئْتَجِرُ السُّكُومَ إِذْ سُحِبَتْ عَلَيْهِ ذُيُولُ صَبَا تَجَاوَبُ بِالْأَصِيلِ ^(٤)

فَلَمَّا أَتَتْهُ قَالَ : جَزَى اللَّهُ الْأَمِيرَ خَيْرًا ، قَدْ عَرَفَ الْأَمِيرَ أَنِّي لَا أَقُولُ
شِعْرًا ^(٥) وَلَكِنْ أَخْرَجَنِي يَا بَلِيَّتِي ، فَخَرَجْتُ خُمَاسِيَّةً ^(٦) فَقَالَ لَهَا : أَجِيبِي
الْأَمِيرَ ، فَأَقْبَلَتْ وَأَذْبَرَتْ ، وَبَعَثَ النَّاسُ ، فَقَضَى نَذْرَهُ ، فَفِي ذَلِكَ تَقُولُ
أَبْنَةُ لَيْدٍ :

إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُ أَبِي عَقِيلٍ دَعَوْنَا عِنْدَ هَبَّتِهَا الْوَلِيدَا
طَوِيلَ الْبَاعِ أَيْضَ عَبْشَمِيًّا أَعَانَ عَلَى مُرُوءَتِهِ لَيْدَا ^(٧)

(١) الشفرة : السكين ، والشخذ : التحديد بالمشخذ «بكسر الميم» وهو المسن

(٢) الأصيد : الذي يرفع رأسه كبرا لا يلتفت يمينا ولا شمالا

(٣) على العلات : على كل حال أو على ما فيه من الحالات والشئون

(٤) الكوم : العظام الأسنة واحدها كوما

(٥) لأنه حزم على نفسه قول الشعر منذ أسلم

(٦) خماسية : طولها خمسة أشبار ، وكذلك غلام خماسي ولا يقال إذا بلغ ستة

أشبار أو سبعة : سداسي ولا سباعي

(٧) أبيض : إذا قالت العرب : فلان أبيض فالعنى : نقاء العرض من الدنس والعيوب

لا يريدون بياض اللون وهذا كثير في شعرهم . وعبشمي : من بني عبدشمس بن عبدمناف

بأمثالِ الهِضابِ ، كأنَّ رَكْبًا عليها من بنى حَامٍ فَعُودًا ^(١)
 أبا وَهَبٍ جزاك اللهُ خيرًا نَحَرْنَاها وَأَطَعْنَا السَّرِيدَا
 فَعُدَّ إِنَّ الكَرِيمَ له مَعَادُ وظنِّي بَابِنِ أَرَوَى أَن يَعُودَا
 فقال لها لييد : أَحَسَنْتِ يَا بُلَيْتِي لولا أَنَّكَ سَأَلْتِ ا فَقَالَتْ : إن الملوک
 لا يُسْتَحَى من مَسْأَلَتِهِمْ ا ولو كان سُوقَةً لم أَفْعَلُ ... فقال لها : وَأَنْتِ فى
 هذا أَشْعُرُ ا

مَثَلٌ فى الرِیاءِ

عن وهب بن مُبَّه قال : نَصَبَ رَجُلٌ من بنى إِسْرَائِيلَ نَخْفًا ، فجاءت
 عُصْفُورَةٌ فنزلت عليه ، فقالت : مالى أراك منحنيا ؟ قال : لكثرة صلاتى
 انحنيت ا قالت : فمالى أراك باديةً عظامك ؟ قال : لكثرة صيامى بدتُ
 عظامى ا قالت فمالى أرى هذا الصوفَ عليك ؟ قال : لزهادتى فى الدنيا ليستُ
 الصوف ا قالت : فما هذه العصا عندك ؟ قال : أتوكأُ عليها وأقضى حوائجى ،
 قالت : فما هذه الحبة فى يدك ؟ قال : قربانٌ إن مررتى بمسكين ناوئته
 إياه ، قالت : فإنى مسكينة ا قال : فخذِها ، فدانت فقبضت على الحبة ،
 فإذا الفخ فى عنقها ، فجعلت تقول : قعى قعى ا تفسيره : لا أعزنى ناسكُ مُراءِ
 بعدك أبدا ...

(١) بأمثال الهضاب : جمع هضبة يسكون الضاد وهو كل جبل خلق من صخرة
 واحدة أو هي كل صخرة ضخمة ، تصف ضخامة الإبل ، وقولها : كأن ركبا الخ تصف
 استمتم السود ، وحام : أحد أولاد نبي الله نوح عليه السلام وهو فيما زعموا أبوالسودان

الهم نصف الهرم

من كلمة سيدنا علي بن أبي طالب : والهم نصف الهرم ، وقال حكيم :
الهم يُشيبُ القلب ، ويُعمِّمُ العقل ، فلا يتولد معه رأيٌ ، ولا تصدقُ معه
رويةٌ ، وقال أبو تمام :

شاب رأسي وما رأيت مشيب الرأ يس إلا من قُضِلَ شيب الفؤاد
وكذاك القلوبُ في كلِّ بُؤس ونعمهم طلائعُ الأجساد
وقال أبو نواس :

وما إن شبتُ من كبرٍ ولكن لقيتُ من الحوادث ما أشابا
وقد تقدم قول المتنبي :

والهم يخترم الجسمَ نحافةً ويشيبُ ناصيةَ الصبيِّ ويهرمُ

مثل الدنيا وآفاتها

والخوف من نهايتها

جاء في كتاب كيلة وديمته : وَجَدْتُ مَثَلَ الدُّنْيَا وَالْمَغْرُورِ بِهَا ، مَعَ امْتِلَانٍ .
بِالْآفَاتِ ، مَثَلَ رَجُلٍ أَلْجَأَهُ خَوْفٌ فَيْسِلُ مَا نَجَّى إِلَى بَيْتٍ ، فَيَتَدَلَّى فِيهَا وَتَعَلَّى
بِنُصْتَيْنِ نَابِتَيْنِ عَلَى شَفِيرِ الْبَيْتِ ، فَوَقَعَتْ رِجْلَاهُ عَلَى شَيْءٍ فِي حَلِيِّ الْبَيْتِ ، فَنَظَرَ
فَإِذَا بِحَيَاتٍ أَرْبَعٍ قَدْ أَطْلَعْنَ رُؤُوسَهُنَّ مِنْ جُحُورِهِنَّ ، وَنَظَرَ إِلَى أَسْفَلِ
الْبَيْتِ فَإِذَا بِتِنِينٍ ^(١) فَاعْرِفَاهُ نَحْوَهُ ، مُلْتَمِظٍ لَهُ لِيَتَّعِقَ فَيَأْخُذَهُ ، فَزَفَعَ بَصْرَهُ

(١) التين : ضرب من الحيات

إلى العُصْنَيْنِ فإذا في أصلهما جُرْدَانٌ أَسْوَدٌ وَأَبْيَضٌ ، وهما يَقْرِيضَانِ العُصْنَيْنِ
 دَائِبَيْنِ لَا يَفُتْرَانِ ، فبينما هو في النظرِ لأمره والاهتمام لنفسه ، إذ أَبْصَرَ
 قريباً منه كِرْوَارَةً فيها عسلٌ نُحْلٍ ^(١) ؛ فذاق العَسَلَ ؛ فَشَعَّاتَهُ حَلَاوَتُهُ وَأَلْهَتُهُ
 لَذَّتُهُ عن الفِكرَةِ في شيءٍ من أمرِهِ ، وأن يَلْتَمِسَ الخِلاصَ لِنَفْسِهِ ؛ ولم
 يَذْكُرْ أَنَّ رِجْلَيْهِ على حَيَاتٍ أَرْبَعٍ لَا يَدْرِي متى يَقَعُ عليهنَّ ، ولم يَذْكُرْ
 أَنَّ الجُرْدَانَيْنِ دَائِبَانِ في قِطْعِ العُصْنَيْنِ ؛ ومتى انْقَطَعَا رَقَعَ على التَّنَيْنِ . فلم يزلْ لاهياً
 غافلاً مشغولاً بتلك الحلاوة حتى سَقَطَ في قَمِّ التَّنَيْنِ فهَلَكَ . فَشَبَّهْتُ
 بالبرِّ الدُّنْيَا المملوءة آفاتٍ وُشُروراً ، ومخافاتٍ وعاماتٍ ، وشَبَّهْتُ بالحَيَاتِ
 الأربَعِ الأَخْلَاطِ الأربعة التي في البَدَنِ ؛ فإنها متى هاجتْ أو أحدها كانت
 كُحْمَةً ^(٢) الأفاعى والسَّمُّ المُمِيتُ ، وشَبَّهْتُ بالعُصْنَيْنِ الأجلَ الذي لا بُدَّ
 من انْقِطَاعِهِ ؛ وشَبَّهْتُ بالجُرْدَانِ الأَسْوَدِ والأَبْيَضِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ اللذين هما
 دَائِبَانِ في إِنْقِاءِ الأجلِ ؛ وشَبَّهْتُ بالتَّنَيْنِ المَصِيرَ الذي لا بُدَّ منه ؛ وشَبَّهْتُ
 بالعَسَلِ هذه الحلاوة القليلة التي يَنَالُ منها الإنسانُ فيَطْعَمُ وَيَسْمَعُ وَيَشْمُ
 وَيَلْمَسُ ، ويتشأغل عن نفسه ، ويلهو عن شأنه ، ويُصَدُّ عن سبيلِ قُصْدِهِ ...

عمرو بن العاص يصف حاله في احتضاره

قال عبد الله بن عباس : دخلتُ على عمرو بن العاص وقد احتضِرَ ،
 فدخل عليه ابنه عبد الله فقال له : يا عبدَ الله ، خذ ذلك الصُّندوقَ ، فقال :
 لا حاجة لي فيه ، قال : إنه مملوءٌ مالا ، قال : لا حاجة لي به ، فقال عمرو :

(١) الكِرْوَارَةُ : خلية النحل

(٢) الحمة : ابرة النحلة ونحوها

كَيْتَهُ مَلُوءٌ بَعْرًا | قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَقُلْتُ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، إِنَّكَ كُنْتَ تَقُولُ :
أَشْتَمِي أَنْ أَرَى عَاقِلًا يَمُوتُ حَتَّى أَسْأَلَهُ : كَيْفَ يَجِدُ ، فَكَيْفَ تَجِدُكَ ؟
قَالَ : أَجِدُ السَّمَاءَ كَأَنَّهَا مُطَبَّقَةٌ عَلَى الْأَرْضِ وَأَنَا بَيْنَهُمَا ، وَأَرَانِي كَأَنَّمَا أُتَمَّقَسُ
مِنْ خَرْتِ لِبُرَّةٍ | ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ ، خُذْ مِنِّي حَتَّى تَرْضَى ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ :
اللَّهُمَّ ، أَمَرْتُ فَعَصَيْتُنَا ، وَتَمَيَّتُ فَرَكَيْتُنَا ، فَلَا بَرِيءٌ فَأَعْتَذِرُ وَلَا قَوِيٌّ فَأَتَنْصِرُ
وَلَكِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - ثَلَاثًا - ثُمَّ فَاطَ وَقَوْلُهُ : مِنْ خَرْتِ لِبُرَّةٍ يَعْنِي :
مِنْ ثَقَبِ لِبُرَّةٍ ، وَقَوْلُهُ : فَاطَ : أَي مَاتَ ،

ماذا قال عبد الله بن الزبير

حين أتاه خبر مقتل أخيه المصعب^(١)

لَمَّا أَتَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ خَبْرُ قَتْلِ الْمُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ خَطَبَ النَّاسَ
فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : إِنَّهُ أَتَانَا خَبْرُ قَتْلِ الْمُصْعَبِ فُسِرُّرْنَا بِهِ وَاكْتَابْنَا
لَهُ ، فَأَمَّا السَّرُورُ : فَلِمَا قُدِّرَ لَهُ مِنَ الشَّهَادَةِ وَحِيزَ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ ، وَأَمَّا الْكِتَابَةُ
فَلَوْعَةُ يَجِدُهَا الْحَمِيمُ عِنْدَ فِرَاقِ حَمِيمِهِ ، وَإِنَّا وَاللَّهِ مَا مَوْتُ حَبِجًا كَيْتَةَ آلِ
أَبِي الْعَاصِي ، إِنَّمَا نَمُوتُ وَاللَّهُ قَتْلًا بِالرَّمَاحِ وَقَعَصًا تَحْتَ ظِلَالِ السِّيُوفِ ، فَإِنْ
يَهْلِكُ الْمُصْعَبُ فَإِنَّ فِي آلِ الزُّبَيْرِ مِنْهُ خَلْفًا الْحَبِجُ : أَنْ يَأْكُلَ الْبَعِيرُ
لِحَاءَ الْعَرَفِجِ فَيَتَكَبَّبُ فِي بَطْنِهِ وَيَضِيقُ مَبْعَرُهُ عَنْهُ فَلَا يَخْرُجُ مِنْ جَوْفِهِ
فَيَهْلِكُ ، يُعْرِضُ بَنِي مِرْوَانَ وَيَنْعَى عَلَيْهِمْ كَثْرَةَ أَكْلِهِمْ وَإِسْرَافَهُمْ فِي مَلَاذِ
الشَّمَوَاتِ وَأَنْهُمْ يَمُوتُونَ بِالثَّخَمَةِ . وَاللَّوْعَةُ : الْحَرْقَةُ ، وَالقَعَصُ : الْقَتْلُ الْمَعْجَلُ
وَقَدْ قَعَصَهُ : إِذَا ضَرَبَهُ أَوْ رَمَاهُ فَمَاتَ مَكَاتَهُ ، وَأَقَعَصَهُ كَذَلِكَ وَالْمَقَعَصُ : الْمَقْتُولُ ،

(١) عبد الله بن الزبير بن العوام هو خليفة الحجاز ومصعب أخوه

إذا ضيقت شيئاً ضاق جداً

ومما يؤثر في باب الصبر قول الشاعر :

إذا ضيقت شيئاً ضاق جداً وإن هونت ما قد عزّ هانا
فلا تهلك لشيء فات يأساً فكم أمر تصعب ثم لانا
سأصير عن رفيق إن جفاني على كل الأذى إلا الهوانا
فإن المرء يجزّع في خلاء وإن حضر الجماعة أن يهاننا
« يأساً مردود إلى قوله تهلك يقول : لاتهلك يأساً . وقوله : فإن المرء ...
البيت يقول : إن المرء يجزّع أن يهان كان وحده أو في جماعة »

لا تلهفن على ما فاتك

ونورد هنا هذا المثل البديع وإن كانت شهرته قد كادت تبثله ... رَوَى
الشعبي : أن رجلاً من بني إسرائيل صاد قبرة ، فقالت : ما تريد أن تصنع
بي ؟ قال : أذبحك فأككك ! قالت : والله ما أشفي من قرم ولا أغني من
من جوع ، أعلمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلى : أما الواحدة فأعلم مسكها
وأنا في يدك ، والثانية إذا صرت على هذه الشجرة ، والثالثة إذا صرت على الجبل ،
فقال : هاتي ! قالت : لا تلهفن على ما فاتك ، نفخى عنها ، فلما صارت فوق الشجرة
قال : هاتي الثانية ، قالت : لا تصدق بما لا يكون أنه يكون ، ثم طارت فصارت
على الجبل ، فقالت : يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلي درة فيها زنة
عشرين مثقالاً ! قال : فقص على شفتيه وتلهف ؛ ثم قال : هاتي الثالثة ،
قالت له : أنت قد نسيت الآلتين ، فكيف أعلمك الثالثة ! ألم أقل لك
لا تلهفن على ما فاتك ؟ فقد تلهفت على إذ فُتكت ، وقلت لك لا تصدقن بما

لا يكون أنه يكون افسدت انا وعظي وريشي لا أزن عشرين مثقالا ،
فكيف يكون في حوصاتي ما يزنها ا

ومن قولهم في الحث على التعزى

وما قيل في الحث على الصبر والتعزى قولُ صالح بن عبد القدوس ^(١)
إن يكن ما أصبتُ به جليلاً فذهابُ العزاءِ فيه أجلُّ
كلُّ آتٍ لآسك آتٍ وذو الجَهِّ لِمِ معنَى والنَّعمِ والحزنُ فضلُ ^(٢)
وقال عبدُ الله بن محمد بن أبي عَيَّنة بن المهلب بن أبي صُفرة لظاهر
ابن الحسين: ^(٣)

لَمَّا رَأَيْتُكَ قَاعِدًا مُسْتَقِيمًا أَيْقَنْتُ أَنَّكَ لِلْهُومِ قَرِينُ
فَارْفُضْ بِهَا وَتَعَرَّ مِنْ أَثْوَابِهَا إِنْ كَانَ عِنْدَكَ لِلْقَضَاءِ يَقِينُ ^(٤)
مَا لَا يَكُونُ فَلَا يَكُونُ بِحِيلَةٍ أَوَّلًا وَمَا هُوَ كَائِنٌ سَيَكُونُ
يَسْعَى الذُّكْيُ فَلَا يَنَالُ بِسَعْيِهِ حَظًّا وَيَحْتَظِي عَاجِزٌ وَمَهِينُ
وَكَانَ ابْنُ شَبْرَمَةَ ^(٥) إِذَا نَزَلَتْ بِهِ نَازِلَةٌ يَقُولُ : سَجَابَةٌ ثُمَّ تَنفَقُ ^(٦) وَكَانَ

(١) كان متهماً بالزندقة ومن ثم قتله المهدي الخليفة العباسي إذ ضربه بالسيف
فقداه نصفين وعلقه ببغداد

(٢) فضل يريد : زيادة ، أى لا يلقى بالعاقل ، إذ لا جدوى من ورائه

(٣) أكبر أعوان المأمون بن الرشيد على أخيه الأمين

(٤) فرفض بها : من رفض الشيء يرفضه (بالكسر والضم) رفضاً : تركه ،
والباء زائدة

(٥) هو عبد الله بن شبرمة بن الطفيل بن المنذر من بني سعد بن ضبة بن أذ ، ولي
القضاء لطارق بن زياد خليفة خالد بن عبد الله القسري لما أقام بواسط

(٦) تنفقع : تنجلى

يقال : أربيعٌ من كنوز الجنة : كِثْمَانُ المصيبةِ ، وكِثْمَانُ الصدقةِ ، وكِثْمَانُ الفاقةِ ، وكِثْمَانُ الوَجَعِ ...

لكل غد طعام

قال أوس بن حَجَرٍ :

ولستُ بخابئٍ أبداً طعاماً حِذَارَ غَدٍ لكلِّ غدٍ طعامٌ
وقبل هذا البيت :

وليس بطارقِ الجيرانِ مني ذُبابٌ لا يُنمِمْ ولا يَنَامُ^(١)

ولستُ بأطلسِ الثوبينِ يُصبي حليلته إذا هَذَا النَّيَامُ^(٢)

ومن كلام سيدنا علي : يا ابن آدم ، لا تحمِلْ هَمَّ يَوْمِكَ الذي لم يأتِ على يَوْمِكَ الذي أتى فيه ، فإنه إن يُعْلَمَ أنه من أجلك يأتى فيه رزقك ، واعلم أنك لا تكسبُ من المالِ شيئاً فوق قوتِكَ إلا كنتَ غازياً لغيرك فيه ... والأصل المتقدم في هذا المعنى قول سيدنا رسول الله : من كان آميناً في سِرِّهِ^(٣) ، معافى في بدنه ، عنده قوتُ يَوْمِهِ ، كان كمن حيزت له الدنيا بحذافيرها ... وقد تقدم

(١) كنى بالذباب عن الشر والأذى

(٢) حليلته : لا يريد امرأته ولكن أراد جارتها التي تحال لها في حلته ، وكنى بأطلس الثوبين عن رمية بالقيح من قولهم : رجل أطلس الثوب : وسخه ، والطلسة : الغبرة تميل إلى السواد

(٣) المراد بالسرب دهنا : مما للرجل من أهل وواد ومال

اللثام مَوْلَعُونَ

بأيذاء الكرام

من أحسن ما قيل في شقاء الكرام باللثام والاختيار بالأشعار قول
 الشاعر الطَّيرِمَاح بن حَكِيم - شاعر إسلامي ، قال بعض العلماء :
 لو تقدمت أيامه قليلا لَفُضِّلَ على الفرزدق وجريز - انظر ترجمته في
 الأغاني - قال :

لقد زادني حُباً لنفسى أنى	بغِيضٍ إلى كلِّ امرئٍ غيرِ طائلٍ
وأنى شَقِيٌّ باللثامِ ولا تَرَى	شَقِيًّا بهم إلا كريمَ الشَّمائِلِ
إذا ما آتَى قَطَعَ الطَّرْفَ بينَهُ	ويُنِيّ فِعْلَ العارِفِ المتجاهِلِ
ملاَّتْ عليه الأرضُ حتى كأنَّها	من الضيقِ في عَيْنِهِ كِفَّةُ حابِلِ
أَكُلُّ امرئٍ ألقى أباه مُقَصِّراً	مُعَادٍ لأهلِ المسكِّراتِ الأوائِلِ
إذا ذُكِرَتْ مَسْعاةُ والده اضْطَئى	ولا يَضْطَئى من شَمِّ أهلِ الفضائلِ

« قوله : لقد زادني ... ألبيت يقول : لقد زادني أنى بغيض إلى كل
 رجل لا فُضِّلَ فيه ولا خير عنده حُباً لنفسى ، لأن التمايز بينى وبينه هو
 الذى أداهُ إلى بُغِيضى ، ولو كان بيننا تماثلٌ لما كان كذلك ، فارددتُ
 بذلك حُباً لنفسى ، لأنى لو كنت مثله لأحَبَّنى ؛ وغير طائل قال الخليل بن
 أحمد : يقال للشئءِ الدون : هذا غيرُ طائل ... وقوله : وأنى شقى باللثام ...
 ألبيت يقول : وزادنى حُباً لنفسى أيضاً شقوتى باللثام حتى تنقصونى وأضعفوا
 إنانى واغتابونى ؛ ثم قال : ولا ترى أحداً يشقى بهم إلا وهو كريمُ الأخلاق
 وقوله : إذا مارآنى ... ألبيت يقول : إذا أبصرنى آرتد طرفه عنى وقطع

نظره ، فَمَلَّ من يعرف الشيء ويتكلف جهله ؛ ويقال : ملأتُ عليه الأرض إذا ضيقتُها عليه ، أما إذا قلتَ : ملأتُ منه الأرض فمعناه : أنك قتتَ وقعدتَ بِذِكْرِه ؛ والحابل : ناصبُ الحِبَالِ وهي التي يُصَادُ بها ، وكفَّةُ الحابل : حِبَالَتُهُ التي بها يصيد ، وكل ما استدار فهو كِفَّةٌ : يقول في هذا البيت : قد ضاقتُ به الأرض من عداوتي فكأنتي ، لأنَّها عليه ، ويجوز أن يكون المراد : أنه يخافني في كل مسلك يسلكه ... وفي معنى هذا البيت قول القائل :

كَأَنَّ فِجَاجَ الْأَرْضِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ

على الخائفِ المطلوبِ كِفَّةٌ حَابِلٍ

وقوله : إذا ذُكِرَتْ ... ألبيت فالمسعاةُ : السَّعْيُ ، وهو العملُ ، واضطني : افتعل من الضنى ، يقال : ضنى يَضْنِي : إذا دَقَّ وصغُرَ جسمه ، ومن ثمَّ سُمِّيَ المرضُ ضَنًى ، لما يُورِثُ من الهزال ، يقول : إنه يَضْنِي إذا ذُكِرَ صَنِيعُ والده ، لُفْجِه ، ومع هذا يَشْتُمُّ أهلَ الفضائل ولا يَضْنِي من ذلك ، بصفه بالِقحة .

أبيات في الصبر والشجاعة والكرم

قال عبدالعزيز بن زرارَةَ الكلبِي - وقد كان في الجيش الذي بعثه معاوية بن أبي سفيان لغزو بلاد الروم سنة ٤٩ هـ فاوغرلوا فيها حتى باعوا القسطنطينية ، فاقتل المسلمون والروم قتالا شديدا ، ولم يزل عبدالعزيز هذا يتعرض للشهادة وهو يقول هذه الأبيات ، ثم حَمَلَ على من يليه تقتل خَلْقًا كثيرا وانغمس بينهم فشجرهُ الروم برهاتهم فقتلوه ؛ والأبيات :

قَدِ عَشْتُ فِي الدَّهْرِ أَلْوَانًا عَلَى طُرُقِ شَتَّى وَقَاسَيْتُ فِيهَا اللَّيْنَ وَالْفَطْمَا

كَلَّا بَلَوْتُ فَلَا النَّهَاءُ يُبْطِرُنِي وَلَا تَخَشَعْتُ مِنْ لَأَوَائِهَا جَزَعًا
 لَا يَمْلَأُ الْهَوْلُ صَدْرِي قَبْلَ مَوْقِعِهِ وَلَا أَضِيقُ بِهِ ذَرْعًا إِذَا وَقَعَا
 «على طرق يروي : على خاق ، والفظع : مصدر فَطَعَ الأمر فطاعة : اشتد
 وَشَسِعَ وجاوز المقدر ، وقبطني : تَحَمَّلَنِي على البطار ، وهو : الطغيان في
 النعمة ، واللأواء : الشدة والمشفقة وضيق العيش ، وقوله : لا يملأ الهول ...
 ألييت : من أحسن ما قيل في الشجاعة ، وقال الخطيئة من أبيات يمدح بها بعض
 الأجواد :

قَتَى غَيْرُ مِفْرَاحٍ إِذَا الْخَيْرُ مَسَّهُ وَمِنْ نَائِبَاتِ الدَّهْرِ غَيْرُ جُزُوعٍ
 وَذَاكَ قَتَى إِنْ نَأَتْهُ فِي صَنِيعَةٍ إِلَى مَالِهِ لَا نَأَتْهُ بِشَفِيعِ
 «الصنعة : اسم لكل ما تُسديه من إحسان يد وصلة معروف ،
 وأنشدوا :^(١)

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى الْيَأْسِ الْقُلُوبُ وَضَاقَ بِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
 وَأَوْطِنَتْ الْمَسْكَارُهُ وَاطْمَأْنَتِ وَأُرْسَتْ فِي مَكَامِنِهَا الْخَطُوبُ
 وَلَمْ تَرَ لَانْكَشَافِ الضَّرِّ وَجْهًا وَلَا أَعْنَى بِحِيلِهِ الْأَرِيبُ
 أَنْتَا عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ عَوْتُ يَمُنُّ بِهِ اللَّطِيفُ الْمُسْتَجِيبُ
 وَكُلَّ الْحَادِثَاتِ وَإِنْ تَنَاهَتْ فَفَقُرُونٌ بِهَا الْفَرَجُ الْقَرِيبُ

أبيات حكيمة

وإليك أبياتاً حكيمةً لشاعر جاهلي قديم يسمي : الاضبط بن قريع بن
 عوف بن كعب بن سعد ، رهط الزبيرقان بن بدر ، وهو الذي أساء قومه

(١) رواها أبو بكر بن دريد عن أبي حاتم راوية الاصمى .

مُجَاوَرَتِهِ ، فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا مثل ذلك ، فقال : « أَيْنَا أَوْجِهَ أُنْقِ
سَعْدَا »^(١) وقال : « بِكُلِّ وَادِ بَنُو سَعْدِ ، وَإِلَيْكَ هَذِهِ الْآيَاتِ :

لِكُلِّ ضَيْقٍ مِنَ الْمَمُومِ سَعَةٌ وَالْمُسَى وَالصَّبِيحُ لَافْلَاحٍ مَعَهُ
مَا بَالُ مَنْ غَيَّبَهُ مُصِيبُكَ لَوْ يَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ وَزَعَهُ
أَذُودٌ عَنْ حَوْضِهِ وَيُدْفَعُنِي يَا قَوْمَ مَنْ عَادِرِي مِنَ الْخُدَعَةِ
حَتَّى إِذَا مَا نَجَلْتِ عَمَائِمَهُ أَقْبَلْ يَلْحَى وَغَيْبُهُ فَجَعَهُ
قَدْ يَرْفَعُ الثَّوْبَ غَيْرُ لَابِسِهِ وَيَلْبَسُ الثَّوْبَ غَيْرُ مَنْ رَفَعَهُ
فَأَقْبَلْ مِنَ الدَّهْرِ مَا أَتَاكَ بِهِ مَنْ قَرَّ عَيْنًا بِعَيْشِهِ نَفَعَهُ
وَصِلْ جِبَالَ الْبَعِيدِ إِنْ وَصَلَ الْحَبْلُ جَلْ وَأَقْصِ الْقَرِيبَ إِنْ قَطَعَهُ
وَلَا تُهَيِّنِ الْفَقِيرَ عَالِكَ أَنْ تَرْكَعَ يَوْمًا وَالدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ

« الْمُسَى : اسم من الإسماء ، والصبیح : اسم من الإصباح ، والفلح هنا :
البقاء والعيش قال عبيد بن الأبرص :

أَفْلِحَ بِمَا شِئْتِ فَقَدْ يُدْ رَكَ بِالضَّعْفِ وَقَدْ يُخَدِّعُ الْأَرِيبُ

يقول : لابقاء مع كر الليل والنهار . والفلح أيضا : الفوز ومنه قولهم في
الأذان : حتى على الفلاح ، والغى : الخيبة والحرمون قال المرقس الأكبر :

فَمَنْ يَلْقُ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسَ أَمْرَهُ وَمَنْ يَفْوَلَا يَعْذَمُ عَلَى الْغَى لَا تَمَّا

وجملة : لو يملك ؛ حاليّة ، ووزعه : منعه وكفه ، يقول : ما بال من تتألم
لخبثته وسوء حاله فإذا وجد شيئا من الخير كفه عنك ، وبروى هذا البيت
على وجه آخر ، وقوله أذود عن حوضه : هو مثل للحماية ودفع المكروه عنه ،
والخدعة : قوم من بني سعد بن زيد مناة بن تميم

(١) يريد : أفر من الأذى إلى مثله

والعباية : الشدة التي تلبس منها الأمور ، يقال : عَمِيَ عليه الأمر : إذا التبس ، وأقبل : شرع ، ويلجى : يلوم ، وغيه : ضلاله ، وجُمه : أصابه بمكروه وصل جبال البعيد ... البيت يعني : تقرب إلى البعيد النسب إذا طلب قربك واهجر القريب النسب إذا هجر ، أخذته الأعشى فقال :

ولا تُذْنِ وَصَلًا مِنْ أَخٍ مُتَبَاعِدٍ وَلَا تَنَأَّ عَنْ ذِي بَغْضَةٍ أَنْ تَقْرَبَا
فإن القريب من يُقَرِّبُ نَفْسَهُ كَعَمْرُ أَبِيكَ الْخَيْرِ لَا مَنْ تَنْسِبَا

وقوله ولا تهين الفقير الخ فالإهانة : الإيقاع في الهون (بضم الهاء) والهوان وهما بمعنى الذل والحقارة ، وعَلَّ : لغة في لعل وهي هنا بمعنى عَسَى ، والركوع : أراد به الانحطاط في المرتبة والسقوط في المنزلة ، ومثل هذا البيت في المعنى قول القائل :

عسى سائلٌ ذو حاجةٍ إن مَنَعْتَهُ في اليوم سُؤلاً أن يكون له غدٌ

وهذا البيت يستشهد به النحاة على أن نون التوكيد الخفيفة تحذف لالتقاء الساكنين والأصل تُهَيِّنَنَّ بالنون الخفيفة ، ويروى : ولا تعاد ، ويروى لاحتقرن الفقير فلا شاهد فيه ؛ وفي معنى هذا البيت أيضا يقول عبّاد بن عبّاد بن حبيب بن المهلب :

إذا حَلَّةٌ نَابَتْ صَدِيقَكَ فَاغْتَنِمِمْ مَرَمَّتْهَا فَالْدَهْرُ بِالنَّاسِ قُلُوبُ

وبإدْرِ بِمَعْرُوفٍ إِذَا كُنْتَ قَادِرًا زَوَالَ اقْتِدَارٍ أَوْ غِنَى عَنكَ يُعَقِّبُ

« الحلة : الحاجة والفقرو في المثل « الحلة تدعو إلى السَّلةِ ، والسَّلة : السرة ومرمتها : إصلاح ما فسد منها ، وقاب : كثير التقلب من حال إلى حال ، وزوال : مفعول لبادر ، وعنك : متعلق بزوال ، ويعقب : صفة له ، يقول : يأتي الزوال عقب الاقتدار والغنى » ويقول تميم بن مقبل :

فَأَخْلِفُ وَأَتْلِفُ إِنَّمَا الْمَالُ عَارَةٌ فَكَلُّهُ مَعَ الدَّهْرِ الَّذِي هُوَ آكِلُهُ
فَأَهْوَنُ مَفْقُودٍ وَأَيْسَرُ هَالِكٍ عَلَى الْحَيِّ مَنْ لَمْ يَبْلُغِ الْحَيَّ نَائِلُهُ
«فأخلف: يريد استفيدَ خَلَفَ ما أتلفت، وقد أخلف فلان نفسه: إذا ذهب
له شيء فجعل مكانه آخر، وعارة: معار، والعارة والعارية: ما يتداول بين
الناس» ويقول جرير:

وَإِنِّي لَأَسْتَحِي أَخِي أَنْ أَرَى لَهُ عَلَى مِنَ الْحَقِّ الَّذِي لَا يَرَى لِيَا
«يقول جرير: إنني لأستحي أخى أن يكون له على فضل ولا يكون لي عليه فضل
ومنى إليه مكافأة، فأستحي أن أرى له على حقا لما فعل إلى ولا أفعل إليه ما يكون
لي به عليه حق، قال المبرد: وهذا من مذاهب الكرام وبما تأخذ به أنفسها»

أبيات من لم يروها فلا مروءة له

وهذه أبيات كانوا يقولون: إنه من لم يروها فلا مروءة له. وهى لشاعر
يسمى أَيْمَنُ بْنُ خُرَيْمِ بْنِ فَايَكِ الأَسَدِيِّ، شاعر شريف فارس، وكان
يتشيع، وأبوه خريم له صحبة، وهو بمن اعتزل الجبل وصفين وما بعدها من
الأحداث، وقيل: إن هذه الأبيات للأقيشر، وهو شاعر إسلامي، قال:

وَصَهْبَاءٌ جُرْجَانِيَّةٌ لَمْ يُطْفَئُ بِهَا	خَنِيفٌ وَلَمْ تَنْفَرْ بِهَا سَاعَةً قَدَرُ
وَلَمْ يَحْضُرِ الْقَسْمُ الْمُهَيَّبُ نَارَهَا	طُرُوقًا وَلَمْ يَشْهَدْ عَلَى طَبِيخِهَا حَبْرُ
أَتَانِي بِهَا تَجِيُّ وَقَدْ نَمَتْ تَوَمَةٌ	وَقَدْ غَابَتِ الشَّعْرَى وَقَدْ طَلَعَ النَّسْرُ
فَقَلْتُ: أَغْتَبِقُهَا أَوْ لَعْبِرِي فَأَسْقِهَا	فَا أَنَا بَعْدَ الشَّيْبِ وَرَيْبِكَ وَالخُرُ
تَعَقَّقْتُ عَنْهَا فِي الْعُصُورِ الَّتِي خَلَّتْ	فَكَيْفَ النَّصَابِي بَعْدَ مَا كَلَّ الْعَمْرُ
إِذَا الْمَرْءُ وَتَى الأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَكُنْ	لَهُ دُونَ مَا يَأْتِي حِيَاءٌ وَلَا سِتْرُ

فدَعَهُ وَلَا تَنْفَسُ عَلَيْهِ الَّذِي ارْتَأَى وَإِنْ سَجَرَ أسباب الحياة له الدَّهْرُ
 د الصهباء: الخمر، سميت بذلك للونها - والأصهبَةُ من الألوان: الشقرة - قيل:
 الصهباء هي الخمر التي عُصِرَتْ من عِنَبٍ أبيض، وقيل: هي التي تكون من
 العنب ومن غيره إذا ضُرِبَتْ إلى البياض، وقال أبو حنيفة الدينوري: الصهباء
 اسم للخمر كالعلم. وجرجانية: نسبة إلى جرجان، وكانت مشهورة بنوع من الخمر
 والحنيف: المسلم، ونفرت القدر: غلت، والمهيم: الذي يقرأ بصوت خفي غير
 بين لا يفهم، والطروق: الحضور ليلاً، والخبر واحد الأحبار: رئيس من
 رؤساء الدين المسيحي، ورئيس الكهنة عند اليهود، وقوله: وقد غابت الشعري...
 قال البكري شارح الأملالي: هذه الرواية الصحيحة، أمارواية: وقد غابت الشعري
 وقد جَنَحَ النسر، فهي خطأ، قال: لأن الشعري العبور إذا كانت في أفق
 المغرب كان النسر الواقع طالعاً من أفق المشرق على نحو سبع درجات، وكان النسر
 الطائر لم يَطْلُع، وإذا كانت الشعري الغميصاء في أفق المغرب كان النسر الواقع
 حينئذ غير مُكَبَّد - كَبَدَ النجم السماء: توسطها - فكيف أن يكون جانحاً؟
 وكان النسر الطائر حينئذ في أفق المشرق طالعاً على نحو سبع درجات أيضاً
 قال الشاعر:

وإني وعبد الله بعسد اجتماعنا لسكالنسر والشعري بشرق ومغرب
 يلوح - إذا غابت من الشرق - شخصه وإن تُلحح الشعري له يتخيب
 وقال أبو نواس:

وتحمارة تبهتها بعد هجعة وقد لاحت الجوزاء والنمسن النسر
 فقالت: من الطراق؟ قلت: عصاة خفاف الأداوي يبتغي لهم الخمر
 والشعري سابقة في الطلوع للجوزاء ولذلك سميت كلب الجبار، والجبار

اسم للجوزاء... والاعتباق : شرب العشي ، وويك : ويك ، وكلا : انتهى
إلى آخره وأقصاه ، ويقال : بلغ الله بك أكلا العمر : أى آخره ، ولا تنفس :
لا تحسد ، وارتأى : افعل من الرأى . وفي هذا المعنى يقول الأعرور الشنئى :
إذا ما المرء - قصر ثم مرّت عليه الأربعون - من الرجال
ولم يلبق بصالحهم فدعه فليس بلاحي أخرى الليالى

حكم ومواعظ

قال عبد الله بن عباس : كتب إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه
بموعظة مأسررت بموعظة سرورى بها أ أما بعد ، فإن المرء يسره درك
مالم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه ، فما نالك من دنياك
فلا تكبر به فرحا ، وما فاتك منها فلا تتبعه أسفا ، فليكن سرورك
بما قدّمت ، وأسفك على ما خلفت ، وهمك فيما بعد الموت ... « يقول
علي : إن كلّ شيء يُصيب الإنسان في الدنيا من نفع وضرّ فيقضاه من الله
تعالى وقدّره ، غير أن الناس لا ينظرون حقّ النظر في ذلك ، فيسّر الواحد
منهم بما يُصيبه من النفع ، ويساء بفوت ما يفوته منه ، غير عالم بأن ذلك
النفع الذى أصابه كان لا بدّ أن يُصيبه ، وأن ما فاتته منه كان لا بدّ أن
يفوته ، ولو عرّف ذلك حق المعرفة لم يفرح ولم يحزن ، وإنما الأخلق
بالمافل أن يأسف على ما فاتته ويسّر بما قدّمه ، من الخير والعمل الصالح
الذى يُجدى عليه في العالم الباقي - الآخرة »

ومن كلمة للحسن البصرى : تلقى أحدهم أبيض بضاً يمتاخ في الباطل
منا ، ينفض مذرويه ، ويضرب أصدريه ، يقول : هاأناذا فاعرفونى ا
قد عرّفناك فممتك الله وممتك الصالحون ... « قوله : أبيض بضاً

فالبض : الرقيق اللون الصافي الذي يُؤثر فيه كل شيء ، ويروون : أن معاوية بن سفيان قديم على عُمَر بن الخطاب رضى الله عنه من الشام وهو أبض الناس - أرقتهم لونا وأحسنهم بشرة - فضرب عمر يده على عضده ، وقال : هذا ، والله ، لتشأغلك بالحمامات وذوو الحاجات تقطع أنفسهم تحسرات على بابك... وقوله : يملخ في الباطل ماخا : أى يكسُر تردده في الباطل ، أو يُر فيه مرآ سهلا ، وقوله : ينفض مذرويه ويضرب أصدريه فينفض ويضرب : يحرك ، ومذرواه : جانباه ، وقيل : فرعا الآكيتين ، وقيل : طرفا كل شيء ، وأراد الحسن : فرعى المنسكبين ، ولا واحد لهما ، وهو الصحيح ، والأصدران : عرقان يضربان تحت الصدغين ، لا يفرد لهما واحد كذلك ، ويريد الحسن : منكبيه أيضا ، والعرب تقول : جاء فلان يضرب أصدريه وينفض مذرويه يريدون : جاء مختالا ، وقد يريدون : جاء باغيا يهدد كما قال عنزة :

أحولى تنفض أسك مذرّويها لتفتلنى فها أنا ذا نحمّارا

« عمارا يريد : بالعمارة »

وقال بعضهم : شهدت الحسن البصرى في جنازة أوجاء الطاردي وهو على بغلة والفرزدق يسيره على نجيب ، وكنت على حمار لي ، فدوت منهما ، فسمعت الفرزدق يقول للحسن : يا أبا سعيد ، أتدرى ما يقول أهل الجنازة ؟ قال : وما يقولون ؟ قال : يقولون : هذا خير شيخ بالبصرة ، وهذا شر شيخ بالبصرة ، قال : إذن يسكذبوا يا أبا فراس أرب شيخ بالبصرة مُشرك بالله ، فذلك شر من أبي فراس ، ورب شيخ بالبصرة ذى طمرين لا يؤبه

(٣-٢ ج)

له لوأقسم على الله لأبره^(١) ، فذلك خير من الحسن بأبا فراس ...
ولهذا الحديث تنمة ولكننا نتجزأ بهذا الشطر منه لتكون المعانى متصلة
بعضها ببعض .

ونختتم هذا المعنى بأبيات مشهورة ولكنها لاتزال جديدة لأنها بعيدة
الغور موفية على الغاية فى الصدق والسداد ، وهى أبيات اختارها أبو تمام
فى حماسته ونسبها لعباس بن مرداس الصحابى الشاعر ، وقال أبو ريش : إنها
لمعاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب معود الحكماء^(٢) وهذه هى الأبيات كما
رواها أبو على القالى فى الأمالى :

ترى الرجلَ النجيفَ فتزدرية وفى أثوابه أسدٌ هُصورٌ^(٣)
ويُعجبُك الطَّيرُ فتبتليه فيُخلفُ ظَنكُ الرجلِ الطَّيرِ^(٤)
بُغاتُ الطَّيرِ أطولُها رِقاباً ولم تَطُلِ البُزاةُ ولا الصُّقورُ^(٥)

(١) الطمر : الثوب الخلق البالى . وهذه كلمة الحسن من الحديث : رب ذى طمرين
لا يؤبه له لوأقسم على الله لأبره ، يقول : رب ذى خلقين أطاع الله حتى لو سأل
الله تعالى أجابه

(٢) سمي معود الحكماء بقوله :

سأعقها وتحمّلها غني وأورثُ تجدها أبداً كلاباً
أعودُ مثالها الحكماء بعدى إذا ما عُضِلُ الحدنانِ ناباً

(٣) هصور يروى : مزبر ، والحصور : الأسد الشديد الذى يفترس ويكسر
والمزبر : الشديد القلب القوى النافذ ومن معانيه : العاقل الحازم

(٤) الطير : ذو الرواء والمنظر والجمال والهيئة الحسنة

(٥) البغات بفتح الباء رضمها : كل طير ليس من جوارح الطير ، أى لا يصيد ، ويضرب
بها المثل فى اللزم والشر ، وفى الضعف ، قالوا : إن البغات بأرضنا يستنسر ، يضرب
مثلاً للئيم يرتفع أمره

خَشَّاشُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِرَاحًا وَأُمُّ الصَّقْرِ مَقْلَاتٌ نَزُورٌ ^(١)
 ضِعَافُ الْأُسْدِ أَكْثَرُهَا زَبِيرًا وَأَصْرَمُهَا اللَّسَوَاتِي لَا تَزِيرُ
 وَقَدْ عَظَّمَ البَعِيرَ بغيرِ أُبِّ فلم يَسْتَعْنِ بِالْعِظَمِ البَعِيرُ
 يُنَوِّخُ ثُمَّ يُضْرَبُ بِالْهَرَاوِي فَلَا عُرْفٌ لَدَيْهِ وَلَا تَسْكِيرٌ ^(٢)
 يُقَوِّدُهُ الصَّبِيُّ بِسِكْلِ أَرْضِ وَيَنْتَحِرُهُ عَلَى الشُّرْبِ الصَّغِيرِ
 فَمَا عَظُمَ الرَّجَالِ لِهَمِّ بَزِينٍ وَلَكِنْ زَيْنُهُمْ كَرَمٌ وَرَخِيرٌ ^(٣)

في الموت

قال المتنبي في الموت :

وَمَا الْمَوْتُ إِلَّا سَارِقٌ دَنَى شَخْصَهُ يَصُولُ بِلَا كَيْفٍ وَيَسْعَى بِالرَّجْلِ
 وَمِنْ غَرِيبٍ مَا قِيلَ فِي مَدْحِ الْمَوْتِ قَوْلُ ابْنِ الرَّومِيِّ :

قَدْ قَلَّتْ إِذْ مَدَّحُوا الْحَيَاةَ فَأَكْثَرُوا لِلْمَوْتِ أَلْفَ فَضِيلَةٍ لَا يُعْرَفُ
 فِيهَا أَمَانٌ لِقَائِهِ بِلِقَائِهِ وَفِرَاقٌ كُلِّ مُعَاشِرٍ لَا يَنْصَبُ

أقول : لعل ابن الرومي يريد أن يقول : إن للموت مزايا لا تحصى ،
 وقل من يعرفها ، ولو لم يسكن فيها إلا أننا بلقاء الموت نظفر ببقاء
 المرئي - وناهيك بفضائله - وبفراق غيره من المعاشرين القليل الإصاف لكان
 في ذلك الفضل كله للموت ، وقال المتنبي :

(١) خشاش الطير : شرارها وما لا يصيد منها ، كالبغاث ، والمقلات : التي تلد
 واحداً ثم لا تلد بعد ذلك وقيل : التي لا يعيش لها ولد ، والقلت : الهلاك تقول .
 أقلت المرأة : إذا ملك ولدها ، والنزور : القليلة الأولاد
 (٢) ينوخ : يبرك ، نوخ الجمل وأناخه : فاستناخ : أبركه فبرك
 (٣) الخير : الكرم ، وهو أيضاً : الشرف

وقد فارَقَ النَّاسَ الْإِحْبَابَةَ قَبْلَنَا وَأَعْيَا دَوَاءُ الْمَوْتِ كُلَّ طَبِيبٍ
 سُبِقْنَا إِلَى الدُّنْيَا فَلَوْ عَاشَ أَهْلُهَا مُنَعْنَا بِهَا مِنْ حَيَاتِهِ وَذُهِوبِ
 تَمَلَّكَهَا الْآتِي تَمَلَّكَ سَالِبٍ وَفَارَقَهَا الْمَاضِي فِرَاقِ سَلِيبِ
 وَلَا فَضْلَ فِيهَا لِلشُّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَصَبْرِ الْفَتَى لَوْلَا لِقَاءُ شُعُوبِ

« يقول في البيت الرابع : لولا الموت لما كان لهذه المعاني فضل ، وذلك
 أن الناس لو أُبِنُوا الموت لما كان للشُّجاع فضل على الجَبَّان ، لأنه قد أيقن
 بالخلود ، وكذلك لو أُمِنُوا الموت لاستوى الكريم والبخيل والصابر والجازع ،
 وكذلك كلُّ الأشياء ، وقال أيضاً :

إلْفَ هَذَا الْهَوَاءِ أَوْقَعَ فِي الْأَنْفِ سِ انَّ الْحِمَامَ مَرُّ الْمَذَاقِ
 وَالْأَسَى قَبْلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ بِحُزْنٍ وَالْأَسَى لَا يَكُونُ بَعْدَ الْفِرَاقِ

قال أبو العلاء المَعَرِّي : إن هذين البيتين يَفْضُلَانِ كَتَبَ الْفَلَّاسِقَةَ لِأَنَّهُمَا
 مَتَاهِيَانِ فِي الصِّدْقِ وَحُسْنِ النِّظَامِ ، وَلَوْلَمْ يَقُلْ شَاعِرُهُمَا رِسْوَاهُمَا لَكَانَ لَهُ
 شَرَفٌ مِنْهُمَا وَبِحَالٍ ...

يقول المتنبي : إن خوف الموت من أكاذيب النفس ، ومن إلفنا هذا
 الهواء ، وإلا فقد علم أن الحُزْنَ عَلَى فِرَاقِ الرُّوحِ قَبْلَ فِرَاقِهِ عَجْزٌ ، وَعُلْمٌ
 أَيْضاً أَنَّ الحُزْنَ عَلَى الْمَفَارِقَةِ لَا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ ، فَلِذَاذَا يَحْزَنُ الْإِنْسَانُ ؟

طائفة من عبقرياتهم فى التعازى

ولنهطف الآن على الباب الثالث « عبقرياتهم فى الصبر والدينا والموت والمرضى » فلنسر فيه ولنورد عليك سائر عبقرياتهم فى التعازى ثم نختتم الباب بعبقرياتهم فى المرض وما يتصل به .

التسلية بعد وقوع المحذور

قالوا: كل شيء يبدو صغيراً ثم يعظم، إلا المصيبة، فإنها تبدو عظيمة ثم تصغر واشتكى ابن لعمرو بن عبد العزيز رضى الله عنه بجزع عليه، ثم مات، فرؤى مُتَسَلِّياً، فقيل له فى ذلك؟ فقال: إنما كان جزعى رقة له ورحمة، فلما وقع المصائب زال المحذور... ومرضى ابن لبعض السلف بجزع، ثم مات فلم يجزع، فقيل له أفتقال: أما بعد وقوع الأمر فلم يبق إلا الرضا والتسليم... وقال البحرى:

صُعُوبَةُ الرِّزْقِ تُتَلَقَّى فِي تَوَقُّعِهِ مُسْتَقْبَلًا وَإِنْقِضَاءُ الرِّزْقِ أَنْ يَقَعَا وَقَبْلَهُ قَالَ أَوْسُ بْنُ حَبَّارٍ:

أَيَّتْهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا إِنَّ الَّذِي تَحَذَّرِينَ قَدْ وَقَعَا

ومما يتصل بهذا المعنى قول أبى نواس يرتى المأمون:

وَكُنْتُ عَلَيْهِ أَحْذَرُ الْمَوْتِ وَحَدَّهِ فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحْذَرُ

وقال بعضهم: نزلتُ بامرأة ذاتِ أولاد وثروة، فلما أردتُ الارتحال قالت: لا تخلفني إذا وردت هذا الصَّقْعَ، ثم أتيتها بعد أعوام، فوجدتها قد أفترقت وثكأت أولادها، وهى ضاحكة مسرورة، فسألتها؟ فقالت: لاني كنت ذات شربة وجاء، وكانت لى أحزان، فعلمتُ أن ذلك لِقِلةِ الشكر،

وأنا اليوم بهذه الحالة أضحك شكرا لله تعالى على ما أعطاني من الصبر ...
وقيل: إذا استأثر الله بشيء فآله عنه « الله عنه: اتركه وأسل »

من دواعي التسلي قرب اللحوق بالميت

كتب بعضهم: فيم الجزع ونحن على مدرجة الموتى! « المدرجة: الطريق
والمسلك،دخل أحدهم على آخر وقد توفى له أخ فاشتد جزعه عليه،
فقال: اذكر مصيبتك في نفسك تُنسك فقد غيرك، واذكر قول الله تعالى:
إنك ميت ولأنهم ميتون، وخذ بقول الشاعر:

وهون ما ألقى من الموت أن ما أصابك منه يا بني مصيبي
وقال إبراهيم بن المهدي:

وإني وإن قدّمت قبلي لعالمٌ باني وإن أبطأت عنك قريبٌ
وقال آخر:

وهون وجدى أني سوف أفتدى على إثره يوماً وإن نفس العمر

من تعازي الملوك

وتسليهم بأن الناس جميعا مُصابون

لما حضرت الإسكندر المقدوني الوفاة كتب إلى أمه: أن اصنعى
طعاما يحضره الناس، ثم تقدمي إليهم: أن لا يأكل منه محزون، ففعلت،
فلم يبسط أحد إليه يده، فقالت: مالكم لا تأكلون؟ فقالوا: إنك تقدمت
إلينا أن لا يأكل منه محزون، وليس منا إلا من قد أصيب بحميم أو قريب
فقالت: مات - والله - أبني أو ما أوصى إلي بهذا إلا ليحزني به ...

التسلي بأنه معزى

لا معزى به

قال أبو فراس الحمداني في أبيات يُعزى بها سيف الدولة بأخته :
 هيات مافي الناس من خالد لا بد من فقد ومن فائد
 كني المعزى لا المعزى به إذ كان لا بد من الواحد
 وقال المتنبي من أبيات يمدح سيف الدولة ويرثي ابن عمه أبا وائل :
 مهما يعزى الفتى الأمير به . فلا يافداه ولا الجود^(١)
 ومن منانا بقاؤه أبدا حتى يعزى بكل مولود^(٢)

التسلي عن مضي بمن بقي

قيل لرجل ماتت امرأته نفساء^(٣) : عظم الله أجرك فيما أباد وبارك
 فيما أفاد... وقال المتنبي في مرثية يعزى سيف الدولة بأخته الصغرى
 ويسليه بالكبرى :

قاسمتك المنون شخصين جوراً جعل القسم نفسه فيك عدلاً^(٤)

(١) يقول : إذا عزاه معز بهذا الميت فلا عزاه بجوده ولا شجاعته ، أى لاعدمهما
 (٢) يقول : أمنيتنا التي نتمناها هي بقاؤه أبداً حتى يعزى بكل من ولد ، يتقدمونه
 ويبقى هو فيعزى به

(٣) النفاس : ولادة المرأة إذا وضعت ، والولادة نفساء

(٤) يقول : قاسمتك الموت شخصين فذهب بإحدهما وترك الأخرى ، فكانت
 هذه المقاسمة جوراً لأنه كان من حقه أن يتركهما وليكن هذا الجور عدل فيك
 حيث تركك حياً وكانت المقاسمة في الأختين ، يعنى : إذا كنت أنت الباقي فالجور
 عدل ؛ هذا إذا نصبت القسم وجعلت الفعل للجور ، أما من رفع القسم فيكون
 المعنى : أن القسم جعل نفسه عدلاً في الجور لأنه وإن أخذ الصغرى فقد أبقى الكبرى

فإِذَا قَسْتَا مَا أَخَذْنَا بِمَا أَغَى دَرَنْ سَمَرَى عَنِ الْفَوَادِ وَسَلَى^(١)
ولما ماتت الأخت الكبرى بعد ذلك رثاها فقال :

قَدْ كَانَ قَاسِمَكَ الشَّخْصِينَ دَهْرُهُمَا وَعَاشَ دُرُّهُمَا الْمَقْدِي بِالذَّهَبِ^(٢)
وعَادَ فِي طَلَبِ الْمَتْرُوكِ تَارِكُهُ إِنَّا لَنَنْغْفِلُ وَالْأَيَّامُ فِي الطَّلَبِ
مَا كَانَ أَقْصَرَ وَقَتَا كَانِ بَيْنَهُمَا كَأَنَّهُ الْوَقْتُ بَيْنَ الْوَرْدِ وَالْقَرَبِ^(٣)
وفي هذه المرثية الثانية هذان البيتان البيديان :

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبْرُهُ فَرِزْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْنُ لِي صِدْقُهُ أَمَلَا شَرِقتُ بِالدمعِ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ بِي

من تسلي بماله من الثواب

وبعض تعازيهم

دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك - وكان قد أصابه الطاعون -
فقال : دَعْنِي أَمْسَ قَرَحَتِكَ ، - وكان يقال : إِذَا كَانَ الْقَرْحُ لَيْنًا يُرْجَى ،
وإن كان خَشِنًا لَا يُرْجَى - فامتنع عبد الملك من أن يمسه ، فعلم عمر لم
مَنَعَهُ ! فقال : دَعْنِي أَمْسُهَا ، فوالله لَأَنْ أُقَدِّمَكَ فَتَكُونَ فِي مِيزَانِي أَحَبُّ إِلَيَّ
مِنْ أَنْ أَكُونَ فِي مِيزَانِكَ ! فقال : والله ، لَأَنْ يَكُونَ مَا تُرِيدُ أَحَبُّ إِلَيَّ

(١) أغدرن : مثل غادرن أي تركن وأبقين ، وسرى : أذهب ، وسلى : عزى وهذا
البيت يؤيد رواية رفع القسم

(٢) يريد بالشخصين : أختيه الكبرى والصغرى وجعل الكبرى كالدرد لنفاسته
وجعل الصغرى ذهباً ، وجعل الكبرى كدر فدى بالذهب

(٣) من عاده القوم أنهم يرعون الإبل وهم في ذلك يسرون نحو الماء فإذا بقي بينهم وبين
الماء عشية فتلك الليلة ليلة القرب يقول : ما كان أقصر ما كان بينها من الزمان فكأنه
ما بين القرب إلى الورد ، وهو ليلة

من أن يكون مأريداً فلمسها ، فقال : يا عميد الملك ، الحق ، من ربك فلا تكوّن من الممتّرين ... فقال : ستجدني إن شاء الله من الصابرين ...
ولما مات عبد الملك عزى أباه الحسن البصرى بهذا البيت :
وعوّضت أجرا من فقيد فلا يكن فقيدك لا يأتي وأجرك يذهب
وروى : أن رجلا جزع على ابن له ، فشكى ذلك إلى الحسن ، فقال له :
هل كان ابنك يغيب عنك ؟ فقال : نعم ، كان مغيبه عنى أكثر من حضوره
قال : فاتركه غائبا ، فإنه لم يغيب عنك غيبة الأجر لك فيها أعظم مثل هذه
الغيبة ... وقال أعرابي : وقد مات له ثلاثة بنين في يوم واحد ، فدقّهم
وعاد إلى مجلسه ، فجعل يتحدث كأن لم يفقد واحدا ، فليم على ذلك ، فقال :
ايسوا في الموت بيدع ، ولا أنا في المصيبة بأوحد ، ولا تجدوى للجزع ،
فعلام تلومونى !

من مات له كثير من أهله

قصير

نظر رجل بالبصرة إلى امرأة فقال : ما رأيت مثل هذه النصاراة وماذاك
إلا من قلة الحزن ! فقالت : ما حزن كحزنى ! ذبح زوجى شاة ، ولى صبيان
يلعبان ، فقال أحدهما للآخر : تعال أريك كيف ذبح أبى الشاة ، فذبحه ،
ثم خاف فهرب إلى الجبل ، فرهقه ذئب ، فأفترسه ، وخرج زوجى فى
طأيه ، فاشتد عليه الحر فمات عطشا ! فقيل لها : كيف صبرت ؟ فقالت :
لو وجدت فى الحزن دركا ما اخترت عليه ... « رهقه : غشيه ، ودركا :
تريد مداركة لما فات »

ومن أدعيتهم لذوى المصيبة

ومن قولهم في الدعاء لذوى المصيبة : رَهَبَ اللهُ لَكَ عَمراً طويلاً وأجراً
جزيلاً وصبراً جميلاً ؛ لَقَاكَ اللهُ الصبرَ وَوَقَاكَ ما يُحِبُّبُ الأجر . وقال رجلٌ
لابنِ عمر : عَظَّمَ اللهُ أجرك ، فقال : بل جعل اللهُ لِي العافية ... « وذلك
أن تعظيمَ الأجر في تعظيم ما يُوجِرُ عليه من المصيبة ، وقالوا : التعزية بعد
ثلاثٍ تجديدهُ للمصيبة ، والتهنئة بعد ثلاثٍ استخفافٍ بالمرددة ... »

« وبعد ، فأما عقرياتهم في المرائي فإن لها موضعاً آخر في هذا الكتاب كما
أن عقرياتهم في المدح والثناء تراها في باب قد أفردناه لها . »

عقرياتهم في الطب والمرض وعبادة المرضى

معنى الطب

كلُّ حاذِقٍ بعمله : طَبِيبٌ عند العَرَبِ ، ورجلٌ طَبَّ بكذا : أى عالمٌ به
ثم صار الطَّبِيبُ اسماً للعالمِ بمداواةِ أبدانِ الناسِ ، وقالوا : حَذَّ الطَّب : معرفة
الداءِ وتَقْيِهِ بالدواءِ ، أو هو : اسْتِدَامَةُ الصَّحَّةِ وَمَرَمَةُ السَّقَمِ .

وصف طبيب حاذق

قال السري الرفاء في طبيب حاذق :

أوضح تَمَجَّجِ الطَّبِّ في مَعْتَمِرٍ مازالَ فيهِم دَارِسَ الرِّسْمِ (١)
كَأَنَّهُ مِنْ لُطْفِ أَفْكَارِهِ يَجُودُ بَيْنَ الدَّمِّ واللَّحْمِ

(١) ارسِم : الأثر ، ودرس الرسم : عفا

لَوْ غَضِبْتَ رُوحٌ عَلَى جِسْمِهَا أَصْلَحَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجِسْمِ
وقال أيضاً :

يَدُو لَهُ الداءُ الخفيُّ كما بدا للآتينِ رَضْرَاضُ الغديرِ الصَّافِي (١)

الطبيب الجاهل

رأى فيلسوف طبيباً جاهلاً فقال : هذا مُسْتَحِثُّ الموت ... وقال الشاعر المعروف بالخبزِ أُرْزِي (٢) في طبيب اسمه نُعمانُ :

أقولُ لِنُعمانٍ وقد ساقَ طِبُّهُ نَفوساً نَفِيسَاتٍ على سَاكِئِ الأَرْضِ
« أبا مُنذرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقِي بَعْضُنَا حِنَاتِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ »
« أقولُ : إن البيتَ الثاني لَطَرْفَةٌ بِنِ العَبْدِ « صَمَّئَةَ الخَبزِ أُرْزِي شِعْرَهُ »
وقال آخر في طبيب :

لَمْ يَأْتِ فِي الأَرْبَعِ عَلِيلاً إِلا دَفَنَاهُ فِي الخَنِيصِ

وكان رجل يجتري التصوير ثم تركه وتطبَّب ، فقيل له في ذلك ؟ فقال :
الخطأ في التصوير تُدْرِكُهُ العيون ، وخطأ الطبيب تُوارِيهِ القبور ...

مدح الحمية وذمها

قال قائلٌ للحارثِ بنِ كَلْدَةَ - وكان طبيبَ العرب - : ما اللَّطْبُ فقال :
هو الأَظْم ... ومرَّأَدُهُ بالأَظْم : الحِمِيَّةُ والإِمْسَاكُ عن الاستكثار من
الطعام ... وقيل لجلالِينوسٍ أو لأَبُقَرَّاطَ : إنك تُقِلُّ من الطعام ! قال :
غَرَضِي مِنَ الطَّعامِ أَنْ أَكُلَّ لِأَحْيَا ، وَغَرَضُ غَيْرِي مِنَ الطَّعامِ أَنْ يَحْيَا

(١) الرضراض : ماذق من الحصى

(٢) اسمه نصر وكان شاعراً أُمياً وكان يخبز خبز الأرز ، ترجم له ابن خلدكاز وياقوت

ليأكل ... وقالوا: لا تأكل ما تشتهي فيصيرك إلى ما لا تشتهي ... وفي الحديث: لا تُكْرِهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإن الله يُطعمهم ويسقيهم ... وقالوا: الحمية للصحيح ضارة ، كما أنها للعليل نافعة ... وقال الرشيد للفضل: ما أطيب ما في هذه الدنيا ؟ فقال: رَفُضَ الحِشْمَةِ وتركِ عِلْمِ الطَّبِّ ، فلا عَيْشَ لِمُحْتَشِمٍ ولا لَذَّةَ لِمُحْتَمٍ ... وقالوا: مَنْ عَرَفَ ما يُضُرُّه مما يَنْفَعُهُ فهو مريض ... وقال أفلاطون: الموت موتان: طبيعي وإرادي؛ فالطبيعي مفارقة الروح للبدن ، والإرادي تمنع الأبدان من الشهوات ... وقالوا: الأبدان التي اعتادت الحمية آفتها التخليط ، والأبدان التي اعتادت التخليط آفتها الحمية ...

شرب الدواء

قال سيدنا رسول الله: مَنْ اسْتَقَلَّ بَدَانَهُ فلا يَتَدَارَنَ ، فإنه رَبَّ دَوَاءٍ يُورِثُ الدَّاءَ ... وكانت الحِكْمَاءُ تقول: إِيَّاكَ وَشُرْبَ الدَّوَاءِ مَا حَمَلَتْ صِحَّتَكَ دَاءَكَ ... وقالوا: مَثَلُ شُرْبِ الدَّوَاءِ مَثَلُ الصَّابُونِ لِلثَّوْبِ ، يُنْقِيهِ وَلَكِنْ يُخْلِقُهُ وَيُبْلِيهِ ... وقال أبقراط: الدَّوَاءُ مِنْ فَوْقُ ، والدَّوَاءُ مِنْ تَحْتِ ، والدَّوَاءُ لِفَوْقِ وَلَا تَحْتِ ، وَفَسَّرَ ذَلِكَ مُفَسِّرُوهُ فَقَالُوا: مَنْ كَانَ دَاوَهُ فِي بَطْنِهِ فَوْقَ سُرْتِهِ سَقِيَ الدَّوَاءَ ، وَمَنْ كَانَ دَاوَهُ تَحْتِ سُرْتِهِ حُقِنَ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ دَاءٌ لَمْ يَكُنْ فَوْقَ وَلَا مِنْ تَحْتِ لَمْ يُسَقِ الدَّوَاءَ ، فَإِنَّ الدَّوَاءَ إِذَا لَمْ يَجِدْ دَاءً يَعْمَلُ فِيهِ وَجَدَ الصَّحَّةَ فَمِيلٌ فِيهَا ...

سياسة الأبدان

بما يصلحها من الطعام وغيره

قال الحجاج بن يوسف الثقفي لتياذوق مُتَطَبِّيه ^(١) : صِف لي صِفَةً آخُذْهَا
 وَلَا أَعْدُهَا ، قَالَ تِيَاذُوقُ : لَا تَتَزَوَّجُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا شَابَةً ، وَلَا تَأْكُلْ مِنَ
 اللَّحْمِ إِلَّا فَتِيًّا ، وَلَا تَأْكُلْهُ حَتَّى يُنْعَمَ طَبْخُهُ ، وَلَا تُشْرَبَنَّ دِرَاءً إِلَّا مِنْ
 عِيْلَةٍ ، وَلَا تَأْكُلْ مِنَ الْفَاكِهِةِ إِلَّا نَضِيحَهَا ، وَلَا تَأْكُلْ طَعَامًا إِلَّا أُجِدَّتْ
 مَضْغَةً ، وَكُلْ مَا أَحْبَبْتَ مِنَ الطَّعَامِ وَأَشْرَبْ عَلَيْهِ ، وَإِذَا شَرِبْتَ فَلَا تَأْكُلْ
 عَلَيْهِ شَيْئًا ، وَلَا تَحْبِسِ الْغَائِطَ وَالْبَوْلَ ، وَإِذَا أَكَلْتَ بِالنَّهَارِ فَتَمِّمْ ، وَإِذَا أَكَلْتَ
 بِاللَّيْلِ فَتَمِّشْ وَلَوْ خَمْسِينَ حُطْوَةً ... فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ : إِذَا كَانَ الْأَمْرُ
 كَمَا تَقُولُ فَلَيْمَ هَلَكَ أَبُقْرَاطُ وَلِمَ هَلَكَ جَالِينُوسُ وَغَيْرُهُمَا وَلِمَ يَبْقَى أَحَدٌ
 مِنْهُمْ ؟ قَالَ : يَا بُنَيَّ ، قَدْ احْتَجَجْتَ فَاسْمَعْ : إِنْ الْقَوْمَ دَبَّرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا
 يَمْلِكُونَ ، وَغَلَبَهُمْ مَا لَا يَمْلِكُونَ - يَعْنِي الْمَوْتَ وَمَا يَرُدُّ مِنْ خَارِجٍ ، كَالْحَرِّ
 وَالْبَرْدِ وَالْوَقُوعِ وَالنَّرْقِ وَالْغَمِّ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ - ... وَقَالَ تِيَاذُوقُ أَيْضًا
 لِلْحَجَّاجِ : أَرْبَعَةٌ تَهْدِمُ الْعَمَرَ وَرُبَّمَا قَتَلْنَ : دُخُولُ الْحَمَامِ عَلَى بَطْنَةٍ ، وَالْمَجَامَعَةُ
 عَلَى الْإِمْتِلَاءِ ؛ وَأَكْلُ الْقَدِيدِ الْجَافِ ^(٢) ، وَشُرْبُ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الرَّيْقِ ؛
 وَمَا بِمَجَامَعَةِ الْعَجُوزِ بَعِيدَةً مِنْهُنَّ ... وَوَجَدَ الْحَجَّاجُ فِي رَأْسِهِ صُدَاعًا فَبَعَثَ
 إِلَى تِيَاذُوقٍ وَأَحْضَرَهُ ، فَقَالَ : اغْسِلْ رِجْلَيْكَ بِمَاءٍ حَارٍّ وَأَذْهَنْهُمَا ، وَخَصِيْ
 لِلْحَجَّاجِ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ ، فَقَالَ الْخِصِيُّ : وَاللَّهِ ، مَا رَأَيْتُ طَبِيبًا أَوْلَّ مَعْرِفَةً

(١) ترجم له ابن أبي أصيبعة في طبقات الاطباء

(٢) القديد : اللحم المجفف

بالطَّب منك ! شكى الأميرُ الصُّداع في رأسه فَنَصَف له دواءً في رِجْليه !
فقال له : أَمَا إِنَّ عَلامَةَ ما فَاتُ فيكَ بَيدَةٌ ! قال الحِصِيُّ : وما هي ؟ قال :
نُزِعَت خُصيتاك فَذَهَبَ شَعْرُ حِيتِكَ ! فَضَحِكَ الحِجْاجُ وَمَن حَضَرَ ...

وقال عبد الملك بن مروان لأعرابيٍّ : إِنَّكَ حَسَنُ السِّكِّدَةِ اقال : إِنَّ
أدْفِي رِجْلِي في الشتاء ، وَأَغْفِلُ غَاشِيَةَ الغَمِّ ، وآكلُ عند الشهورة ...
ويقال : ثلاثة أشياء تُورِثُ الهُزالَ : شربُ المِاءِ على الرِّيقِ ، والنومُ على
غيرِ وِطَاءٍ ، وكثرةُ الكلامِ برَفعِ الصوتِ ... وقالوا : الدَّواءُ الَّذِي لاداءَ معه :
أَنْ تَجْلِسَ على الطَّعامِ وَأَنْتَ تَشْتَهيه وتقومُ عنه وَأَنْتَ تَشْتَهيه .

وقال أرسطوطاليس : المَطْعَمُ والمَشْرَبُ إذا كَثُرَا على المَعِدَةِ أَظْفَأَ
نارَها فَتَجَرَّتْ في البَدَنِ غيرَ نَضِيجَةٍ ، فَصارَ ذلكُ نَقْصاناً لِلبَدَنِ يورِثُ
الفِئْرَةَ ^(١) ، كالشجرة ، إذا كَثُرَ ماؤها عَفِنَتْ وإن قَلَّ جَفَّتْ ، وكالسرَّاجِ ، إذا
قَلَّ دُهنُه أو كَثُرَ انْظافاً ... وقال بعضهم : مَن تَغَدَّى وتَعَشَى ولم يَأْكُلْ
فيما بينهما ، سَلِمَ من الأوجاعِ ، لِقولِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ : ولهم رِزْقُهُم فيها بُكَرَةً
وعَشِيًّا ... وقال بعضُ الأطباءِ : أَحَبُّ الناسِ إلينا : الرِّغيبُ البَطْنِ ، لكثرةِ
حاجاتهم إلينا ... وأخيراً بعضُ الأمراءِ بشيخٍ قد أَتَتْ عليه مائةٌ وخمسون
سنةً في اعتدالِ جِسمِهِ وأضارَةِ لونِهِ ، فاستدعاه وسأله فقال : إنَّ كانَ لِمَا تَرى
من هذه المَورِهةِ الجميلةِ سَبَبٌ بعدَ تَقديرِ اللَّهِ تعالى فما أَصْفُهُ : ما احْتَمَلْتُ مِهماً
تَبُعدُ على مَدافِئِهِ ، ولا رأيتُ من زوجةٍ مَكروها ، ولا اجْتَمَعَ في بَطْنِي
طعامانِ ، وإذا شَرِبْتُ شِراباً تناوَلتُهُ رَقِيقاً طَيِّباً لا أُمَلُّ منه ^(٢) ، ولا أَسْتَدْعِي

(١) الفِئْرَةُ : الضعف والانكسار (٢) ثَمَلُ يَثْمَلُ : أَخَذَ مِنْهُ الشَّرابَ وَالسُّكَّرَ

الطبيعة من غير عارض ، وما استدعيت للباه^(١) حركة إلا أن يهيج بالطبيعة على القلب ، وإذا فعلت ذلك أقللت الحركة بقية يوحى . . . وقالوا : أضرت الأشياء للبدن : الفسك والسهو ، وأنهمك الأشياء للبدن : الخوف . وقال المسامون : قد أصبت دواء يبرئ ولا يؤكل ولا يشرب ا فليل : ما هو ؟ قال : النوم لأثر الغداء . . . وقالوا : إذا أكلت فاضطجع على جنبك الأيسر ، فإن السكيد يقع على المعدة فينضج الطعام فيهضمه . . . وقالوا : غشيان المرأة المولية يضعف القوة ويسقم البدن ، لأنها كالشن البالي^(٢) ، ماؤها سم قاتل ، تأخذ منك ولا تعطيك . . .

من تناول طعاما

وتحقق تولد علة منه

اجتاز رجلٌ بصديق له محموم فسأله عن سبب عيلته ؟ فقال : أكلت في هذا الصيف فراخا وعسلا وشربت خمرأ صلبا - شديدة - ونمت في الشمس ! فقال له : على كل يمين ، لو كانت الحمى من حملة الشمس ورأتك بهذه الحالة اتركت عملها ووافتك . . . ونظر طبيب إلى دهقان^(٣) يغرس شجرة مشمش فقال له : ما تصنع ؟ قال : أعمل لى ولك ا (يعنى أن الطبيب ينتفع بالمشمش ، لسوء أثره على آكله ، وحاجتهم إلى الطبيب ، لسا يتولد فيهم من الادواء لأكل الطرى منه ، وفي هذا المعنى يقول ابن الرومى :

إدما رأيت الدهر بستان مشمش فأيقن بحق أنه لطبيب
يغل له مالا يغل لربه يغفل مريضا تحمل كل قضيب

(٢) الشن : القرية الخلق

(١) الباه والباهة والباء والباءة : الجماع

(٣) رئيس القرية

« يُغَلُّ له : أى يعطى الطيب من الغلة - وهى الدّخل - مالا يُعطيه لصاحبه ،
وذلك أن حَمَلَ الغصن الواحد من كل شجرة مشمش من أشجار ذلك البستان
إذا أكله إنسان فإنه ينقلب مريضاً فيلجأ إلى الطيب ،

الحمى

قال المتنبى :

وزائرتى كأنّ بها حياءً	فليس تزورُ إلا فى الظلام
بَدَلْتُ لها المَطَارِفَ والحشايا	فعاقتها وباتتْ فى عظامى
يَضِيقُ الجِلْدُ عن نَفْسِ وعنها	فَتُوسِعُهُ بأنواعِ السَّقام
إذا ما فارقَتْنى غَسَلْتَنى	كأننا عاكفانِ على حرام
كأنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُها فَتَجْرِى	مَدامعُها بأربعةِ سِجَام
أراقِبُ وقتها من غيرِ شوق	مُراقِبَةً المشوقِ المُستَهام
ويصدقُ وعُدّها والصدقُ شرٌّ	إذا ألقاك فى الكُربِ العِظام

« وقوله : وزائرتى ... البيت يقول : إن الحمى التى كانت تأتیه ليلاً ،
كأنها حَيَّةٌ فليست تزور إلا فى الليل ... والمطارف فى البيت الثانى : جمع
مُطَرَف وهى : أرديةٌ مُربَّعةٌ من خَزٍّ فى جنبها عِلمانٍ ، والحشايا
جمع حَشِيَّة : ما حشى من الفرش مما يُجلس عليه ، يقول . إن هذه الزائرة
- الحمى - لا تبيت فى الفراش وإنما تبيت فى عظامى . وقوله : يضيق الجلد .
البيت يقول : يضيق جلده فلا يَسعُها ولا يسعُ أنفاسى التى أتَنفُسُها ، وهى
مع ذلك تذهب بالحمى فتوسع جلدى بما تورد عليه من ضروب السقم ،
وقوله : إذا ما فارقَتْنى غَسَلْتَنى ... يقول : إنه يَعرَقُ عند فراقها ، فكأنه

تغسله لِعُكُوفِهَا عَلَى مَا يوجبُ الغُسلَ ، وَإِنَّمَا خَصَّ الحَرَامَ لِأَنَّهُ جَعَلَهَا
 زَائِرَةً غَرِيبَةً وَلَمْ يَجْعَلْهَا زَوْجَةً وَلَا مَمْلُوكَةً ... وَقَوْلُهُ : كَانَ الصَّبْحُ ... أَلْبَيْتِ
 يَقُولُ : لِيَهَا تَفَارِقُهُ عِنْدَ الصَّبْحِ فَكَأَنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُهَا ، وَأَنَّهَا إِذَا فَارَقَتْهُ
 تَجْرِي مَدَامِعُهَا مِنْ أَرْبَعَةِ سِجَّامٍ ، يَرِيدُ : كَثْرَةَ العَرَقِ - عَرَقِ الحُمَّى - فَكَأَنَّهَا
 تَبْسُكِي عِنْدَ فِرَاقِهِ لِجُبِّهَا إِيَّاهُ ، وَأَرَادَ بِالْأَرْبَعَةِ : اللَّحَاطِينَ وَالْمُوقِينَ لِلْعَيْنَيْنِ .
 وَقَوْلُهُ : أَرَابِقُ وَقْتِهَا الحِجْ يَقُولُ : أُنْتَظِرُ وَقْتَ تَجْيِيشِهَا كَمَا يَنْتَظِرُ المَشُوقُ حِجِّي ،
 حَبِيبِيهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ المَرِيضَ يَجْرَعُ لورود الحِجَى ، فَهُوَ يَرِاقِبُ وَقْتَهَا خَوْفًا
 لِأَشْوَقًا . ثُمَّ قَالَ : وَيَصْدُقُ وَعُدُّهَا ، يَقُولُ : لِيَهَا صَادِقَةُ الوَعْدِ فِي الِوَرُودِ
 وَذَلِكَ الصَّدَقُ شَرٌّ مِنَ الكَذِبِ ، لِأَنَّهُ صَدَقَ بِضُرِّهَا وَلَا يَنْفَعُ كَمَنْ أَوْعَدَ ثُمَّ صَدَقَ
 فِي وَعِيدِهِ ... »

وقال المتنبي أيضاً :

وَمِنَازِلُ الحُمَّى الجِسْمُومُ قَوْلُ لَنَا مَا عُدْرُهَا فِي تَرْكِهَا خَيْرَاتِهَا
 أُعْجِبْتَهَا شَرَفًا فَطَالَ وَقُوفُهَا لَتَأْمُلِ الأَعْضَاءِ لِأَذَاتِهَا
 « يَقُولُ المَتَنَبِيُّ لِهَذَا المَمْدُوحِ - وَكَانَ مُصَابًا بِالحُمَّى - إِنَّ جِسْمَكَ خَيْرٌ
 مِنَ الأَجْسَامِ فَلَا عُدْرَ لِلحُمَّى فِي تَرْكِهَا ، لِأَنَّ مَحَلَّهَا الأَجْسَامُ ثُمَّ قَالَ : إِنَّ الحُمَّى
 لَمَّا رَأَتْكَ فِي المَحَلِّ الأَرْفَعِ مِنَ الشَّرَفِ وَالكَرَمِ وَالنُّبْلِ أُعْجِبْتَهَا فَأَقَانَتْ
 فِي بَدَنِكَ لِتَأْمُلَ أَعْضَاءَكَ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَى تِلْكَ المَحَامِدِ ، لِأَنَّهَا تَرِيدُ أَنْ
 تُؤْذِيكَ » ... وَقَالَ الشَّاعِرُ أَبُو الفَتْحِ كُشَّاجِمٌ ^(١) فِي عَلِيِّ بْنِ سَلِيمَانَ الأَخْفَشِ :
 وَلَقَدْ أَخْطَأَ قَوْمٌ زَعَمُوا أَنَّهَا مِنْ فَضْلِ بَرْدٍ فِي العَصَبِ

(١) هو محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك ، وشاهك أمه

هو ذلك الذهنُ أذكى نارهُ والمزاجُ المُفْرِطُ الحَرَ التَّهَبُ
 ودخلَ بِخَتَيْشُوعُ^(١) على يَحْيَى بنِ خَالِدِ بنِ بَرْمَكٍ بِعَقِبِ مُحَمَّدٍ فَقَالَ
 لَهُ : تَوَقَّ فَإِنَّ حَيَّ لَيْلَةً يَبْقَى فِي الْبَدَنِ تَأْثِيرُهَا سَنَةً ١ — وَعِنْدَهُ وَكَيْعٌ فَقَالَ :
 صَدَقَ ، فَقَالَ يَحْيَى : مَا أَقْرَبَ تَصْدِيقَكَ إِيَّاهُ ١ قَالَ : لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَابَلَ . مُحَمَّدٌ لَيْسَلَةٌ كَفَّارَةٌ سَنَةً ، فَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا مِنْ ذَاكَ ...

الرمد

مَا يُسْتَحْسَنُ فِي عَيْنِ مَحْبُوبٍ رَمْدَاءُ قَوْلُ ابْنِ الْمُعْتَزِّ :
 قَالُوا : اشْتَمَكَ عَيْنُهُ نَقَاتٌ لَمْ : مِنْ شِدَّةِ الْفَتَكِ نَالَهَا الرَّصَبُ^(٢)
 مُحَرَّتُهَا مِنْ دِمَائِهِ وَنَ قَتَلَتْ وَالِدَهُ فِي النَّصْلِ شَاهِدٌ عَجَبُ^(٣)
 وَفِي مَعْنَى هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :
 قَالُوا : الْحَيْبُ شَكَ جُعِلَتْ فِدَائِهِ رَمْدًا أَضْرَّ بِعَيْنِهِ كَالْعِنْدَمِ^(٤)
 فَأَجِبْتُهُمْ : مَا زَالَ يَفْتِكُ لَحْظُهُ فِي مُهَيَّجِي حَتَّى تَلَطَّخَ بِالِدَمِ

(١) بختيشوع بن جورجس هو طيب يوناني الاصل ، اتصل بهرون الرشيد
 وخدمه وكانت له منزلة عنده ، وكان أبوه جورجس طيب أبي جعفر المصور ،
 وابنه يدعى جبرائيل بن بختيشوع ؛ كان من أمهر الأطباء اتخذوه . جعفر بن يحيى البرمكي
 طيبه الخاص وحظي عند الخلفاء ونال منهم أموالا لم ينالها أحد غيره منهم
 (٢) الفتك يروى : القتل ، والفتك أحسن ، والرصب : المرض والوجع الدائم
 وقد يطلق على التعب

(٣) النصل : نصل السهم والسيف والرمح وقد يسمى السياف نصلا

(٤) العندم : صبغ أحمر يختضب به

النقرس (*)

كان أبو الفضل بن العميد يكثر برجله النقرس ، فقتل له : لا تغمم فإن ذلك يؤذن بطول العمر ا فقال : طول العمر هو أن من به النقرس يسهر ، فيصير ليله نهاراً ، فكأما يتضاعف عمره ... وقال المبرد : ذكر أعرابي رجلا قد أثرى فقال : تنقرس ! كأنه سمع أن النقرس يكون مع النعمة ... ومنه قول الأعرابي :

ألا فاعجبوا من مُقبسٍ حليفٍ نقرسٍ أما نقرسٍ في مُقبسٍ بعجيبٍ
« فلان حليف كذا أي : حليفه وملازمه »

عودٌ إلى عبقرياتهم في التداوي والأدوية

قيل لأبقراط : ما بال الإنسان يكون أثورَ ما يكون بدنًا إذا شرب الدواء ؟ فقال : مثل البيت تراه أكثر ما يكون غباراً إذا كُدس ... ومن قولهم : مثل الدواء مثلُ عدوِّ إلى جانبه صديق ، ترمي العدو فلا تأمن أن تُصيب الصديق ... وقالوا : لا تُستعملُ الأدوية فيما تنفع فيه الأغذية .

وفي الحديث الشريف : تداووا فإن الله ما أنزل داءً إلا أنزل له دواء ، إلا الهرم ...

وقالوا : حتى الطيب أن يتأني في المداواة فعثرته لا تزال ... وقالوا المتأني في علاج الداء بعد معرفة الدواء كالمتأني في إطفاء النار وقد أخذت بحواشي ثيابه

(٥) النقرس : داء معروف يأخذ في الرجل وهو ورم يحدث في مفاصل القدم وفي

إيهاها أكثر

شهوة المريض إلى الطعام

قال أبقراط : المريض الذي يَشْتَهِي أَرْجِي عندي من الصحيح الذي لا يشتهى ... وقال المنبى :

ومن يكُ ذا فمٍ مُرٍ مريضٍ يجِدُ مُرًا به الماءَ الزُّلالا
وقيل للخليل بن أحمد في عِلته . أنشتهى شيئاً ؟ قال : لا ! وبُودَى
أن أشتهى . وقيل ذلك لآخر فقال : أشتهى أن لا أموت .

شكوى العلة

وكان منهم من لا يرى بأساً في شكوى عِلته ، ومنهم من يُنكر ذلك
بِحِينَ شكا عِلته أبو نواس إذ يقول :

دَبَّ فِي السَّقَامِ سُفْلاً وَعُلُواً وَأراني أموتُ عِضُواً فَعِضُوا
ليسَ يَمِضِي مِن سَاعَةٍ بِي إِلا نَقَّصْتَنِي بِعَرِّها بِي جُزُوا
لَهَفَ نَفْسِي على لِيالٍ وأيا مِ تَمَتَّعْتُهُنَّ لِعِباً وَلَهُوا
وقالوا : * ولا بد من شكوى إذا لم يكن صبراً *

ولما مرض بعض الصالحين وعاده الناس قالوا له : كيف تجدك ؟
قال : بِشَرٍّ ، قالوا : هذا كلامٌ مُثَلِّك ! قال : أجل ، إن الله تعالى يقول :
« وَتَبْلُوكُمُ بِالشَّرِّ وَالخَيْرِ فِتْنَةً » فالخير الصِّحة ، والشَّرُّ المرض
وقالوا : الشكوى تُخَفِّفُ الهمَّ وتُزِيلُ الألمَ ...

ولما وجه المَتَوَكِّلُ في السنة التي قُتِلَ فيها أن يُحْمَلَ إليه الجاحظ من
البصرة قال لمن أراد حملَه : وما يصنعُ أميرُ المؤمنين بامرئٍ ليس بباطل ،
ذِي شِقِيٍّ ما ئِلٍ ، ولُعابِ سائِلٍ ، وفرجِ بائِلٍ ، وعقلِ حائِلٍ ! « حائل : متغير ،

وحدث المُبرّد قال : دخلت على الجاحظ في آخر أيامه فقلت له : كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حَزَّ بالمشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس^(١) لو طار الذباب بقربه لآلمه ، وأشدُّ من ذلك ستُّ وتسعون سنة أنا فيها ، ثم أنشدنا :

أترجو أن تكون وأنت شيخٌ كما قد كنتَ أيامَ الشبابِ
لقد كذبتك نفسك ، ليس ثوبٌ دَرِيسٌ كالجدِيدِ من الثيابِ
« دريس : بال »

وقيل لآخر : ما تشكو ؟ فقال : تمامُ العِدَّةِ وانقضاءُ المُدَّةِ ... وقال بعضهم لمن يشكو : أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك ! وقيل لسعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص وهو مريض : إن المريض يتفرجُ إلى الأنين وإلى أن يصف ما به إلى الطبيب ، فقال : أما الأنين فوالله إنه لجزع ولا يسمعُ الله مني أينما فأكونَ عنده جزوعا ، وأما الطبيب فوالله لا يحكم غير الله في نفسي ، فإن شاء قبضها إليه وإن شاء منَّ بها عليّ ...

فضل الصحة والعافية

قالوا : شيان لا يعرفُ فضلُهُما إلا من فقدهما : الشَّبابُ والعافية .
وقالوا : لا يعرفُ طعمَ العافية إلا من نالته يدُ العِلَّةِ ، ولا طعمَ الرِّخاءِ إلا من مسَّته يدُ البلاءِ .

(١) منقرس : مصاب بالنقرس وهو ورم أو وجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين وفي إبهامهما أكثر

نفع المرض

اعتل الفضل بن سهل بخراسان ، ثم برأ ، فجلس للناس فهتأوه بالعافية
وتصرفوا في فنون الكلام ، فلما فرغوا أقبل على الناس فقال : إن في العلال
نعماً ينبغي للعاقل أن يعرفها : تمحيصُ الذنب ، والتعرضُ للشواب ، والإيقاظُ
من الغفلة ، والإذكارُ بالنعمة في حال الصحة ، والاستدعاء للتوبة ، والحض
على الصدقة ، وفي قضاء الله وقدره الخيار ...

واعتل بعضهم فقال : اللهم أجمله أدباً لا غضباً ... وفي الحديث الشريف :
إن المريض تتحاتُّ عنه خطاياهُ كما يتحاتُّ ورقُ الشجر (١) ... وذكّرت
الأدواء عند أبي الدرداء فقال رجلٌ : ما اشتكيتُ قطُّ ، فقال لا جرم أن
ذنوبك لم تحطّ عنك ...

وصف العلة بأنها تنال الأمثال

قال أبو تمام من آيات في مرض الياس بن أسد :

فإن يكنَّ وصبَّ عاينتَ سورته فالوردُ حلفُ لليث الغاية الأضم
إن الرِّياح إذا ما أعصفتُ فصمتُ عيِّدانَ نجدٍ ولا يعبانَ بالرَّثم
بناتُ نعشٍ ونعشٍ لا كُسوفَ لها والشمسُ والبدرُ منها الدهرُ في الرِّقم
حدُّ يُنعمُ اللهُ بالبُلوى وإن عظمتُ ويبتلى اللهُ بعضَ القويمِ بالنعَم

« الوصب هنا : المرض ، وسورته : شدته ، والورد : الحمى ، والأضم :
الغضبان : وعيِّدان (بالفتح) جمع عيِّدانة وهي : النخلة الطويلة والشجرة

(١) تحات الشيء : تناثر ، وتحات الورق : سقط عن الغصن

السُّلْبَةُ القَدِيمَةُ . والرَّيْمُ : نبات من أدق الشجر، وبنات نَعَشٍ كبرى وهى سبعة كواكب أربعة منها نَعَشٌ وثلاث بنات؛ وَصُغْرَى : وهى مثلها، ومنها نأى من دونها، والرَّيْمُ : السواد، ويبنى به الخفاء للكسوف والخسوف « وقال البحتري :

وما الكلبُ محمومًا وإن طال عُمرُهُ ألا إنما الحمى على الأسدِ الوَرْدِ
 قيل للأسدِ وَرْدٌ لأن لونه أحمر يضرب إلى صُفْرَةٍ ، وفى الحديث الشريف : مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ الخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ ، تُفَيِّئُهَا الرِّيحُ مَرَّةً وَتَعْدِلُهَا مَرَّةً ، ومَثَلُ الكَافِرِ مَثَلُ الأَرزَةِ لا تَزَالُ حَتَّى يَكُونَ انْجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً .
 الخَامَةُ : الزرع أول ما ينبت على ساقٍ واحدة ، وقيل : السُّلْبَةُ ، وقيل : الطائفة الغضة من الزرع ، وقيل : الشجرة الغضة الطرية . وَتَفَيِّئُهَا : تحركها وتُثْمِيهَا يَمِينًا وَشِمَالًا ، والأَرزَةُ : واحدة الأرز : شجر معتدل صلب لا يجرکه هبوب الريح يقال له الأرزة معروف بلبنان ، وقيل : شجر الصنوبر والجمع أرز ، وانجعاها : انقلاها . ومعنى الحديث : أن المؤمن يلبغى له أن يتلقى المكارة صابرًا راجيًا الخير من ورائها ، وأن يعد نفسه كأوائل الزرع يمد له الرياح يمينًا ويسرة ، فهو فى الدنيا هَدَفٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الرِّزَايَا ، فليس له إلا أن يعصم بالصبر والرضا ، وأن يعلم علمًا ليس بالظن أن كل ما يرزؤه من فقدان مال وولد وما إليهما ، وما يصيبه من مَرَضٍ وَوَصَبٍ ، إنما هو مكفّرٌ ليسيناته رافع لدرجاته ؛ أما الكافر ، أما العفريّة النُفْرِيّة ، فإن كل همّه أن يستمتع بشهوات الدنيا ولذاتها ، فإذا رُزِيَ فى ماله وولده ونفسه تسخط ولم يدخر لنفسه ما ينفعه فى آجله ومن ثم يموت إذ يموت كما تنعجف شجرة الأرزة وتُجَثَّتْ من أصلها فيلقى الله بذنوبه حائتة . هذا ، ولك أن

تقول : إن المعنى بسبيل من قولهم : المؤمن مُصابٌ ، ومعنى هذا أن المؤمن . لأنه يتقى الله في سائر أسبابه ولا يُقدم على ما حرم الله ، لا تواتيه الدنيا كما تواتى من لا يتقى الله فيعيش من كان هذا شأنه مُرَرّاً وإن كان في آخرته من الفائزين . وهذا في الغالب ، وإلا فهناك من المؤمنين الصادقين من كان إيمانهم مَدْرَجَةً إلى أن يعيشوا عيشة راضية يُحسدون عليها . وعلى أية حال فإن المراد بمثل هذا الحديث هو تعزية المصابين في الدنيا من المؤمنين بأن الآخرة خيرٌ وأبقى ...»

عيادة المريض

وجوب عيادة المريض

ورد في الحديث الشريف : حَقُّ المسلم على المسلم ثلاثٌ : عيادة المريض وتشميتُ العاطس ، وتشيعُ الجنازة ؛ وفي الحديث أيضاً : من عاد مريضاً لم يزلْ في حُرَّةِ الجنة حتى يرجعَ ... « الحُرَّةُ (بضم الحاء وفتحها) : ما يُخترَفُ أى يُجْتَنَى من الثمر ، أى لم يزل في بستانٍ يَجْتَنَى منه الثمر ، شبه صلوات الله عليه ما يجوزُه من يعودُ المريض من الثوابِ بما يجوزُه المُخترَفُ من الثمر »

أدب عيادة المريض

قالوا : سوءُ العيادة تلقيحٌ للعلة ... وقال الفضلُ بنُ الربيع : لا تقولوا : كيف حال أمير المؤمنين ، ولا تسألوه عن حاله فتكفوه الجواب ، ولعله يثقلُ عليه الكلام ، ولكن اجعلوا مسألتكم الدعاءَ له وقولوا بدَلِ كيف يجيُدُ أميرُ المؤمنين نفسه : أنزل الله عليه الشفاءَ والرحمةَ ... ودخل قومٌ على

السَّيرَى السَّقَطَى رَحِمَهُ اللهُ وَهُوَ عَليْلٌ فَأَطالُوا الجُلُوسَ وَقالُوا : اذْعُ لَنَا ،
 فَقال : ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ وَقولُوا : اللهُمَّ اجْعَلْنَا مِّنْ عَالَمَتِهِمْ عِيادَةَ المَرَضَى ...
 وَدخَلَ قَوْمٌ عَلى مَرِيضٍ فَأَطالُوا الجُلُوسَ ثُمَّ قالُوا : أَوْصِنَا ، فَقال : أَوْصِيكُمْ
 أَلَّا تَطالِبُوا الجُلُوسَ عِنْدَ المَرِيضِ إِذا عُدْتُهُ وَه ... وَدخَلَ ثَقيلٌ عَلى مَرِيضٍ .
 فَأَطالَ الجُلُوسَ ثُمَّ قال : ما أَشْتَكِي ؟ قال : قُعودك عِنْدِي ...

شكاية من لا يعودده إخوانه

قال : سجحة البرمكي (*) :

مَرِضْتُ فَلَمْ يَكُنْ فِي الأَرْضِ حُرٌّ يُشْرِقُنِي بِهَرِّ أَوْ سَلامِ
 وَضَبْتُوا بِالعِيادَةِ وَهِيَ أَجْرٌ كَأَنَّ عِيادَتِي بَذَلُ الطَّعامِ

الاعتذار عن ترك العيادة

قال شاعر :

إِنْ كُنْتُ فِي تَرْكِ العِيادَةِ تارِكًا حَظَى فَإِنِّي فِي الدَّعاءِ لِجَهادِ
 وَلَرَبِّمَّا تَرَكَ العِيادَةَ مُشْفِقٌ وَأَتَى عَلى غِلِّ الضَّميرِ الحاسِدِ

من عادته ممرضه

قال العوام بن كعب بن زهير في ليلي الغطفانية :

وُخِبْتُ لَيْلَى بِالعِراقِ مَرِيضَةً فَأَقْبَلْتُ مِنْ أَهْلِ بَمَصَرَ أُعَوِّدُهَا

(*) هو أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك ، فهو من ذرية البرامكة كما ترى وكان من ظرفاء عصره وكان أديباً شاعراً صاحب فنون وأخبار ونوادر ومنادمة ، وسجحة لقب لقيه به عبد الله بن المعتز توفي سنة ٣٢٦ ، وانظر ترجمته في معجم البلدان لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان ،

فوالله ما أدرى إذا أنا عدتها أأبرئها من دائها أم أزيدها

مريض عاد صحيحا

قال العباس بن الأحنف :

قالت : مَرِضْتُ فَعُدَّتْهَا فَتَبَرَّمْتُ وَهِيَ الصَّحِيحَةُ وَالْمَرِيضُ الْعَائِدُ

والله : لو أَنَّ الْقُلُوبَ كَقَلْبِهَا مَا رَقَّ لِلوَالِدِ الضَّعِيفِ الوَالِدُ

وقال آخر :

إِذَا مَرِضْنَا أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمْ وَتُدْرِبُونَ فَنَاتِيكُمْ وَنَعْتَسِدِرُ

حشهم العائد على تذهيب المريض

قال بعض الأطباء القدامى : بشرُوا المريض بالبُرء ، ونشطوه لَشْرَبِ الدَوَاءِ ،
ولا تُصَعَّبُوا عليه العلة ، فتخاف نفسه ، ويموت حشيه ، وقال : أَهْ بِقِرَاطٍ :
حدِّثُوا المريضَ بِجَالٍ مَن كَانَ فِي أَصْعَابٍ مِنْ عِلَّتِهِ قَبْرًا ، ولا تحدِّثوه عَمَّنْ
كَانَ فِي مِثْلِ عِلَّتِهِ فَمَاتَ ...

حشهم على تخويفه ليتجنب المضار

قالوا : خَوَّفُوا المريضَ لِيَتَّجَنَّبَ المَضَارَّ ، فَمَنْ خَوَّفَكَ لِتَأْتِيَ الأَمَنَ خَيْرٌ
لَكَ مِمَّنْ أَمَّنَكَ لِتَلْقَى الخَوْفَ ... وقالوا : مَن أَوْجَرَكَ العُرَّ لِتَبْرَأَ خَيْرٌ مِمَّنْ
أَوْجَرَكَ العُلُوَّ لِتَسْقَمَ .

تغير اللون

قال الصولي : لم يُسْمَعْ أَحْسَنُ مِنْ قولِ البُحْتَرِيِّ فِي صُفْرَةِ اللَوْنِ :
بَدَّتْ صُفْرَةٌ فِي لَوْنِهِ ، إِنَّ حَمْدَهُمْ مِنْ أَلْدَرِّ مَا أَصْفَرَّتْ نَوَاحِيهِ فِي العِقْدِ .

وقال أبو تمام :

لَمْ تَشِينْ وَوَجْهَهُ الْبَهِيحُ وَالسَّكَنُ جَعَلَتْ وَرَدَّ وَجَنَّتِيهِ بِهَارَا
 « البهار : نبت برى طيب الرائحة له فُقَّاحَةٌ - زهرة - صَفْرَاءُ يَنْبُتُ
 أَيَّامَ الرَّبِيعِ ، يُقَالُ لَهُ : الْعَرَارُ وَعَيْنُ الْبَقْرِ .. »

تهنئة من برأ من المرض

قال أبو تمام :

سَقَمْتُ أُتِيحَ لَهُ بُرءٌ فَرَزَعَنَاهُ وَالرُّمْحُ يَنَادُ طَوْرًا ثُمَّ يَمْتَدِلُ
 قَدْ حَالَ لَوْ نُفَزِدَ اللَّهُ نَضْرَتَهُ وَالنَّجْمُ يَخْمُدُ حِينًا ثُمَّ يَشْتَعِلُ
 يُقَالُ : زَعَنَ الشَّيْءَ : حَرَّكَهُ لِيُقْلِعَهُ ، وَالْمَرَادُ هُنَا : دَفَعَهُ وَأَزَاحَهُ ، وَيَنَادُ :
 يَجِيلُ ، وَحَالَ لَوْ : تَغَيَّرَ ، وَالنَّضْرَةُ : الْحَسَنُ وَالْجَمَالُ ،

وقال أشجع بن عمرو السلمي : (١)

لَنْ جَرَحَتْ شَكَائِكَ كُلَّ قَلْبٍ لَقَدْ قَوَّتْ بِصِحَّتِكَ الْعَيُونَ
 وَقِيلَ لِأَعْرَابِي بَرَأَ مِنْ عِلَّتِهِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَلِكَ ، فَقَالَ : أَوْ يَسْلُمُ مَنْ
 أَلْمُوتُ فِي عُقْبِهِ ؟ وَقَدْ تَقَدَّمَ

وقال المتنبي :

نَاْمَجْدُ عُرْفِي إِذْ عَوْفِيَتِ وَالكَرْمُ وَزَالَ عَنْكَ إِلَى أَعْدَائِكَ الْأَلْمُ
 صَحَّتْ بِصِحَّتِكَ الْغَارَاتُ وَابْتَهَجَتْ بِهَا الْمَكَارِمُ وَأَنْهَلَتْ بِهَا الدِّيمُ

(١) كان شاعرا فخرا ولد في اليمامة ونشأ في البصرة ومدح البرامكة وانقطع إلى
 جعفر بن يحيى قهره من الرشيد ومن أبياته السائرة قوله فيه :

وعلى عدوك يا ابن عم محمد رصدان ضوء الصبح والإظلام
 فإذا تنبه روعته وإذا غفنا سلت عليه سيموك الأحلام

وراجعَ الشَّمْسُ نُورُكَ كَانَ فَارَقَهَا كَأَنَّمَا فَقَدَهُ فِي جِسْمِهَا سَقَمٌ
 قوله : وزال عنك إلى أعدائك الألم : إنما هو خبرٌ وليس دُعاءً ، يريد :
 أن أعداءه تُؤَلِّمُهُمْ عَافِيَتَهُ لِعُودِهِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى غَزْوِهِمْ ، كما أشار إلى ذلك
 في البيت التالي . وانهايت : سالت ، والديم جمع ديمة وهي : المطر الدائم في
 سكون . يقول : كانت الغارات على بلاد الروم قد انقطعت فلما سُفِي وَصَح
 اتصلت الغارات عليها ، فكان الغارات كانت عليلة بعائته ثم صحت بصحته ،
 وَسُرَّتْ الْمَكَارِمُ بِصِحَّتِهِ لِأَنَّهُ صَاحِبُهَا ، وَكَانَتْ الْأَمْطَارُ مُنْقَطِعَةً فَلَمَّا سُفِي
 صادف اتصالها شفاءه ، ويقول في البيت الثالث : إن الشمس فقدت بهجتها
 في عيون أوليائه لاغتيالهم لعائته فلما شفي عاد إليها حُسْنُهَا »

تفدية المريض

قال البُحْتَرِيُّ :

بأنفُسِنَا لَا بِالطَّوَارِفِ وَالتُّلْدِ

نَقِيمُكَ الَّذِي تُنْخِضِي مِنَ الشُّكُورِ أَوْ تُبْدِي

بِنَا مَعَشَرَ الْعَافِينَ مَا بَكَ مِنْ أَدَى

فَإِنْ أَشْفَقُوا بِمَا أَقُولُ فِي وَحْدِي

« الطوارف : جمع طارفة مؤنث طارف وهو المال المستحدث وعكسه التُلْدُ

وهو المال القديم ، والشكو مصدر شكا كالشكوى والشكاة ، والعافى طالب

المعروف ، وأشفقوا : خافوا ،

وقال آخر :

بِأَلَيْتَ عَلْتَهُ بِي غَيْرِ أَنْ لَهُ أَجَرَ الْعَلِيلِ وَأَنْ غَيْرُ مَا جُورِ

عقريات شتى

فى الطب والمرض والعيادة

قال جالينوس : المرض هَرَمَ عارض ، والهَرَم مرض طبيعى ؛ وله : مجالسةُ
الثقيل حَمَى الروح .

وقال ثابت بن قُرَّة : ليس شىء أضر بالشيخ من أن تكون له جاريةُ
حسنة ، وطباخ حاذق ؛ لأنه يُكثر من الطعام فيسهُم ، ومن الجوع فيهِرَم :
وقال آخر : ليس لثلاث حيلة : فقرٌ يخالطه كسل ، وخصومةٌ يخامرُها
حسد ، ومرضٌ يمازجه هَرَم ...

وقالوا : ثلاثةٌ يُعَدُّون على سوء الخلق : المريض ، والمسافر ، والعاسم ...
وقالوا : فرطُ الغمِّ والسرور يُقتلان ، أما الغم فإنه يُجمد الدم . والسرور
يُلهبُه حتى تَعْلُو حرارته على الحرارة الغريزية ... وقال كسرى لوزيريه يوماً :
أى الفراش ألدُّ ؟ فقال أحدهما : ألدُّ الفراش الخرزُ محشواً ، وقال الآخر :
ألدُّ الفراش الحرير محشواً — وكان بين يديه غلام من الحجاب فقال : أيها
الملك ، أتأذن لى فى الكلام ؟ فقال : نعم ، قال : ألدُّ الفراش الأمانُ ، قال :
صدقت ، قال : فما ألدُّ الطعام ؟ قال : ما لا يهيج على طبيعة علة ، ولا يُقَدُّ
فى عنق آكله منة ، فقال : أحسنت ، فما ألدُّ الشراب ؟ فقال : ما لا يُزِيلُ
عَقْلًا عن محله ولا يهيجُ على طبيعة شيئاً من عِللٍ ؛ قال : أحسنت ، فما ألدُّ
الرَّيحانُ ؟ قال : الولد السارُّ ریحانُ أبيه فى حياته وخلف له بعد وفاته ؛ فرفع
محله والحقة بأكابر حشمه ...

ونالت أبا الطيب الممتبى وهو بمصر علة ، فكان بعض إخوانه المصريين

يكثر الإمام به ، فلما أبلَّ قطعته ، فكتب إليه : وصلتني — أعزك الله —
مُعْتَلًا ، وقطعتني مُبِلًا ، فإن رأيت أن تُتَكَدَّر الصِّحَّةُ عَلَيَّ ، وَتُحَبِّبَ الْعَلَّةُ
إِلَيَّ ، فمَلَّتْ ...

وقال شاعر :

إن الجهولَ تُضُرُّني أخلاقُهُ ضررَ السعالِ لِنَ به استسقاء^(١)

وقال البُستى^(٢)

أنا كالورْدِ فيه راحةٌ قَومٍ ثم فيه لآخرينَ زُكَّامُ^(٣)

(١) الاستسقاء لدى الأطباء : تجمع سوائل مصلية في تجويف أو أكثر من تجاويف الجسد أو في خلاياه .

(٢) هو أبو الفتح علي بن محمد البستي الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٤٠٠ هـ .
ومن شعره :

وقد يلبس المرءُ خَزَّ الثيابِ ومن دونها حالةٌ مُضْنِيَةٌ
كمن يكتسى خُدَّهُ حُمْرَةً وَعِلَّتْهَا ورمٌ في الرِيَّةِ

وله :

تَحْمَلُ أخاك على ما به فما في استقامته مطمعُ
وأنتَ له خُفاقٌ واحدٌ وفيه طبائعه الأربَعُ
ومن ألفاظه : مَنْ أَصَاحَ فاسِدَهُ أرغَمَ حاسِدَهُ . من أطاع غَضِبَهُ
أضاعَ أدبه . الفهمُ سُعاعُ العقل . المنية تضحك من الأمانة . حدُّ العفافِ
الرضا بالكفافِ

(٣) قبله :

لا يغرُّك أنى لئن ألمسَ فعزُّمى إذا اتضيت حُسامُ

وقال المتنبي :

لعلَّ عَتَبِكَ محمودٌ عواقبُهُ ورُبِّمَا صَحَّتِ الاجسامُ بِاللِئَالِ

وقال :

أعيدها نظراتُ هنك صادقةً أن تحسبَ الشحمَ فيمن شحمه ورُمُ
وقيل لبعض الأطباء وقد نمكنته العلة : ألا تتعالج ؟ فقال : إذا كان
الداء من السماء ، يطل الدواء ، وإذا قدر الربُّ يطل حذرُ المربوب ، ونعم الدواء
الآمل ، وبئس الداء الآجل .

ومن أدعيتهم : أغناك الله عن الطبِّ والأطباء ، بالسلامة والشفاء ، وجعل
علتك تمحيصاً لا تنغيصاً ، وتذكيراً لا تنكيراً ، وأدباً لا غضباً .



الباب الرابع

في

كتمان السر وإفشائه

وعبقرياتهم في ذلك وفيما يجري هذا المجرى
من الشورى والاستبداد بالرأى والنصح والأناة والعجلة

وهذا كتمان السر هو الآخر لَوْنٌ من ألوان الصبر الذي أسلفنا القول عليه في الباب الثالث ، وهو معنى من المعاني الخُلُقِيَّة التي عُنى بالقول عليها . والحث على الاستمسك بعروتها سائر عقلاء الناس في كل جيل من حنكهم : التجاريب ، ذاهبين إلى أن إفشاء السر - كان ما كان لونه - آيةٌ من آيات الضعف . دليل على أن في عقل صاحبه عُهْدَةٌ تُعَمَّمُ فيه ، وأنه ناشئ من قلة الصبر . وضيق الصدر ، وأنه من خلائق ضَعْفَةِ الرجال والنساء والصبيان . ومن السر ما يعد كتماناً من الحزم والاحتياط . وهذا أخص ما يكون بالملوك والساسة ومن إليهم ، وهذا اللون من السر قد يؤدي إفشاؤه إلى سفك الدماء وضياع الممالك والدول والدمار وخراب الديار . . . ومن السر ما يحدث من الإنسان مما تستقبح إشاعته ويشنُّع سماعه . وإلى هذا اللون يشير سيدنا رسول الله بقوله صلوات الله عليه : من آتى منكم من هذه القاذورات بشيء فليستر بستر الله . . .

وبعد فإياك إياك يا أخى أن يتخذك عن سر ك مثل قول القائل :

❖ وأكتم السر فيه طَرِبَةُ العُتُق ❖

وقول الآخر :

وَيُكَاتِمُ الْأَسْرَانَ حَتَّىٰ لِأَنَّهُ لِيَصُونَهَا عَنْ أَنْ تَمُرَّ بِبَالِهِ
فَذَلِكَ قَوْلٌ مِنْ يَسْتَنْزِلُكَ عَمَّا فِي نَفْسِكَ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَقْصَىٰ مَا عِنْدَكَ لَمْ
يَرْتَعْ فِيهِ حَقِّكَ ، وَقَدْ قَالُوا : إِنْ الصَّبْرُ عَلَى الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ أَيْسَرُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى
كَلِمَاتِ السَّرِّ ...

حفظ اللسان

من قديم ما قيل في حفظ اللسان قولُ امرئ القيس :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَخْزُنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ فَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ سِوَاهُ بِخَزَانِ
« لَمْ يَخْزُنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ : لَمْ يُحْرِزْ لِسَانَهُ فَيَجْعَلْهُ فِي خِزَانَةِ قَلْبِهِ ، قَالَ صَاحِبُ
اللسان : وَخِزَانَةُ الْإِنْسَانِ قَلْبُهُ ، وَخَازِنُهُ : لِسَانُهُ ، وَقَالَ لَقْمَانَ الْحَكِيمُ لِابْنِهِ :
إِذَا كَانَ خَازِنُكَ حَفِيظًا وَخِزَانَتُكَ أَمِينَةً رَشِدَتْ فِي أَمْرِيكَ : دُنْيَاكَ
وَأَخْرَجْتَكَ ، يَعْنِي : اللِّسَانَ وَالْقَلْبَ ،

وقالوا : من ضاق قلبه اتسع لسانه ...

وقال أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصرى : لسان العاقل من وراء
قلبه . فإن عرض له القول نظر فإن كان له أن يقول قال ، وإن كان عليه
القول أمسك ، ولسان الأحمق أمام قلبه ، فإذا عرض له القول قال ، كان عليه
أوله ... وقالوا : مقتل الرجل بين فكئيه .

ومن كلامهم : قِ فَاكٍ مَا يَقْرَعُ قَفَاكَ « قِ : فَعَلَ أَمْرًا مِنَ الْوَقَايَةِ ، وَمِنْهُ :

إِنْ لَمْ تَمْلِكْ فَضْلَ لِسَانِكَ ، مَلَسَتْ الشَّيْطَانُ فَضْلَ عِنَانِكَ .

وفي اللسان ومكانته يقول زهير :

لسانُ الفتي نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدم

منع إظهار السر قبل تمامه

قال سيدنا رسول الله : استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كلَّ ذى نعمةٍ محسود ... « يقول صلوات الله عليه : إنكم إن أظهرتم الناس على حوائجكم حسدوكم فعارضوكم فيما تترامون إلى تضائه ووقفوا في سبيل تحقيقه »

وقالوا : من وهى الأمر إعلانه قبل إحكامه ؛ وقالوا : من حصن سريه فله من تحصينه إياه خلّتان : إما الظفرُ بما يريد ، وإما السلامة من العيب والضرر إن أخطأه الظفر ...

حشم على حفظ السر

قال الشاعر الجاهلي قيس بن الخطيم :

إذا ما جاوزَ الإثنين سرِّي فإنه يبتّ وإفشاء الحديثِ قمينٌ (١)
وإن ضيغَ الإخوان سرّاً فإنني كدومٌ لأسرارِ العشيرِ أمينٌ
يكونُ له عندي إذا ما ضمّمته دقرٌ بسوداءِ الفؤادِ كنينٌ

رووا : أن ابن المقفع لما سمع هذا البيت قال : أراد بالإثنين الشفتين كأنه يقول : لا تُفشي سرّك إلى أحد ... وهذا لعمري بديع من ابن المقفع

(١) هو معلوم أن الألف في اثنين ألف وصل فإذا جاءت متطوعة في الشعر كما في هذا البيت فإنما ذلك ضرورة شعرية ، والثب : نشر الحديث الذي كتبه أحق من نشره ، وقين : خليق وجدير ، وبث متعلق بقمين

وكان عليّ ابن أبي طالب رضى الله عنه كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين :
 فلا تُفشِ سِرِّكَ إلا اليك فإن لكل نصيح نصيحا
 وإنى رأيتُ عُقاةَ الرجا ل لا يتركون أديماً صحيحاً
 وقال الصلّتانُ العبيدِيُّ من أبيات أوردَها أبو تمام في حماسته :

أشابَ الصغيرَ وأقى الكبيرَ كَرُّ الغداةِ ومَرُّ العشيِ
 إذا ليلةٌ هَرَمَتْ يومها أتى بعد ذلك يومٌ فتى
 زروحٌ ونغدو لحاجاتنا وحاجةٌ من عاش لا تقضى
 تموت مع المرء حاجاته وتبقى له حاجةٌ ما تبقى
 بُنىَ بداً تحبُّ نجوى الرجال فكُنْ عند سِرِّكَ تحبُّ النَّجوى^(١)
 وسِرُّكَ ما كان عند امرئٍ وسرُّ الثلاثةِ غيرُ الخفيِّ
 كما الصمّتُ أذنى لبعضِ الرشا فبعضُ التكلمِ أذنى لغيرِ

وهن قولهم : سِرُّكَ مِنْ دِمِكَ « يعنون : أنه ربما كان فى إفشاء السِّرِّ سَفْكُ الدَّمِ ، وقال آخر لآخر له وحَدَّثَهُ بحديث : أجعلُ هذا فى وعاءٍ غيرِ سَرِبٍ « السرب : السائل »

من يُكره أطلاعه على السر

قيل : لا تُظَلِّعُوا النساءَ على سِرِّكُمْ تصأح أموركم ، وقالوا : ما كَتَمْتَهُ
 عدوكُ فلا تُظَلِّعْ عليه صديقك

(١) الحب بكر الخاء : المكر وافتحها : المكار ، والنجوى مصدر ، وهو مستعمل
 فيما يتحدث فيه اثنان على طريق السروالكتبان ، يقول : إذا ناجيت صاحبك فكن
 خبا فيما تودعه من سرّك فإن نجوى الرجال إذا بدا خبا عادت وبالا

المفتخر بحفظ السر

قال المتنبي :

وللسرِّ مِثِّيَ ووضعٌ لا يناله نديمٌ ولا يُفِضِي إليه شرابٌ
وقال مسكين الدارمي :

وفتيانٍ صدقٍ لستُ مُطالعٌ بعضهم على سرٍّ بعضٌ غيرَ أني جماعها (١)
لكلِّ أمرئٍ شِعْبٌ من القلبِ فارغٌ وموضعٌ نجوى لا يُرامُ آطلاعها (٢)
يظنونُ شئِي في البلادِ وسرُّهم إلى صخرةٍ أعيا الرجالَ انصداعها

الممدوح بحفظ السر

قال الأحموص - شاعر إسلامي ترجم له صاحب الأغاني في

الجزء الرابع - :

كريمٌ يُميتُ السرَّ حتى كأنهُ عمٌ بنواحي أمرِهِ وهو خابِرٌ
وقال قيسُ بن الخطيم :

(١) أضاف الفتيان إلى الصدق كما يقال : فتيان خير ، والمعنى : أنهم يصدقون في الود ولا يخونون ؛ والجماع : اسم لما يجمع به الشيء كما أن النظام اسم لما ينظم به الشيء ، والضمير في جماعها : لك أن ترجمه إلى الفتيان أو إلى ما دل عليه الكلام من ذكر الاسرار يقول : رب فتيان هكذا استناموا إلي واستودعوني أسرارهم فكنت أنا نظامها لا يفوتني من خبيات صدورهم شيء ثم أفردت كلا منهم بالوفاء وكتبان ما أودعني من سره

(٢) يقول : لكل رجل منهم جانب من القلب فرغ له وخص بموضع سره ، والشعب في الأصل : الطريق في الجبل وجمعه شعاب أراد به مكانه من قلبه ، والنجوى اسم للسر ، واطلاعها : علمها يقال : اطلع الشيء واطلع عليه : علمه ، وأنت الضمير العائد على الموضع لتأنيث المضاف إليه

كُتْمٌ لِأَسْرَارِ الْخَلِيلِ أَمِينُهَا يَرَى أَنْ بَثَّ السَّرَّ قَاصِمَةُ الظَّهِيرِ
وقال كُشَايِمُ :

وَيُسْكَاتِمُ الْأَسْرَارَ حَتَّى إِنَّهُ لَيُصَوِّئُهَا غِنَى أَنْ تَمُرَّ بِبَالِهِ
« وقد تقدم آنفاً »

ودخل ابنُ أبي مِحْجَنٍ الثَّقَفِيُّ ^(١) على مُعَاوِيَةَ ، فقال له مُعَاوِيَةُ : أبوك
الذي يقول :

إِذَا مِتُّ فَأَدْرِفَنِي إِلَى أَصْلِ كَرْمَةٍ تُرَوِّى عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُروْفَهَا
وَلَا تَدْفِنَنِي فِي الْفَلَاةِ فَإِنِّي أَخَافُ وَرَاءَ الْمَوْتِ أَنْ لَا أَذْرِفَهَا

فقال ابنُ أبي مِحْجَنٍ : لو شئتَ ذكرتَ أحسنَ من هذا من شِعْرِهِ !
فقال مُعَاوِيَةُ : وما ذاك ؟ قال : قوله :

(١) أبو مِحْجَنٍ الثَّقَفِيُّ هو الصحابيُّ الشاعرُ المشهورُ بقصته مع سعد بن أبي وقاص
في يوم القادسية وذلك أنه أتى به إليه وهو سكران - وكان صاحب شراب - فأمر به
فقيد ، وكان يسعد جراحة فاستعمل غيره ، وصعد سعد فوق البيت لينظر ما يصنعه
الناس فجعل أبو مِحْجَنٍ يتمثل :

كُنِّي حَزَنًا أَنْ تَرْتَدِي الْخَيْلُ بِالْقَنَا وَأَتْرَكَ مَشْدُودًا عَلِيًّا وَثَاقِيَا
ثم قال لامرأة سعد : ويلك خيلني ولك علي إن سلبت أن أرجع فأضع رجلي
في القيد وإن قتلت استرحتم مني ؛ فخلته ووثب علي فرس لسعد يقال لها البلقاء ، ثم
أخذ الرمح وانطلق حتى أتى الناس فجعل لا يحمل في ناحية إلا هزم الناس ، فجعل الناس
يقولون : هذا ملك ، وسعد ينظر فجعل يقول : الضبر ضبر البلقاء ^(١) والظفر ظفر أبي
مِحْجَنٍ وأبو مِحْجَنٍ في القيد ، فلما هزم العدو رجع أبو مِحْجَنٍ فوضع رجله في القيد ،
فأخبرت امرأة سعد سعدًا بالذي كان فقال : لا والله لأأخذ اليوم رجلاً يلي الله المسلمين
على يديه ما أبلاهم ، فخلني سيبله فقال أبو مِحْجَنٍ : لقد كنت أشربها إذ كان يقام علي
الحد أظهر منها فأما إذ بهرجتني فوالله لأأشربها أبداً

(١) الضبر : عنز الفرس

لا تسأل القومَ ما مالى وما حسبي وسأئلى القومَ ما حزمى وما خلقتى
 ألقومُ أعلمُ أنى من سرائيم إذا تطايشُ يدي الرعدِ بدةَ الفرقِ
 أعطى السنانَ غداةَ الروعِ يحصته وعاملَ الرُيحِ أرويه من العلقِ (١)
 قد أطعنُ الطعنةَ النجلاءَ عن عريضٍ وأكتمُ السرَّ فيه ضربةُ العُنُقِ
 فقال معاويةُ: إن كنا أسأنا النولَ لنحسبنَ الفعلَ، وأجزلَ صلته ..

صعوبة حفظ السرِّ

قالوا: أصبرُ الناس من صبر على كتبان سره فلم يبده لصدیق فيوشك
 أن يصيرَ عدواً فيذيعه
 وقالوا: الصبرُ على لَهَبِ النارِ أهونُ من الصبرِ على كتبان السرِّ ...

من لا يحفظ سره ويستحفظه غيره

قال الشاعر:

فلا تُودِعَنَّ الدهرَ سرَّكَ أخمقاً فإنك إن أودعته منه أحمقُ
 إذا ضاق صدرُ المرءِ عن كتمِ سره فصدرُ الذى يُستودعُ السرَّ أضيقُ

وقال بشار:

تبوحُ بسرِّكَ ضيقاً به وتَحسبُ كلَّ أخٍ يَكتمُ
 وكتبانك السرَّ ممن تخافُ ومن لا تخافنه أحممُ
 إذا ذاع بسرُّكَ من مخبرٍ فأنت متى أُلتمته ألومُ

ذم من يفشى السر

يقولون: فلان أضيقُ الأسرار من الغربالِ للباء، وقال الحطيطي:

(١) العلق: الدم

أَغْرِبَالًا إِذَا اسْتُودِعَتْ سِرًّا وَكَأَنُونا عَلَى الْمُتَحَدِّثِينَ
 « الكانون : الثقيل من الناس ، وقيل : الكانون : الذي يجلس حتى
 يَتَحَصَّى الْأَخْبَارَ وَالْأَحَادِيثَ لِيَتَنَقَّاهَا ، قَالَ أَبُو دَهْبَلٍ :
 وَقَدْ قَطَعَ الْوَأَشُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَنَحْنُ إِلَى أَنْ يُوصَلَ الْجَبَلُ أَحْوَجُ
 فَلَيْتَ كَوَانِينَا مِنْ أَهْلِ وَأَهْلِهَا بِأَجْمَعِهِمْ فِي جُبَّةِ الْبَحْرِ لَجَجُوا ،
 وَقَالُوا : فَلَانُ أَيْمٌ مِنَ النَّسِيمِ عَلَى الرِّيَاضِ . وَقَالَ ابْنُ الرَّومِيِّ :
 كَانَ سِرِّي فِي أَحْشَاءِهِ لَهَبٌ فَمَا تُطَلِّقُ لَهُ طِيًّا حَوَاشِيهَا

الأحوال التي يفشو فيها السر

قالوا : إذا أردت أن تُنزل الرجل عن سره فتوصل إليه في حال
 سُكْرِهِ * فَاسْكُرْ يُظْهِرُ سِرَّهُ الْمَسْكُونَا *

المسازرة في المحافل

قال سيدنا رسول الله : إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث .
 وكان مالك بن مسمع إذا سارده إنسان يقول : أظهره فلو كان خيراً لم
 يكن مكتوماً ، وهذا من قول زهير بن أبي سلمى :

وَالسُّتْرُ دُونَ الْفَاحِشَاتِ وَلَا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ سِتْرٍ

« يقول : إن بين الممدوح وبين الفاحشات ستر من الحياء والثقي ، ولا

ستر بينه وبين الخير يحجبه عنه »

وقال الخُبَيْرُ أَرْزِي :

إِذَا أَنْتِ سَارَرْتِ فِي مَجَالِسِ فَإِنَّكَ فِي أَهْلِهِ مُتَّهَمَةٌ

فهذا يقول : قد آغتابني وذا يسترِبُ وذا يَتَّهَمُ

المتبجح بإظهار أسرار أصدقائه

قال أعرابي:

ولا أكنتم الأسرارَ لكن أنمها ولا أدع الأسرارَ تغلي على قلبي
وإنَّ قليلَ العقلِ من بات ليلته تقابله الأسرارُ جنباً إلى جنبٍ

وقال آخر:

ولا تُودع الأسرارَ قلبي فإنما تُصسبُ ماءً في إناءٍ مُسلمٍ
وقال رجل لصديق له: أريدُ أن أفشيَ إليك سرّاً تحفظه ، فقال: كلا
لستُ أشغلُ قلبي بنجواك ، ولا أجعلُ صدري خزانة شكواك ، فيقلبتني
ما أقلقك ، ويورقني ما أرقك ، فتبيتَ بإفشاءه مُستريحاً ، وبيتَ قلبي يحتره
جريحاً ... ولعمري ما أصدق هذا وأكثره انطباقاً على الواقع ا وفي الحق
أن هذا وأمثاله يجب أن يكون عظة لمن لا يطيقون كتبان أسرارهم

الرخصة في إفشاء السر إلى الصديق

قال بعض الشعراء:

وأبتدتُ عمراً بعض ما في جوارحي وجرعتُه من مرٍّ ما أتجرعُ
فلا بدُّ من شكوى إلى ذي حفيظة^(١) إذا جعلت أسرارُ نفسي تطلعُ

(١) الحفيظة: إما يراد بها: حفظ الأسرار، وإما أن يراد بها: الغضب لحرمة
تنتهك من حرمانك أوجار ذي قرابة يظلم من ذوبك أو عهد ينكث قال الحطيئة:

يُسوسون أحلاماً بعيداً أناتها وإن غضبوا جاء الحفيظة والجِدُّ
والمحفظات: الأمور التي تحفظ الرجل أي تغضبه إذا وتر في حيمه أو جيرانه
قال العطاي:

أخوك الذي لا تملك الحس نفسه وترفض عند المحفظات الكتمان =

وقال أبو تمام :

شَكَوتُ وما الشَّكوى لِمثلِ عادَةٍ ولكن تَفِيضُ الكأسِ عند امتلائِها
وقالوا: لا يزالُ المرءُ في كُربةٍ ووَحشةٍ ما لم يجدْ من يشكو إليه
يتصل بهذا أن يُخبرَ المريضَ طبيبَه بِكُنهِ داءِه .

وقال محمود الوراق :

إذا كَتَمَ الصَّدِيقُ أخاهُ سرًّا فما نُضِلُّ الصَّدِيقَ على العَدُوِّ

عَبَقْرِيَّاتُ شَتَى فِي كِتْمَانِ السَّرِّ

قال المهلب بن أبي صفرة: أذنى أخلاق الشريف كتمان السر، وأعلا أخلاقه نسيان ما أسر إليه .

ويروى أن معاوية بن أبي سفيان أسر إلى ابن أخيه عثمان بن عتبة بن أبي سفيان حديثاً، قال عثمان: جئت إلى أبي فقلت: إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثاً أفأحدثك به؟ قال: لا، إنه من كتم حديثه كان الخيار إليه ومن أظهره كان الخيار عليه، فلا تجمل نفسك مملوكاً بعد أن كنت مالكا، فقلت له: أويدخل هذا بين الرجل وأبيه؟ فقال: لا، ولكني أكره أن تنزل لسانك بأفشاء السر! قال: فرجعت إلى معاوية فذكرت ذلك له، فقال معاوية: أعنتك أخي من ريق الخطأ

وكان معاوية يقول: أعنت علي علي رحمه الله بأربع: كنت رجلاً

== والكنازف: جمع كنيفة وهي السخيمة والحقد والمدارة يقول القطامي: إذا استوحش الرجل من ذي قرابته فاضطفن عليه سخيمة لإساءة كانت منه إليه فأوحشته ثم رآه يضام زال عن قلبه ما احتقده عليه وغيظ له فغضب له فنصره وانتصر له من ظلمه،

أَكْتُمُ سِرِّي ، وكان رجلاً ظَهْرَةً^(١) وكنت في أطْوَجِ جُنْدٍ وَأَصْلِحِهِ ، وكان في أَخْبَتِ جُنْدٍ وَأَعْمَاهُ ، وتركته وأصحابَ الجَمَلِ وقلت : إن ظَفِرُوا به كانوا أهونَ عليَّ منه ، وإن ظَفِرَ بهم اعتَدْتُ بها عليه في دينه ، وكنتُ أَحَبُّ إلى قريشٍ منه ...

« وجاء رجلٌ إلى القاضي مُرَّحٍ فكلمه بشيء وأخفاه ، فلما خرج قال له رجلٌ : يا أبا أمية ، ما قال لك ؟ قال : يا ابنَ أخي ، أو ما رأيته سَتَرَهُ عنك !

وأمرَ رجلٌ إلى صديق له حديثاً فلما استقصاهُ قال : أفهِمْتَ ؟ قال : لا ، بل نَسِيتُ ..

وقال عبيدُ الله بنُ عبدِ الله بنِ عُتْبَةَ بنِ مسعودٍ الفقيه :
 إذا كان لي سِرٌّ خَدَّيْتُهُ العِداً وضاق به صدرى فللناسِ أَعَدُّهُ
 هو السُّرُّ ما اسْتُوْدِعْتَهُ وَكَتَمْتَهُ وليس بسِرٍّ حينَ يَفْشُو وَيَظْهَرُ
 ويقال : إذا انتهى السُّرُّ من الجنانِ إلى عَذْبَةِ اللسانِ فالإذاعةُ مُسْتَوَالِيَةٌ عليه ..

وقال عمر بن عبد العزيز : القلوبُ أوعيةُ الأسرارِ ، والشفاهُ أبقاها والآلسُنُ مفاتيحُها ، فليَحْفَظْ كُلُّ امرئٍ مِفْتَاحَ سِرِّهِ ..
 وقال شاعر :

صِنِ السُّرَّ عن كلِّ مُسْتَخِيرٍ . وحاذِرْ فما الحَزْمُ إلا الحَذَرُ
 أسيرُكَ سِرُّكَ إنْ صُلَّتْهُ وأنتَ أسيرٌ له إنْ ظَهَرَ
 وقال جميل بن مَعْمَر :

(١) ظهرة بضم ففتح : يظهر أمره للناس

أَمُوتُ وَأَلْقَى اللَّهُ يَا بَيْتُنُ لِمَ أُبْحِجُ بِسِرِّكَ وَالْمُسْتَشْخِرُونَ كَثِيرُ

وقال عمر بن أبي ربيعة :

ولما تَلَقَيْنَا عَرَفْتُ الَّذِي بِهَا كَيْدُ الَّذِي بِي حَذْوِكَ السَّعَلُ بِالنَّعْلِ
فَقَالَتْ وَأَرْخَتْ جَانِبَ السُّتْرِ إِنَّمَا مَعِيَ فَتَكَلَّمُ غَيْرَ ذِي رِقَبَةٍ أَهْلِي
فَقُلْتُ لَهَا مَا بِي لَهْمٌ مِنْ تَرْفُيبِ وَلَكِنَّ سِرِّي لَيْسَ يَحْمِلُهُ مِثْلِي
«يريد: أنه ليس يحمله أحدٌ مثلي في صيانتِهِ وتسترِهِ، أي فلا يُبْدِيهِ لِأحدٍ»

وقال شاعر :

أخْفِضِ الصَّوْتِ إِنْ نَطَقْتَ بِلَيْلٍ وَالتَّغَيْتُ بِالنَّهَارِ قَبْلَ الْكَلَامِ
وقال مسلم بن الوليد صرَّبعُ الغواني في السِّكِّتَابِ يَا تَيْكَ فِيهِ السَّر :

الْحَزْمُ تَخْرِيقُهُ إِنْ كُنْتَ ذَا حَذَرٍ وَإِنَّمَا الْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ
إِذَا أَنَاكَ وَقَدْ أَدَّى أَمَانَتَهُ فَاجْعَلْ صِيَانَتَهُ فِي بَطْنِ أَرْمَاسِ

«أرماس جمع رَمَس وهو القبر، والمراد إخفاؤه وتَعْفِيفُهُ حَتَّى لَا يَبْقَى

لَهُ أُرْ،

وقال المَعْرِي :

فُظُنُّ بِسَارٍ الْإِخْوَانَ شَرًّا وَلَا تَأْمَنُ عَلَى سِرِّ نَوَادَا

وَقَبَلَهُ :

نَلُومٌ عَلَى تَبَسُّلِهَا قُلُوبًا تُكَابِدُ مِنْ مَعِيشَتِهَا جِهَادَا

إِذَا مَا النَّارُ لَمْ تُطْعَمْ وَقُودًا فَأَوْشِكُ أَنْ تَمُرَّ بِهَا رَمَادَا

فُظُنُّ

وَبَعْدَهُ :

نَلُو خَبَرَتُهُمُ الْجُوزَاءُ خُبْرِي ... لَمَّا طَلَعَتْ بِخَانَتِهِ أَنْ تُكَادَا

عبيرياتهم في المشورة

والاستناد بالرأى

المشورة مُشْتَمَةٌ من: سُرَّتِ الدابة: إذا أَجْرَيْتَها لَتَعْرِفَ قُوَّتَها، وهي: استنباط المرءِ رأَى غيرِه فيما يَعرَضُ له من الأُمور المُعْضِلة . حتى يَنبِشِقَ له حائقُ الأمرِ . . . وَنِعِمَّتِ العِدَّةُ هي إذا كان المُستشارُ صديقاً مَجْرَباً حازماً ناصحاً رابطاً الجأشِ غيرَ مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ ولا مُتَلَوِّنٍ في رأيه ولا كاذبٍ في مقالِه . فَإِنَّ من كَذَبَ لسانَه كَذَبَ رأيه . فارغ البال حين استشارته :

فَأَنْفَعُ مَنْ شاورْتَمَنْ كان ناصِحاً شفيقاً فأبصرُ بَعْدَها من تُشارِرِ
وليس بشانِكِ الشفيقُ ورأيه عزيزٌ ولا ذُو الرأى والصَدْرِ واغِرُ^(١)

* * *

وما كُلُّ ذِي لُبٍ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ وما كُلُّ مُؤْتٍ نُصِحَهُ بِلَيْبٍ
ولكن إذا ما اسْتَجَمَّما عند واحدٍ فُحِّقَ له من طاعةٍ بِنُصَيْبٍ^(٢)

مدح المشورة

أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهَ صلوات اللهُ عليه بِمِشاوَرَةِ من هو دُونَهُ من أصحابِه فقال سبحانه: (وشاورهم في الأمرِ فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ على اللهُ) ذَهَبَ المُفسِّرون إلى أن اللهُ تعالى لم يَأْمُرْ نَبِيَّهَ بِمِشاوَرَةِ أصحابِه لِحَاجَةِ مِنْهُ إلى رأيهم ولكن لِيُعَلِّمَ ما في المِشاوَرَةِ من البركة والتَّمامِ، وقيل: أمره

(١) عزيز: بعيد غائب

(٢) لابي الأسود الدؤلي وقوله: فحق له من طاعة بنصيب، يريد: فهو إذن وفي

هذه الحالة جدب بأن يطاع ويتصيح بنصحه

بذلك تألفاً لهم وتطيباً لنفوسهم، وقيل: لبستين بذلك المسلمون ... وقال سبحانه: وأمرهم شورى بينهم
وفي الأثر: والمشاورة حصن من الندامة وأمن من الملامة وقالوا: ما هلك
أمرؤ عن مشورة

وقال عمر بن الخطاب: الرأي الفرد كالخيط السجيل، والرأيان
كالخيطين المبرمين، والثلاثة مرام لا يكاد يمتقض ...
«السجيل: الخيط غير المقتول، والمرار: الحبل الذي أجيد فتمله،
وقالوا: نصفت رأيك مع أخيك فاستشره ...»

حزمهم على مشاورة الحازم اللبيب

قال بشار بن بريد:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعين	بعزم نصيح أو بتأييد حازم
ولا تجعل الشورى عليك غصاصة	مكان الخوافي نافع للقوادم ^(١)
وخل الهوينى للضعيف ولا تكن	أثوماً فإن الحزم ليس بناشم ^(٢)
وما خير كف أمسك الغل أختها	وما خير سيف لم يؤيد بقائم ^(٣)
وأذن من القرى المقرب نفسه	ولا تشهد الشورى أمراً غير كلم
فإنك لا تستطرد الهمة بالمنى	ولا تبلغ العليا بغير المكارم ^(٤)

(١) الخوافي: ريشات صغار من الجناح إذا ضم الطائر جناحيه خفيت، والقوادم: الريشات السكبار التي في مقدم الجناح يقول: إن الضعيف قد عمد القوي بالمعونة
(٢) الهوينى: تصغير الهوني والهوني تأنيث الأهون يقال: إنك لتمعد للهوينى من أسرك: أى لاهونه

(٣) الغل: واحد الأغلال طوق من حديد أو جلد يجعل في اليد أو في العنق

(٤) الهمة: ما يهيم به الرجل أو أجال فسكره فيه ليفعله

إذا كنتَ فَرْدًا هَرَكَ النَّاسُ مُقْبِلًا وَإِنْ كُنْتَ أَدْنَى لَمْ تَفُزْ بِالزَّوَامِ (١)
 وَمَا قَرَعَ الْأَقْوَامَ مِثْلُ شَيْعٍ أَرِيْبٍ وَلَا جَلَى الْعَمَى مِثْلُ عَالِمٍ (٢)
 قال الأصمى : قلت لبشار : إني رأيت رجال الرأي يتعجبون من
 آياتك في المشورة ؛ فقال : أما علمت أن المشاور بين إحدى الحسنين :
 بين صواب يفوز بشعرته أو خطأ يشارك في مكروهه ؛ فقلت أنت والله
 أشعرُ في هذا الكلام منك في الشعر .

استشارة الكبار والصغار

ومن يُعتمد على مشورته ورويته

كانت العربُ تحمَدُ آراءَ الشيوخ ؛ لتقدّمها في السن ، ولما مرَّ عليها
 من التجارب التي عرفت بها عواقب الأمور حتى كأنها تنظرُها عياناً ،
 وطرأ عليها من الحوادث التي أوتحت لها طريق الصواب وبيته تبياناً ،
 ولما منّحتهُ من أصالة رأيها ، واستفادته بجميل سعيها ، قال علي بن
 أبي طالب رضي الله عنه : رأى الشيخ خيرٌ من مشهد الغلام . ومن أمثالهم
 « زَاحِمٌ بِعَوْدٍ أَوْ دَخٌ » (٣)

وقال بعض الحكماء : عليك بمشورة من حلب أشطرَ دهره ، ومَرَّتْ عليه

(١) يقال : فلان هزه الناس إذا كرهوا ناحيته ، والعزائم : الحاجات التي
 يعترق المرء فعلها يقول : إذا انهدت برأى نفسك ولم تستعن بأراء ذوي التجارب
 باعدك الناس وأصغروا من شأنك وإن كنت أدنى القوم شأناً لم تفز بجائتك التي
 اعترمت عليها .

(٢) المشيع : الشجاع كأنه قد شيع قلبه بما يركب من الأهوال أو بقوة قلبه

(٣) العود : المسن من الإبل أي لا تستعن إلا بأهل السن والتجربة في الأمور

ضروبٌ خيره وشره ، وبلغ من العمرِ أشدّه ، وأورثَ التجربة زندهُ ،
واستشارَ زيادُ بنَ أبيه رجلاً ، فقال الرجل : حقُّ المستشار أن يكون
ذا عقلٍ وافرٍ ، واختبارٍ مُتَظَاهِرٍ ، ولا أراقي كذلك .

وقال ابن الرومي يمدح يحيى بن علي المنجم :

أَلَمَعِي يَرَى بِأَوَّلِ ظَنِّي آخِرَ الْأَمْرِ مِنْ وِرَاءِ الْمَغِيبِ
لَا يَرَوِي وَلَا يُقَابُ كَفًّا وَأَكُفُّ الرِّجَالِ فِي تَقْلِيْبِ

وقال :

تَرَاهُ عَنِ الْحَرْبِ الْعَوَانِ بِمَعَزِلِ وَأَرَاؤُهُ فِيهَا وَإِنْ غَابَ سُهْدُ
كَمَا اخْتَجَبَ الْمَقْدَارُ وَالْحَكْمُ حُكْمَهُ عَلَى الْخَلْقِ طُرّاً لَيْسَ عَنْهُ مُعَرَّدُ (١)

وقال ابراهيم بن العباس الصولي في الفضل بن سهل :

يُمَضِي الْأُمُورَ عَلَى بَدِيهِتِهِ وَتُرِيهِ فَسْكَرَتُهُ عَوَاقِبَهَا
فَيَظَلُّ يُصَدِّرُهَا وَيُورِدُهَا فَيَعْمُ حَاضِرَهَا وَغَائِبَهَا
وَإِذَا الْحُرُوبُ غَلَّتْ بَعَثَتْ لَهَا رَأْيَا تَقُلُّ بِهِ كِتَابَهَا
رَأْيَا إِذَا نَبَتِ السِّيُوفُ مَضَى عَزَمُ بِهَا فَشَقَى مَضَارِبَهَا
وَإِذَا الْخَطُوبُ تَأَثَّلَتْ وَرَسَتْ هَدَّتْ فَوَاصِلَهُ نَوَائِبَهَا
وَإِذَا بَجَرَتْ بِضَمِيرِهِ يَدُهُ أَبَدَتْ بِهِ الدُّنْيَا مَنَاقِبَهَا

وقبلهما قل أوس بن حجر :

الْأَلَمَعِيُّ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّ نَّ كَانَ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا

وقال علي بن أبي طالب في عبد الله بن عباس : إنه لينظر إلى الغيب من

سُتْرِ رَقِيقِ

(١) ليس عنه معزود : ليس عنه مهزب

وقال الشاعر :

بصيرٌ بأعقابِ الأمورِ كأنما يرى بصوابِ الرأى ما هو واقعٌ
وقال الآخر في مثله :

عليمٌ بأعقابِ الأمورِ برأيه كأنَّ له في اليومِ عيناً على الغدِ
وقال :

بصيرٌ بأعقابِ الأمورِ كأنما يخاطبه من كلِّ أمرٍ عواقبهُ
وأين مقرُّ الحزمِ منه وإنما سرائي الأمورِ المشكلاتِ تجاربهُ
ولقد بالغوا في الحثِّ على مُشاورةِ ذوى الرأى والتجربة حتى ولو كانوا
أعداء، قال ابنُ المقفَّع في كلیلة وديمنة : لا ينبغي للعاقل أن يترك استشارة
عدوه ذى الرأى فيما يشركه ذلك العدوُّ في نفعه وضره ...
وقالوا : استشرَّ عدوكَ تعرفِ مقدارِ عداوته ...

وقد رأى قومٌ خلاف ذلك وذهبوا إلى أن رأى الشاب هو الرأى
الصائب ، وفهمهم هو الفهم الثاقب ، إذ أن عقولهم سليمةٌ من العوارض ،
وآراءهم خضيرةٌ تضررةٌ لم يهتصرِ غضنها هرم^(١) ، ولا أذرى زهرتها قدم
ولا تحبنا من ذكائها يطولُ المدَّةُ ضرَم . قالوا : إن رأى الشيخ كالزندِ قد انثلم ،
أما رأى الشاب فكالزندِ الصحيح الذى يورى بأيسرِ اقتداح
وقال الشاعر :

رأيتُ العقلَ لم يكن آتياً بآءٍ ولم يُقسَمُ على عددِ السنينا
ولو أن السنين تقسَّمته حوى الآباءُ أنصبه البئينا

(١) يهتصر الغصن : يقطعه ويكسره من غير انفصال

من يجب أن تجتنب استشارته

قال نُؤس بن ساعدة الإيادي لابنه : لا تُشاوِرْ مشغولاً وإن كان حازِماً
ولا جائِماً وإن كان قهيماً ، ولا مدعوراً وإن كان ناصحاً ، ولا مهموماً وإن
كان عاقلاً ، فالهم يعقل العقل فلا يتولد منه رأىٌ ولا تصدقُ به رويةٌ ...
وقالوا : لا تُدخِلْ في مشورتك بخيلاً فيَقصرَ بفعلك ، ولا سجاناً فيخوفك ،
ولا حريصاً فيعبدك ما لا يُرجى ، وإن البخل والجبن والحِرص طبيعةٌ
واحدةٌ يجمعها سوءُ الظنِّ بالله ...

وقالوا : لا تُشاوِرْ مَنْ ليس في بيته دقيق ...

وكان كسرى إذا أراد أن يستشيرَ إنساناً بعثَ إليه بنفقٍ سنَةٍ ثم
يستشيرُهُ .

وقال عليٌّ رضي الله عنه : إياكَ ومُشاوِرةَ النساءِ قرأهنَّ إلى أفنِّ
وعزهنَّ إلى وهنِّ ^(١) ... ووردَ في الأثر : شاوِروهنَّ وخالفوهنَّ ...

وجوب نصيحة مستشيرك

قال سيدنا رسول الله : المُستشارُ مؤتمنٌ ...

وقال صلوات الله عليه : الدِّينُ النصيحة ، قالوا : لِمَن يارسولَ الله ؟
قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمةِ المسلمين وعامَّتِهِم ...
« قال ابن الأثير في النهاية : النصيحة كلمة تُعبَّرُ عن جملةٍ هي : إزادة الخير
للنصوح له ، وليست كلمة تُعبَّرُ عن هذا المعنى سواها ، وأصل النَّصْح في
اللغة . الخُلوص ، يقال : نصحتَه وأنصحتُ له .. هذا : والنصيحة لله : الإيمانُ به

(١) الأفن : النقص ، ورجل مأفون : ناص العقل ، والوهن : الضعف

وطاعة أمره واجتناب نهيه، وهو الألة من أطاعه، ومُعَاذَة من عصاه وما إلى ذلك مما ترجع عائده في الحقيقة إلى العبد، فهي نصيحة إلى نفسه وكسب خيرٍ لها؛ والنصيحة لكتابه: الإيمان بأنه من عند الله، وتحليل ما حله وتحريم ما حرّمه، والاهتداء بما فيه، إلى أمثال ذلك؛ والنصيحة للرسول: تصديقه والاستئناس بسنته، إلى آخره؛ والنصيحة لأئمة المسلمين - والمراد بهم أولوا الأمر - إعانتهم على الحق ونصحهم في رفق وعدل، إلى آخره، والنصيحة لعامة المسلمين: إرشادهم إلى ما فيه خير الدنيا والآخرة. وقال حكيم: لا تُشِيرَنَّ على عدوك وصدّيقك إلا بالنصيحة، فالصديقُ تقضى بذلك حقه والعدوُّ يهابك إذا رأى صوابَ رأيك ...

وقال آخر: إذا استشارك عدوك فخرّد له النصيحة، لأنه بالاستشارة قد خرج من عداوتك إلى موالاتك ..

ويروى: أن زياد بن أبيه كتب إلى معاوية: يا أمير المؤمنين، قد ضبطت لك العراق بشمال وقرعت يميني لطاعتك، فولّني الحجاز، فتأخّر ذلك الرجل الصالح عبد الله بن محمّر رضى الله عنه، - وكان مقيماً بمكة - فقال: اللهم اشغلّ عنا يمين زياد، فأصابه الطاعون في يمينه، فجمع الأطباء واستشارهم، فأشاروا عليه بقطعها، فاستدعى القاضي شريحاً وعرض عليه ما أشار به الأطباء، فقال: لك رزق معلوم، وأجل محتوم، وإنى أكره إن كانت لك مدة أن تعيش في الدنيا بلا يمين، وإن كان قد دنا أجلك أن تأتق ربك مقطوع اليد، فإذا سألك لم قطعها قلت: بُغضاً في إفانك، وفراراً من قضائك؛ فمات زياد من يومه، فلام الناس شريحاً على منعه من القطع، لبغضهم زياداً، فقال: إنه استشارني والمستشار مؤتمن ... ولولا

الأمانة في المشورة لَوَدِدْتُ أَنْ تُفَطِّعَ يَدَهُ يَوْمًا وَرِجْلَهُ يَوْمًا وَسَائِرُ
جَسَدِهِ يَوْمًا يَوْمًا ...

الحث على قبول النصيحة وإن كان مُرًّا

قالوا: مَنْ أَحَبَّكَ نَهَاكَ ، وَمَنْ أَبْغَضَكَ أَعْرَاكَ
وقال بعض الحكماء: مَنْ أَوْجَرَكَ الْمُرَّ لَتَبَرَّأَ أَشْفَقُ عَلَيْكَ مِنْ أَوْجَرَكَ
الْحُلْوُ لَتَسْقَمَ . « يقال: أَوْجَرَهُ الدَّوَاءُ: سَقَاهُ إِيَّاهُ . وَالْوَجُورُ: الدَّوَاءُ الَّذِي
يَصُبُّ فِي الْفَمِ »

عتاب من لم يقبل النصيحة

قالوا: مَنْ لَمْ يَقْبَلْ رَأْيَ أَصْحَابِهِ وَإِنْ أَحْزَنُوهُ عَادَ ضَرَرُهُ عَلَيْهِ ، كَالْمُرِيضِ
الَّذِي يَتْرَكُ مَا يَصِفُّ لَهُ الطَّيِّبُ وَيَعْمِدُ إِلَى مَا يَشْتَهِيهِ فَيَهْلِكُ . وقال الله
تعالى حكايةً عن صالح: « لَقَدْ أَرْسَلْنَاكُمْ رَسُولًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِآيَاتِنَا
وَأَنْصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ
لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ،
وقال العرجي^(١):

عَرَّضْتُ نَصِيحَةً مَنِي لِيُحْيِي فقال: غَشَشْتَنِي وَالنُّصْحُ مُرٌّ

ضياح النصيحة لمن لا يقبله

قال الشاعر: * وما خيرُ نُصْحٍ قِيلَ لَا يُتَقَبَّلُ *
* * *

(١) هو عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، سمي العرجي
لأنه ولد بالعرج في الطائف وقيل : بل كان له فيه مال فكان يكثر الاختلاف إليه
فشهر به ، شاعر مطبوع في الغزل والنسيب ، ترجم له صاحب الأغاني (ج -)

وقال غيره :

إن كان حَمْدِي ضاع في نُصْحِكُمْ فَإِنَّ أَجْرِي لَيْسَ بِالضَّائِعِ
 وقيل : أخذ رجلٌ ذئباً فجعل يَعْطُهُ ويقول له : إِيَّاكَ وَأَخَذَ أَغْنَامَ
 النَّاسِ فِيمَا قَبِكَ اللَّهُ ، وَالذَّئْبُ يَقُولُ : خَفَّفْ وَاخْتَصِرْ فَقُدَّامِي قَطِيعُ
 مِنَ الْغَنَمِ لثَلَا يَفُوتَنِي ...

معاينة من يستنصح الناس

ويستغش الناصح

قال عبد الله بن همام السلولي^(١) :

وَقَدْ يَسْتَغِشُّ الْمَرْءُ مَنْ لَا يَغُشُّهُ وَيَأْمَنُ بِالْغَيْبِ أَمْرًا غَيْرَ نَاصِحٍ
 وقال أيضا :

أَلَا رَبَّ مَنْ تَغْتَشُّهُ لَكَ نَاصِحٌ وَهُوَ يَمُنُّ بِالْغَيْبِ غَيْرُ أَمِينٍ
 « تَغْتَشُّهُ : تُعَدُّهُ غَاشِمًا لَكَ »

وقال غيره :

نَصَحْتُ فَلَمْ أَفْلِحْ وَغَشُوا فَأَفْجُرُوا فَأَنْزَلَنِي نُصْحِي بَشْرًا مَكَانَ

(١) هو القائل :

وَأَنْتَ أَمْرٌ وَإِمَا اتَّمَمْتِكَ خَالِيَا فُخِئْتَ وَإِمَا قَلْتَ قَوْلًا بَلَا عِلْمٍ
 فَأَنْتَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا بِمَنْزِلَةِ بَيْنِ الْخِيَانَةِ وَالْإِنْتِمَاءِ
 وكان قد وشى به واش إلى زياد بن أبيه وقال له : انه هجاك ، فقال : أجمع
 بينك وبينه ؟ قال : نعم ، فبعث زياد إلى ابن همام فأتى به وأدخل الرجل بيتاً فقال
 زياد : يا ابن همام ، بلغني أنك هجرتي ، فقال : كلا . أصلحك الله ما فعلت ولا أنت
 لذلك أهل ، فقال : إن هذا الرجل أخبرني وأخرج الرجل ، فأطرق ابن همام هنيئة
 ثم أقبل على الرجل وقال هذين البيتين :

وقال يزيد بن الحكم الثقفي^(١) من تصيدة جيدة في بابها^(٢) يُعَاتِبُ ابْنَ
عَمِّهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ الْعَاصِ وَأَوْلَهَا :
تُكَاشِرُنِي كُرْهًا كَأَنَّكَ نَاصِحٌ

وَعَيْنُكَ تُبْدِي أَنَّ صَدْرَكَ لِي دَوِي^(٣)
لِسَانُكَ لِي أَرِيُّ وَغَيْبُكَ عَلَقَمٌ^(٤) وَشُرْكٌ مَبْسُوطٌ وَخَيْرُكَ مُنْطَوِي^(٥)
تُصَافِحُ مَنْ لَاقَيْتَ لِي ذَا عَدَاوَةٍ صِفَاحًا وَغَيْبِي بَيْنَ عَيْنَيْكَ مُنْزَوِي^(٥)
تُفَارِضُ مَنْ أَطْوَى طَوَى الْكَشْحِ دُونَهُ^(٦) وَمِنْ دُونِ مَنْ صَافَيْتَهُ أَنْتَ مُنْطَوِي^(٦)

الناصح منهم

من أمثالهم : المبالغة في النصيحة تهجمُ بك على عظيم الظنة . « الظنة :
الثَّهْمَةُ » ، وقال أكنم بن صَيْفِي : إياكم وكثرة التَّنْصِيحِ فإنه يورثُ الثَّهْمَةَ .
« التَّنْصِيحُ : كثرة النصيح ، وقال قائلهم :

❖ وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظَّنَّةُ الْمُتَنَصِّحُ ❖

(١) شاعر إسلامي فحل ، ترجم له صاحب الأغاني ج ١١ ساسي

(٢) انظرها في الأماشي والخزانة

(٣) يقال : كاشر الرجلُ الرجل إذا كشر كل واحد منهم لصاحبه ، وهو أن يبدى
له أسنانه عند التبسم ، وكرهاً : بضم الكاف وفتحها مصدر وضع موضع الحال ،
والدوي وصف من الدوي بالفتح : المرض ودوي صدره : ضغن

(٤) الأري : العسل ، والعلقم : الحنظل

(٥) وغبي يروي وحتمدي ، وزوي ما بين عينيه : قبضاً

(٦) فاوضه : أظهر له أمره . وأطوى ضد أنشر ، والطوى : الجوع يقول : تظهر
أمرك لمن أخفى عنه جوعى أى تبسط في الكلام عند عدول لا أظهره على شيء من
أموري ، وتقبض عن أصدقائي ولا أظهرهم على شيء من أمرك نكايته في .

وشاور المأمونُ يحيى بنَ أكرمٍ، فكان الرأيُ مخالفاً لهوى المأمون،
فقال يحيى: ما أحدٌ بالغ في نصيحة الملوكِ إلا استغشوه، قال: ولمَ يا يحيى؟
قال: لصرْفِهِ لهم عِسا يُحبُّون إلى ما لعَلَّهم يكرهون في الوقتِ والهوى
إلهٌ مَعْبودٌ !

وصف غاش في نصحه

من أمثالهم في الذي يتصح القوم وهو غاش: « أنت شولة الناصحة »
قال ابن السكيت: كانت شولة أمة رعناء تنصح اوالها فتعود نصيحتها
وبالا عليهم، لحمقها.

وقال معاوية يوماً لعمر بن العاص: هل غششتني منذ استنصحتك؟
قال: لا، فقال: ولا يومٍ أشرت عليَّ بمبارزة عليٍّ وأنت تعلم من هو؟
فقال: كيف وقد دعاك رجلٌ عظيمُ الخطر كنت من مبارزته إلى إحدى
الحسينيين إن قتلته فزت بالملكِ وازددت شرفاً إلى شرف، وإن
قتلك تعجلت من الله تعالى ملاقة الشهداء والصديقين! فقال: وهذه
أشدُّ من الأولى! فقال: أو كنت من جهادك في شيك؟ فقال: دعني
من هذا

وقال شاعر:

أعاذلَ إنْ نُصَحِّكَ لى عِناهُ خُشْبِكَ قد سِمتُ وقد عَصِيتُ

الاستبداد وكرهه المشورة

ومن الناس من آثر الاستبداد برأيه وكره أن يستشير، قال المهلب
ابن أبي صفرة: لو لم يكن في الاستبداد بالرأى إلا صوت السرِّ وتوفيرُ

العقل لوجب التمسكُ به ... وقال عبد الملك بن صالح ؛ ما استشرتُ أحداً
 قطُّ إلا تسكَّبرَ عليَّ وتصاغرتُ له ، ودخلته العِزَّةُ ودخلتني الذلَّةُ ؛ فعليك
 بالاستبدادِ ، فإن صاحبه جليلٌ في العيون ، مهيبٌ في الصدور ؛ واعلم
 أنك متى استشرتَ تضعَّضَ شأنك ، ورجفت بك أركانك ؛ وما عزَّ سلطانٌ
 لم يُغنيه عقله عن عقولِ وزرائه ، وآراءِ نصحاياه ؛ فأياك والمشورة وإن
 ضاقت عليك المذاهب ، واشتهتُ لديك المسالك .

ورَووا : أن أبا جعفر المنصور كان يستشير أهل بيته حتى مدحا
 ابن هرمة ^(١) بقوله :

يُزْنَ امرأً لا يُصلِحُ القومُ أمره

ولا يلتجئ الأذنين فيما يُحاور ^(٢)

فاستوى جالساً وقال : أصبتَ والله ! واستعاده ، وما استشار بعدها .
 وقال بعضُ جلساء هارون الرشيد . أنا قتلْتُ جعفر بن يحيى البرمكي
 وذلك أني رأيت الرشيد يوماً وقد تنفَّس تنفَّساً مُنكرًا فأنشدت في إثر
 نفسه :

واستبَدت مرةً واحدةً إنما العاجِزُ من لا يستبد ^(٣)

فأصغى إليه واستعاده ، ثم قتل جعفرًا ...

(١) هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة ، من متقدمي الشعراء ، ومن أدرك
 الدولتين الأموية والهاشمية ترجم له صاحب الأغانى ج ٤ ،
 (٢) انتباه : إذا أفضى إليه سره وخصه به
 (٣) لعمر بن أبي ربيعة وقوله :

ليت هنبداً أنجزتنا ما تعدُّ وسفقت أنفسنا مما نجد

وكانت الفرس والروم مختلفين في الاستشارة، إقالت الروم: نحن لا نملك من يحتاج إلى أن يستشير، وقالت الفرس: ونحن لا نملك من يستغنى عن المشاورة؛ وقد فضل الفرس لقوله تعالى « وشاورهم في الأمر » .

المتفادى من أن يستشار

ومن الناس من يكره أن يُشير :

استشار عبد الله بن عليّ عبد الله بن المقفّع فيما كان بينه وبين أبي جعفر المنصور، فقال ابن المقفّع: لست أقود جيشاً، ولا أتقلدُ حرباً، ولا أُشير بسفك دم، وعثرة الحرب لا تستتمال، وغيرى أولى بالمشورة في هذا المكان ...

واجتمع رؤساء بني سعد إلى أكنم بن صيفي يستشيرونه فيما دهمهم يوم الكلاب، فقال: إنّ وهن الكبر قد فشا في بدني، وليس معي من حدة الذهن ما أبتدئ به الرأي، ولكن اجتمعوا وقولوا، فإنّي إذا مرّ بي الصواب عرفته.

الأنانة والروية والعجلة

مدح الأنانة والروية وذم العجلة

وكانوا يمدحون الأنانة في الرأي وإجمالة الفكرة فيه وعدم التسرع .
كان عبد الله بن وهب الراسبي يقول: لإيائى والرأى الفطير ا وكان يستعيد بالله من الرأى الدبرى .

« الفطير: كل ما أعجل عن إدراكه، تقول: فطرت العجين، وهو

أَنْ تَعِجْنَهُ ثُمَّ تَحْتَبِزُهُ مِنْ سَاعَتِهِ . وَالذَّبْرِيُّ : الَّذِي يَسْنَحُ بَعْدَ الْفَوْتِ
يُقَالُ : شَرُّ الرَّأْيِ الذَّبْرِيُّ ، وَهُوَ الَّذِي يُسْنَحُ آخِرًا عِنْدَ فَوْتِ الْحَاجَةِ ،
أَيُّ أَنْ شَرَّهُ إِذَا أَدْبَرَ الْأَمْرُ وَفَاتَ ، وَبِنِ ذَا قَوْلِهِمْ : عَرَفَ الْأَمْرَ تَدْبِيرًا ،
أَيُّ بِأَخْرَجَةٍ قَالَ سَجْرِيرُ :

وَلَا تَنْقَرُونَ الشَّرَّ حَتَّى يَصِيبَكُمْ وَلَا تَعْرِفُونَ الْأَمْرَ إِلَّا تَدْبِيرًا
وَيُقَالُ : إِنْ فُلَانًا لَوِ اسْتَقْبَلَ مِنْ أَمْرِهِ مَا اسْتَدْبَرَهُ لَهْدَى لِيُوجِّهَهُ
أَمْرِهِ ، أَيُّ لَوْ عَلِمَ فِي بَدْيِ أَمْرِهِ مَا عَمِلَهُ فِي آخِرِهِ لَأَسْتَرْشَدَ لِأَمْرِهِ «
وَكَانَ عَامِرُ بْنُ الظَّرِبِ حَكِيمًا الْعَرَبُ يَقُولُ : دَعَا الرَّأْيَ يَغِيبُ حَتَّى
يَخْتَمِرَ ، وَإِيَّاكُمْ وَالرَّأْيَ الْفَطِيرُ ! يَرِيدُ الْإِنَاءَةَ فِي الرَّأْيِ وَالتَّثَبُّتَ فِيهِ
وَقَالَ الشَّعْبِيُّ — عَامِرُ بْنُ شَرَاهِيلَ — : أَصَابَ مُتَأَمِّلٌ أَوْكَادًا ، وَأَخْطَأَ
مُسْتَعْمِلٌ أَوْكَادَ « الْمُتَأَمِّلُ : الْمُتَثَبِّتُ يَقُولُ : تَأَمَّلْ فُلَانٌ : إِذَا تَثَبَّتْ وَنَظَرَ
فِي الْأَمْرِ »

وقال شاعر :

تَأَنَّ وَشَارِرُ فَإِنَّ الْأَمْرَ رَمَنَّا مُضِيءٌ وَمُسْتَعْمِلُ
فَرَايَانٍ أَنْضَلُ مِنْ وَاحِدٍ وَرَأْيُ الثَّلَاثَةِ لَا يُنْقَضُ

وقال المتنبي :

الرَّأْيُ قَبْلَ شِجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوْلُّ وَهَى الْمَحَلِّ الثَّانِي
فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ مُرَّةٍ بَلَغَتْ مِنَ الْعَلْيَاءِ كُلِّ مَكَانٍ (١)
وَلَرَّبَّمَا طَقَّنَ الْقَمَى أَقْرَانَهُ بِالرَّأْيِ قَبْلَ تَطَائُنِ الْأَقْرَانِ

(١) لنفس مرة: من المرارة، وتروى مرة بكسر الميم: القوة والشدة، وأصل المرة
إحكام الفتل يقال: أمر الحبل إمرارا، وتروى: حرة

لولا العقول لكان أذنى ضيغمٍ أذنى إلى شرف من الإنسان^(١)
ولما تفاضلت العقول ودبرت أيدي الكماة عوالي المران^(٢)
وفي الأثر: ما دخل الرفق في شيء إلا زانه، ولا الخرق إلا شانه.
وقال القطامي:

قد يذرك المتأني بعرض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل
وقال:

وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تتبعه أتباعا^(٣)
وقبله:

ومعصية الشفيق عليك مما يزيدك مرة منه استماعا^(٤)

مدح العجلة وانتهاز الفرص

وهناك من الخطوب ما تُمدح فيه العجلة:

قيل لأبي العيثاء: لا تعجل فالعجلة من الشيطان ا فقال: لو كان ذلك
كذلك لما قال نبي الله موسى «وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى»
وقال معاوية: ما من شيء يعدل التثبث ا فقال الأحنف بن قيس: إلا
أن تُبادر بالعمل الصالح أجلك ...

(٢١) الضيغم: الأسد والمراد بأذنى ضيغم: أدون وأخس، وأذنى إلى شرف:
أقرب، والعوالي: صدور الرماح، والمزان: الرماح اللينة، والسكاة جمع كمي وهو
البطل المشتعل بالسلاح

(٣) يقول: خير الأمر ما قد تدبرت أوله فعرفت إلام تؤل عاقبته، وشره
ما ترك النظر في أوله، وتتبع أو آخره بالنظر

(٤) يقول: إذا عصيت الشفيق عليك الحريص على رشدك تبينت في عواقب
أمرك الزلل فزادك حرصاً على أن تقبل نصحه.

وقالوا: المتأني في علاج الداء، بعد أن عرف الدواء، كلمتأني في إطفاء النار وقد أخذت بحواشي ثيابه ...

وسأل أبو علي البصيرُ بعضَ الأمراء حاجة: فقال له: رُح إلى وقتِ العَصْرِ، فجاء وقتَ الظُّهر، فقال: ألم أعدك وقتَ العَصْرِ؟ فقال: نعم، ولكن رأيتُ الإفراطَ في الاستظهارِ أحمدَ من الاستظهارِ في التواني ... والاستظهار هنا معناه: الاحتياط والاستيثاق،

ومن قولهم في انتهاز الفرص: الهيبية خيبة والفرصة تمرُّ مَرَّ السحاب... وقالوا: انتهز الفرصة قبل أن تعودَ عُصَّة. وقالوا: الافتراض اقتيناص...

عبقریات شتی فی المشورة

قال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب - شاعر
ضخم أدرك الدولة العباسية - :

فأرسل حكيماً ولا تُوِصِه	إذا كنتَ في حاجة مُرْسِلاً
فشاوِرَ كَبِيباً ولا تَعِصِه	وإن بابُ أمرٍ عليك التَوَى
حديثاً إذا أنتَ لم تُحِصِه	ولا تَنطِقِ الدهرَ في بجاسِ
فإنَّ الوثيقةَ في نَصِه ^(١)	وُنصَّ الحديثَ إلى أهله
فلا تَنأَ عنه ولا تُقِصِه	وإن ناصحُ منكَ يوماً دَنَا
وقد تَدجِبُ العينُ من شَخِصِه	وكم من فتى شاحِصَ عقله
ويأتيك بالامرِ من فِصِه ^(٢)	وأخَرَ تحسُّبه جاهلاً

(١) نص الحديث: رفعه وأسنده؛ والوثيقة في الأمر: لإحكامه والاختذ بالثقة

(٢) فص الأمر: أصله وحقيقته تقول: أنا أتيك بالأمر من فسه، يعني: من

مخرجه الذي قد خرج منه

وقال ابن المقفع: لا يُقَدَّفَنَّ في رُوعِكَ أنك إذا اسْتَشَرْتَ الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأى غيرك فتتقطع بذلك عن المشورة ، فإنك لاتريد الرأى للفخْرِ ولكن للانتفاع به ، ولو أنك أردت الذكر لكان أحسنُ الذكر عند الألباء أن يُقال : لا ينقَرِدُ برأيه دون ذوى الرأى من إخوانه ...

ولما سار سيدنا رسول الله إلى قُريشٍ في غزاة بدر نزل صلى الله عليه وسلم أذنى ماءٍ من مياه بدر ، فقال له الحَبَابُ بنُ المُنْذِرِ : يا رسول الله ، رأيت هذا المنزل أمزِلُ أنزَلَكُهُ اللهُ عز وجل ليس لنا أن نتقدّمه ولا أن نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحربُ والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحربُ والمكيدة ؛ فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس لك بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أذنى ماءٍ من مياه القوم فننزله ، ثم نُقَوِّرْ^(١) ما سواه من القُلبِ ، ثم نبتى عليه حوضاً فتملأه ماءً ، ثم نُقاتِلَ القومَ فنشرب ولا يشربوا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد أمرت بالرأى » وفعل ما أشار به الحَبَابُ .

وفي حديث أبي هريرة : ما رأيتُ أحداً أكثر مشورة لأصحابه من النبي صلى الله عليه وسلم ... « أقول : وإنما كان يشاورهم — كما قال علماؤنا — فيما ليس فيه نص ، وفي أمور الدنيا ، ومن ظنَّ أنه كان يشاورهم في الأحكام فقد غفل غفلةً عظيمةً كما قال الأئمة ، وكذلك إنما كانت المشاورة قبل العزم والتبيين ، فإذا عزم الرسول لم يكن لبشْرِ التَّقدُّمِ على الله ورسوله ، قال العلماء : فلتقد شاورَ النبي أصحابه يوم أُحُدٍ في المقام

(١) عور الركبة : كبسها بالتراب حتى تفسد عيونها

والخروج ، فأوأله الخروج ، وكان صلوات الله عليه يرى أن يُقيم
بالمدينة فيقاتلهم فيها ، فما زالوا برسول الله حتى لبس لأمته ^(١) فلما لبسها
ندموا وقالوا : يارسول الله أقيم فالرأى رأيك ، فلم يمل إليهم بعد العزم
وقال : لا يلبغى لنبي يلبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله... وكذلك كان
الخلفاء الراشدون يستشيرون الأئمة من أهل العلم في الأمور التي لم يكن
فيها نصٌ بحكم معين ليأخذوا بأمرها ، فإذا وضح الكتاب والسنة لم
يتعدوه إلى غيره ، فقد كان أبو بكر رضى الله عنه إذا ورد عليه أمرٌ نظر
فإن وجد في كتاب الله أو سنة رسوله ما يقضى به قضى وإلا دعا رؤس
المسلمين وعلماءهم واستشارهم ، وكذلك كان يفعل الفاروق وسائر الخلفاء
رضى الله عن الجميع »

قالوا : وكانت الروم والفرس لا يجمعون وزراءهم على الأمر يستشيرون
فيه ، وإنما كانوا يستشيرون الواحد منهم من غير أن يسلم الآخر به ؛
وذلك لمعانٍ منها أن لا يقع بين المستشارين منافسةٌ تذهب بأصالة الرأي
وصحة النظر ، لأن من طباع المشركين في الأمر التناقض والتغالب والطعن
من بعضهم على بعض ، وربما أشار أحدهم بالرأى الصواب وسبق إليه
فحسده الآخرون فتعقبوه بالإعراض والتأويل والتّهجين وكدره وأفسدوا
ومنها أن في اجتماعهم على المشورة تعريض السر للإضاعة والإفشاء والإذاعة
ولذلك قالت الفرس : إنما يراد الاجتماع والكثرة والتأصّر في الأمور
التي يحتاج فيها إلى القوة ، أما الأمور الغائصة فإن الاجتماع يفيد لها ويؤلّد
فيها التضاعن والتناقض ...

وجاء في كتاب للهند : أن ملكا استشار وزراء له ، فقال أحدهم :

(١) أداة الحرب من درع وبيضة وغيرهما من السلاح

الملك الحازمُ يزدادُ برأىِ الوزراءِ الحزّةِ كما يزدادُ البحرُ بموآدّه من الأنهار
وينال بالحزم والرأى ما لا يناله بالقوة والجنود ؛ وللأسرار منازلُ : منها
ما يدخُلُ الرهطُ فيه ، ومنها ما يُستعان فيه بقوم ، ومنها ما يُستغنى فيه بواحد
وفي تحصين السر الظفر بالحاجة والسلامة من الخلال ، والمستشير وإن كان
أفضلَ رأياً من المشير فإنه يزداد برأيه رأياً كما تزداد النارُ بالسليط ضوئاً^(١) ؛
وإن كان الملكُ مُحصناً لسيره بعيداً من أن يُعرف ما في نفسه متخيراً للوزراءِ
مهيّباً في أنفيس العامة كافيّاً بحسن البلاء لا يخافهُ البريء ولا يأمنه المرئيب
مقدراً لما يُفيد وينفق ، كان خليقاً لبقاؤِ مُلكه . ولا يصلح لسرنا هذا إلا
لسانان وأربعُ آذانٍ . ثم خلا به ...

(وبعد) فإن دولة الاستبداد قد أدل منها في هذه الأجيال وشال أمرها في
الميزان ، ورجحت كِفّة الشورى ونفقت سُوتها ، وخطت في عصرنا هذا
مُخطواتٍ رغبيةً موفقةً ، وعمت أكثر الأمم التي أعرقت في الحضارة ، وظهر
أن مجالسَ الشورى على علاتها هي خيرُ ألوان الحكم ، ومن الذي يقول
إن الاستبداد أو الحكم المطلق الذي لا رِبة عليه هو أفضل من الشورى
أيّاً كان لونها اللهم إلا رجُلٌ أحق مافون ليس بثاقب الرأى ، وإذا كانت
الشورى لا تعرى من العيوب فأين لا أين الخير مُحصناً والكمال صرفاً ...

(١) السليط : الزيت والمراد زيت المصباح

عقوباتهم في الوعظ

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وعما يتصل بهذا الباب عقوباتهم في الوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلنورد لك صدرًا من ذلك إن شاء الله

نهي من لم يتعظ عن الوعظ

قال رجلٌ لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : عِظْنِي وَأَوْجِزْ ، فقال :
تَبَوَّقْ مَا تَعِيبُ .

وجاء رجل إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنه فقال : لاني أريد أن أعظ ، فقال : أَوْبَلَّغْتَ ذَلِكَ إِنْ لَمْ تَخْشَ أَنْ تَفْضَحَ بِشَلَاكِ آيَاتِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَافْعَلْ ، قال : ماهي ؟ قال : قول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبِرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » وقوله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » ، وقول العبد الصالح شُعَيْب « مَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُم عَنْهُ » أَلْحَكَمْتَ هَذِهِ الْآيَاتِ ؟ قال : لا ، قال : فابدأ إِنْ بِنَفْسِكَ .

وقال شاعر :

يا وادِّظِّ الباسِ قد أصبَحْتَ مُتَّهِمًا إذ عِبتَ منهم أموراً أنت تأتِها
كَمَنْ كَسَا النَّاسَ مِنْ عُرْيٍ وَعَوْرَتُهُ للناسِ باديةٌ ما إنْ يُوارِها

حشهم على الوعظ بالفعال دون المقال

قال بعضهم : ليس الحكيم الذي يُلقنُك الحكمة تلقينا ، إنما الحكيم

الذى يعملُ العملُ الحكيمُ فتفتدي به .
 وقال آخر ؛ أخذ المرء نفسه بحسنِ الأدبِ تأديبُ لأهله .
 ومن هذا يقول محمود الوراق :
 رأيتُ صلاحَ المرءِ يُصليحُ أهلهُ ويُعديهمُ داءُ الفسادِ إذا فسدُ

التلطف واللين في الوعظ

تصدى رجل للرشيد فقال : إنني أريد أن أغظ عليك في المقال ،
 فهل أنت مُحتمِل ؟ قال : لا ؛ لأن الله تعالى أرسل من هو خيرٌ منك إلى
 من كان شرًّا مني ، وأمره باللين ، فقال تعالى : « فقولوا له قولاً ليناً لعله
 يتذكر أو يخشى ،

وقالوا : واجبٌ من يعظ أن لا يعنف ، ومن يؤعظ أن لا ياتف

الحث على الاتعاظ

قالوا : السعيد من وعظ بغيره والشقي من وعظ به غيره . وقالوا :
 من لم يتعظ بغيره وعظ الله به غيره .

وعظ من لا يتعظ

قالوا : لا ينجح الوعظ في القلوب القاسية ، كما لا يزكو البذر في
 الأرض الجاسية .

وقالوا : صفة لك سيفاً ليس له سنخ^(١) ثقب ، وبذر لك أرضاً
 سبخة نضب .

(١) السنخ : الأصل من كل شيء . تقول : رجع فلان إلى سنخه الكريم وإلى سنخه الخبيث

وقالوا : من استثقل سماع الحق فهو للعمل به أكثر استثقالا ...

حشهم على قبول وعظ من ليس بمتعظ

قالوا : لا يمتنعنكم سوء ما تعملون عنا أن تعملوا بأحسن

ما تسمعون منا .

وورد في الأثر : مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به ، وانتهوا عن المنكر

وإن لم تلتفتوا عنه :

وقال الحسن البصري^١ يوماً لبعض الصالحين : عِظْ أصحابك ، فقال له :

إنني أخاف أن أقول ما لا أفعل ، فقال له : يَرْتَحِمُكَ اللهُ ، وأثينا يقول

ما يفعل أيودُ الشيطانُ أنه ظفِرَ بهذه منكم فلم يأمر أحدٌ بمعروف ولم يَنْهَ

عن مُنْكَر ...

النهي عن الاقتداء بدوى الزلات

قال بعض العلماء : إياك والاقتداء بزلات أصحاب النبي صلى الله عليه

وسلم فتقول : فلان شرب النبيذ ، وفلان سمع الغناء ، وفلان لعب بالشطرنج

فيخرج منك فاسق تامم ... وقالوا : من أخذ برخصة كل فقيه خرج منه

فاسق ...

الحث على الأمر بالمعروف والحال التي يجوز فيها

قال الله تعالى : « وَتَلَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ^(١) »

(١) قال الإمام البيضاوي في تفسيره : من في منكم للتبويض لأن الأمر

وقال سيدنا رسول الله : « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكِرًا وَاسْتَطَاعَ أَنْ يُغَيِّرَهُ
بِيَدِهِ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ
أَضْعَفُ الْإِيمَانِ .

وفى الأثر : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده عمهم الله
بمقابله .

وأما قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلَّ
إذا اهتديتم » فقد قال الإمام البيضاوي : قوله : عليكم أنفسكم ، أى احفظوها
والزموا إصلاحها ، ولا يضركم ... الآية : أى لا يضركم الضلال إذا كنتم
مُهتدين ، قال : ومن الاهتداء أن ينكر المنكر حسب طاقته ، وقال : نزلت
هذه الآية لما كان المؤمنون يتجسرون على الكفرة ويتمنون إيمانهم ، وقيل
كان الرجل إذا أسلم قالوا له : سَفَهْتَ آبَاءَكَ ، فنزلت «

وقال الراغب الأصبهاني : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
صلوات الله عليه : ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، وإذا رأيت
شُحًا مُطَاعًا وَهُوَ مُتَّبَعًا وَإِعْجَابٌ كُلُّ أَمْرٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَوْضِ نَفْسِكَ

بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية ، ولأنه لا يصلح له كل أحد
إذ للتصدي له شروط لا يشترك فيها جميع الأمة ، كالعلم بالأحكام ومراتب
الاحتساب وكيفية إقامتها والتمكن من القيام بها ، خاطب الجميع وطلب فعل بعضهم
ليدل على أنه واجب على الكل حتى لو تركوه رأساً أئموا جميعاً ، ولكن يسقط بفعل
بعضهم ، وهكذا كل ما هو فرض كفاية ثم قال : والدعاء إلى الخير يعم الدعاء إلى
ما فيه صلاح ديني أو دنيوي ، وعطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عليه عطف
الخاص على العام للإيدان بفضله

وَدَعَّ أَمْرَ الْعَوَامِّ (١) ، ثم قال الراغب : وقال أكثر المتكلمين : لا يجوز ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل موضع ، لكن من علم أوطن أن قوله يَنْفُذُ وأن لا يئأله مكروه إذا أمرَ أو نهى فعليه أن يفعل ذلك ، ومتى خاف على نفسه فعليه أن يُنكِرَ المنكر بقلبه دون لسانه ...

(١) خويصة : تصغير خاصة بسكون الياء لأن ياء التصغير لا تكون إلا ساكنة وجوز النقاء الساكنين فيها أن الأول حرف لين والثاني مدغم ، وعليك بخويصة نفسك : جاهد نفسك وانكش في الاعمال الصالحة ، ثم قال : ودع أمر العوام يريد : دع السواد الاعظم فيما هم فيه سادرون

الباب الخامس

في

الحلم وكظم الغيظ

والعفو والغضب والانتقام

وما إلى هذه المعاني

والحلم كذلك لونٌ من ألوان الصبر، أليس هو تجرّع الغيظ أو إمساك النفس عن ثورة الغضب وهيجه وانبعائه؛ وهو فضيلة عاليا ما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظٍ عظيم^(١) ومن كلام النبوة: كادَ الحلم أن يكون نبياً. وهو نتاج العقل والأناة، أو قل: إنه هُما. قال عزَّ وجلَّ يَذُمُّ الكُفَّارَ مُتَعَجِّبًا مِنْهُمْ: «أم تأمرهم أحلامهم بهذا»، وسأل عليُّ رضي الله عنه كبيرَ فارسٍ عن الغالبِ كان على كِسْرَى أنو شروان؛ قال: الحلم والأناة، قال: هما توأمان يذتجهما علو الهمة وقال الشاعر:

لَنْ يُدْرِكَ الْمَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ كَرُمُوا

حَتَّى يَذُلُّوا — وَإِنْ عَزُّوا — لِأَقْوَامٍ

وَيُشْتَمُّوا فَتَرَى الْأَلْوَانَ مُسْفِرَةً . لِاصْفَحْ ذُلًّا وَلَكِنْ صَفِّحْ أَحْلَامًا^(٢)

(١) آية كريمة هي: «ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظٍ عظيم

(٢) مسفرة: مشرقة مضيئة. سرورا

قالوا : وان يَتَمَّ حِلْمُ الْإِنْسَانِ إِلَّا بِإِمْسَاكِ الْجَوَارِحِ كُلِّهَا : اليد عن البَطْشِ ، واللسان عن الفُحْشِ ، والعين عن النَّظَرِ الشَّرِّ ، وأقربُ لفظ يقابل الحِلْمَ هو التَّنْمُرُ . وقال أبو هلالٍ العسكري : وَمِنْ أَشْرَفِ نُعُوتِ الْإِنْسَانِ أَنْ يُدْعَى حَلِيمًا ، لِأَنَّهُ لَا يُدْعَاهُ حَتَّى يَكُونَ عَاقِلًا وَعَالِمًا وَمُصْطَبِرًا وَعَفْوًا وَأَصَاحِفًا وَمَحْتَمَلًا وَكَاطِمًا ، وهذه شرائف الأخلاق وكرائم السجايا والخصال .
والحِلْمُ : منه ماهو غريزيٌّ ، وهو هبةٌ من الله لعبده يَعْفُو عَمَّن ظَلَمَهُ ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ ، وَيُحْسِنُ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ ، يَصْدُرُ فِي ذَلِكَ عَنْ نَجِيزَةِ كَرِيمَةٍ وَغَرِيزَةِ سَلِيمَةٍ وَصَدْرٍ سَالِمٍ مِنَ الْغَوَائِلِ وَالْأَذَى ، صَافٍ مِنْ شَوَائِبِ السُّكْرِ وَالْقَدَى ، وَهَذَا هُوَ الْحِلْمُ الَّذِي لَا يُسْتَطَاعُ تَعَلُّمًا وَلَا يُكْتَسَبُ تَحَلُّمًا :

وَإِذَا الْحِلْمُ لَمْ يَكُنْ فِي طِبَاعٍ لَمْ يُحْتَمَلْ تَقَادُمُ الْمِيْلَادِ [المتنبى] رَوَى أَنَّ سَيِّدَنَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لِأَشْجَعِ عَبْدِ الْقَيْسِ : يَا أَبَا الْمُنْذِرِ ، إِنَّ فِيكَ تَحْضَلَتَيْنِ يَرْضَاهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ : الْحِلْمُ وَالْإِنَاةُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَمِ شَيْءٌ جَبَلْتَنِي اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْ شَيْءٌ اخْتَرَعْتَهُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِي ؟ قَالَ : « بَلْ شَيْءٌ جَبَلَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلْتَنِي عَلَى حُلُقِي يَرْضَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ . وَهَنَّاكَ مِنْ يَقُولُ : إِنْ الْحِلْمَ لَيْسَ غَرِيزَةً وَلَا طَبِيعَةً بَلْ مُكْتَسَبٌ مُسْتَفَادٌ : وَأَيُّكَانَ الْحَالُ فَلَيْسَ مِنْ يُنْكَرُ أَنْ مِنَ الْحِلْمِ مَا هُوَ غَرِيزِيٌّ كَمَا قُلْنَا ، كَمَا أَنَّ هُنَاكَ حِلْمًا يُكْتَسَبُ بِالتَّحَلُّمِ كَمَا أَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ :

قال حاتم :

تَحَلَّمْ عَنِ الْأَذْنَيْنِ وَاسْتَبِقِ وَدَّهْمِ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْحِلْمَ حَتَّى تَحَلِّمًا
يُرَوَى أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ جَعْفَرِ الصَّادِقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَبْدٌ سَمِيَ الْخُلُقُ ، فَقِيلَ لَهُ : أَمَا تَأْتَفُ مِثْلَ هَذَا عِنْدَكَ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَى الْإِسْتِبْدَالِ بِهِ ؟ فَقَالَ :

إنما أتركه لأتعلم عليه الحلم...

وقال الشاعر:

وليس يَتَمُّ الحِلْمُ للبرِّ راضياً إذا هو عند الشُّخِطِ لم يَتَحَلِّمْ
كما لا يَتَمُّ الجُودُ للبرِّ مُوسِراً إذا هو عند القَسْرِ لم يَتَحَشِّمْ

[يتحشم: يندم ويستحي]

وهناك حلم حادث عن الكبر والعجرفة، لا يرى المسمى أهلاً أن يُجاريه، كما أن هناك حلمٌ هانئٌ وذلةٌ وعجزٌ وضعفٌ نفسٌ وصغرٌ همةٌ

الممدوح بالحلم وتمدحهم به

قال مهباز الديلمي:

وإذا الإباءُ المرُّ قال لك: انتقم قالت خلائقك الكرام: بل أحلم
شرع من العفو انفردتَ بدينه وفضيلةُ لسواك لم تتقدم
حتى لقد ودَّ البريء لو أنه أدلى إليك بفضلٍ جاء المجرم

وقال بعضهم:

فدهره يصفح عن قدرة ويغفر الذنب على علمه
كأنه يأنف من أن يرى ذنب امرئٍ أعظم من حلمه

وقال المتنبي:

وأحلم عن خلى وأعلم أنه متى أجزه حليماً على الجهل يندم

وقال سالم بن وإبسة^(١):

(١) شاعر إسلامي تابعي، وهو صاحب هذه الأبيات: - وهي من أبيات الحناسة

أحبّ الفتى ينفى الفواحش سمعه كأن به عن كلِّ فاحشة وقراً

وَنِيرَبٍ مِنْ مَوَالِي السُّوءِ ذِي حَسَدٍ يَبْتَاتُ لِحُمَى وَمَا يَشْفِيهِ مِنْ قَرَمٍ ^(١)
 دَاوَيْتُ صَدْرًا طَوِيلًا غَمْرُهُ حَقْدًا مِنْهُ وَقَلَّمْتُ أَظْفَارًا بِلا جَلْمٍ ^(٢)
 بِالْحَزْمِ وَالْحَيْرِ أَسْدِيهِ وَأَلْحِمُهُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَمَا لَمْ يَرْتَعْ مِنْ رَحِمٍ ^(٣)
 فَأَصْبَحَتْ قَوْسُهُ دُونِي مُوْتَرَةً تَرْمِي عَدُوِّي جِهَارًا غَيْرَ مُسْكْتِيمٍ ^(٤)
 وَإِنِّي فِي الْحِلْمِ ذُلًّا أَنْتَ عَارِفُهُ وَالْحِلْمُ عَنْ قُدْرَةٍ فَضْلٌ مِنَ الْكِرَامِ
 وَقَالَ بَعْنُ بِنِ أَوْسِ الْمُرَزِيِّ: ^(٥)

وَذِي رَحِمٍ قَلَّمْتُ أَظْفَارَ ضَغْنِيهِ بِحِلْمِي عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ

تَسْلِيمٌ دَوَاعِي الصَّدْرِ لَا بِاسِطًا أَذَى وَلَا مَانِعًا خَيْرًا وَلَا قَاتِلًا هُجْرًا
 إِذَا شِئْتَ أَنْ تُدْعَى كَرِيمًا مُسْكْرَمًا أَدِيًّا ظَرِيفًا عَاقِلًا مَا جَدًّا حُرًّا
 إِذَا مَا أَتَتْ مِنْ صَاحِبٍ لَكَ زَلَّةٌ فَكُنْ أَنْتَ مُحْتَالًا لِزَلَّتِهِ عُدْرًا
 غِنَى النَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ حَنَّةٍ فَإِنْ زَادَ شَيْئًا عَادَ ذَلِكَ الْغِنَى قَفْرًا

(١) النيرب: الشر والنميمة، أراد: وذى نيرب، والقرم: شدة الشهوة إلى اللحم يقول: رب ذى نيرب حسود من موالى السوء يفتابنى ويأكل لحي ولا يشفيه ذلك من قرم، ويقتات: يفتعل من القوت.

(٢) الغمر: الحقد والغل، والجلم: أحد شقي المقرض وإنما هما جلمان يقول: صابرته على مداجاته وانطوائه على حقدى فدفعت شره عن نفسى بطول مداراتى. وحقدًا: أى حاقدا وداويت صدره: أى مكنون صدره.

(٣) بالحزم متعلق بداويت أو قلت وقوله: تقوى الإله يرجع إلى أسديه، وما لم يروع من رحم: يرجع إلى ألحيه.

(٤) يقول: ما زلت أنلطف وأصلح الأمر الفاسد بالرفق قليلا قليلا حتى صار يقاتل عدوى مجاهرة بعد أن كان يعادبنى مكاشرة.

(٥) شاعر غل من مخضرمى الجاهلية والإسلام وأبياته هذه من أبيات له طوييلة.

تراها فى الامالى ج ٢

يُحَاوِلُ رَغْمِي لَا يُحَاوِلُ غَيْرَهُ وكالموتِ عندي أَنْ يَحِلَّ بِهِ الرَّغْمُ (١)
 وَيَشْتَمُ عِرْضِي فِي الْمَغْيِبِ جَاهِدًا وليس له عندي هَوَانٌ وَلَا شَتْمٌ
 إِذَا سُمِّيَتْهُ وَضَلَّ الْقَرَابَةَ سَامِيًا قطيعتها ، تلك السَّفَاهَةُ وَالْإِثْمُ
 فَمَا زِلْتُ فِي لَيْسِي لَهُ وَتَعْطْفِي عليه كما تَحْنُو عَلَى الْوَالِدِ الْأُمُّ
 وَصَبْرِي عَلَى أَشْيَاءَ مِنْهُ تَرِيْبِي

وَكَظَمِي عَلَى غَيْظِي وَقَدْ يَنْفَعُ الْكَظْمُ (٢)
 لِأَسْتَلَّ مِنْهُ الضَّغْنَ حَتَّى اسْتَلَمْتُهُ وقد كَانَ ذَا ضِغْنٍ يَضِيئُ بِهِ الْحَزْمُ
 فِدَاوَيْتُهُ حَتَّى ارْفَأَنْتَ نِفَارَهُ فَعُدْنَا كَأَنَّا لَمْ يَكُنْ بَيْنَنَا صَرْمٌ (٣)
 وَأَطْفَأَتْ نَارَ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأَصْبَحَ بَعْدَ الْحَرْبِ وَهُوَ لَنَا سَلْمٌ
 وَقَالَ شَاعِرٌ :

لَقَدْ أَسْمِعُ الْقَوْلَ الَّذِي هُوَ كَلِمَا نَدَّ كَرْنِيهِ النَّفْسُ قَلْبِي يُصَدِّعُ
 فَأُبْدِي لِمَنْ أَبْدَاهُ مِنِّي بِشَاشَةً كَأَنِّي مَسْرُورٌ بِمَا مِنْهُ أَسْمَعُ
 وَمَا ذَاكَ مِنْ عَجْزٍ بِهِ غَيْرَ أَنِّي أَرَى أَنْ تَرَكَ الشَّرَّ لِلشَّرِّ أَدْفَعُ

فضل كظم الغيظ

يقال : كظّم الرجل غيظه يكظّمه كظما : رده وحبسه وتجرحه . قال تعالى :
 « وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظِ » قال بعض اللغويين : يعني أعدت الجنة للذين جرى
 ذكرهم وللذين يكظّمون الغيظ .

(١) الرغم : الذل والقسر

(٢) رابه فلان وأرابه : إذا رأى منه ما يكره

(٣) ارفأنت : سكن مأخوذ من رفا الثوب : لأم خرقه وضم بعضه إلى بعض

وفي الحديث : « مامن جرعة يتجرعها الإنسان أعظم أجراً من جرعة غيظ في الله عز وجل »

وقالوا: الكظمُ يدفعُ محذورَ الندمِ ، كالماء يُطفئُ حرَّ الضرمِ
وقال بعضهم : كظمٌ يترددُ في خلقٍ أحبُّ إلى من نقصٍ أجدهُ في
مُخلقٍ .

وقال : * وأفضلُ رحلمٍ حِسبةٌ حِلْمٌ مُغَضِبٌ *
وقال معاويةُ : ما وَجَدْتُ لَذَّةً هِيَ عِنْدِي أَلذُّ مِنْ غَيْظِ أَتَجَرَعُهُ وَسَفَهُ
بِحِلْمِ أَقَمَعُهُ . وقال لابنهِ يزيدُ : عليك بالحلم والاحتمال حتى تُمَسِّكَكَ الفُرْصَةُ
إِذَا أَمَكَنْتَكَ فَعَلَيْكَ بِالصَّفْحِ ، فَإِنَّهُ يَدْفَعُ عَنكَ مُعْضَلَاتِ الْأُمُورِ ، وَيَقِيكَ
مَصَارِعَ الْمَحْذُورِ

الغضب وألوانه

وما يسكن به ثورانه

قال الراغب : مَثَلُ الْغَضَبِ مَثَلُ نَارٍ مَا يَشْتَعِلُ ، وَالنَّاسُ فِيهِ مَخْتَلِفُونَ ،
فبعضُهُمْ كَالْحُلْفَاءِ (١) سَرِيعُ الْوُقُودِ سَرِيعُ الْحُمُودِ ، وَبعضُهُمْ كَالغَضَا (٢) بَطِيءُ الْوُقُودِ
بَطِيءُ الْحُمُودِ ، وَبعضُهُمْ سَرِيعُ الْوُقُودِ بَطِيءُ الْحُمُودِ ، وَبعضُهُمْ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ
ذَلِكَ ، وَهُوَ أَحْمَدُهُمْ ، مَا لَمْ يُؤَدِّ بِهِ ذَلِكَ إِلَى زَوَالِ حَيَاتِهِ ، وَفُقْدَانِ غَيْرَتِهِ .
وَإِخْتِلَافِ النَّاسِ فِي الْغَضَبِ قَدْ يَكُونُ مَرْدُهُ إِخْتِلَافُ الْأَمْزِجَةِ ، وَقَدْ يَكُونُ

(١) الحلفاء : نبت أطرافه محددة كأنها سعف النخل والحوص : يذبت في
مقايض المياه .

(٢) الغضا : شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب وجره يبقى زمناً طويلاً
لا ينطفئ الواحدة منه غضاة .

العادة ، إذ من الناس من اعتاد السكون والهدوء من سَجَرَاءِ إِنْفِهِ الذَّلِّ والانتقِاذَ والاستخْذَاءَ ، ومنهم من تعود الطيش والانتزاعَ فيحتدُّ من أدنى ما يُيلَمُ به ، مَثَلُهُ مِثْلُ كَلْبٍ يَسْمَعُ صَوْتًا فَيَبْجَحُ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ مَصْدَرَهُ ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ غَضَبًا الصِّبْيَانُ وَالنِّسَاءُ ، وَأَكْثَرُهُمْ ضَجْرًا الشُّيُوخُ ، وَأَجَلُ النَّاسِ شِجَاعَةً وَأَفْضَلُهُمْ مَجَاهِدَةً وَأَعْظَمُهُمْ قُوَّةً مَنْ كَفَمَ الْغَيْظَ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالضَّرْعَةِ ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَمَرَّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِقَوْمٍ يَرْفَعُونَ سَجْرًا فَقَالَ : (أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَشَدِّكُمْ ؟ : مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ) وَعَلِمَ أَنَّ نَارَ الْغَضَبِ مَتَى كَانَتْ عَنِيفَةً تَأْجَجَّتْ وَاضْطَرَمَتْ وَاحْتَدَّتْ غَلِيَانُ الدَّمِ فِي الْقَلْبِ وَابْتَلَّتْ الشَّرَائِينُ وَالذَّمَاغُ دُخَانًا مُظْلِمًا يَسُوهُ مِنْهُ حَالُ الْعَقْلِ وَيَضْعُفُ فِعْلُهُ ، وَكَأَنَّ الْكَهْفَ الضَّيْقَ إِذَا امْتَلَأَ حَرِيقًا وَاخْتَنَقَ فِيهِ اللَّهَبُ وَالذُّخَانُ وَعَلَى الْأَجْيِيعِ صَعْبَ عِلَاجِهِ وَإِطْفَاقِهِ ، وَصَارَ كُلُّ مَا يَدْنُو مِنْهُ مَادَّةً لِقُوَّتِهِ ، كَذَلِكَ النَّفْسُ إِذَا اشْتَمَلَتْ غَضَبًا عَمِيَتْ عَنِ الرَّشِدِ وَصَمَّتْ عَنِ الْمَوْعِظَةِ حَتَّى تَصِيرَ الْمَوَاطِظَ مَادَّةً لِعَظِيمِهَا ، وَرَبَّمَا آدَى الْغَضَبُ إِلَى تَلْفٍ ، وَهُوَ اخْتِنَاقُ الْحَرَارَةِ فِي الْقَلْبِ الْأَمْرُ الَّذِي قَدْ يَكُونُ سَبَبًا لِأَمْرٍ مُسْتَعْصِبَةٍ تُؤَدِّي إِلَى التَّلْفِ ؛ ثُمَّ قَالَ وَحَقٌّ مَنْ يَعْتَرِيهِ الْغَضَبُ أَنْ يُفْسَكَ ، فَإِنْ كَانَ الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِ تَحْتَ يَدِهِ فَلَا مَعْنَى لِاسْتِشْطَاتِهِ ؛ إِذْ هُوَ مَتَمَكِّنٌ مِنَ الْإِتْقَامِ مِنْهُ مَعَ سُكُونِ الْجَأَشِ ، وَإِنْ كَانَ غَضَبُهُ عَلَى مَنْ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ فَلَا مَعْنَى لِتَعْدِيهِ نَفْسَهُ فِي الْوَقْتِ وَإِنَّمَا الْإِخْلَاقُ بِهِ أَنْ يَصْبِرَ حَتَّى يَتِمَكَّنَ مِنْهُ ثُمَّ يَفْعَلَ الْوَاجِبَ ، قَالَ حَكِيمٌ : سُدَّ طَرِيقَ الْغَضَبِ قَبْلَ تَلْهِبِ نَارِهِ فِي لَحْمِكَ وَدَمِكَ نَائِكَ إِنْ لَمْ تُنْفِغْ نَارَ الْغَضَبِ

قبل انتشارها صُعب عليك إطفائها بعد أن تنتشر. وقال بعض الملوك الحكيم : كيف لي أن لا أغضب ؟ فقال : بأن تكون كل وقت ذاكراً أنه يجب أن تطيع لأن تطاع فقط ، وأن تُخذم لا أن تُخدم فقط ، وأن تتحقق أن الله تعالى يراك دائماً ، فإذا فمات ذلك لم تغضب وإن غضبت غضبت قليلاً ...

وقالوا : من غضب قائماً فبعد سَكَن غضبُهُ ، وإن كان قاعداً فاضطجع سَكَن .

وكانت العرب تقول : إن الرَيْثِمَةَ تَفْشَأُ الغضب : « الرَيْثِمَةُ : اللبن الحامض يُصَبُّ عليه الحليب ، وهو أطيب اللبن ، وَتَفْشَأُ الغضب : تُسَكِّنُهُ وَتَكْسِرُ حِدَّتَهُ ، وخطب معاوية يوماً فقال له رجلٌ : كذبت ، فنزل مُغَضَّباً ، فدخل منزله ، ثم خرج عليهم تَقَطُّرُ حَيْثُمَا ماء ، فصعد المنبر فقال : أيها الناس ، إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان من النار ، فإذا غضب أحدكم فليطفيه بالماء ؛ ثم أخذ في الموضوع الذي بلغه من خطبته .

وفي الحديث : إن الغضب جَمْرَةٌ تُوقَدُ في جَوْفِ ابنِ آدَمَ ، ألم تروا إلى جَمْرَةٍ عَيْنِيهِ وانتفاخ أوداجه ...

من اجتهد في إغضابه فلم

خاطرَ رجلٌ آخرٌ ^(١) على أن يُغضبَ الأحنفَ بنَ قيس ، فجاءه فخطب إليه أمه ، فقال : لسنا نرُدُّكَ انتقاماً لحسبك ، ولا قِلةَ رَغْبَةٍ في صَهارتك ولكننا امرأةٌ قد علا سِنُّها ، وأنت تحتاج إلى امرأةٍ ولودٍ ودودٍ تأخذُ من خُلُقِكَ ، وتَسْتَمِدُّ من أدبِكَ ؛ أَرِجِعْ إلى قومك وأخبرهم أنك لم تُغضبني .

(١) يقال : خاطره على الأمر : راهه عليه .

وخطب آخر إلى معاوية أمه : فقال . ما الذي رغبك فيها وهي عجوز؟ فقال . إنها عجوز عنايمة العجز ! فقال : لعلك خاطرت على أن تُغضب سيّد بني تميم؟ قال : نعم ، قال : أرجع فلست به .

وسمّتم رجلٌ الأحنفَ وألحَّ عليه ، فلما فرغ قال له : يا ابن أخي ، هل لك في الغداء؟ فإنك منذ اليوم تحذو بحمّلٍ فقال ... « الثفال : البطيء الثقيل الذي لا ينبعث إلا كرهاً »

وروي أن رجلاً خاطر آخر على أن يقوم إلى معاوية إذا سجد فيضع يده على كفيله ويقول : سبحان الله يا أمير المؤمنين ! ما أشبهه عجيزتك بعجيزه أمك هند ! ففعل ذلك ، فلما انفتل معاوية عن صلاته قال له : يا أخي ، إن أباسفيان كان محتاجاً إلى ذلك منها ؛ فخذ ما جعلوه لك ، فأخذه ثم خاطره آخر بعد ذلك أن يقوم إلى زياد وهو في الخطبة فيقول : أيها الأمير من أمك؟ ففعل ؛ فقال زياد : هذا يُخبرك — وأشار إلى صاحب الشرطة — قدّمه وضرب عنقه ، فلما باغ ذلك معاوية قال : ما قتله غيري ، واو أدبته على الأولى ما عاد إلى الثانية ...

وقيل للأحنف : بمنّ أعلّمت الحلم؟ قال : من قيس بن عاصم المنقري ، رأيتُه قاعداً بفناء داره مُحْتَبِياً بجهايل سيفه يُحدّث قومه ، حتى أتى بمكتوفٍ ورجلٍ مقتولٍ ، فقيل له : هذا ابنُ أخيك قتلَ ابنك ، قال : فوالله ما حلَّ حُبّوتُهُ ولا قَطَعَ كلامه ، ثم التفت إلى ابن أخيه فقال : يا ابن أخي أئمتَ برّبك ، ورميتَ نفسك بسهمك ، وقتلتَ ابنَ عمّك ؛ ثم قال لابن له آخر : قم يا بُنّي فوارِ أخاك وحلِّ كتابَ ابن عمّك وسُقِّ إلى أمك

مائة ناقة دية ابنا فإنها غريبة ، ثم اتسكا على شقة الأيسر وقال :
 إني امرؤ لا يستري خلقي دنس يفنده ولا أفن^(١)
 من منقر في بيت مكرمة والفرع ينبت فوقه الغصن
 خطباء حين يقول قائلهم بيض الوجوه أعة كسن
 لا يفظنون إعيب جارهم ومهوا لحفظ جواره فطن

وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز بعض ما يكره ، فقال : لا عليك
 إنما أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله
 مني غداً ، انصرف إذا شدت ...

وأمر محمد بن سليمان برجل أن يطرح من القصر كان قد غضب
 عليه فقال الرجل : اتق الله ، فقال : تخلوا سبيله ، فإني كرهت أن أكون
 من الذين قال الله فيهم : « وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم »

حشهم على ترك الغضب

المؤدى إلى الاعتذار

قال حكيم : إياك وعزة الغضب فإنها تصيرُ بك إلى ذلّة الاعتذار
 وقال شاعر :

متى تُرد الشفاعة لكل غيظٍ تكنُ مما يغيبك في ازديادٍ

(١) وروى هذا البيت أيضاً هكذا :

إني امرؤ لا يطبي حسبي دنسٌ يهجنه ولا أفن

اطباء : دعاه ، والأفن : النقص ، ويفنده : يكذبه

حَثَمَ عَلَى التَّصَامِمِ عَنِ الْقَيْبِيحِ وَتَمَدُّحُهُمْ بِذَلِكَ

قال المهلب بن أبي صفرة: إذا سمع أحدكم العوراءَ فليطأطأ لها
تَمَخَّطَاهُ... «العوراء: الكلمة القبيحة أو الفجالة القبيحة: ويقال للكلمة
القبيحة عوراء، وللکلمة الحسنة عينا» قال الشاعر:

وعوراء جاءت من أخٍ فرَدَدْتُهَا بِسَالِمَةِ الْعَيْنَيْنِ طَالِبَةً عُدْرًا
«بسالمة العينين: أى بكلمة حسنة لم تكن عوراء. وعورانُ الكلام:
ما تنفيه الأذن قال:

وعوراء قد قيلت فلم أستمع لها وما السكِّمُ العورانُ لي بقتول^(١)
وقال حاتم طي:

وأغفر عوراءَ الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تکرماً^(٢)
وقال ابن عنقاة الفزاري من أبيات يمدح بها ابن عمه محميلة:
إذا قيلت العوراءُ أغضى كأنه دليلٌ بلا ذلٍ ولو شاء لانتصر
وقد تقدم هذا البيت مع أبيات أخرى له جميلة.

حَثَمَ عَلَى الْعَفْوِ مطلقاً

قال الله جل شأنه: «وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ،
والله غفور رحيم»، وقال سبحانه: «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ»،

(١) وصف الكلام بالعوران لانه جمع وأخبر عنه بالقتول وهو واحد لأن الكلام
يذكر ويؤنث وكذلك كل جمع لا يفارق واحده إلا بالهاء
(٢) ادخاره: أى لا دخاره

وقال عزّ وتقدّس : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » ، وقال تعالى
لِنَبِيِّهِ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ... « خذ
العفو ، فالعفو : السهل الميسر والمعنى : احتمل أخلاق الناس واقبل منها
ما سهل وتيسر ولا تستقص عليهم فيستقصي الله عليك مع ما فيه من
العداوة والبغضاء ، أقول : ولما حَقَّق سيدنا رسول الله ما أدبه الله به قال
سبحانه في حقه : (وإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُوعٍ عَظِيمٍ)

وقال الأحنف بن قيس : إياك وحمية الأرواح ، قيل : وما حميتهم
قال : يرون العفو مغرماً والتحمل مغنماً ... « التحمل دهننا : الغضب وقد
جاء في بعض الروايات بدل التحمل : والبخل ،
وقيل لبعضهم : هل لك في الإنصاف أو ما هو خير من الإنصاف ؟
فقال : وما هو خير من الإنصاف ؟ قال : العفو ...

وقالوا : العفو زكاة النفس

وقالوا العفو عن المذنب من واجبات الكرم ...
وقالوا : لذة العفو أطيب من لذة التشق ؛ لأن لذة العفو يلحقها حمد
المأقبة ، ولذة التشق يلحقها ذم الدم ... وقال الشاعر وقد نظم هذا المعنى :
لَذَّةُ الْعَفْوِ إِنْ نَظَرْتَ بَعَيْنِ الْبَدَلِ أَشْفَى مِنْ لَذَّةِ الْإِنْتِقَامِ
هَذِهِ تَكْسِبُ الْحَامِدَ وَالْأَجْرَ وَهَذِهِ تَجِيءُ بِالْآثَامِ

التحلم عن الخدم

نظر معاوية إلى ابنه يزيد وهو يضرب غلاماً له ، فقال له : أنفسد
أدبك بأدبه ! فلم ير ضارباً غلاماً له بعد ذلك .

وقيل ليجي بن خالد البرمكي : إنك لا تؤدّبُ غلمانك ولا تضربهم !
قال : هم أمناؤنا على أنفسنا فإذا نحن أخفناهم فكيف نأتمهم !

الرحمة ومدح ذويها

قالوا من كُرِّمَ أصله لان قلبه

وقالوا : من أمارات الكرم : الرحمة ، ومن أمارات اللؤم : القسوة

« الكرم نقيض اللؤم »

وفي الحديث الشريف « ارحم من في الأرض يرتحم من في السماء

وفيه أيضاً « لا تُزَع الرحمة إلا من قلب شقي »

أما من ذم الرحمة ونعماها على أهلها مثل الوزير محمد بن عبد الملك

الزيات إذ يقول : الرحمة خور في الطبيعة ، ومثل غيره من فلاسفة هذا

الجيل كالفيلسوف نيتشه ومن على شاكلته فأولئك إنما يترامون إلى

أهداف أخرى ، وإلى مدح القوّة في مواضعها ، وهذه سوف تمر عليك

عقرياتهم فيها .

ما يستحسن فيه الحلم من الكبار

وما يُستقبح

أغلظ رجل لمعاوية فحلم عنه ، فقليل له : تحلم عن هذا ! فقال : إنى

لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا ... وقال

المأمون : يحمل الحلم بالملوك إلا في ثلاثة مواضع ، مُذيع لسيّر ، ومُتعرّض

للحرم ، وقادح في مُلك ... « حرم الرجل : عياله ونساؤه وما يحميه »

وقال السقّاح: الحِلْمُ يَحْسُنُ إِلَّا مَا أَوْضَعَ الدِّينَ وَالسُّلْطَانَ .

حشهم على درء الحدود

في الحديث الشريف: «أَدْرَوْا الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ ، وَأَنْيَلُوا الْكِرَامَ عَشْرَاتِهِمْ ، وَإِنَّ الْإِمَامَ لَأَنْ يُخْطِئَ فِي الْعَفْوِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُخْطِئَ فِي الْعُقُوبَةِ ، «ادْرَوْا : ادفعوا ، والحدود جمع حد، وهو لغة، المنع وشرعا : العقوبة التي جعلت لمن يعترف مانهى عنه كحدّ السارق ، وهو قطع يمينه في ربع دينار فصاعداً ، وحدّ الزانى البكر وهو سجلده مائة وتغريبه عاماً ، وحدّ المُحْصَن إذا زنى ، وهو الرجم ، سميت حدوداً لأنها تُحَدُّ : أى تمنع من إتيان ما جعلت عقوبات فيها ^(١) ، والشُّبُهَات جمع شبهة وهي الالتباس يقال : تشابهت الأمور واشتبهت ، أى التبتت لاشتباها بعضها ببعض ، والعثرات : الزلات والكرام : خيار الناس ووجوههم حسباً ونسباً وعلماً ودينياً وصلاحاً ، ومعنى أنيّلوا عثراتهم : لا تعاقبهم عليها ولا تؤاخذوهم بها ، إلا في حد من حدود الله فإنه لا تجوز إقالتهم فيه إذا ثبت عند الإمام وخلا عن الشبهة ولم يجد إلى دفعه سبيلاً ، ومعنى ادروا الحدود بالشبهات : اعملوا ما وجدتم السبيل على أن لا تقيموا العقوبة على مسلم إلا بأمر متيقن لا يتطرق إليه التأويل .

حث القادر على العفو

قالت عائشة رضي الله عنها : إِذَا مَلَكَتْ فَاسِّحِيحُ « قالت ذلك لعلی

(١) وتطلق الحدود ويراد بها المماضى قال تعالى : وتلك حدود الله

فلا تقر بها ، .

ابن أبي طالب رضى الله عنه يومَ الجَمَل حين ظهر على الناس فدنا من هَوْدَجِهَا ثم كلمها بكلام ، فأجابته : مَلَسْتُ فَأَسِيحُ ، أَى ظَفِرْتَ فَأَحْسِنُ وَقَدَرْتَ فَسَهِّلْ وَأَحْسِنِ الْعَفْوَ ، فجهزها عند ذلك بأحسنِ الجهازِ إلى المدينة فالإسباح : حُسْنُ الْعَفْوِ «

ومن كلمة لعللى رضى الله عنه : إِذَا قَدَرْتَ عَلَى الْعَدُوِّ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ سُكْرًا قُدْرَتِكَ .

وقالوا : الْمُقَدِيرَةُ تُذْهَبُ الْحَفِيظَةُ « الحفيظة : الغضب ، وقولهم : إِنْ الْخَفَائِظُ تَذْهَبُ الْإِحْقَادُ فَمَعْنَاهُ : إِذَا رَأَيْتَ حَمِيمَكَ يُظْلَمُ حَمِيَّتَ لَهُ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ فِي قَلْبِكَ حِقْدٌ ... وَظَفِرَ الْإِسْكَندَرُ الْمُقَدُونِيُّ بِبَعْضِ الْمُلُوكِ ، فَقَالَ لَهُ : مَا أَصْنَعُ بِكَ ؟ قَالَ : مَا يَجْمَلُ بِالْكَرَامِ أَنْ يَصْنَعُوهُ إِذَا ظَفَرُوا ، نَخَلَى سَبِيلَهُ وَرَدَّهُ إِلَى مَمْلَكَتِهِ .

ولما ظَفِرَ أَنُو شِرْوَانَ بِبُزُرُ جُجَهَرَ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْفَرَ نِي بِكَ ، فَقَالَ : كَافِيٌّ مِنْ أَعْطَاكَ مَا تُحِبُّ بِمَا يُحِبُّ ... وَقِيلَ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : بَعْفُوكَ عَنْ إِخْوَتِكَ عِنْدَ تَذَرَّتِكَ رُفِعَ قَدْرُكَ ...

ذم المتشقى من الغيظ

قال معاوية رضى الله عنه : الْعُقُوبَةُ الْأَمُّ حَالَاتُ ذَى الْقُدْرَةِ ... وَقَالَ حَكِيمٌ : التَّشَقُّقُ طَرْفٌ مِنَ الْجَزَعِ ، فَمَنْ رَضِيَ أَنْ لَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الظَّالِمِ إِلَّا سِتْرٌ رَقِيقٌ وَحِجَابٌ ضَعِيفٌ فَلْيَلْتَصِفْ ...

مدح من صفتح عن قدرة

قال الأخطل من أبيات يمدح بها بنى أمية :

شُئْسُ العِدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ

وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا ^(١)

وقال أشجع السُّلَى :

يَعْفُو عَنِ الذَّنْبِ الْمَظِيءِ - مَ وَ لَيْسَ يُعْجِزُهُ انْتِصَارُهُ ^(٢)

صَفَحًا عَنِ الْجَانِي عَلَيْهِ - مَ وَ قَدْ أَحَاطَ بِهِ اِقْتِدَارُهُ

وقال المتنبي :

قَتَى لَا تَسْلُبُ الْقَتْلَى يَدَاهُ وَيَسْلُبُ عَفْوَهُ الْأَسْرَى الْوَثَاقَا

« يقول المتنبي : إذا قتل المدوح قتيلا لم يأخذ سلبه ، ترُفَعًا عن ذلك

ولكن عَفْوَهُ يَسْلُبُ أَسْرَاهُ أَغْلَاهُمْ وَقِيُودَهُمْ ، أَى يَمْفُو عَنْهُمْ وَيُطْلِقُهُمْ »

الحث على إقالة من سلم ظاهره

قالوا : لَا تَعْتَدَّ بِمَا لَمْ تَسْمَعْهُ أُذُنَاكَ ، فَإِن السَّيِّدَ إِذَا حَضَرَ هَيْبَ وَإِذَا

غَاب أَغْتَيْبَ .

وقال بعض المملوك : إِنَّمَا تَمْلِكُ الْأَجْسَادَ دُونَ النَّيَّاتِ ، وَتَنْفَحُصُ

عَنِ الْأَعْمَالِ لِاعْنِ السَّرَائِرِ ... وَقَالَ الْبُحْتَرِيُّ :

إِذَا عَدُوُّكَ لَمْ يُظْهِرْ عِدَاوَتَهُ فَمَا يُضْرِكُ إِنْ عَادَاكَ إِسْرَارًا

(١) شمس : جمع شمس وهو : الصعب العداوة ، وقوله : حتى يستقاد لهم : أى

حتى يؤخذ حقهم من اعتدى عليهم ، من قولهم ، استقدت الأمير من القاتل فأقادلى

منه أى قتله (٢) الانتصار : الانتصاف والانتقام

وقال العلاء بن الحضرمي^(١) يخاطبُ سيدنا رسول الله :

وإن دَحَسُوا بالشرِّ فاعفُ تَكْرُمًا

وإن خَنَسُوا عنك الحديث فلا تَسَلْ^(٢)

« وإن دحسوا: قال ابن الأثير يريد: إن فعلوا الشر من حيث لا تعلمه.

وخنسوا الحديث يريد: وارزوه وغيبوه وأخروه عنك،

العفو عن من سلم باطنه

قد يهفو المرء ونيتة سليمة ، ويَزِيلُ وطريقته مستقيمة .

قال إبراهيم بن المهدي في عَيْنَيْتِهِ للأمين وقد عفا عنه :

قسماً وما أدلى إليك بِحُجَّةٍ إِلَّا التَّضَرُّعُ مِنْ حُجِّبٍ خَاشِعٍ

ما إن عَصَيْتُكَ وَالغَوَاةُ تَمُدُّنِي أَسْبَابُهَا إِلَّا بَدِيحٍ طَائِعٍ

وقال الفرزدق :

فلمستَ بما خوذِ بِلُغْوِ تَقْوَلُهُ إِذَا لَمْ تَعْمَدْ عَاقِدَاتُ الْعَرَائِمِ^(٣)

« تعمد : تتعمد »

(١) صحابي جليل استعمله سيدنا رسول الله على البحرين وأقوه أبو بكر ثم عمر

مات سنة ٢١ هـ

(٢) بعده :

فإن الذي يؤذيك منه استأمنه وإن الذي قالوا وراءك لم يُقَلْ

(٣) لعن الفرزدق أخذ هذا المعنى من قوله تعالى : لا يؤاخذكم الله باللغو في

إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان .

عتب من يحفظ الذنب بعد تقادمه

قال البُحْتُرى :

تناس ذنوبَ قومك إن حفظَ الذُّنوبَ - إذا قدَّمنَ - من الذنوب

العفو عن المقرِّ المعترف

قال بعضهم :

إذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائباً إليك فلم تغفر له ، فلك الذنبُ

ومن قولهم : التوبة تغسل الحوبة ، الحوبة : الخطيئة ،

وقالوا : لا عتَبَ مع إقرار ، ولا ذنَبَ مع استغفار .

وقال بعضهم لصديق له أنسَكَرَ ذنباً : إما أن تُقرَّ بذنبك فيكونَ

إقرارك حُجَّةً لنا في العفو ، وإلا فطُبْ نفسك بالانتصار منك ، فإن الشاعر

يقول :

أقرُّ بذنبك ثم آطَبْ تجاوزنا عنه فإن جحود الذنب ذنبانِ

ومن كلام لابن المعتز : تجاوز عن مُذنبٍ لم يسلك بالإقرار طريقاً

حتى اتخذ من رجائك رقيقاً .

وقال بعض الأمراء لرجل عاتبه : بلغني أنك تُبغضني ، فلم يُسكِر

الرجل وقال : أنت كما قال الشاعر :

فإنك كالذئب نذمُ صروفها ونوسدها ذمنا ونحن عبيدها

وقال أبو فراس الحمداني :

إِنْ لَمْ تَجَافِ عَنِ الذُّنُوبِ بِ وَجَدَتْهَا فِينَا كَثِيرَةً (١)

لَكِنَّ عَادَتَكَ الْجَمِيَّةَ أَلَّا أَنْ تَغُضَّ عَنِ الْجَرِيرَةِ (٢)

وقال السري الرفاء :

فإن تعف عني تعف عن غير جاحد

لما كان والإقرار بالذنب أروح

وقال آخر:

فَلَسْتُ بِأَوَّلِ عَبْدٍ مِثْلِي وَلَسْتُ بِأَوَّلِ مَوْلَى عَفَا

وقال غيره :

صَفْحًا فَلَوْ شِئْتُ قَابِي عَنْ صِحْفَتِهِ لظَلَّ يُقْرَأُ مِنْهُ الْخَوْفُ وَالنَّدَمُ

وَأَنَّى أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ بِرَجُلٍ أَذْنَبَ . فقال : إن الله يأمر بالعدل

والإحسان : فإن أخذت في غيري بالعدل فخذ في بالإحسان ...

حسن العفو عن المصير

سمع حكيم رجلا يقول : ذنب الإصرار ، أولى بالاعتذار ؛ فقال :

صدق والله ، ليس فضل من عفا عن السهو القليل كمن عفا عن العمد

الجليل ...

استعفاء من خلط إقرارا بإنكار

قال بعضهم في ذلك :

(١) تجاف بحذف إحدى التامين أي تتجاف وتتجافى عن الذنوب : تبتعد وتغض

الطرف عنها

(٢) الجريرة : ما يجره الإنسان من ذنب

هَبْنِي أَسَأْتُ كَمَا ظَنَنْتُ فَأَيْنَ عَاقِبَةُ الْأُخُوَّةِ
وَإِذَا أَسَأْتُ كَمَا أَسَأْتُ فَأَيْنَ فَضْلُكَ وَالْمُرُوءَةُ

وقال آخر :

وهَبْنِي — وما أَجْرَمْتُ — أَجْرَمْتُ كُلَّ مَا

أَتَاكَ بِهِ الْوَارِثِي يُجِدُّ بِاحْتِمَالِهِ

وقال الشعبي لبعض الرُلَاة — وقد كَلَّمْتُهُ فِي قَوْمٍ حَبَسْتَهُمْ — : إِنْ
حَبَسْتَهُمْ بِالْبَاطِلِ فَالْحَقُّ يُخْرِجُهُمْ ، وَإِنْ حَبَسْتَهُمْ بِحَقِّ فَالْعَفْوُ يَسْعُهُمْ ؛
فَأَمْرٌ بِإِطْلَاقِهِمْ .

معتذر مع إنكار

قال الرشيد لرجل يُرْمَى بِالزُّنْدَانَةِ : لِأَضْرِبَنَّكَ حَتَّى تُقَرَّ بِالذَّنْبِ ، فَقَالَ :
هَذَا خِلَافٌ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، لِأَنَّهُ أَمَرَ أَنْ يُضْرَبَ النَّاسُ حَتَّى يُقَرُّوا
بِالْإِيمَانِ وَأَنْتَ تَضْرِبُنِي حَتَّى أُقَرَّ بِالْكَفْرِ الْخَفِيفِ وَعِفا عنه .

وكان الرشيد قد حبس عبد الملك بن صالح ، فلما أخرجهم الإهين من
الحبس ، وذكر الرشيد وفعله به قال : وَاللَّهِ إِنْ الْمُلْكَ لَشَيْءٌ مَا تَوَيْتَهُ
وَلَا تَمَنَيْتَهُ ، وَلَوْ أَرَدْتَهُ لِيَكُنْ إِلَى أَسْرَعِ مِنَ الْمَاءِ إِلَى الْحَدُورِ ^(١) ، وَمَنْ
النَّارِ إِلَى يَبِيسِ الْعَرْفِجِ ^(٢) ، وَإِنِّي لَمَأْخُودٌ بِمَا لَمْ أُجِنِ ، وَمَسْئُولٌ عَمَّا
لَا أَعْرِفُ ، وَلَكِنْ لَمَّا رَأَيْتُ بِالْمُلْكِ قَيْنَا ، وَإِنْ لَمْ أَتَرَشَّحْ لَهُ فِي سِرِّ
وَلَا جَهْرِ ، وَرَأَى يَحْنُ إِلَى حَنِينِ الْوَالِدَةِ الْوَالِهَةِ ، وَتَمِيلُ مَيْلَ الْهَلُوكِ ^(٣)

(١) الحدور بوزن رسول : المكان الذي ينحدر منه

(٢) العرفج : نبات سهلي

(٣) الهلوك من النساء : الفاجرة الشبقة

عاقبتني عقاب من سهر في طلبه ، فإن كان إنما حسبتني أني أصلح له ويصلح لي فليس ذلك ذنباً فأتوب منه .

وقال التَّوْحِيَّ:

إن كان إقرارى بما لم أجنيه يُرضيك عنى قُلتُ لاني ظالمٌ

معتذر بتكذيب نفسه

خرج النعمان بن المنذر في غيب سماء فمرَّ برجل من بني يشكر جالساً على غدِير ماء ، فقال له : أتعرف النعمان ؟ قال اليشكري : أليس ابن سلمى ؟ قال : نعم ، قال : والله لربما أمررتُ يدي على فرجها ، قال له : ويحك ، النعمان بن المنذر ! قال : قد خبرتُك ، فما أنقضى كلامه حتى لحقته الخيل وحيوه بتحية الملك ، فقال له : كيف قلت ؟ قال : أبيت اللعن ^(١) ، إنك والله ما رأيت شيئاً أكذب ولا ألام ولا أوضع ولا أعض يبظر أمه ^(٢) من شيخ بين يديك ؛ فقال النعمان : دعوه ، فأنشأ يقول :

تغفو الملوك عن العظية م من الذنوب لفضلها

واقعد تُعاقبُ في اليسير ر وليس ذاك لجهلها

إلا يُعرَفَ فضلها ويُخافُ شدة نكاحها

وانقطع عبدُ الملك بن مروان عن أصحابه . فأنتهى إلى أعرابي ، فقال :

(١) كلمة كانت العرب تحي بها ما ركها في الجاهلية ومعناها : أبيت أيها الملك أن تأتي ما تلعن عليه ، واللعن : الإبعاد والطرده من الخير
(٢) البظر : هنة بين الاسكتين من المرأة لم تخفص - لم تختن - ومن قولهم في السب : يا ابن مقطعة البظور : جمع بظر ، يريدون أن أمه خاتنة وقد يقولونها في معرض الذم وإن لم تكن أمه خاتنة

أَنعِرِفَ عَبْدَ الْمَلِكِ؟ قَالَ: نَعَمْ، جَاؤَ بَاثِرٌ، قَالَ: وَيْحَكَ أَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ! قَالَ:
لَا حَيَاكَ اللَّهُ وَلَا بِيَاكَ وَلَا قَرَّبَكَ، أَكَلْتَ مَالَ اللَّهِ، وَضَيَّعْتَ حُرْمَتَهُ، قَالَ:
وَيْحَكَ أَنَا أَضْرُّ وَأَنْفَعُ، قَالَ: لَا رِزْقَنِي اللَّهُ نَفَعَكَ وَلَا دَفَعَنِي ضُرَّكَ؛ فَلَمَّا
وَصَلَتْ حَيْثُ لَهُ عَيْلِمٌ صِدْقَتَهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، آكَلْتُمْ مَا جَرَى فَالْجَالِسِ
بِالْأَمَانَةِ . . .

استعفاء من زعم أن ذنبه كان خطأ

قَالَ غُلَامٌ هَاشِمِيٌّ أَرَادَ عَمَّهُ أَنْ يُجَازِيَهُ بِسَهْوٍ مِنْهُ: يَا عَمُّ، إِنِّي قَدْ أَسَأْتُ
وَلَيْسَ مَعِيَ تَقْلِي فَلَا تُسَيِّئْ وَمِمَّا عَقَلْتَ . . .

وَقَالَ الْمَدَنِيُّ:

وَعَيْنُ الْمُخْطِئِينَ هُمْ وَيَسُوا بِأَوَّلِ مَعْشَرٍ خَطِئُوا نَتَابُوا
وَأَنْتَ حَيَاتِهِمْ غَضِبْتَ عَلَيْهِمْ وَهَجَرُوا حَيَاتِهِمْ لَهُمْ عِقَابُ
وَمَا جَهِلْتَ أَيَادِيكَ الْبَوَادِي وَلَكِنْ رَبَّمَا خَفَى الصَّوَابُ^(١)

وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ:

فَإِنَّ يَدَكَ حُرْمٌ عَنَّا أَوْ تَكُ هَفْوَةٌ عَلَيَّ خَطِيئَتِي فَعُذِرِي عَلَيَّ عَمْدٌ
وَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْمَدَنِيُّ قَوْلَ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ: «رُفِعَ عَنِّي الْخَطَا
وَالنَّسِيَانُ وَمَا اسْتَسْكُرُوا عَلَيْهِ» وَقَالَ تَعَالَى: وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ
بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا،

(١) أَيَادِيكَ: نَعْمَتُكَ، وَالْبَوَادِي: خِلَافُ الْحَوَاضِرِ أَيْ أَهْلُ الْبَوَادِي يَقُولُ:
لَهُمْ لَمْ يَجْهَلُوا بِمَعْصِيَانِكَ سِوَابِقِ نَعْمَتِكَ وَلَكِنْ قَدْ يَخْفَى الصَّوَابُ عَلَيَّ الْمَرَّةَ
فِي أَيِّ غَيْرِهِ

مستعفف سأل أن يقوم ويؤدّب

قال أحمد بن أبي فتن (١) :

أحينَ كَثُرَتْ حُسَادِي وَسَاءَهُمْ تَجَمَّلُ فِعْلِكَ بِي أَشْمَتَ حُسَادِي !
فإنْ تَكُنْ هَفْوَةً أَوْ زَلَّةً سَالَفَتْ فَأَنْتَ أَوْلَى بِتَقْوِي وَإِرْشَادِي

مستعفف سأل العفو

لفرط خوفه

قال علي بن الجهم من أبيات أرسلها إلى المتوكل وهو مجوس :
وعفوكَ عن مُذنبٍ خاضعٍ قرنتَ المقسيمَ به المُقْعِدَا (٢)
إذا أدَّرَعَ الليلَ أنْضَى به إلى الصبحِ من قبلِ أنْ يَرُقْدَا
ألمْ تَرَ عبداً عدا طورهُ ومولَى عفا ورشيداً هدى
ومُفْسِدَا أمرٍ تلافيتَه فعباد فأصلحَ ما أنسدا
فلا عُدْتُ أعصيكَ فيما أمرَ تَ حتى أزورَ السرى مُأحدا
وإلا نَخَّالفتُ رَبَّ السماءِ وُخَّنتُ الصديقَ وعِفتُ الندى

مستعفف أتكل على سالف حرمة

قال من لا أذكر اسمه :

أينْهَبُ يَوْمٌ واحِدٌ إنْ أسأتهُ بصالحِ أيامي وحُسنِ بلائِيَا (٣)

(١) شاعر مجيد من شعراء بغداد شهر بالشعر في أيام المتوكل واستفرغ شعره في الفتح بن خاقان

(٢) يقال : أخذته المقيم المقعد أي ما يوجب الاضطراب من خوف ونحوه

(٣) أسأته : أسأت فيه

وقال جل شأنه: « إن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه نُكفِّرْ عنكم سيئاتكم ونُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا » والمراد بالسيئات: الصغائر، والكبار: من الذنوب التي رتب الشارع عليها حدوداً أو صرح بالوعيد فيها.

الاستعفاء لمذنب من قوم محسنين

قال ابراهيم بن العباس الصولي:

أسأوا وفيهم مُحْسِنُونَ فَإِنْ تَهَبَ لِحَسَنِهِمْ أَهْلَ الْإِسَاءَةِ يَصْلُحُوا

متوصل إلى العفو بمراجعة أو حجة

رَوَوْا أَنَّ الْفَارُوقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ يَعُشُّ لَيْلَةً ، فَسَمِعَ غِنَاءَ رَجُلٍ مِنْ بَيْتٍ ، فَتَسَوَّرَ عَلَيْهِ ، فَرَأَاهُ مَعَ امْرَأَةٍ يَشْرَبَانِ الْخَمْرَ ، فَقَالَ : يَا عَدُوَّ اللَّهِ ، أَظَنَنْتَ أَنَّ يَسْتُرَكَ اللَّهُ وَأَنْتَ عَلَى مَعْصِيَةٍ ؟ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا تَعْجَلْ إِنَّ كُنْتُ عَصَيْتُ اللَّهَ فِي وَاحِدَةٍ فَقَدْ عَصَيْتَ فِي ثَلَاثٍ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَلَا تَجَسَّسُوا وَقَدْ تَجَسَّسْتَ ، وَقَالَ : وَأَنْتُمْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَقَدْ تَسَوَّرْتَ عَلَيَّ ، وَقَالَ : لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا وَقَدْ دَخَلْتَ بِغَيْرِ سَلَامٍ ، فَقَالَ عُمَرُ : أَسَأْتُ فَهَلْ تَعْفُو ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَعَلَى أَنْ لَا أَعُودَ ... « وَقَدْ أوردنا هذه الأحاديث كما أوردتها الأدباء ، وإن في النفس منها بعدُ لأشياء ».

مستعفف ذكر فرط خوفه من الوعيد

قال سلم الخاسر:

لقد أتتني من المهدي معتبة تظل من خوفها الأحشاء تنظرب
وقال أبو تمام من قصيدة يمدح بها أحمد بن أبي دؤاد ويعتذر إليه:

أتانى عائرُ الأنباءِ تَسْرِي عِقارُبهُ بِداهيةِ نَآدٍ (١)
 فياخبراً كأنَّ القلبَ أَمَسَى يُجْرُّ بهِ على شوكِ القَتَادِ (٢)
 وقال البحترى :

عَذِيرِي مِنَ الْإِيامِ رَنَقَنَ مَشْرَبِي وَلَقَيْتَنِي نَحْسًا مِنَ الطَّيْرِ أَشْمًا (٣)
 وَأَكْسَبْتَنِي سُخْطَ امْرِئِي بِتِ مَوْهِنًا أَرَى سُخْطَهُ لَيْلًا مَعَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا (٤)

من استعفى واستوهب معا

أخذ مُصْعَبُ بْنُ الزَّيْبِرِ رجلاً من أصحاب المختار ، فأمر بضرب عنقه ، فقال : أيها الأمير ، ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ، ووجهك هذا الذي يُستضاء به ، فأتعلمت بأطرافك وأقول : أَيْ رَبِّ سَلْ مُصْعَبًا فِيمَ قَتَلْتَنِي ، نال : أَطْلِقُوهُ ، قال : اجعل ما وهبت لي من حياتي في خفض ، قال : أعطوه مائة ألف ، قال : بأبي أنت وأمي ، أشهدُ الله أن لابنِ قيسِ الرقيّاتِ منهما خمسين ألفاً ، قال : ولم ؟ قال : لِقَوْلِهِ فِيكَ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنْ اللَّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
 مُلْكُهُ مُلْكٌ رَحْمَةٌ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ يُخَشَى وَلَا كِبْرِيَاءُ
 يَتَّقَى اللَّهُ فِي الْأُمُورِ وَقَدْ أَفَدَ لِمَنْ كَانَ مِنْهُ الْإِنْتِقَاءُ

(١) عائرُ : كقولهم : قصيدة عائرُه : أى سائرة ، ويقال : داهية نآد فالنآد : الداهية تحمل .

(٢) فياخبراً : يروى : ثنا خبر ، ونثى الخبر : أذاعه وأفشاه ، والقناد : شجر صلب له شوك كالإبر

(٣) رنق الماء : كثره ، والمشرب : موضع الشرب ، والماء

(٤) الموهن : نحو من نصف الليل

فضحك مُصْعَبٌ وقال : أرى فيك موضعاً للصليعة ، وأمره بلزومه
وأحسنَ إليه ، فلم يزلْ معه حتى قتل ...
وقال المتنبى :

فاغفرْ فِدَى لكَ واحببني مِن بَعْدِهَا لِتُخَصَّنِي بِعَطِيَّةٍ مِنْهَا أَنَا (١)

المتوصل إلى العفو بالثبوت إلى حين التبين

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَدِيلاً فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا
قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ... « قال الإمام البيضاوي :
« فَتَبَيَّنُوا : فتعرفوا وتصفحوا قال : وتنكير الفاسق والنبأ للتعميم ؛ وتعليق
الأمر بالتبين على فسق المخبر يقتضى جواز قبول خبر العدل ... وأن
تصيدوا : أى كراهة إصابتكم ،

وغضب الرشيد على رجل ، فقال له جعفر بن يحيى : غضبتَ لله ، فأطع
الله فى غضبكِ بالوقوفِ إلى حالِ التبينِ كما غضبتَ له .. وقال الشعبي
لعبد الملك بن مروان : إنك على إيقاعِ ما لم تُوقِعْ أقدِرُ منك على ردِّ
ما أوقعت ...

نهى العافى عن التثريب

رضى بعضُ الملوكِ عن رجل ، ثم أخذ يُوبِّخُه ، فقال : إن رأيتَ ألا

(١) فاغفر أى فاغفرلى ذنبى ، وفدى خبر عن محذوف أى أنا فدى لك ، وحباه :
أعطاه ، ومن بعدها : أى من بعد هذه المغفرة يقول : إذا عفوت عنى وأعطيتنى
كنت قد خصصتني بعتاء ، أنا من جملته ، لأنه إذا عفا عنه فمد وجهه نفسه

تَخْدِشُ وَجْهَ رِضَاكَ بِالتَّثْرِيبِ فَافْعَلْ^(١)

وقالوا: ما عفا عن الذنب مَنْ قَرَعَ بِهِ ...

وقال شاعرٌ فيمن يعاقب ثم يعاتب :

إِذَا عُوِّبَ الْجَانِي عَلَى قَدْرِ جُرْمِهِ فَتَعْنِيفُهُ بَعْدَ الْعِقَابِ مِنَ الرَّبِّ

نهيهم عن الاعتذار وصعوبته

جاء في الحديث الشريف : إياك وكلُّ أمرٍ يُعْتَذَرُ منه :

وفي حديث آخر : إياكم والمعاذيرَ فإنها مفاجرٌ ...

« ومعنى الحديثين : إياكم أن تتكلموا أو تفعلوا ما تحتاجون إلى أن

تعتذروا عنه . »

وقال بعضهم : دغ ما يسبقُ إلى القلوب إنكارُهُ ، وإن كان عندك

اعتذارُهُ فلست بموسعٍ عندرا كُلِّ من أَسْمَعْتَهُ نُكْرًا ...

وكتب الحجاجُ إلى بعض من اعتذر إليه : إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ ذَلِكَ مِنْ

نَيْتِكَ نُكِفَ الْمَقَالَ .

وكتب كاتبٌ : لستُ أعتذر إليك من الذنب إلا بالإفلاق عنه .

وكتب آخرٌ : إن تركتُ الاعتذارَ فلَمَّا قال الشاعر — هو مجرّد

الوراق — :

إِذَا كَانَ وَجْهُ الْعُذْرِ لَيْسَ بَيِّنًا فَإِنَّ أَطْرَاحَ الْعُذْرِ خَيْرٌ مِنَ الْعُذْرِ

وقالوا : الإغراقُ في العذرِ يَحَقِّقُ التُّهْمَةَ ، كما أن الإفراطَ في النصيحة

يوجب الظنَّةَ ...

(١) التثريب : تقييح الفعل والاستقصاء في اللوم

وكتب بعضهم: إن كان ما بآخك حقاً فما تُغني المذاير، وإن كان كذباً
فما تضر الأباطيل .

وقال شاعر:

تعالوا نصلح وتكون منا معاودة بلا عذ الذنوب
فإن أحببتم قلتم وقلنا فإن القول أشفى للقلوب

وخطب الحجاج يوماً فأطال، فقام رجل فقال: الصلاة، الوقت
لا ينتظر، والرب لا يعذر، فأمر بحبس، فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون
فإن رأى أن يُحلى سبيله فقال: إن أقر بالجنون خلتيه، فقيل له ذلك، فقال:
معاذ الله، لا أزعم أن الله ابتلاني وقد عافاني، فبأع ذلك الحجاج، فعفا
عنه لصدته ..

تأسف من يعاتب من غير ذنب

من أمثالهم: رُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ .

وقال البُخْتَرِيُّ:

إِذَا تَحَاسَبِي اللَّائِي أُدِلُّ بِهَا كَانَتْ ذُنُوبِي فَقُلْ لِي كَيْفَ أَعْتَدِرُ

عبقرياتهم في ذمّ الحلم
ومدح العقاب

النهي عن الحلم إذا كان يسبب ذلاً أو ضرراً

قال النابغة الجعدي :

ولا خير في حلمٍ إذا لم تكن له بوادرٌ تخمي صفوه أن يكدرًا (١)
ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له حلِيمٌ إذا ما أورد الأمر أصدراً
يُروى أنه لما أنشد هذين البيتين سيدنا رسول الله قال صلوات الله
عليه: أجدت لا يفضض الله فاك؛ فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنفض له
تلمية ... وأنشد المُبرّد :

أبا حسنٍ ما أقبح الجهلَ بالفتى وللحلمِ أحياناً من الجهلِ أقبِحُ
إذا كان حلمُ المرءِ عونَ عدوه عليه فإن الجهلِ أعنى وأرُوحُ
« أقول: إن مرادهم بالجهل ههنا ما يقابل الحلم »

وقال المتنبّي:

من الحلم أن تستعملَ الجهلَ دونه إذا اتسعت في الحلم طرقُ المظالمِ

وقال :

إذا قيل: رفقاً قال: للحلم موضعٌ وحلمُ الفتى في غير موضعه جهلٌ
وقال أبو يعقوب الخريزيمي :

أرى الحلم في بعض المرطين ذلّةً وفي بعضها عزاً يسود صاحبه

(١) البوادر جمع بادرة: ما ييدر من الرجل في حال الغضب من قول أو فعل

وقال الأحنف بن قيس : لا حِلْمَ لمن لا سَفِيهَ له . وقال : ما قَلَّ
سَفَهَاءُ قومٍ إلا ذلوا ...

وقال الجاحظ : من قَابَلَ الإِسَاءَةَ بالإِحْسَانِ فقد خالف الله في
تدبيره ، وظن أن رحمة الله دون رحمته ، فإن الله تعالى يقول : « من يَعْمَلْ
سوءاً يُجْزَ بِهِ » وقال : « وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها »

وقال الشعبي : يُعْجِبُنِي الرَّجُلُ إِذَا سِيمَ هَوَانًا دَعَمْتَهُ الأَتَقَةَ إِلَى المِكَافَأَةِ
وَجَزَاءُ سِيئَةٍ سِيئَةٌ مِثْلُهَا ؛ وَرُفِعَ كَلَامُهُ إِلَى الحِجَاجِ فَقَالَ : اللَّهُ دَرَهُ أَيُّ رَجُلٍ
بَيْنَ جَنْبَيْهِ ؛ وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

ولا خَيْرَ في عِرْضِ أَمْرِي لا يَصُونُهُ ولا خَيْرَ في حِلْمِ أَمْرِي ذَلَّ جَانِبُهُ

دفع الجهل بالجهل

قال محمد بن وهيب :

لئن كنتُ مُتَحَاجًّا إِلَى الحِلْمِ لَأَنِّي إلى الجهل في بعض الأحياء أَحْوَجُ
وَلِي قَرَسٌ لِلحِلْمِ بِالحِلْمِ مُلْتَجِمٌ وَلِي فَرَسٌ لِلجَهْلِ بِالجَهْلِ مُسْرَجٌ
فَمَنْ رَامَ تَقْوِيَّيَ فَإِنِّي مُقَوِّمٌ وَمَنْ رَامَ تَعْوِيَّيَ فَإِنِّي مُعَوِّجٌ
وَمَا كُنْتُ أَرْضَى الجَهْلَ خِدْنًا وَصَاحِبًا وَلَكِنِّي أَرْضَى بِهِ حِينَ أُحْرَجُ
وَإِنْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ : فِيهِ سِمَاجَةٌ فَقَدْ صَدَقُوا ، وَالذَّلَّ بِالْحَرِّ أَسْمَجٌ

وقال إياس بن قتادة - وهو بارع جدا - :

تُعَاقِبُ أَيْدِينَا وَيَحْلُمُ رَأِينَا وَنَشْتِمُ بِالْأَفْعَالِ لا بِالْكَلِمِ

وقال أوس بن حنينة - شاعر إسلامي تميمي وحنيناء أمه - :

إِذَا المَرءُ أَوْلَاكَ المِهْوَانَ فَأَوْلِهِ هَوَانًا وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبًا أَوْلِصْرُهُ^(١)

(١) يقول : إذا سامك إنسان ذلا وهواناً فأوله من الذل والهوان ما ترد به =

وإن أنت لم تقدرِ على أن تهينه فذره إلى اليوم الذي أنتَ قادرٌ^(١)
 وقارب إذا ما لم تكن لك حيلةٌ وصممت إذا أيقنت أنك عاقرة^(٢)
 وقالوا: الشر لا يدفعه إلا الشر والحديد بالحديد يفسح^(٣) ...

من نهى عن الاغترار بحلمه

قال المتنبي :

وأطمع عامرَ البقيّا عليها ونزقها احتمالك والوقار^(٤)

وقال آخر :

ولا يغررك طولُ الحلمِ مني فما أبدأ تُصادقني حلبيّا

وقال آخر :

أحذر مغايظ أقوام ذوى أنفٍ إن المغيظ جهولُ السيفِ مجنونُ

الحلم مغرٍ وضار مثل

قال الأحنف لرجل : ليت طول حلمنا عليك لا يدعو جهلنا غيرنا

إليك .

كيدته عنك وتشقى به نفسك وإن كان الذي سامك الخسف يمت إليك بسبب من
 القراية وقوله قريب خبر، كان ولم يقل قريبة على حد قوله تعالى : إن رحمة الله قريب
 من المحسنين

(١) قادره : أى قادر فيه

(٢) عاقره : قاتله

(٣) يفسح : يشق

(٤) منع عامر من الصرف لأنه أراد القبيلة ، والبقيّا اسم من الإبقاء يقول :
 وأطمعهم فى العصيان لإبناؤك عليهم وعدوك عن الإيقاع بهم ، وحلمهم على الطيش
 حليمك عنهم وامتاعك من الانتقام منهم

وقيل للأحنف : ما الحلم ؟ فقال : الرضا بالذَّل ...
 وقالوا : الشَّهْرَةُ بِالْمَلَايِنَةِ والخَيْرُ شَرٌّ مِنَ الاِسْتِهَارِ بِالغِيَاظَةِ والشرّ ، لأن
 مَنْ عُرِفَ بِالخَيْرِ اجْتَرَأَ عَلَيْهِ النَّاسُ ، وَمَنْ عُرِفَ بِالشَّرِّ هَابَهُ النَّاسُ
 وَتَجَنَّبُوهُ .

وقال معاوية : ما وَاوَدَّتْ قَرَشِيَّةٌ خَيْرًا لِقَرَشِيٍّ مِنِّي ، فقال رجل كان
 حاضراً : بل ما وَاوَدَّتْ شَرًّا لِمَنْ مِنْكَ ، فقال : كيف ؟ قال : لأنك عَوَدْتُمْ عَادَةً
 يَطْلُبُونَهَا مِنْ بَعْدِكَ فَلَا يُجِيبُونَهُمْ إِلَيْهَا فَيَحْمِلُونَ عَلَيْهِمْ كَحَمَلِهِمْ عَلَيْكَ وَكَأَنِّي
 بِهِم كَالرُّقَاقِ الْمُنْفُوخَةِ عَلَى طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ ...

نهيهم عن إكرام اللثام

قال المتنبي :

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّثِيمَ تَمَرَّدَا
 وَوَضِعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السِّيفِ بِالْعُلَا
 هُضِرْتُ كَوْضِعِ السِّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

وقبلهما :

وما قتل الأحرارَ كالعفو عنهمُ ومن لك بالحرِّ الذي يحفظ اليدَا
 وقالوا : استعمالُ الحلم مع اللثيم أضُرُّ مع استعمال الجهل مع الكريم .
 وقال يزيد بن معاوية لآبيه : هل ذَمَّتْ عاقبةُ حلم ؟ قال : ما حَلَمْتُ عَنْ
 لثيم وإن كان ولياً إلا أَعَقَبْتَنِي نَدْمًا ، ولا أقدستُ على كريم وإن كان عدواً
 إلا أَعَقَبْتَنِي أَسْفاً ...

وقال الشاعر :

متى تضع الكرامة في التيميم فإنك قد أسأت إلى الكرامة

الاستعانة بالجهل لدى الحاجة إليه

قال العباس بن الأحنف :

وَمَنْ يَحْكُمُ وَلَيْسَ لَهُ سَفِيهٌ يُبْلِقِي الْمُعْضَلَاتِ مِنَ الرِّجَالِ

وقال غيره :

وَلَا يَلْبَثُ الْجُهَّالُ أَنْ يَتَهَضَّبُوا أَخَا الْحِلْمِ مَا لَمْ يَسْتَعِنَ بِجَهُولٍ
وَيَبْنَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَالِسٌ إِذْ أَقْبَلَ أَعْرَابِيٌّ ،
فَلَطَمَهُ ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَنَجَلَدَ بِهِ الْأَرْضَ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : لَيْسَ بَعْرِيٌّ مِنْ
لَيْسَ فِي قَوْمِهِ سَفِيهٌ ...

حث القادر على العقاب قبل فوته

قد أسلفنا كثيراً من عبرياتهم في هذا المعنى ، وقال أبو أذينة الغساني :
يُحَرِّضُ ابْنَ عَمِّهِ الْأَسْوَدَ بْنَ الْمُنْدَرِ عَلَى قَتْلِ جَمَاعَةٍ مِنْ مَلُوكِ الشَّامِ كَانَ قَدْ
أَسْرَمَ فَأَرَادَ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ :

مَا كُلُّ يَوْمٍ يَنَالُ الْمَرْءُ مَا طَلَبَا وَلَا يُسَوِّغُهُ الْمَقْدَارُ مَا وَهَبَا
وَأَنْصَفُ النَّاسِ فِي كُلِّ الْمَوَاطِنِ مَنْ سَقَى الْأَعَادِيَّ بِالسَّكَّاسِ الَّتِي شَرِبَا
وَلَيْسَ يَظْلِمُهُمْ مَنْ بَاتَ يَضْرِبُهُمْ بِحَدِّ سَيْفٍ بِهِ مِنْ قَبْلِهِمْ ضَرْبَا
فَالْعَفْوُ إِلَّا عَنِ الْأَعْدَاءِ مَسْكُومَةً مَنْ قَالَ غَيْرَ الَّذِي قَدْ قُلْتَهُ كَذْبَا
قَتَلْتَ عَمْرًا وَتَسْتَبْقِي يَزِيدَ لَقَدْ رَأَيْتَ رَأْيًا يَجْرُ الْوَيْلُ وَالْحَرْبَا
لَا تَقْطَعَنَّ ذَنْبَ الْأَفْعَى وَتَسْتُرْ كَهَا إِنْ كُنْتَ شَهْمًا فَأَتَّبِعْ رَأْيَهَا الذَّنْبَا^(١)

(١) الشهم : الذكي الدواد المتوقد الجعد النافذ في الامور

هم جَرَدُوا السيفَ فَاجْعَلُهُمْ بِهِ جَزْرًا

هم أوقدوا النارَ فَاجْعَلُهُمْ لَهَا حَطْبًا^(١)

ومنها :

لَا عَفْوَ عَنْ مِثْلِهِمْ فِي مِثْلِ مَا طَلَبُوا لَكِنَّ ذَلِكَ كَانَ الْهَلَكَ وَالْعَقَابَا
عَلَامَ تَقْبَلُ مِنْهُمْ فِدْيَةً وَهُمْ لَا فِضَّةَ قَبِلُوا مِنَّا وَلَا ذَهَبًا
وكتب يحيى بن خالد البرمكي إلى الرشيد من الحبس : إن كان الذنبُ
خاصًّا . فلا تُعَمِّمْ بالعقوبة ، فمعي سلامة البريء ومودة الولي ؛ فكتب إليه :
قِضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ...

وقال بعضهم لأبي جعفر المنصور : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم
تسمع بالعفو ! فقال : لأن بني مروان لم تبطل ريمهم ، وآل أبي طالب لم
تغمد سيوفهم ، ونحن بين أقوام قد رأونا بالأمس سُوقَةَ وَالْيَوْمَ خُلْفَاءَ ،
فليس تتمهدُ الهيبةُ في صدورهم إلا بأطراح العفو واستعمال العقوبة ...

التبجح بقسوة القاب وقلة الرحمة

كان محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والوائق قد اتخذ ثنورًا
من حديد ، وأطراف مساميره قائمة مثل رؤس المسال ، في أيام وزارته ،
وكان يعذب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال ، فيجدون
لذلك أشدَّ الألم ، ولم يسمِّقهُ أحدٌ إلى هذا النوع من العقاب ، وكان إذا قال
له أحدٌ منهم : أيها الوزير ، ارتخني ، يقول له : الرحمةُ حَوْرٌ فِي الطَّبِيعَةِ ، فلما

(١) اجعلهم جزرا : أى قطعاً ومن ذا قولهم : تركهم جزراً للسياح والطير أى
قتلهم حتى صاروا قطعاً تأكلها السياح والطير

اعتقله المنوكلُ أمرَ بإدخاله في التنور وقيدَهُ بِخُمْسَةِ عَشْرَ رِطْلًا من الحديد، فقال: يا أمير المؤمنين، ارتحمتي، فقال له: الرحمةُ حَوْرٌ في الطبيعة، كما كان يقول للناس. ثم يتمثل:

❖ فلا تَجَزَّعَنَّ من سيرة أنتَ سيرتها (١) ❖

ووقع مرةً في قصة رجل: دَعْنِي من ذكر الرحمة والإشفاق، فما هما إلا للأنسوان والصبيان...

وقال المتنبي:

يَدْخُلُ صَبْرُ الْمَرْءِ فِي مَدْحِهِ وَيَدْخُلُ الْإِشْفَاقُ فِي تَلْبِيهِ (٢)

« التلب: الذم والغاب، يقول: إن الصبر بما يمدح به الإنسان والإشفاق

بما يعاب به »

أخذ البريء بذنب الجاني

قال الله تعالى: « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً »

وقال الحارث بن حلزة اليشكري من معالقاته التي ارتجلها بين يدي عمرو بن هند

ملك الحيرة في شيء كان بين بكر وتغلب:

عَنَّا بِاطْلًا وَظُلْمًا كَمَا تُعَدُّ سَرُّ عَنْ حَجْرَةِ الرَّيْبِضِ الظُّبَاءِ

« العنن: الاعتراض يقال: عَنَّ بَعْنٌ وَيَعْنُ عَنَّاً وَعُنُوناً وَاعْتَنَّ:

عَرَضَ وَاعْتَرَضَ، وَالاسْمُ الْعَنَّ، وَالْحَجْرَةُ: النَّاحِيَةُ، وَالْجَمْعُ: حَجْرٌ

(١) هذا مثل تقدم القول عليه في الجزء الأول صفحة ٢٣

(٢) من قصيدته التي يعزى بها أبا شجاع عضد الدولة بعتمته وأولها:

آخراً الْمَلِكُ مُعَزَّى بِهِ هَذَا الَّذِي أَثَّرَ فِي قَلْبِي

وحجرات مثل ججرة وتجر وتجرات ، والعر ، ذبح العتيرة ، وهي ذبيحة كانت تذبح للأصنام في رجب ، والربيض : الغنم الرابضة في مرَبِضِهَا ، وقد كان الرجل في الجاهلية ينذر : إن بَلَغَ اللهُ عَنَّمَهُ مائة ذبح منها واحدة للأصنام ، ثم رُبَّمَا ضَلَّتْ نَفْسُهُ بِهَا فَأَخَذَ ظِيماً وَذَبَحَهُ مَكَانَ الشاةِ الواجبة عليه يقول : أَلرَّمْتُمونا ذنَبَ غَيْرِنَا عَنَّا بِاطِّلا كَمَا يُذْبِحُ الظُّبْيُ لِحَقِّي وَجِبَ فِي الغنمِ ،

وقال النابغة الذبياني من أبياته العينية التي يعتذر فيها إلى النعمان بن المنذر .
 أَنَا نِي أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَنَّكَ لَمَتْنِي وتلك التي تَسْتَكُّ مِنْهَا المِسامِعُ
 مَقَالَةٌ أَنْ قَدْ قَلتَ : سَوْفَ أَنَا لَهُ وذلك مِنْ تِلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ
 أُنُوعِدُ عَبْدًا لَمْ يَخُنْكَ أَمَانَةٌ وتَرَكْتُ عَبْدًا ظالِمًا وَهُوَ ظالِمُ
 وَحَمَلْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كَذَى العُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهُوَ رَائِعُ
 وَذَلِكَ امْرُؤٌ لَمْ أَكُنْ لِأَقُولَهُ وَلَوْ كَبَلْتُ فِي سَاعِدَيَّ الجِوامِعُ
 أَنَا بِقَوْلٍ لَهْلَهٍ اللَّسَنُ كاذِبًا وَلَمْ يَأْتِ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ ناصِعُ
 لَعَمْرِي وَمَا عَمْرِي عَلَى بَهَيْنٍ لَقَدْ نَطَقْتُ بِطُلًّا عَلَى الأَقَارِعُ
 ومنها :

وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ أَنَا نِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَالضَّوْاجِعُ
 فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَمِيلَةٌ مِنْ الرِّقْشِ فِي أُنْيَابِهَا الشُّمُّ نَائِعُ
 يُسَهِّدُ فِي لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَلِيِ النِّسَاءِ فِي بَدِينِ قَعَاقِعُ
 تَنادَرَهَا الرِّاقُونَ مِنْ سَوْءِ سُمِّهَا تُطَلِّقُهُ طُورًا وَطُورًا تُرْاجِعُ
 ومنها :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبةً وَهَلْ يَأْتِنَنَّ ذُو إِمَّةٍ وَهُوَ طَائِعُ
 فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ المُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ
 « وَإِلَيْكَ شَرَحَ هَذِهِ الأَبْيَاتِ : أَيْبِتَ اللُّعْنَ : أَيْبِتَ أَنْ تَأْتِيَ مِنْ

الأخلاق المذمومة ما تُلتعنُ عليه ، وكانت هذه تحيةً لَنُحْمٍ وُجُدَام ، وكانت منازلهم الحيرة وما يليها ، وكانت تحيةً ملوك غَسَّان : يا خيرَ الفِثيان ، وكانت منازلهم الشام : وتَسْتَكُ : تَلَسَّدُ ولا تَسْمَعُ : ورائع : مُفْرَعٌ ومُخَوِّفٌ . وإضافة مقالة إلى أن قد قلت من إضافة الأعم إلى الأخص ، وهي من الإضافة البيانية أى مقالة هى هذا القول . وظالم : مائل . والعَرُ : قَرُوحٌ يأخذ الإبل في مشارفها وأطرافها شبيه بالقرع ، وربما تفرق في مشارفها مثل القوباء ، يسيل منه ماءٌ أصفرٌ ، وكان الأعرابُ إذا وقع العُرُّ في إبل أحدٍم اعترضوا بغيراً صحيحاً من تلك الإبل فكَوَّروا مشفره وعُضَدَه وفخذه يرون أنهم إذا فعلوا ذلك ذهب العُرُّ من إبلهم . وقيل : إنما كانوا يَكُونُونَ الصحيح لئلا يتعلّق به الداءُ لا ليبراً السقيم . وكَبَلَتْ : قِيدَتْ . والجوامع : الأغلال ، جمع جامعة . وثوبٌ أهلهُ النسج وهلهل النسج : إذا كان رقيقاً ، وناصع : بين واضح . وقوله : لَعْمَرى ... البيت فالعمر بفتح العين هو العمر بضمها لكن حُصَّ استعمال المفترح في القسم ، أى ما قَسَمى بَعْمَرى هين على حتى يهمنى متهم بأنى أحلف كاذباً ، والبطل - بالضم : - هو الباطل والأقارع : هم بنو قُرَيْع بن عوف الذين كانوا سَعَوْا به إلى النعمان بن المنذر حتى تغيّر له . وأبو قابوس : كنية النعمان بن المنذر . وقوله في غير كنهه : أى جاءنى وعيده في غير قدر الوعيد ، أى لم أكن بلغت ما يغضب على فيه . وراكس : وادٍ ، والضواجع جمع ضاجعة وهو مُنْحَى الوادى . وقوله : فَبُتْ ... ألبيت فالمساورة : المواثبة ، والأفعى لا تَلْدُعُ إلا وثباً . وضئيلة : هى الحية الدقيقة القليلة اللحم . والرُقش من الحيات : المنقطة بسواد ، وهى من شرارها ، والسم مبتدأ وناقع خبر ويجوز فى غير الشعر ناقعاً على الحالية وفى أنيابها هو الخبر . وليل التمام بكسر التاء أطول ليلة فى السنة ، والسليم :

اللدبغ ، وسمت العرب الملسوع سليماً تفاؤلاً . وقوله : لحلى النساء في يديه
 قمايع : فقد كان الملدوغ يُجَمَلُ الحَلِيُّ في يديه والجلاجل حتى لا ينام قَيْدَبَ
 السُّمِّ . فيه وتناذرها الراقون يروى أيضاً : تناذرها الحارون ، وهو جمع حار ،
 وهو الذى يُمَسِّكُ الحَيَّاتِ ، أى أنذر بعضهم بدمها بأنها لا تُجِيبُ راقياً
 وقوله : تُطَلِّقُهُ : تُخِثُ عنه مرة وتشتدُّ عليه مرة ، ومثل ذلك قول
 الآخر :

تبيتُ الهمومُ الطارِقَاتُ يُعَدُّ نَبِيَّ كَأَنَّمَا تَرَى الْأَوْصَابُ رَأْسَ الْمُطَلَّقِي
 يقال : طَلَّقَ السَّلِيمُ : رَجَعَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ وَسَكَنَ وَجَعُهُ بَعْدَ الْعِدَادِ (١)
 فهو مُطَلَّقٌ ، قال المبرد : وهذا هو الذى ذكره النابغة قال : وذلك أن
 المنهوش إذا ألح الوجعُ به تارةً وأمسك عنه تارةً فقد قارب أن يُؤْيَسَ
 من بُرئِهِ ، وإنما ذكر خوفه من النعمان وما يستتره من لَوَعَةٍ فى إثرِ
 فترة والخائفُ لا ينامُ إلا غِراراً ، فلذلك شبه بالملدوغ المُسَهَّدِ . والإمَّةُ
 لغة فى الأُمَّة : الدين والخير ثم شبهه فى البيت الأخير فى حال سخطه
 بالليل الشديد الظلمة لا يُهْتَدَى فيه «

ووقف رجلٌ على الحجاج فقال : أصلىحَ الله الأمير ، جَنَى جان فى
 الحىِّ فَأُخِذْتُ بِجَرِيرَتِهِ وَأُسْقِطَ عَطَائِي ، فقال الحجاجُ : أما سمعتَ قولَ
 الشاعر :

جانيك من يجنى عليك وقد تُعْدِي الصَّحاحَ مَبَارِكُ الْجُرْبِ (٢)

(١) العداد : احتياج وجمع اللدبغ . وأصله من العدد ، وقيل : عداد السليم : أن
 تعد له سبعة أيام فإن مضت رجوا له البرء ومالم تمض قيل : هو فى عداده
 (٢) جانيك من يجنى عليك ، يريد : صاحب جنائتك من يجنى عليك فلا تأخذ

وَلَرَّبٍّ مَأْخُودٍ بِذَنْبِ صَدِيقِهِ وَنِجَا الْمُقَارِفِ صَاحِبِ الذَّنْبِ^(١)
 فَقَالَ : أَعَزَّ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، كِتَابُ اللَّهِ أَوْلَى مَا تُتَّبَعُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :
 « مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعِنَا عِنْدَهُ » ، فَقَالَ الْحِجَاجُ : صَدَقْتَ
 يَا غِلَامَ ، رُدَّ اسْمُهُ وَأُثْبِتَ رَسْمُهُ ؛ وَأَسْنِ لَهُ عَطَاءَهُ .

عذر من بدر منه سخط

قال البحترى :

إِذَا أَخْرَجْتَ ذَا كَرِيمٍ تَخَطَّى إِلَيْكَ بِيَعْضِ أَخْلَاقِ اللَّئَامِ

طائفة من عبقرياتهم في العداوات

الاحتراس من غرس العداوة

جاء في كلبلة ودمنة : لا ينبغي للعاقل أن تحمله ثقته بقوته على أن
 يجتري العداوة ، كما لا يجب لصاحب الترياق أن يشرب السم اتكالا
 على أدويته .

وقالوا : احذر معاودة الرجال فالناس رجُلان : عاقل فاحذر ختله ،
 وأحمق فاحذر حقه .

بالعقوبة غيره ، قال أبو عبيد : قولهم : جانيتك من يجنى عليك يضرب مثلا للرجل
 يعاقب بجناية ولا يؤخذ غيره بذنبه ، إنما يجنيك من جنايته راجعة إليك ، وذلك
 أن الإخوة يجنون على الرجل ، وقال غيره : معناه : الذي تلحقك منفعته هو الذي
 ياحتك عاره ، يعنى : الذي يجنى لك الخير هو الذي يجنى عليك الشر ، فقولهم : جانيتك
 معناه الجاني لك ، ومبارك الحرب : مواضع بروكها أى : مرابضها ، والجرب :
 المصابة بالحرب .

(١) قارف فلان الخطيئة : خالطها

وسيمر عليك كثير من عبقرياتهم في هذا المعنى في كتاب الإخرايات
والأصدقاء والصدافة .

نهيهم عن الاغترار بالوَدِّ

تُسَدِّطُنْ مَعَهُ الْعِدَاوَةَ

دخل سُديفٌ مولى أبي العباس السفاح^(١) على أبي العباس أمير المؤمنين
وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد أدناه وأعطاه يده فقبَّلها ، فلما
رأى ذلك سُديفٌ أقبل على أبي العباس وقال :

جَرَّدَ السِّيفَ وَارْفَعَ الْعَفْوَ حَتَّى لَا تَرَى فَوْقَ ظَهْرِهَا أَمْوِيًّا
لَا يُغَرِّنُكَ مَا تَرَى مِنْ أَنْاسٍ إِنَّ تَحْتَ الضُّلُوعِ دَاءٌ دَوِيًّا
فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ سُلَيْمَانٌ فَقَالَ : قَتَلْتَنِي أَيُّهَا الشَّيْخُ فَتَلِكَ اللَّهُ وَقَامَ أَبُو الْعَبَّاسِ
فَدَخَلَ ، فِإِذَا الْمِنْدِيلُ قَدْ أُلْقِيَ فِي عُنُقِي سُلَيْمَانَ ، ثُمَّ جُرَّ فَقُتِلَ .

ودخل شِبلُ بنُ عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي ، وقد
أجلس ثمانين رجلاً من بني أمية على سُمِطِ الطعام ، فثقل بين يديه وقال :
أَصْبَحَ الْمُلْكُ ثَابِتَ الْآسَاسِ بِالْبَهَائِلِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ^(٢)

(١) ذكر أبو الفرج في الأغانى أنه مولى خزاعة وكان سبب ادعائه ولاء بني
هاشم أنه تزوج مولاة لأبي لُهب ويقال : بل أبوه هو الذى تزوجها فولدت له سديفاً
وسديف شاعر مقل من مخضرمى الدولتين شديد التعصب لبني هاشم مظهراً لذلك
أيام بني أمية

(٢) الآساس واحدها أس ، وقد يقال للواحد : أساس وجمعه أسس ، والهلول :
العزيز الجامع لكل خير

طلبوا وترَ هاشمٍ فشقوها بعد مِيلٍ مِنَ الزَّمانِ وَيَاسِ (١)
 لِأُتْقِيانَ عَبْدَ شَمْسٍ عِثارًا وَأَقْطَعَنَ كُلَّ رَقْلَةٍ وَأَوَاسِي (٢)
 ذُلُّهَا أَظْهَرَ التَّوَدُّدَ مِنْهَا وَبِهَا مِنْكُمْ كَحَزَّ الْمَوَاسِي (٣)
 وَلَقَدْ غَاطَى وَغَاطَ سَوائِي فَرُّهُمْ مِنْ نَمَاريقٍ وَكَرَاسِي (٤)
 أَنْزَلِوها بِحَيْثُ أَنْزَلَهَا اللهُ بدارِ الهِوانِ وَالإِتاَعِيسِ (٥)
 وَأَذْكَروا مِصرَ الحِسينِ وَزَيْدًا وَقَتِيلًا بِجانِبِ المِهرِاسِ (٦)
 وَالقَتيلَ الَّذِي بِجَرَّانَ أَضْحَى ثارِياً بَيْنَ عُزْبَةٍ وَتَناسِ (٧)
 نَعَمَ شَيْبَلُ الهِراشِ مَولِاكِ شَيْبَلُ لَوِ نَجَّا مِنْ حَبائِلِ الإِفْلاسِ (٨)
 فأمر بهم عبد الله ، فشدخوا بالعمد ، وبسطت عليهم البسط ، وجلس
 عليها ودعا بالطعام وإنه ليسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً ، ولما فرغ من
 الأكل قال : ما أعلاني أكلت أكلة نطأهنأ ولا أطيب لنفسى منها اوقال

(١) يقال فيك ميل علينا بسكون الياء أما كل منتصب مثل الحائط فيقال : في الحائط ميل بالتحريك

(٢) الرقلة : النخلة الطويلة ويقال - إذا وصف الرجل بالطول - : كأنه رقلة ، والأواسى : جمع آسية وهى : أصل البناء بمنزلة الأساس

(٣) الثمارق جمع نمرقة وهى : الوسائد

(٤) زيد هو زيد بن على بن الحسين ، خرج على هشام بن عبد الملك سنة ٢٢١ هـ وقتله يوسف بن عمر الثقفي أمير العراق لهشام وصلبه بالكناسة - محلة بالكوفة - عريانا هو وجماعة من أصحابه ، وقوله : وقتيلا بجانب المنهاس فالمنهاس : ماء بأحد ويريد : حمزة بن عبد المطلب ، وإنما نسب شبلى قتل حمزة إلى بنى أمية لأن أباسفيان ابن حرب كان قائم كفار قريش يوم أحد

(٥) القتيل الذى بجزان هو إبراهيم بن محمد بن عتي ، وهو الذى يقال له الإمام

لشبل: لولا أنك خلطت كلامك بالمسألة لا غنمك جميع أموالهم^(١)،
ولقدت لك على جميع موالى بنى هاشم.

وقال المتنبى:

فلا تغررك أسنسة موالٍ تُقلبن أفئدة^(٢) أعادى^(٣)

وكن كالموت لا يرئى لبك^(٤) بكى منه ويروى وهو صاد^(٥)

فإن الجرح ينفر بعد حين إذا كان البناء على فساد

» قوله: فإن الجرح... أبيت: مثله قول البختري:

إذا ما الجرح رم على فساد تبين فيه تفريط الطبيب

وفي كلية ودمنة: لا يعز العاقل سكون الحقد في القلب مالم يجد محركا

فإنه كالجرم الممكن مالم يجد حظبا؛ والعداوة إذا وجدت فرصة اشتعلت

فلا يظفها شيء دون النفس...

(١) بالمسألة يريد: سؤاله إذ قال:

نعم شبل المراهش مولاك شبل لو نجا من حبائل الإفلاس

(٢) موال: جمع مولى وهو الولي والصديق يقول: لا تغتر بما تراه من إظهار

ودم فإن تلك الأسنة الموالية تقاها أفئدة معادية

(٣) لا يرئى: لا يرحم. والصادى: العطشان، يقول: كن قاسياً عليهم كالموت

لا يرحم الباكي من خوفه، ويروى وهو صاد كأنه لطلبه الشرب بعد الرى صاد،

أى لطلب النفوس، ومعنى بروى: ينال مالمو أدركه لروى

* كالموت ليس له رى ولا شبع *

(٤) نفر الجرح: هاج وورم بعد البرء، وقوله: إذا كان البناء على فساد أى

إذا نبت اللحم على ظاهره وله غور فاسد، يعنى: أنهم يطوون العداوة فى أنفسهم إلى

أن تمسكنهم الفرصة.

نهيهم عن السكون إلى من تقدم

منك إليه إساءة

يُحكى أن رجلاً كان له عبدٌ سنديٌّ ، فتعرّض لامرأته ، فعلم الرجل بذلك ، فأخذَه وجبّه ، ثم تحوَّبَ لذلك ، فداواه ، فلما برأ اتفق أن غاب الرجل يوماً ، فعَمَدَ السنديُّ المَجْبُوبُ إلى ابْنين كانا لسيده فأخذهما وصعد السورَ ، فلما بصرَ بالرجل قال : والله إن لم تجبَّ نفسك كما جَبَّيتني لأقدنهما من السور ليُموتا ، وإن نقيس لأهونُ من شربة ماء ، فلما رأى الرجلُ منه الجِدَّ جَبَّ نفسه ، فرمى العبدُ بالابنَيْنِ من السور وقال : إن جَبَّكَ نفسك قصاصٌ لما جَبَّيتني ، وقتلَ ابنيكَ زيادةً أعطيتُكها ...

وتزعمُ العرب : أن آخرَينِ كانا في إبلٍ لهما ، فأجدبت بلادُهما ، وكان بالقربُ منهما وادٍ خصيبٌ وفيه حيةٌ تحميه من كلِّ أحدٍ ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان ، لو أني أتيتُ هذا الوادى المُكَلَّجَ فرعيتُ فيه إبلِي وأصلحتُها؟ فقال له أخوه : إني أخاف عليك الحيةَ ، ألا ترى أن أحداً لا يهبطُ ذلك الوادى إلا أهلكته ، قال : فوالله لأقتلنَّ ، فهبطَ الوادى ورعى به إبسه زماناً ، ثم إن الحيةَ نَهَشَتْه فقتلته ، فقال أخوه : والله ، ما في الحياة بعد أخى خير ، فلأطلبنَّ الحيةَ ولأقتلنَّها ، أو لأتبعنَّ أخى ، فهبط ذلك الوادى وطَلَبَ الحيةَ ليقتلها طلباً بئارَه ، فقالت له الحيةُ : فهل لك في الصلح ، فأدعك بهذا الوادى تكون فيه وأعطيك كلَّ يومٍ ديناراً ما بقيت ؟ قال : أو فاعلةٌ أنتِ ؟ قالت : نعم ، قال : إني أفعل ، فحلف لها وأعطاهما المواثيق : لا يضرها ، وجعلت تعطيه كلَّ يومٍ ديناراً ؛ فكثُرَ ماله حتى صار من أحسن الناس حالاً ؛ ثم إنه ذكر أخاه فقال : كيف ينفعني العيشُ وأنا

أَنْظُرُ إِلَى قَارِئِ أَخِي ا فَعَمَدَ إِلَى فَأْسِهِ فَأَخَذَهَا؛ ثُمَّ رَصَدَ لَهَا ، حَتَّى خَرَجَتْ ،
فَضْرَبَهَا ضَرْبَةً شَدَّجَتْ رَأْسَهَا ، فَلَمَّا رَأَتْ مَا فَعَلَ قَطَعَتْ عَنْهُ الدِّينَارَ ، خَافَ
الرَّجُلُ شَرَّهَا وَنَدِمَ ، فَقَالَ لَهَا : هَلْ لَكَ أَنْ تَتَوَاتَّقَ وَتَعُودَ إِلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ ؟
فَقَالَتْ : كَيْفَ أُعَارِدُكَ وَهَذَا أَثْرُ فَأْسِكَ وَهَذَا قَبْرُ أَخِيكَ ! وَقَدْ ذَكَرَ هَذِهِ
الحِكَايَةَ النَّابِغَةُ الذِّبْيَانِي فِي آيَاتٍ لَهُ لَا دَاعِيَ إِلَى إِيرَادِهَا وَقَدْ جَاءَ فِي
خَتَامِهَا هَذَا الْبَيْتُ :

أَبِي لَكَ قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُوَاجِهِي وَضَرْبَةُ فَأْسٍ فَوْقَ رَأْيِي فَاعْرِه .

نهيهم عن احتقار العدو

قال ابن نباتة السعدي :

وإذا عجزت عن العدو فداره وأمرج له إن المزاج وفاق
فالنار بالماء الذي هو ضدها تُعطي النضاج وطبعها الإحراق .
وقالوا : لا يُتَّقَى العدو القوي بِمِثْلِ الخُضُوعِ واللين ، وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ
الريح العاصف تَقْلَعُ الأشجار العظام ، لتأبئها عليها ، وَيَسْلُمُ مِنْهَا النِّبَاتُ
اللين لتأبئها معها .

ومن أمثالهم : إذا عز أخوك فهن

« قال الإمام ثعلب : هذا مثل ومعناه : إذا تَدَنَّمَ أَخُوكَ شَانِحًا عَلَيْكَ
فَالنِّزْمُ لَهُ الْهُوَانُ ؛ وَعِبَارَةُ الْأَزْهَرِيِّ : الْمَعْنَى : إِذَا غَلَبَكَ وَقَهَرَكَ وَلَمْ تَقَاوِمِهِ
فتواضع له ، فَإِنْ اضْطَرَّ بِكَ عَلَيْهِ يَزِيدُكَ ذِلًّا وَخَبَالًا ؛ وَقَالَ الزَّجَّاجُ : الَّذِي
قَالَهُ ثَعْلَبٌ خَطَأً ، وَإِنَّمَا الْكَلَامُ . إِذَا عَزَّ أَخُوكَ فَهَيْنٌ - بِكَسْرِ الْهَاءِ - وَمَعْنَاهُ إِذَا
اشْتَدَّ عَلَيْكَ فَهَيْنٌ لَهُ وَدَارِيهِ ، وَهَذَا مِنْ مَكَارِمِ الْإِخْلَاقِ ، كَمَا رُوِيَ عَنْ

معاوية رضى الله عنه أنه قال : لو أن بينى وبين الناس شِعْرَةً يَمْدُونَهَا
وَأَمْدَهَا مَا انْقَطَعَتْ ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : كنت إذا أَرْتَحُوهَا مَدَدْتُ ،
وإذا مَدَّوهَا أَرخَيْتُ ، فالصحيح فى هذا المثل ، فِهِنْ بِالْكَسْرِ ، من قولهم : هان
يَهِينُ : إذا صار هَيْئًا لَيْتًا ، كقوله :

هَيْئُونَ لَيْئُونَ أَيْسَارُ ذُوو كَرَمٍ سَوَاسُ مَكْرَمَةِ أَبْنَاءِ أَظْهَارِ
وإذا قالوا : فِهِنْ فهو من الهوان ، والعربُ لا تأمرُ بذلك ، لأنهم أَعَزَّةُ
أَبَاؤُنَ لِلضَّمِ . وقال ابنُ سَيِّدِهِ . وعندى أن الذى قاله ثعلب صحيح لقول
ابن الأحرر - شاعر إسلامى - :

وقارِعَةٍ مِنَ الْإِيَامِ لَوْلَا سَيْلُهُمْ لَزَاحَتْ عَنْكَ حِينَا
دَبَبْتُ لَهَا الضَّرَاءَ وَقَلْتُ : أَبَقِي إِذَا عَزَّ ابْنُ عَمِّكَ أَنْ تَهُونَا^(١)

المتبجح بإظهار اللبان وإضممار العداوة

قال المتنبي :

وجاهِلٌ مَدَّةٌ فِي جَهْلِهِ ضَحِكِي حَتَّى أَتَتْهُ يَدُ فَرَّاسَةٍ وَفَمٌ
إِذَا نَظَرْتَ نُيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً فَلَا تَظُنِّيَنَّ أَنَّ اللَّيْثَ مُبْتَسِمٌ
« مَدَّة : أمهله وطوّل له ، وأصل الفَرَسُ : دق العنق يقول : رَبِّ جَاهِلٍ
خَدَعْتَهُ جُحَامَتِي وَتَرَكَهُ فِي حُجْمِهِ ضَحِكِي مِنْهُ حَتَّى أَفْرَسْتَهُ وَبَطَشْتُ بِهِ بَعْدَ زَمَانٍ
بِعْنِي أَنَّهُ يُغْضَى عَنِ الْجَاهِلِ وَيَحْكُمُ إِلَى أَنْ يُجَازِيَهُ وَيَعِصِفُ بِهِ ، ثم قال فى

(١) الضراء فى الأصل : الشجر الملتف فى الوادى يقال : فلان يمشى الضراء :
إذا مشى مستخفياً فيما يوارى من الشجر ، والضراء أيضاً : المشى فيما يواريك عن
تكديده وتختله يقال : فلان لا يدب له الضراء ، يقال للرجل - إذا ختل صاحبه
ومكر به : هو يدب له الضراء

البيت التالي : إذا كشر الأسد عن نابِه فليس ذلك تبسُّماً ، بل قصداً للاقتراس ، يريد : أنه وإن أبدى بَشْرَهُ ، وتبَسَّمَهُ للجاهل فليس ذلك رَضَى عنه ، وفي مثل هذا يقول أبو تمام :

قَدْ قَلَصْتُ شَفْتَاهُ مِنْ حَفِيظَتِهِ . فَخَيْلَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْيِيسِ مُبْتَسِمًا

العدو يكاشرك إذا حضرك

قال المثقَّب العبدى - شاعر جاهلى - :

إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يَكْشِرُ لِي حِينَ أَلْقَاهُ وَإِنْ غَبْتُ شَتْمُ
وقال ابن الرومى :

يُذِيحُ لِي صَفْحَةَ السَّلَامَةِ وَالسَّلَامِ وَيُخَيِّنِي فِي قَلْبِهِ مَرَضًا
وقال المتنبي :

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مِنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرُنِي وَلَا أَعَاتِبُهُ صَفْحًا وَإِهْوَانًا (١)
وبما يصح أن يذكر هنا ما روى : أنه قيل لأعرابي : كيف فلان فيكم ؟
فقال : إذا حضر هبناه ، وإن غاب اغتبناه ، قال : ذاك هو السيد فيكم ...

من نظره ينبي عن عداوته

وتحذيرهم من العداوة المستورة

قال شاعر :

سُتُورُ الضَّمَائِرِ مَهْتَوِكَةٌ إِذَا مَا تَلَا حَظَّتْ الْأَعْيُنُ
وقال زهير بن أبي سلمى :

وما يك في عدو أو صديق تُخَبِّرُكَ الْعْيُونُ عَنِ الْقُلُوبِ

(١) يقول : إذا ظهرت لمن يذكرني بالسوء في غيبي عظمي وخضع لي وأنا أعرض عن عتابه إعراصا عنه واحتقاراً له لأنه لا يقدر أن ينظر إلي في حضرتي .

وقال حمير بن حُباب :

أَلَا رَبِّ مَنْ تَدْعُو صَدِيقًا وَلَوْ تَرَى
يُسْرَكَ بِأَيْدِيهِ وَتَحْتِ أَيْدِيهِ
تُبِينُ لَكَ الْعَيْنَانِ مَا هُوَ كَأْتَمُّ
وَفِينَا - وَإِنْ قِيلَ اصْطَلَحْنَا - تَضَاغُنُّ

مَقَالَتَهُ فِي الْغَيْبِ سَاءَ مَا يَفْرَى ^(١)
نَمِيَّةٌ شَرَّ تَبْرَى عَصَبِ الظُّهْرِ ^(٢)
مِنَ الضُّغْنِ وَالشَّحْنَاءِ بِالنَّظْرِ الشُّزْرِ
كَأَطْرَ أَوْ بَارُ الْجِرَابِ عَلَى النَّشْرِ ^(٣)

وقال أبو نواس :

كَمَنَّ الشَّنَانُ فِيهِ لَنَا
كَسَكُمُونَ النَّارَ فِي حَجْرِهِ ^(٤)

وقبله :

وَابْنِ عَمِّ لَا يُكَاشِفُنَا
وَهِيَ الْآيَاتُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :
لَا أَذُودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ
وقال زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ :

وقد يَنْبُتُ الْمَرْعَى عَلَى دِمَنِ الْتَرَى
وَتَبَقَى حَرَازَاتُ النَّفُوسِ كَمَا هِيَ ^(٥)

(١) يفرى : يختلق ويكذب ، من الافتراء

(٢) تبرى : تبرى وتحت

(٣) جاء في اللسان : النشر : الكلا يبيع أعلاه وأسفله ندى أخضر تدفى منه الإبل إذا رعته ، واستشهد بالبيت ثم قال : يقول : ظاهرنا في الصلح حسن في مرآة العين وباطننا فاسد كما تحسن أوبار الجري عن أكل النثر وتحتها داء منه في أجوافها . وقال أبو منصور الأزهري : وقيل النشر في هذا البيت نشر الجرب بعد ذهابه ونبات الوبر عليه حتى يخفى ، قال : وهذا هو الصواب

(٤) الشنان : البغض . يقول : البغض قد كن فيه واستقر مثل كمون النار في

الحجر الذي يوريه ويقده

(٥) لا يكاشفنا : لا يظهرنا على العداوة ، ولبسناه على غمره : عاشرناه على ما به من حقد (٦) الدمن جمع دمنة والمراد : الموضع الذي يتلبد فيه السرقيين وأبعار الغنم والبقر ، وفي الحديث : إياكم وخضراء الدمن ، قيل : وما ذاك . قال صلى الله

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الفتن فقال : يكون بعدها هُدنةٌ على دَخْنٍ وجماعةٌ على أُنْدَاءٍ « وأصل الهدنة : السكون بعد الهيج ، ودينه قيل للصلح بعد القتال بين كل متحارين : هُدنة ، لأنها مُلاينةٌ وفترةٌ سكون بين المتقاتلين ، والدخن : السكُورَةُ إلى السوادِ كالِدخان . والمراد سكون على غل ،

ثبات العداوة الذاتية

قالوا في ذلك : الوُدُّ والعداوة يُتوارثان .

وفي كَليلةٍ ودمتةٍ : ليس بين العداوة الجوهريّة صلحٌ وإن اجْتهد ، فالماءُ وإن أُطيل لِسَخائهُ فليس يمتنع من إطفاءِ النار إذا صَبَّ عليها . ويُحكى : أنّ أعرابياً أخذ جرواً ذئب ، فرباه يلبس شاةً عنده ، وقال : إذا ربيته مع الشاة أنيس بها ، فيذُبُّ عنها ويكونُ أشدَّ من الكلب ، ولا يعرف طبع أجناسه ، فلما قوى وَثَبَ على شاةٍ فاقتربها ، فقال الأعرابيُّ :

أَكَلتَ شَوْهيتي ونشأتَ فينا فإ أدراك أن أباك ذيبُ

حمد المداجاة طلباً للفرصة

قال علي كرم الله وجهه : أنكى الأشياء لعدوك أن لا تُغله أنك اتخذتهُ عدواً .

وقال القاضي التنوخي :

آلَى العَدُوَّ بوجهٍ لا قُطوبَ به يكاد يقطرُ من ماءِ البِشاشِ
فأحزمُ الناسِ مَنْ يلقى أعاديَه في جسمٍ حقدٍ وثوبٍ من مَوَداتِ

عليه وسلم : المرأة الحسناء في المنبت السوء ، شبه المرأة بما ينبت في الدمن من الكلاء يرى له غضارة وهو وبيء الموعى منبت الأصل

الرَّفْقُ يُنْمُو وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ وَكَثْرَةُ الْمَزْحِ دِفْتَاخُ الْعِدَاوَاتِ

المسرة بوقوع العداة بين أعدائك

في كلية ودمنة : من حق العاقل أن يرى معاداة بعض عدوه لبعض ظفراً حسناً ، ففي اشتغال بعضهم ببعض خلاصه منهم .

دنى يعاديك بلا سبب

قال المتنبي :

وَأَتَعِبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لَا تَجِيبُهُ وَأَغْيِظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لَا تُشَاكِلُهُ
ويقول : أتعب منادك من نادك فلم تجبه ، لأنك لا تشفيه بالجواب ،
فَيَجْهَدُ فِي النَّدَاءِ ، كَمَا أَنَّ أَغْيِظُ الْأَعْدَاءَ لَكَ مَنْ عَادَاكَ وَهُوَ دُونَكَ ، لِأَنَّكَ
تَتَرَفَّعُ عَنْ مَعَارَضَتِهِ فَلَا تَشْتَقِي مِنْهُ ،
وقال شاعر :

يُسْطَوُ بِلَا سَبَبٍ وَتِلْكَ طَبِيعَةُ الْكُتُبِ الْعَقُورِ

تأسف من يعاديه لئيم أو دنى

قال المتنبي في عذر من يخاصم دينياً ويدافعه :

إِذَا أَتَتْ الْإِسَاءَةُ مِنْ لَيْمٍ وَلَمْ أَلَمْ الْمَسِيءَ فَمَنْ أَلُومُ

وقال علي بن الجهم في تأسف من يعاديه لئيم :

بَلَاءٌ لَيْسَ يُشْبِهُهُ بَلَاءٌ عِدَاوَةٌ غَيْرُ ذِي حَسَبٍ وَدِينٍ

يُبْدِيكَ مِنْهُ عَرِضًا لَمْ يُصْنِهِ وَيَرْتَعُ مِنْكَ فِي عَرِضٍ مَصُونٍ

ويحكى : أن خنزيراً بعث إلى الأسد وقال : قاتلني ، فقال الأسد :

أَسْتَبِكْفِي ، وإن أنا قَلْبُكَ لَمْ يَكُنْ لِي ذَلِكَ نَفْرًا ، وإن قَتَلْتَنِي لِحَقِّي عَارٌ عَظِيمٌ ، فقال الخنزير : لَأُخْبِرَنَّ السَّبَاعَ بِسُكُوكَ ، فقال الأسد : اِحْتِمَالُ الْعَارِ فِي ذَلِكَ أَيْسَرُ مِنَ التَّلَطُّحِ بِدَيْكَ .

حشهم على العداوة بالقول لا بالفعل

قالوا : غَضِبُ الْجَاهِلِ فِي قَوْلِهِ ، وَغَضِبُ الْعَاقِلِ فِي فِعْلِهِ
وقالوا : « وَنَشْتُمُ بِالْأَفْعَالِ لَا بِالتَّكَلُّمِ » ، وقد تقدم

طائفة من عبقرياتهم

في الناس وما جُيِّلَ عَلَيْهِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْحَمْدِ وَالْحَسَدِ
وسوء الظن والشماتة وما جرى هذا المجرى
ولمناسبة عبقرياتهم في العداوات نورد عليك هاهنا صدرًا من عبقرياتهم
في الناس وما جُيِّلَ عَلَيْهِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْحَمْدِ وَالْحَسَدِ وَسُوءِ الظنِّ
والشماتة والمزاح وما جرى هذا المجرى

الناس

لا يزال الناس بخير ما تباينوا

من أروع ما قيل في الناس وحكمة تباينهم واختلافهم قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يزال الناس بخير ما تباينوا ؛ فإذا تساوتوا هلكوا » ، قال ابن الأثير في النهاية معناه : أنهم إنما يتساوون إذا دُضُوا بالنقص وتركوا التنافس في طلب الفضائل ودرك المعالي ، وقد يكون ذلك خاصا في الجهل ، وذلك أن الناس لا يتساوون في العلم وإنما يتساوون إذا كانوا كلهم جهّالا ، وقيل :

أراد بالتساوي التحزب والتفرق وأن لا يجتمعوا على إمام ويدعى كل واحد الحق لنفسه فينفرد برأيه . . . وقال أبو عبيد : أحسب قوله : فإذا تساوا هلكوا ، لأن الغالب على الناس الشر ، وإنما يكون الخبر في النادر من الرجال ، لعزته ، فإذا كان التساوي فإنما هو في السوء . . . » وقال شاعر :

النَّاسُ أَخْيَافٌ وَشَتَّى فِي الشَّيْمِ وَكُلُّهُمْ بِجَمْعِهِمْ بَيْتُ الْآدَمِ

« أخياف : ضروب مختلفة الأخلاق والأشكال . والآدم . قيل : أراد آدم ، وقيل الأرض ، ولعله يشير بهذا إلى ما جاء في الأثر : كلكم لآدم وآدم من تراب ؛ وقال مسلم بن الوليد :

النَّاسُ كُلُّهُمْ لِضَنْءٍ وَاحِدٍ ثُمَّ اخْتَلَفَ طَبَائِعُ فِي أَنْفُسِ

الضناء : الأصل ، وقالوا : الناس في اختلافهم في خلقهم كاختلافهم في خلقهم . وقال خالد بن صفوان : الناس أخياف ، منهم من هو كالكلب ، لا تراه الدهر إلا هراً على الناس ، ومنهم كالخنزير ، لا تراه الدهر إلا قذراً ، ومنهم كالقردي ، يضحك من نفسه . وقال بعضهم : الناس أخياف : علق مضمّنة لا يباع ، وعلق مضمّنة لا يبتاع ، وقال أبو العتاهية :

مَنْ لَكَ بِالْمَحْضِ وَلَيْسَ مُحْضٌ يَخْبِتُ بَعْضٌ وَيَطِيبُ بَعْضٌ

«وقديما قلت فيما قلت ، في كتابي «الفردوس» : ولم لا يكون هذا الاختلاف في الحياة الدنيا بين الأفراد والجماعات إنما يقصد به إلى معنى جميل مأمّنه بدأ السنّا قد نُدُنّا كأ نغام آلات الموسيقي ، هي وإن اختلفت غير أن اجتماعها يؤلّف من هذا الاختلاف نغما موسيقياً متجانساً بديعاً يطرب السمع ويملك على المرء مشاعره . ولعل الأصل في هذا كله قوله عز وجل : قُلْ كَلِمَاتٍ عَلَى شَاقِلَيْهِ قَرَّبَكُمْ أَعْلَمُ مِنْهُ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا . . . وقوله :

ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ...

وجدت الناس أخبر ثقله

ومن أبداع ما قيل في ذم الناس ما جاء في حديث أبي الدرداء: وجدتُ الناسَ أَخْبَرَ ثَقَلَهُ .. قال ابن الأثير في النهاية: الْقَلَى: البغض، يقال: قَلَاهُ يُقْلِيهِ قَلَىً وَقَلَىً: إذا أبغضه، قال الجوهري: إذا فتحت مددت، ويقلاه: لغة طيِّ. يقول جربِ الناسِ فإنك إذا جرَّبتهم قَلَيْتَهُمْ وتركتهم، لما يظهر لك من بواطن سرائرهم، لَفْظُهُ كَلْفُظِ الأُرِّ، ومنه الخبر، أى من جرَّبتهم أبغضتهم وتركتهم: والهاء في ثقله: للسكرت. ومعنى نَظَمِ الحديث: وجدت الناس مقولا فيهم هذا القول.

الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة

وجاء في الحديث الشريف: الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة
 «يعنى أن المرضى المنتخب من الناس في عِزَّةٍ وُجُودِهِ كالنجيب من الإبل القوي على الأحمال والأسفار الذي لا يوجد في كثير من الإبل. وقال الإمام الأزهري: الذي عندي في هذا الحديث: أن الله تعالى ذم الدنيا وحذر العباد سوء مغبتها وضرب لهم فيها الأمثال ليَعْتَبَرُوا، ويحذروا، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحذرهم كما حذرهم الله، فرغب بعض أصحابه بعده فيها وتنافسوا عليها حتى كان الزهد في النادر القليل منهم فقال: تجدون الناس بعدى كإبل مائة ليس فيها راحلة، أى أن الكامل في الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة قليل كقلة الباردة في الإبل، والراحلة هي

البعيرُ القوى على الأسفار والأحمال ، النجيبُ النائمُ الخلقُ الحسنُ المنظرُ ، ويقعُ
على الذكرِ والآثي ، والهاءُ فيه للبالغة ،

وقال الشاعر :

الناس يرثلُ بُبوت الشَّعرِ كم رُجُلٍ منهمُ بألفٍ وكم يَبْتِ بديوانِ
وفي هذا المعنى يقول المعرّي :
الناس كالشَّعرِ تُلْقَى الأَرْضُ جائِثَةً بالجمعِ يُزجى وخيرٌ منهمُ رُجُلُ

لو تكاشفتهم ما تدافنتم

ومن كلمة لسيدنا رسول الله صلوات الله عليه : لو تكاشفتهم ما تدافنتم .
يقول : لو علم بعضكم سريرة بعض لاسْتثقل تشييعه ودَفنه . . . ولعل
أبا العتاهية قد أخذ من هذا الحديث قوله :

وفي الناس شرٌّ لو بدأ ما تعاشرُوا ولكن كساهُ اللهُ ثوبَ غطاء

وقالوا في ذم الناس :

عَوَى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عَوَى

وَصَوَّتَ إنسانٌ فكُدتُ أُطيرُ

وقال المعرّي :

يَحْسُنُ مَرَأَى لِبْنِي آدِمٍ وَكُلُّهُمْ فِي الذَّوْقِ لَا يَعْذِبُ
مَا فِيهِمْ بُرٌّ وَلَا نَاسِيكٌ إِلَّا إِلَى نَفْعٍ لَهُ يَجْذِبُ
أَفْضَلُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ صَخْرَةٌ لَا تَظْلِمُ النَّاسَ وَلَا تَكْذِبُ

وقال محمد بن يسير :

سَوَاءٌ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ أَنَا فِي هَذَا مِنْ أَوْلِهِمْ
لَسْتُ تَدْرِي حِينَ تَلَسُّبُهُمْ أَيْنَ أَدْنَاهُمْ مِنْ أَفْضَلِهِمْ

وقال بعضهم : كنتُ عند الحسن البصريِّ ، فقال : أَسْمَعُ حَسِيْسًا ، وَلَا أَرَى أَنِيْسًا ، صِبْيَانٌ حَيَارَى ، مَا لَهُمْ تَفَاوَدُوا عَقُولَهُمْ ، وَفِرَاشُ نَارٍ ، وَذِبَابٌ طَمَعٌ . وَقِيلَ لِسَفِيَانَ الثَّوْرِيَّ : دُلَّنَا عَلَى رَجُلٍ نَجْلِسُ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : تِلْكَ ضَالَّةٌ لَا تَوْجِدُ . . . وَقَالَ فُلَانٌ : رَأَيْتُ كُكُلُومَ بْنَ عَمْرٍو الْعَتَابِيَّ يَا كُلَّ خُبْرَاءٍ فِي الطَّرِيقِ ، فَقُلْتَ لَهُ أَمَا تَسْتَحِي أَن تَأْكُلَ بِحَضْرَةِ النَّاسِ ؟ فَقَالَ : أَرَأَيْتَ لَوْ كُنْتَ فِي دَارِ فِيهَا بَقْرٌ ، أَمَا كُنْتَ تَأْكُلُ بِحَضْرَتِهِمْ ؟ قُلْتَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَهَؤُلَاءِ بَقْرًا ثُمَّ قَالَ : إِنْ شَدَّتْ أَرِيَّتُكَ دَلَالَةٌ عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ قَامَ وَوَعِظَ ، وَجَمَعَ قَوْمًا ثُمَّ قَالَ : رُوِيَ عَنِ غَيْرِ وَجْهِ : أَنَّ مِنْ بَاغِ لِسَانِهِ أُرْتَبَةَ أَنْفِهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ ، فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إِلَّا أَخْرَجَ لِسَانَهُ يَنْظُرُ هَلْ يَبْلُغُ

وقال رجل لأحد الشعراء : أين سكةُ الحجير ؟ فقال : اسلك أي سكة شئت فكُلَّهَا دَرُوبُ الحجير . . . ومثل هذا من النوادر المستطرفة . . .
وقال بعضهم : الناس أربعة أصناف : آساد ، وذئاب ، وثماناب ، ووضان ، فأما الآساد فالملوك - وعن إليهم من الحكام المستبدين - وأما الذئاب فالتجار ، وأما الثعالب فالقراء المخادعون ^(١) . وأما الضان فالمؤمن - يريد الطيب الكريم - يَنْهَشُهُ كُلُّ مَنْ يَرَاهُ . وقال كثير عزة :

سَوَاسٍ كَأَسْنَانِ الحِجَارِ فَمَا تَرَى لِيذِي شَيْئَةٍ مِنْهُمْ عَلَى نَائِيٍّ فَضْلًا

(١) لعل المراد بالقراء : النساك . وقد جاء في الحديث : أكثر منافق أمتي قراؤها قال ابن الأثير في النهاية . أي أنهم يحفظون القرآن نفيًا للهمة عن أنفسهم وهم معتقدون تضييعه وكان المنافقون في عصر النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الصفة

«يقال هُم سَوَاسِيَةٌ وَسَوَاسٌ وَسَوَاسِيَةٌ : إِذَا اسْتَوَوْا فِي اللُّؤْمِ وَالْحَسَّةِ وَالشَّرِّ، وَقَالَ آخَرُ :

شَبَابُهُمْ وَشِدْيَهُمْ سَوَاءٌ سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْحَمَارِ
«وَأَسْنَانِ الْحَمَارِ مَسْتَبِيَّةٌ ،

وقال طبرقة بن العبد :

كَمَا تَحْلِيلُ كُنْتُ خَالَتُهُ لَا تَرَكَ اللهُ لَهُ وَاضِحَةً (١)
نَدِمَ أَرْبُوعٌ مِنْ ثَعَلَبٍ مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ

وقال المتنبى :

وَلَمَّا صَارَ وَوَدَّ النَّاسِ خِبَا جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامِ بَابِتْسَامِ
وَصِرْتُ أَشْكُ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ لِعَلَى أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ

وقال ابن الرومي :

رَاعِلُمْ بِأَنَّ النَّاسَ مِنْ طِينَةٍ يَصْدُقُ فِي الثَّلَبِ لَهَا الثَّالِبُ (٢)
وَلَا عِلَاجَ النَّاسِ أَخْلَاقَهُمْ إِذَنْ لَفَاحِ الْحَمَأِ اللَّازِبُ (٣)

وقال المتنبى :

أَذُمُّ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْلَهُ نَأَعْلَهُمْ قَدَمٌ وَأَحْزَمَهُمْ وَغَدُ
وقال :

إِنَّمَا أَنْفُسُ الْأَنْبِيَاءِ سِبَاعٌ يَتَفَارَسْنَ جَهْرَةً وَاجْتِيَالًا
مَنْ أَطَاقَ التَّمَسَّ شَيْءٌ غَلَابًا وَاجْتِصَابًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالًا
كُلُّ غَايٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ الْغَضَنْفَرُ الرَّبِّيَالًا

(١) الواضحة : الأسنان التي تبدو عند الضحك . (٢) الثلب : العيب

(٣) الحمأ : الطين الأسود المتين ، واللازب . الذي يلزق ويصلب

وقال :

لَنَا لِنِي زَمَن تَرَكَ الْقَيْحُ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِجْمَالٌ
لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسَ كُلَّهُمْ الْجُرُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ تَقَالُ

* * *

وقالوا في أن من شيم الناس أن تحمده من رشده وتلوم من يعوى
وفي ذلك يقول القطامي :

وَالنَّاسُ مَنْ يَلْقَى خَيْرًا قَاتِلُونَ لَهُ مَا يَشْتَهِيهِ وَإِلَامٌ الْمَخْطُوعِ الْهَبَلُ^(١)
وقد أخذ من قول المرقةش الأصغر :

وَمَنْ يَلْتَقِ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسَ أَمْرَهُ وَمَنْ يَغْرِ لا يَعْدَمُ عَلَى النَّعْيِ لَأَمَّا
وهذا كعمري من عناوين اللوم المركب في الطباع .

وقالوا في انتكاس الأحوال وارتفاع السفلة الأندال والقائل : خيداش

بن زهير - شاعر جاهلي من شعراء قيس - وهو ابن عم لييد :

فإِنَّكَ لَا تُبَالِي بَعْدَ حَوْلٍ أَظْبِيْ كَانَ أَمَّكَ أُمَّ حِمَارٍ
فَقَدْ لِحَقَ الْأَسَافِلُ بِالْأَعَالِي وَمَا جِ الْوُومُ وَاخْتَلَطَ النَّجَارُ
وَعَادَ الْفِنْدُ مِثْلَ أَبِي قُبَيْسٍ وَسِيقَ مَعَ الْمُعْتَلِهَجَةِ الْعِشَارُ

« النَّجَارُ : الْأَصْلُ . وَالْفِنْدُ : قِطْعَةٌ مِنَ الْجَبَلِ طُولًا ، وَأَبُو قُبَيْسٍ جَبَلٌ

بِمَكَّةَ ، وَالْمُرَادُ بِهِ : الرَّجُلُ الشَّرِيفُ ، كَمَا يُرَادُ بِالْفِنْدِ ، الرَّجُلُ الْوَضِيعُ ، وَالْمُعْتَلِهَجَةُ :

الْمُرَاةُ اللَّثِيْمَةُ الْأَصْلُ الْفَاسِدَةُ النَّسَبِ . وَالْعِشَارُ : جَمْعُ الْعِشْرَاءِ : النَّاقَةُ مَضِي

لِحَمَلِهَا عَشْرَةَ أَشْهُرٍ ؛ يَقُولُ هَذَا الشَّاعِرُ : أَمَّا وَقَدْ لِحَقَ الْأَسَافِلُ بِالْأَعَالِي

وَاخْتَلَطَتِ الْأَصُولُ وَمَا جِ أَمْرُ النَّاسِ وَاضْطَرَبَ وَعَظُمَ شَأْنُ الْوُومِ وَفَتَقَتِ

(١) الهبل : النكل - الفقد -

سوقه وعاد الخسيس مثل الشريف حتى سبقت الإبل الحوامل في مهر اللئيمة
وتغير بذلك الزمان واطرحت مراعاة الأنساب فلا تبالى بعد قيامك بنفسك
واستغنائك عن أبويك ، من انتسبت إليه ، شريفاً كان أم وضيعاً... وضرب
المثل بالظبي والحمار وجعلهما أمين وهما ذكران لأنه مثل لا حقيقة ، وقصد
قصد الجنسين ولم يحقق أبوة . وذكر الحول ، لذكر الظبي والحمار ، لأنهما
يستغنيان بأنفسهما بعد الحول ؛ فهذا شاعر ساخط كما ترى «

وقال ابن الرومي :

دَهْرٌ عَلَا قَدْرُ الْوَضِيعِ بِهِ وَهُوَ الشَّرِيفُ يَحْطُهُ شَرَفُهُ
كَالْبَحْرِ يَرُسُّ فِيهِ أَوْلُوهُ سُفْلًا وَتَطْفُو فَوْقَهُ جِحْفُهُ

وقال :

رَأَيْتُ الدَّهْرَ يَرْفَعُ كُلَّ وَغْدٍ وَيَخْفِضُ كُلَّ ذِي شِسْمٍ شَرِيفَةٍ
كَيْتَلِ الْبَحْرِ يَغْرَقُ فِيهِ سَحْيٌ وَلَا يَنْقُ تُطْفُو فِيهِ جِحْفَةٍ
أَوْ الْمِيزَانَ يَخْفِضُ كُلَّ وَافٍ وَيَرْفَعُ كُلَّ ذِي زِنَةٍ خَفِيفَةٍ

وقال الوزير المغربي :

إِذَا مَا الْأُمُورُ اضْطَرَبْنَ اعْتَلَى سَفِيهَةٌ بِضَامِ الْعَلَى بِاعْتِلَانِهِ
كَذَا الْمَاءِ إِنْ حَرَّ كَتَهُ يَدٌ طَامًا عَكِرُ رَاسِبٌ فِي إِنْابِهِ

وقال المعري في الناس :

لَقَدْ فَتَّشْتُ عَنْ أَصْحَابِ دِينٍ لَكُمُ نُسْكٌ وَلَيْسَ لَكُمُ رِيَاءُ
فَأَلْفَيْتُ الْبَهَائِمَ لَا عُقُولَ تُقِيمُ لَهَا الدَّلِيلَ وَلَا ضِيَاءُ
وَإِخْوَانَ الْفَطَانَةِ فِي اخْتِيَالٍ كَأَنَّهُمْ لِقَوْمِ أَنْبِيَاءُ
فَأَمَّا هَوْلَاءُ فَأَهْلُ مَكْرٍ وَأَمَّا الْأَوْلُونَ فَأَغْبِيَاءُ

فإن كان الثقي بَلَمَّا وَعِيًّا فَأَعْيَارُ الْمَذَلَّةِ أَتَقِيَاءُ

« الأعيار : جمع عَيْر ، وهو الحمار يضرب به المثل في الذل قال المتلمس :

ولا يقيم على ضميم ألمَّ به إلا الأذلان عَيْرُ الحَيِّ وَالْوَتِدُ

فذاك يُخَسِّفُ مَرْبُوطًا بِمَقْوَدِهِ وَذَا يُشْجِعُ وَلَا يَرِثِي لَهُ أَحَدٌ

وقال :

بَنِي الدَّهْرِ مَهْلًا إِنْ ذَمَّمْتُ فِعَالِكُمْ
مَتَى يَتَقَضَى الْوَقْتُ وَاللَّهُ قَادِرٌ
تَجَاوَرَ هَذَا الْجِسْمُ وَالرُّوحُ بُرْهَةً
فَأِنِّي بِنَفْسِي لَا مَحَالَةَ أَبْدَأُ
فَنَسْكُنُ فِي هَذَا التُّرَابِ وَنَهْدًا
فَمَا بَرِحَتْ تَأَذَى بِذَلِكَ وَتَصْدَأُ

وقال المعري :

جَرَّبْتُ دَهْرِي وَأَهْلِيهِ فَمَا تَرَكَتُ
لِي التَّجَارِبَ فِي وُدِّ أَمْرِي غَرَضًا

وقال :

أُولُو الْفَضْلِ فِي أَوْطَانِهِمْ غُرَبَاءُ
تَوَاصَلَ حَبْلُ النِّسْلِ مَا بَيْنَ آدَمِ
تَنَاءَبَ عَمْرُو إِذْ تَنَاءَبَ خَالِدٌ
وَزَهْدَنِي فِي الْخَلْقِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ
تَشَدُّهُ وَتَنَائَى عَنْهُمْ الْغُرَبَاءُ
وَبَيْنِي وَلَمْ يُوَصَّلْ بِالْإِمَامِ بَاءُ
يَعْدَوِي فَمَا أَعَدْتَنِي الثُّوبَاءُ
وَعَلَيْهِ بَأَنَّ الْعَالَمِينَ هَبَاءُ

وقال المعري :

أُرَايِكَ فَلْيَغْفِرْ لِي اللَّهُ ذَلَّتِي
وَقَدْ يُخْلِفُ الْإِنْسَانَ ظَنَّ عَشِيرِهِ
إِذَا قَوْمًا لَمْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَحَدَهُ
بِذَلِكَ وَدِينُ الْعَالَمِينَ رِيَاءُ
وَإِنْ رَاقَ مِنْهُ مَنَظَرٌ وَرُؤَاةُ
بِنُصْحٍ فَإِنَّا مِنْهُمْ بُرُؤَاةُ

وقال :

إِذَا بَكَرْتُ جَنَى فَتَوَقَّ عَمْرًا
فَإِنَّ كِلَيْهِمَا لَابٌ وَأَمٌّ

وفي كُـلِّ الطَّبَاعِ طَبَاعٌ تَنكِرُ وليس بَـجَمِـعُهُنَّ ذَوَاتِ سُمِّ
« النكز : تسع الحية »
رَأَيْتُ الْحَقَّ لَوْلَاؤَةَ تَوَارَتْ بَالِجٍ مِنْ ضَلَالِ النَّاسِ جَمِّ

وقال :

رِيَاءُ بَنِي حَوَاءَ فِي الطَّبِيعِ ثَابِتٌ فَفَنَهُمْ مُجِـدُّ فِي النِّفَاقِ وَهَازِلٌ
سَخَوُ الْيَقُولِ النَّاسُ جَادُوا وَأَقْدَمُوا لِيَذْكَرَ فِي الْهَيْجَاءِ قِرْنَ مُنَازِلُ

وقال :

النَّاسُ مِثْلُ الْمَاءِ تَضْرِبُهُ الصَّبَا فَيَكُونُ مِنْهُ تَفَرُّقٌ وَتَأَلُّفٌ
وَالْخَيْرُ يَقَعْلُهُ الْكَرِيمُ بِطَبِيعِهِ وَإِذَا اللَّثِيمُ سَخَا فَذَلِكَ تَكَلُّفٌ
شَكَوَتْ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ عَذْرَهُمْ

لَا تُنكِرُنَّ فَعَلَى هَذَا مَعَضَى السَّافِ

وَقَلَّمَا تَسْكُنُ الْأَضْغَانُ فِي خَلْدٍ إِلَّا فِي وَجْهِ مَنْ يَسْعَى بِهَا كَلْفٌ
أَسَى النِّفَاقِ دُرُوعًا يُسْتَجَنُّ بِهَا مِنَ الْأَذَى وَيُقَوِّى سَرْدَهَا الْخَلْفُ
« الخلف : اليمين »

فَحَسَّنَ الْوَعْدَ بِالْإِنجَازِ تَتَّبِعُهُ إِذَا مَوَاعِدُ قَوْمِ شَانَهَا الْخَلْفُ

وقال :

إِذَا فَوَّعْنَا فَإِنَّ الْأَمْنَ غَايَتُنَا وَإِنْ أَمِنَّا فَمَا نَخْلُو مِنَ الْفَرَعِ
وَشِيْمَةُ الْإِنْسِ مِمزُوجٌ بِهَا مَلَلٌ فَمَا تَدُومُ عَلَى صَبْرِ وَلَا جَزَعِ

وقال :

إِذَا مَا أَسَنَّ الشَّيْخُ أَقْصَاهُ أَهْلُهُ وَجَارَ عَلَيْهِ النَّجْلُ وَالْعَبْدُ وَالْعَرْسُ

« العرس : الزوجة »

يُسَبِّحُ كَيْمًا يَغْفِرُ اللَّهُ ذَنْبَهُ رُوِيَكَ فِي عَهْدِ الصَّبَا مُلَى الطَّرْسُ
وقال :

أَهْرَبُ مِنَ النَّاسِ فَإِنْ جِئْتَهُمْ فِئْلَ سَابٍ جَرَّهَ السَّاحِبُ (١)
يَلْتَفِعُ النَّاسُ بِمَا عِنْدَهُ وَهُوَ لَقِيَ بَيْنَهُمْ شَاحِبُ (٢)
وقال :

إِنْ مَازَتْ النَّاسَ أَخْلَاقٌ يُعَاشُ بِهَا فَإِنَّهُمْ عِنْدَ سُوءِ الطَّبِيعِ أَسْوَأُ
أَوْ كَانَ كُلُّ بَنِي حَوَاءَ يُشْبِهُنِي فَيُنْسَ مَا وُلِدَتْ فِي الْخَلْقِ حَوَاءُ
بُعْدِي مِنَ النَّاسِ بُرٌّ مِنْ سَقَامِهِمْ وَقُرْبُهُمْ لِلصَّحِيحِ وَالذِّينِ أَدْوَاءُ
كَالْبَيْتِ أُفْرِدَ لَا إِطَاءَ يُدْرِكُهُ وَلَا سِنَادَ وَلَا فِي اللَّفْظِ إِقْوَاءُ (٣)
وقال :

قَدْ حُجِبَ الثَّوْرُ وَالضِّيَاءُ وَإِنَّمَا دِينُنَا رِبَاءُ
يَا عَالَمَ السُّوءِ مَا عَلِمْنَا أَنْ مُصَلِّكَ أَتْقِيَاءُ
كَمْ وَعَظَّ الوَاعِظُونَ مِنَّا وَقَامَ فِي الْأَرْضِ أَنْبِيَاءُ
فَانصَرَفُوا وَالبَلَاءُ بَاقٍ وَلَمْ يَزُلْ دَاوُكِ الْعِيَاءُ
« زال يزول : راح وذهب ؛ والعياء : الذي لا يبرأ منه »

حُكْمٌ جَرَى لِلْبَلِيكِ فِينَا وَنَحْنُ فِي الْأَصْلِ أَعْيَاءُ

(١) السَّابُ : زِقُ الخَيْرِ

(٢) اللَّقْيُ : المُلْتَقَى عَلَى الْأَرْضِ ، وَالشَّاحِبُ : المَهْزُولُ المَتَغَيِّرُ اللَّوْنُ لِعَارِضِ كَعَرِضِ وَنَحْوِهِ

(٣) الْإِطَاءُ : تَكَرُّرُ القَافِيَةِ بِلَفْظِهَا وَمَعْنَاهَا ، وَالْإِقْوَاءُ : اخْتِلَافُ إِعْرَابِ القَوَائِي ،

وَالسِّنَادُ أَنْوَاعٌ وَهُوَ كُلُّ عَيْبٍ يَحْدُثُ قَبْلَ الرُّوْيِ كَارْدَافِ قَافِيَةٍ وَتَجْرِيدِ أُخْرَى

وَهَذِهِ مِنَ عِيُوبِ القَافِيَةِ

وقال :

مُلِّ المَقَامُ فمِمْ أَعَاثِرُ أُمَّةٍ أَمَرَتْ بِتَغْيِيرِ صِلَاحِهَا أَمْرَاؤُهَا
ظَلَمُوا الرِّعْيَةَ وَاسْتَجَاوَزُوا كَيْدَهَا فَعَدَّوْا مَصَالِحَهَا وَهُمْ أُجْرَاؤُهَا

وقال بشار بن برد :

حَئِيرُ إِخْوَانِكَ المِشَارِكُ فِي المَسْرِ وَأَيْنَ المِشَارِكُ فِي المَرِّ أَيْنَا
الذِي إِنْ شَهِدْتَ سَرَّكَ فِي الحِمْسِيِّ وَإِنْ غَبْتَ كَانَ أَذُنًا وَعَيْنَا
مِثْلُ سِرِّ الْيَاقُوتِ إِنْ مَسَّهُ النَّارُ جَلَاءُ البِئْسَاءِ فَازْدَادَ زَيْنَا
أَنْتَ فِي مَعَشِرٍ إِذَا غَبْتَ عَنْهُمْ بَدَّلُوا كُلَّ مَا يَزِينُكَ شَيْنَا
وَإِذَا مَا رَأَوْكَ قَالُوا جَمِيعَا أَنْتَ مِنْ أَكْزَمِ التَّبْرَايَا عَلَيْنَا
مَا أَرَى اللَّانَامَ وُودًا صَحِيحَا عَادَ كُلُّ الْوِدَادِ زُورًا وَمَيْنَا

وقال ابن الرومي :

ذُقْتُ الطُّعُومَ فَمَا التَّدَذْتُ بِرَاحَةٍ مِنْ صُحْبَةِ الْأَخْيَارِ وَالْإِشْرَارِ
أَمَّا الصَّدِيقُ فَلَا أَحِبُّ لِقَاءَهُ حَذَرَ القَلْبِ وَكِرَاهَةَ الإِعْوَارِ
وَأَرَى العَدُوَّ قَدَى فَأَكْرَهُ قُرْبَهُ فَهَجَرْتُ هَذَا الخَلْقَ عَنْ إِعْدَارِ
أَرِنِي صَدِيقًا لَا يَنْوِي بِسَقْطَةٍ مِنْ عَيْنِهِ فِي قَدْرِ صَدْرِ نَهَارِ
أَرِنِي الذِي عَاشَرْتَهُ فَوَجَدْتَهُ مُتَغَاضِيًا لَكَ عَنْ أَقَلِّ عِشَارِ
أَحِبُّ قَوْمًا لَمْ يُحِبُّوا رَبَّهُمْ إِلَّا لِفِرْدَوْسٍ لَدَيْهِ وَنَارِ

وقال :

عَدُوَّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلَا تَسْتَكْبِرَنَّ مِنَ الصَّحَابِ
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ يَحُولُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ
إِذَا انْقَلَبَ الصَّدِيقُ غَدًا عَدُوًّا مُبِينًا وَالْأُمُورُ إِلَى انْقِلَابِ

ولو كان الكثير يُطيب كانت صاحبة الكثير من الصواب
وما اللجج الملاح بمرويات وتلقى الرى في النطف العذاب
ويعد فإن هذا الباب مُتسع جدا، وسيمر عليك كثير من عبقرياتهم فيه في باب
الإخوانيات وباب الطبائع، فلنجزئ بهذا المقدار.



الغوغاء

ولهم في السقاط والسفلة وهذه الرجرة من الناس كلام كثير، فن ذلك قول
واصل ابن عطاء: ألقا تل الله هذه السفلة، توأد من حاد الله ونيه، وتجاد من
وآد الله ونيه، وتدم من مدحه الله، وتمدح من ذمه الله، على أن بهم
علم الفضل لأهل الطبقة العالية، وبهم أعطيت الأوساط حظا من الشبل...
ومنه قول سيدنا على رضى الله عنه. وقد أتى بجان ومعه غوغاء —
فقال: لا مرحباً بوجه لا ترى إلا عند كل سوءة... وقوله رضى الله عنه:
هم الذين إذا اجتمعوا ضروا وإذا تفرقوا نفعوا؛ فليل له: قد علمنا مضررة
اجتماعهم فما منفعة اتراقهم؟ فقال: يرجع أصحاب المهن إلى مهنتهم، فينتفع
الناس بهم، كرجوع البناء إلى بنائه، والنساج إلى منسجه، والخباز
إلى مخبزه.

وكان الحسن البصرى إذا ذكر الغوغاء والشوق يقول: قتلة الأنبياء،
وكانوا يقولون: العامة كالبحر إذا هاج أهلك راكبه، وكان المأمون الخليفة
العباسى يقول: كلُّ ثمر وظلم في العالم فهو صادر عن العامة والغوغاء؛ لأنهم
قتلة الأنبياء، والسعاة بين العلماء، والنمامون بين الأوداء، ومتهم اللصوص

وَقَطَّاعِ الطَّرِيقِ وَالطَّرَارُونَ وَالْمَحْتَالُونَ وَالسَّاعُونَ إِلَى السَّاطِنِ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُشِرُوا عَلَى عَادَتِهِمْ فِي السَّعَايَةِ ، فَقَالُوا : رَبَّنَا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ، رَبَّنَا وَآتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا... وَقَالَ الْجَاحِظُ : الْغَاغَةُ وَالْبَاغَةُ^(١) وَالْحَاكَةُ كَأَنَّهُمْ إِعْذَارُ^(٢) عَامٍ وَاحِدٍ ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَا تَجْسُدُ أَبَدًا فِي كُلِّ بَلَدَةٍ ، وَفِي كُلِّ عَصْرٍ ، هَوْلًا ، إِلَّا بِمَقْدَارٍ وَاحِدٍ وَجِهَةٍ وَاحِدَةٍ ، مِنَ السَّخْفِ وَالنَّقْضِ وَالخُتُولِ وَالغِبَاوَةِ .

وَمِنْ كَلِمَةِ سَيِّدِنَا عَلِيٍّ فِي فَضْلِ الْعِلْمِ عَلَى الْمَالِ وَوَصْفِ الطَّغَامِ — قَالَ كَمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ النَّخَعِيُّ : أَخَذَ بِيَدِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، فَأَخْرَجَنِي إِلَى الْجَبَانَ^(٣) ، فَلَمَّا أَصْحَرَ تَنَفَّسَ الصَّعْدَاءَ^(٤) ، ثُمَّ قَالَ : يَا كَمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ ، إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ تُغَيِّرُهَا أَرْعَاهَا ، فَاحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ ، النَّاسُ ثَلَاثَةٌ ، فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ ، وَهَمَّجٌ رَعَاعٌ ، أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِيٍّ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، لَمْ يُسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَأْجَأُوا إِلَى رَكْنٍ وَثِيقٍ ، يَا كَمَيْلُ ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ ، الْعِلْمُ يَجْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالِ ، وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ ، وَصِيحُ الْمَالِ يَزُولُ بِرِوَالِهِ ؛ يَا كَمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ ، هَلَّاكَ حُزْنُ الْإِهْوَالِ وَهَمُّ أَحْيَاءِ ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ . إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْخُطْبَةِ الْعُلُويَّةِ الَّتِي تَرَاهَا فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ ...

(١) الَّذِي فِي اللِّسَانِ : وَبُغَاءُ النَّاسِ : سَفَلَتُهُمْ وَطَاشَتُهُمْ وَحَقَامُهُ .

(٢) الْإِعْذَارُ : الْخُتَانُ وَطَعَامُ الْخُتَانِ وَفِي الْحَدِيثِ : كُنَّا إِعْذَارَ عَامٍ وَاحِدٍ ، أَيْ

(٣) الْجَبَانَ وَالْجَبَانَةَ يَرِيدُ الصَّحْرَاءَ .

خَتَّتَا فِي عَامٍ وَاحِدٍ ، وَكَانُوا يَخْتَنُونَ لِسَنَ مَعْلُومَةٍ فِيمَا بَيْنَ عَشْرِ سَنِينَ وَخَمْسِ عَشْرَةٍ

(٤) تَنَفَّسَ الصَّعْدَاءَ : أَيْ تَنَفَّسَ تَنَفَّسًا مَمْدُودًا طَوِيلًا

وقال معاوية رَضَعَصَعَةَ بن صوحان : صِف لي الناس ، فقال : خُلِقَ الناس أطواراً ، طائفة للسيادة والولاية ، وطائفة للفقهِ والسُّنة ، وطائفة للباسِ والنَّجدة ، ورجرة بين ذلك ، يُفْلُونَ السمر ، ويكُدُّون الماء ، إذا اجتمعوا ضرّوا ، وإذا تفرقوا لم يُعرَفوا ... ومن طريف التفاسير وغيرها ما قيل في قوله تعالى : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم » أي من السلطان « أو من تحت أرجلكم » أي من السَّفل .

وقال دِعْبِل :

ما أكثرَ الناسَ لا بل ما أقلَّهُمُ اللهُ يعلمُ أنّي لم أُقلِّ فَنَدَا
لنّى لأفْتَحُ عَيْنِي حينَ أفْتَحُهَا على كثيرٍ ولكن لا أرى أحداً
وهم يشبهون سوادَ الناسِ بالدُّبَا ، والدُّبَا مقصور : الجراد قبل أن يطير ،
وفي حديث عائشة قالت : كيف الناس بعد ذلك ؟ قال : ذبّى يأكل شدّأه
ضعافه حتى تقوم عليهم الساعة ...

قلة الوفاء في الناس وشيوع الغدر والمكر في عاقبتهم

وقالوا في قلة الوفاء في الناس ووصف عاقبتهم بالغدر ، والمكر السيئ ،
ومن أروع ما قيل في ذلك قوله عز وجل : « وما وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ
وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ » . وقال سبحانه : « الذين يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ
من بَعدِ ميثاقه وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ به أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ في الأَرْضِ
أولئك لهم اللعنةُ ولهم سُوءُ الدَّارِ » ...

وقال : « أفأَمِنَ الذين مَسَكُوا السِّبْطَ أَنْ يَخْفِيفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ
أرْيا تَيْبَهُمُ العذابُ من حيثُ لا يَشْعُرُونَ ، وقال : ولا يَحِيقُ المَسْكُ السَّيِّئُ

إلا بأهله ... وقال : ومن نكثَ فإيما ينكثُ على نفسه . وقال : إنما
بغيركم على أنفسكم ... وقال المتنبي :

غيري بأكثرِ هذا الناسِ يندحُ إن قالوا جبنوا أو حدثوا شجعوا
أهلُ الحفيظة إلا أن تُجربهم وفي التجارب بعد الغي ما يزع

وقال أبو فراس الحمداني :

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه ومن أين للحرّ الكريم صحاب
وقد صارَ هذا الناسُ إلا أفلهم ذئاباً على أجسادهن ثيابُ

وقال أبو تمام :

إن شئت أن يسودَّ ظمك كله فأجله في هذا السواد الأعظم
ليس الصديق بمن يعيرك ظاهراً متبسماً عن باطن متجهماً

« يقول : إن شئت أن لا تظن بأحد خيراً فاختر من شئت من هذا الناس ،
وكان يحيى بن خالد البرمكي إذا اجتهد في يمينه يقول : لا والذي جعل
الوفاء أعزَّ ما يرى . وكان يقول : هو أعتز من الوفاء . وقالوا : من عامل الناس
بالمكر كافأوه بالغدر

وكانت العرب إذا غدرَ منهم غادر ، يوقدون له بالموسم ناراً
وينادون عليه يقولون : ألا إن فلاناً غدر ... وقالوا : رب حيلة أهلكت
المحتال ، وقال امرؤ القيس :

أحارِ بنَ عَمْريو كأنِّي تخِرُ وَيَعْدُو عَلَى المرءِ ما يَأْتِمِرُ
« رجل تخير : خالطه الداء ، وقوله ويعدو الخ : أراد أن المرء يأتمر لغيره
بسوء . فيرجع وبال ذلك عليه » وقال شاعر لا أذكره :

وكم من حافرٍ لآخيه ليلاً تَرَدَى في حفيرته نهارة
ومن قولهم في وصف الغادر : فلان يَحْسُو الأماناتِ حَسَوْاً ، وفلان

أعذر من الذئب، قال : * هو الذئب ولذئب أوقى أماته *

وقال : * والذئب يأدو للغزال يأكله * .

« يأدو للغزال : يَحْتَلِه لِيَأْكَلَه ، قال الشاعر :

- حَمَتْنِي حَانِيَاتِ الدَّهْرِ حَتَّى كَأَنِّي خَاتِلٌ يَأْدُو لِصَيْدِ ،

ويقال : رَكِبَ فُلَانٌ السَّخْبَرَ : إِذَا غَدَرَ ، قال حسان بن ثابت :

يَا حَارِ مَنْ يَغْدِرُ بِدَمِّهِ جَارَهُ مِنْكُمْ فَإِنْ مُحَمَّدًا لَمْ يَغْدِرْ
إِنْ تَغْدِرُوا فَالْغَدْرُ مِنْكُمْ شِيْمَةٌ وَالْغَدْرُ يَنْبُتُ فِي أَصُولِ السَّخْبَرِ

قال ابن برى : إِنَّمَا شَبَّهَ الْغَادِرَ بِالسَّخْبَرِ ، لِأَنَّ السَّخْبَرَ شَجَرٌ إِذَا انْتَهَى اسْتَرْخَى رَأْسُهُ وَلَمْ يَبْقَ عَلَى انْتِصَابِهِ ، يَقُولُ حَسَانٌ : أَتَمَّ لَا تَنْبُتُونَ عَلَى وِفَاءِ كَهَذَا السَّخْبَرِ الَّذِي لَا يَنْبُتُ عَلَى حَالٍ ، بَيْنَمَا يُرَى مُعْتَدِلًا مُنْتَصِبًا ، عَادَ مَسْتَرْخِيًا غَيْرَ مُنْتَصِبٍ ، وَبَعْدَ فَانْهَمَ عَلَى هَذَا نَصَحُوا بِمَدَارَاةِ النَّاسِ مَا دَامَ الِاسْتِغْنَاءُ عَنْهُمْ غَيْرَ

مُسْتَطَاعٍ . قَالَ رَجُلٌ لَابْنِ عَبَّاسٍ : ادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ يُغْنِيَنِي عَنِ النَّاسِ فَقَالَ : إِنَّ حَوَائِجَ النَّاسِ تَتَّصِلُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ كاتِّصَالَ الْأَعْضَاءِ ، فَتَى يَسْتَغْنِي الْمَرْءُ عَنْ بَعْضِ جَوَارِحِهِ ؟ وَلَكِنْ قُلْ : أُغْنِنِي عَنِ شِرَارِ النَّاسِ . وَرَوَى : أَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يَطُوفُ وَيَقُولُ : مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي بِضَاعَ بَعْشَرَةِ آلَافٍ دِرْهَمٍ ؟ فَدَعَاهُ بَعْضُ الْمُلُوكِ وَبَدَّلَ لَهُ الْمَالَ فَقَالَ لَهُ : اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقًا شَرًّا مِنَ النَّاسِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ النَّاسِ فَانظُرْ كَيْفَ تَحْتَاجُ أَنْ تَعَامَلَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ وَلَا يَغْنَى بِكَ عَنْهُ ... ثُمَّ قَالَ : هَلْ يَسَاوِي هَذَا الْكَلَامَ عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ ؟ قَالَ : دُونَكَ الْمَالَ ، وَلَمْ يَأْخُذْهُ ... وَقَالُوا : ثَلَاثًا التَّعَايِشُ ، مَدَارَاةُ النَّاسِ . وَقَالَ النَّظَّامُ - إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَيَّارٍ أَحَدَ شَيْوِخِ الْمَعْتَزِلَةِ - : مَا يُشْرِنِي تَرْكُ الْمَدَارَاةِ وَلِي حُمْرُ النَّعَمِ ،

قيل له : لِمَ ؟ قال : لأن الأمر إذا غَشِيكَ فَتَحَّصْتَ له أَرْدَاكَ ، وإذا طَاطَأَتْ له تَخْطَاكَ . . . وقال معاوية : لو كان بيني وبين الناس شَعْرَةٌ ما انقطعت ، لأنهم إذا جذبوها أرسلتها ، وإذا أرسلوها جذبتها . . . وقال أكرم بن صَيْفِي : الانقباض من الناس مَكْسَبَةٌ للعداوة ، وإفراط الأناس مَكْسَبَةٌ لقرناء السوء ، ومن أمثال العرب : لا تَكُنْ حُلُومًا فَتُشْتَرَطَ ولا مُرًّا فَتُلْفَظَ « استرطه ابتلعه ، وجاء في كتاب للهند : بعض المقاربة حزم ، وكل المقاربة عَجْز ، كالخشب المنصوبة في الشمس ، تَمَالُ فَيَزِيدُ ظِلُّهَا ، وَيُفْرَطُ في الإمامة فَيَنْقُصُ الظِّلُّ . . .

وقال الطغرائي في لاميته المشهورة المعروفة بلامية العجم :
 وَحُدُنْ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ مَعْجَزَةٌ فُظُنَّ شَرًّا وَكُنْ مِنْهَا عَلِيٌّ وَجَلْ
 غَاضُ الْوَفَاءِ وَفَاضُ الْغَدْرِ وَانْفَرَجَتْ مَسَاةُ الْخُلْفِ بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ
 وَإِنَّمَا رَجُلُ الدُّنْيَا وَوَاحِدُهَا مَنْ لَا يَعُولُ فِي الدُّنْيَا عَلَى رَجُلٍ

الأنذال واللثام

اللُّؤْمُ : ضِدُّ الْعَيْثِ وَالْمَكْرَمِ ، وَاللَّثِيمُ : الدَّنِيءُ الْأَصْلِيُّ الشَّجِيحُ النَّفْسُ :
 وَالنَّذَالَةُ : الْحَيْسَةُ وَالسَّفَالَةُ وَرَكَكَةُ الْعَقْلِ وَالنَّأخُرُ عَنِ الْمَكَارِمِ ، وَالنَّذَلُ :
 الْحَسِيئُ الْحَقِيرُ الْفَسَلُ الَّذِي لَا مَرُوءَةَ لَهُ . وَمِنْ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي هَذَا الصَّنْفِ
 مِنَ النَّاسِ قَوْلُ أَبِي الْأَسَدِ نُبَاتَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ النَّيْمِيِّ - شَاعِرٍ كَانَ مُعَاَصِرًا
 لِأَبِي تَمَّامٍ : -

إِنْ يَبْغُلُوا أَوْ يَجْبُنُوا أَوْ يَغْدِرُوا لَا يَخْفَلُوا
 يَغْدُوا عَلَيْكَ مُرَجَّلِينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

كَأَبِي بَرِاقِشَ كُلِّ نَوْءٍ لَوْ نُؤُهُ يَتَّخِيلُ

« وَصَفَ قَوْمًا مَشْهُورِينَ بِالْمَقَابِحِ لَا يَسْتَحُونَ وَلَا يَحْتَفِلُونَ بِمَنْ رَأَى عَلَيْهِمْ ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : يَغْدُوا هُوَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ : لَا يَحْفِلُوا ، لِأَنَّ غَدْوَهُمْ مُرَجَّلِينَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَحْفِلُوا . وَالْتَرَجِيلُ : مَشَطُ الشَّعْرِ وَإِرْسَالُهُ . وَأَبُو بَرِاقِشَ طَائِرٌ صَغِيرٌ أَعْلَى رِيْشُهُ أَغْبَرُ وَأَوْسَطُهُ أَحْمَرُ وَأَسْفَلُهُ أَسْوَدٌ فَإِذَا انْتَفَشَ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ أَلْوَانًا شَدِيدًا . وَهَذَا أَبُو بَرِاقِشَ غَيْرُ بَرِاقِشِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي قَوْلِهِمْ : عَلَى أَهْلِهَا دَلَّتْ بَرِاقِشُ ، فَهَذِهِ اسْمُ كَلْبَةٍ لِقَوْمٍ مِنَ الْعَرَبِ أُغْيِرَ عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ ، فَهَرَبُوا وَتَبِعْتَهُمْ بَرِاقِشُ فُرِجَعُ الَّذِينَ أَغَارُوا خَائِبِينَ ؛ فَسَمِعَتْ بَرِاقِشُ وَقَعَّ حَوَافِرِ الْخَيْلِ ، فَتَنَبَّحَتْ فَاسْتَدَلُّوا عَلَى مَوْضِعِ نَبَاحِهَا ، فَطَفَّطُوا عَلَيْهِمْ وَاسْتَبَاحَرَهُمْ ، فَذَهَبَتْ مَمْلَأَةً وَقَالُوا : عَلَى أَهْلِهَا تَجْنِي بَرِاقِشُ ، قَالَ حَمْرَةَ بْنُ بَيْضِ :

لَمْ تَمُكِّنْ عَنِ جَنَابِيهِ لِحِقَّتِي لَا يَسَارِي وَلَا يَمِينِي جَنَّتِي

بَلْ جَنَابَهَا أَخٌ عَلَى كَرِيمٍ وَعَلَى أَهْلِهَا بَرِاقِشُ تَجْنِي

وقال آخر — وهي من أبيات الحماسة — حماسة أبي تمام : —

أَنَاخَ اللَّؤْمُ وَسَطَ بَنِي رَبَاحٍ مَطِيئَتُهُ فَأَقْسَمَ لَا يَرِيمُ

كَذَلِكَ كُلُّ ذِي سَفَرٍ إِذَا مَا تَنَاهَى عِنْدَ غَايَتِهِ يُقِيمُ

« يُقَالُ : أَنْحَتُ الْبَعِيرَ قَبْرَكَ ، وَلَا يُقَالُ قَنَاخَ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ مَا اسْتَعْفَى

عَنْهُ بِغَيْرِهِ ، وَلَا يَرِيمُ : لَا يَبْرَحُ ، وَقَوْلُهُ : كَذَلِكَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ لِأَنَّ كُلَّ

ذِي سَفَرٍ مُبْتَدَأٌ وَمَقِيمٌ خَبْرُهُ ، كَأَنَّهُ قَالَ : رُكِلْتُ مُسَافِرًا إِذَا مَا انْتَهَى إِلَى غَايَتِهِ يُلْقَى

عَصَاهُ كَذَلِكَ ، أَيْ مِثْلَ إِقَامَةِ اللَّؤْمِ فِيهِمْ ، وَقَدْ نَقَلَ الْبُحَّارِيُّ هَذَا الْمَعْنَى

إِلَى الْمَذْحِ فَقَالَ :

إِذَا مَا رَأَيْتَ الْمَجْدَ أَلْفَى رَحْلَهُ فِي آلِ طَالِحَةَ لَمْ يَتَحَوَّلِ ،

وقال جرير :

وَكَُنْتُ إِذَا نَزَلْتُ بِدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتُ بِخِزْيَةٍ وَتَرَكَتْ عَارَا

وقال :

تَمِيمٌ بِطَرِيقِ اللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ القَطَا وَلَوْ سَلِمَكَتْ سُبُلَ المَكَارِمِ صَلَّتْ
وَقَالُوا فِيمَنْ لَا يَصْلُحُ لِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ : فُلَانٌ أَمْلَسَ لَيْسَ فِيهِ مُسْتَقَرٌّ
لِخَيْرٍ وَلَا شَرٍّ . وَقَالُوا : فُلَانٌ مَا هُوَ إِلَّا بِرَطْبٍ فَيُعْصَرُ وَلَا يَبِيبُ سِرًّا .
وَقَالُوا : شَرُّ النِّاسِ الَّذِي لَا يَتَوَقَّى أَنْ يَرَاهُ النِّاسُ مُسِينًا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ .

وقال الشاعر :

قَوْمٌ إِذَا خَرَجُوا مِنْ سَوَاءٍ وَجَلُّوا فِي سَوَاءٍ لَمْ يَخْبَأُهَا بِأَسْتَارِ

الظن

وَلِتَفَشَى الغَدْرَ وَالمَكْرَ فِي هَذَا النِّاسِ مَدَحُوا الاِحْتِرَاسَ وَالتَّحَدَّرَ وَسُوءَ
الظَّنِّ بِالنِّاسِ . قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : مَا الحَزْمُ ؟ قَالَ : سُوءُ الظَّنِّ بِالنِّاسِ . وَقَالَ
الشَّاعِرُ البَيْهَاءُ :

وَأَكْثَرُ مَنْ تَلَقَّى يَسْرُكَ قَوْلُهُ وَلَكِنْ قَلِيلٌ مَنْ يَسْرُكَ فِعْلُهُ

وَقَدْ كَانَ حُسْنُ الظَّنِّ بَعْضَ مَدَاهِي

فَأَدْبَنِي هَذَا الزَّمَانُ وَأَهْلُهُ

وَقَالُوا عَلَيْكَ بِسُوءِ الظَّنِّ ، فَإِنْ أَصَابَ فَالحَزْمُ ، وَإِنْ أَخْطَأَ فَالسَّلَامَةُ .
وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : إِنْ بَعْضَ الظَّنِّ لَأَنْتُمْ : دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ جُلَّةَهُ
صَوَابٌ . وَقَالَ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ : فَرَّقَ مَا بَيْنَ عُمَرَ وَعُثْمَانَ أَنَّ عُمَرَ
أَسَاءَ ظَنَّهُ فَأَحْكَمَ أَمْرَهُ ، وَأَنَّ عُثْمَانَ أَحْسَنَ ظَنَّهُ فَأَهْمَلَ أَمْرَهُ . وَقِيلَ

لبعضهم : أسأت الظن ! فقال : إن الدنيا لما امتلأت مكاره ووجب على العاقل أن يملأها حذرًا ...

ولما رأوا أن الظن هو الغالب على الناس وأنه لذلك يكاد يكون غريزة من الغرائز الإنسانية ، وأن تحقيقه ولا سيما بين الأصدقاء يعد من الإفراط الممقوت ، وأنه لا يليق بمكارم الأخلاق ، ذموه ونعوه على أهله ، قال تعالى : اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم . وقال سيدنا رسول الله : ثلاثة لا يسلم منهن أحد : الطيرة ، والظن ، والحسد ، قيل : فما المخرج منهن يا رسول الله ؟ قال : إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ . . . وقال صلوات الله عليه : إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث . وقال ابن الأثير في النهاية : أراد : إياكم وسوء الظن وتحقيقه ، دون مبادئ الظنون التي لا تملك وخواطير القلوب التي لا تدفع ، وقيل : أراد : الشك يعرض لك في الشيء فتحققه وتحكم به . وأكذب الحديث : أى حديث النفس ؛ لأنه يكون بإلقاء الشيطان في نفس الإنسان ، وقال المتنبى :

إذا ساءَ ففعل المرءُ ساءتْ ظُنُونُهُ وَصَدَقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُمِهِ
وَعَادَى مُجِبِّهِ بِقَوْلِ عِدَاتِهِ فَأَصْبَحَ فِي دَاجٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمِ

وقال شاعر :

مَنْ سَاءَ ظَنَّا بِمَا يَهْوَاهُ فَارَقَهُ وَحَرَصَتْهُ عَلَى إِبَادَةِ التَّهَمِ

وَمِنْ هُنَا مَدَحُوا التَّثَنِّيَّاتِ وَالتَّغَافِلِ . وَتَرَى سَائِرَ عِبْقَرِيَّاتِهِمْ فِي الظَّنِّ فِي

باب الطبائع وباب الإخوانيات .

الشّماتة

والشّماتة: الفرح بِبَيْلِيَّةٍ تَنْزِلُ بِمَنْ تُعَادِيهِ، تقول: شَمِتَ بِهِ يَشْمِتُ شِمَاتَةً وَشِمَاتًا، وَأَشْمَتُهُ اللهُ بِهِ، وفي القرآن الكريم: فلا تُشْمِتْ بِي الأعداء... .
وقد تقدم ظَرْفٌ من عبقرياتهم في الشّماتة بالموت، ومن عبقرياتهم في الشّماتة مطلقًا قول الفرزدق:

إذا ما الدهرُ جَرَّ عَلَيَّ أَناسٍ حوَادِثُهُ أَنَاخَ بِأَخْرِينَا
فَقُلْ لِلشامِتِينَ بِنَا أفيقُوا سَيَلِقَى الشامِتُونَ كما لَقِينَا
وقيل لِأَيُّوبَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلامُ: أَيُّ شَيْءٍ كانَ أَشَدَّ عَلَيْكَ في بِلاتِكَ؟
قال شِماتُهُ الأعداء.

الحقْد

الحِقْدُ — كما جاء في اللسان — : إمساكُ العداوةِ في القلبِ والنزْبُصِ
لِفِرْصَتِها، قال: والحِقْدُ: الضَّننُ. قال: وَحَقَدَ عَلَيَّ يَحْقِدُ حِقْدًا، وَحَقَدَ
— بالكسر — حَقْدًا وَحِقْدًا فهو حاقِدٌ؛ فَالحِقْدُ: الفعل، والحِقْدُ: الاسمُ،
وتَحَقَّدَ: كَحَقَّدَ؛ قال جرير:

يا عَدْنُ إِنَّ وِصالَهُنَّ خِلايَةُ وَلَقَدْ جَمَعَنَ مَعَ البِعادِ تَحَقُّدًا
«وبعد، فَالحِقْدُ عَلَيَّ أَنَّهُ خَلَّةٌ لا تَتَفَقُّ والنَّبَلُ والشُّودَدُ ومكايِمُ
الأخلاقِ فَإِنَّه دَليلُ الحَيَويَّةِ، وَهِنَّ ثَمَّ يَكادُ يَكُونُ خَلَّةً مَرَّ كوزةً في الطَباعِ،
وَإِذا كانوا قد مَدَحُوهُ فَإِنما يَتَرامُونَ — كما قلنا — إلى أَنَّهُ عُنوانُ الحَيَويَّةِ وَأَنَّ
مَنْ لا يَحْقِدُ لا يَشْكُرُ، وَإِذا هَمَّ ذَمُّهُ، فَإِنَّهم إِثْمًا يَدْعُونَ إلى تَناسِيهِ وَأَنَّ
مِنْ سُمُوِّ الأَخلاقِ أَن لا يَحْمِلَ المرءُ الحِقْدَ القَدِيمَ، كما قال المُقنَّعُ الكِنْدِيُّ»

واسمُهُ محمد بن عُمَيْرَةَ ، وهو شاعر كِنْدِيٌّ إسلاميٌّ^(١) ، وكان أَحْسَنَ الناسِ
وَجْهًا فَإِذَا سَفَرَ لُقِّعَ ، أَى أَصَابَتْهُ العَيْنُ ، فَيَمْرَضُ وَيَلْحَقُهُ عَذْتُ ، فَكَانَ
لَا يَمْسِي إِلَّا مُقَنَّعًا ، قَالَ من أبياتٍ جَيِّدَةٍ تَرَاهَا فِي حِمَاسَةِ أَبِي تَمَامٍ وَغَيْرِهَا :
وَلَا أَحْمِلُ الحِقْدَ القَدِيمَ عَلَيْهِم
وَلَيْسَ رَأَيْسُ القَوْمِ مَن يَحْمِلُ الحِقْدَا

ذم الحقد ومدحه

أما عبقرياتهم في ذم الحقد : فمن ذلك ما يُروى : أنه قيل للأحنف بن
قيس : مَنْ أَسْوَدُ الناسِ ؟ فقال الأخرقُ في مالهِ المَطْرِحُ الحِقْدِيهِ :
وقال ابن الرومي يذمه بعد أن مدحه ، كما سيأتي :
يا مَادِحَ الحِقْدِ مُحْتالًا لَهُ شَبْهًا لَقَدْ سَلَكَتْ إِلَيْهِ مَسْلَكًا وَعَثَا^(٢)
كُنْ يَقَابِ العَيْبِ زَيْنًا مَن يُزِينُهُ حَتَّى يَرُدَّ كَبِيرًا عَاتِيًا حَدَثًا^(٣)

(١) وهو صاحب هذه الايات الجيدة في صاحب السوء :
وصاحبُ السَّوِّءِ كالداءِ العيَاءِ إِذَا ما ارْفَضَ فِي الجَوْفِ يَجْرِي هَاهُنَا وَهَنَا
يُلْبِي وَيُخْبِرُ عَن سَوَاتِ صاحِبِهِ وما رأى عِنْدَهُ مِن صالِحٍ دَفَنَّا
كَمُهْرٍ سَوِّءٍ إِذَا رَفَعَتْ سِيرَتَهُ رامَ الجِمَاحَ وَإِن خَفَضَتْهُ حَرَّنا
إِن يُحَى ذاكَ فَكُنْ مِنْهُ بِمَعزِلَةٍ أَوْ ماتَ ذاكَ فَلا تَعْرِفْ لَهُ جَننا
« داء عيَاء : لا يُبرأ منه ، ورفعت سيرته : حملته على أن يزيد في سرعة
سيره ؛ والجنن - بالتحريك - القبر » .

(٢) وعك الطريق : تعسر سلوكه والكلام على المثل

(٣) عاتيا : جاوز الحد

إِنَّ الْقَبِيحَ ، وَإِنْ صَنَعْتَ ظَاهِرَهُ يَعُودُ مَا لَمْ مِنْهُ مَرَّةً شِعْبًا (١)
 كَمْ زَخْرَفَ الْقَوْلَ ذُو زُورٍ وَلَبَسَهُ عَلَى الْقُلُوبِ وَلَكِنْ قَلَّمَا لَيْثًا
 قَدْ أَبْرَمَ اللَّهُ أَسْبَابَ الْأُورِ مَعًا فَلَنْ تَرَى سَدِيًّا مِنْهُنَّ مُنْتَكِبًا
 يَا دَاغِينَ الْحَقْدَ فِي صِغْفَى جَوَانِحِهِ سَاءَ الدَّفِينُ الَّذِي أَمَسَتْ لَهُ جَدَاثًا (٢)
 الْحَقْدُ دَاءٌ دَرِيٌّ لَا دَوَاءَ لَهُ يَرَى الصُّدُورَ إِذَا مَا جَمَّرَهُ حُرَاثًا (٣)
 فَاسْتَشْفِ مِنْهُ بِصَفْحٍ أَوْ مُعَاتَبَةٍ تَأْنِمًا يَبْرَأُ الْمَصْدُورُ مَا نَفَثَا (٤)
 وَاجْعَلْ طِلَابَكَ بِالْأُوتَارِ مَا عَظُمْتُ

وَلَا تَكُنْ إِصْفِيرَ الْأَمْرِ مُكْتَرِنًا
 وَالْعَفْوُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَإِنْ جُرِّمُ مِنْ مُجْرِمٍ جَرَّحَ الْأَكْبَادُ أَوْ فَرْنَا (٥)
 يَكْفِيكَ فِي الْعَفْوِ أَنَّ اللَّهَ قَرَّظَهُ وَحَيًّا إِلَى خَيْرٍ مَنْ صَلَّى وَمَنْ بُعِثَا
 شَهِدْتُ أَنَّكَ لَوْ أَذْنَبْتَ سَاءَكَ أَنْ
 تَلْقَى أَخَاكَ حَقُودًا صَدْرُهُ شَرْنَا (٦)

(١) شعبت: منتشر مفرق

(٢) الجدث: القبر

(٣) حرث: هيج، ويرى الصدور: يأكلها

(٤) المصدور: الذي يشتكى صدره، وما في قوله: ما نفثا مصدرية، ونفث: رمى بالنفثة وهو ما يلقى المصدور من فيه وفي المثل: لا بد للمصدور أن ينفث وقد يستعار ذلك للمعاني كما هنا وكما ورد أن بعضهم قال لشاعر: متى تقول هذا الشعر، فقال: أويستطيع المصدور أن لا ينفث! أي لا يبتزق، شبه الشعر بالنفث لأنهما يخرجان من الفم.

(٥) الفرث: تفتيت الكبد بالغم والأذى

(٦) الشرث ههنا: الغليظ الخشن، من شرث الكف غلظ وأشقق، والشرث أيضا: الخلق البالي من كل شيء فعله من هذا أيضا.

إِذْنُ وَسَرَكَ أَنْ يَنْسَى الذُّنُوبَ مَعًا وَأَنْ تُصَادِفَ مِنْهُ جَانِبًا دَرَبَنَا
 إِنِّي إِذَا تَخَلَّطَ الْأَقْوَامُ صَالِحُهُمْ بِسَيِّئِ الْفِعْلِ جَسَدًا كَانَ أَوْ عَمَبْنَا
 جَعَلْتُ صَدْرِي كَقَرْفِ السَّبَّكِ حِينِيذٍ يَسْتَخِصُّ الْفِضَّةَ الْبَيْضَاءَ لَا الْخَبِيثَا
 وَلَسْتُ أَجْعَلُهُ كَالْحَرِيضِ أَمْدُحِهِ بِحِفْظِ مَا طَابَ مِنْ مَاءٍ وَمَا تَجَبْنَا

وقال يمدح الحِقْدُ:

تَحَدَّتْ عَلَيْكَ ذَنْبًا بَعْدَ ذَنْبٍ وَلَوْ أَحْسَلْتَ كَانَ الْحِقْدُ سُكْرًا
 أَدِيمِي مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ فَأَعْلَمُ أُسْمَى الرَّيْعُ حِينَ أُسْمَى بُدْرًا
 وَلَمْ تَكُ، يَا لَكَ الْخَيْرَاتُ، أَرْضُ لِتُزْرَعَ تَحْرَبَقًا فَتُرْبَعُ بُرًا
 أُوْدَى إِنَّ فَعَلْتَ الْخَيْرَ خَيْرًا إِلَيْكَ وَإِنْ فَعَلْتَ الشَّرَّ شَرًّا
 وَلَسْتُ مُكَافِئًا بِالثُّكْرِ عُرًا وَلَسْتُ مُكَافِئًا بِالْعُرِّ نُسْرًا
 يُسَمَّى الْحِقْدُ عَيْبًا وَهُوَ مَدْحٌ كَمَا يَدْعُونَ لِحُلْوِ الْحَقِّ مُرًّا

« الخَرْبِقُ: نبات كالسَّمِّ ورقه أبيض وأسود، والبرُّ: القمح »

وأراد يحيى بن خالد بن برمك وزير الرشيد أن يَضَعَ من عبد الملك
 ابن صالح فقال له: يا عبد الملك بَلِّغْنِي أَنَّكَ حَقُودٌ فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ: أَيُّهَا
 الوزير، إن كان الحِقْدُ هو بقاء الخير والشرِّ لِنَهْمَا لِبَاقِيَانِ فِي قَلْبِي، فقال
 الرشيد: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا احْتَجَّ لِلِحِقْدِ بِأَحْسَنِ مِمَّا احْتَجَّ بِهِ عَبْدُ الْمَلِكِ
 وقال ابن الرومي يمدح الحِقْدَ أَيضًا وَقَدْ عَابَهُ عَائِبٌ:

لَيْنُ كُنْتُ فِي حِفْظِي لِمَا أَنَا مُودَعٌ

من الخير وَالشَّرِّ انْتَحَيْتَ عَلَى عِرْضِي

لَمَّا عِبْتَنِي إِلَّا بِفَضْلِ إِبَانَةٍ وَرُبَّ أَمْرِي يُزْرِي عَلَى خُلُقِي تَحِيضِ
 وَلَا عَيْبَ أَنْ تُجْزَى الْقُرُوضُ بِمِثْلِهَا بَلِ الْعَيْبُ أَنْ تَدَّانَ دَيْبًا وَلَا تَقْضِي

وخيرُ سَجِيَاتِ الرِّجَالِ سَجِيَّةٌ تُؤْفِكُ مَا تُسَدِي مِنَ الْقَرَضِ بِالْقَرَضِ
 إِذَا الْأَرْضُ أَدَّتْ رَيْعَ مَا أَنْتَ زَارِعٌ مِنْ الْبَدْرِ فِيهَا فَهِيَ نَاهِيكَ مِنْ أَرْضٍ
 وَلَوْلَا الْحُقُودُ الْمُسْتَسْكِنَاتُ لَمْ يَكُنْ لِيَنْقُضَ وَتَرَآ آخَرَ الدَّهْرِ ذُو نَقِضٍ
 وَمَا الْحِقْدُ إِلَّا تَوَأْمُ الشُّكْرِ فِي الْفَتَى وَبَعْضُ السَّجَايَا يَبْتَهِنُ إِلَى بَعْضٍ
 فَحَيْثُ تَرَى حِقْدًا عَلَى ذِي إِسَاءَةٍ فَتَمَّ تَرَى شُكْرًا عَلَى حَسَنِ الْقَرَضِ
 وَفِي هَذَا الْقَدْرِ مِنْ عِبْقَرِيَاتِهِمْ فِي الْحِقْدِ كِفَايَةٌ. وَتَرَى فِي بَابِ الطَّبَائِعِ
 مَا يَنْقَعُ غُلَّتِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

الحسد

الْحَسَدُ وَقَانَا اللَّهُ شَرَّهُ — دَاءٌ مِنَ الْأَدْوَاءِ الْمَتَّاصَةِ الْحَبِيْثَةِ الشَّائِعَةِ فِي
 هَذَا النَّاسِ إِلَّا مَنْ عَصَمَ رَبُّكَ ، قَالَ عَلَاؤُنَا : الْحَسَدُ : أَنْ يَرَى الرَّجُلُ لِأَخِيهِ
 نِعْمَةً فَيَتَمَنَّى أَنْ تَزُولَ عَنْهُ وَتَكُونَ لَهُ دُونَهُ ، أَمَا الْعَبْطُ أَوْ الْغِبْطَةُ فَهِيَ :
 أَنْ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُهَا وَلَا يَتَمَنَّى زَوَالَهَا عَنْهُ ، وَهِيَ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ
 الْأَزْهَرِيُّ - : ضَرْبٌ مِنَ الْحَسَدِ ، وَلَكِنهَا أَخْفُفَ مِنْهُ ، قَالَ : أَلَا تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا سُئِلَ : هَلْ يُضْرُّ الْعَبْطُ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، كَمَا يُضْرُّ الْحَبْطُ
 فَأَخْبَرَ أَنَّهُ ضَارٌّ وَلَيْسَ كَضَرِّ الْحَسَدِ الَّذِي يَتَمَنَّى صَاحِبُهُ زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنْ
 أَخِيهِ ، وَالْحَبْطُ : ضَرْبٌ وَرَقُ الشَّجَرِ حَتَّى يَتَحَاتَّ عَنْهُ ثُمَّ يَسْتَخْلَفُ مِنْ غَيْرِ
 أَنْ يُضْرَّ ذَلِكَ بِأَصْلِ الشَّجَرَةِ وَأَغْصَانِهَا

وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ...

قَالَ الْإِمَامُ الْبَيْضاوِيُّ : مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ : أَيُّ مِنْ

الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ كَالجَاهِ وَالْمَالِ ، قَالَ : لَا تَتَمَنَّوْهُ . فَلَعَلَّ عَدَمَهُ خَيْرٌ ، قَالَ :

والمقتضى للمنع كونه ذريعة إلى التحاسد والتعادي مُعْرِبةً عن عدم الرضا بما قَسَمَ اللهُ له ، وأنه آتيةٌ لحصول الشيء له من غير طلب ، وهو مذموم لأن تَمَنَّى ما لم يُقَدَّر له معارضةً لحكم القدر وتمنى ما قدر له بتغيير كسب ضائع ومحال ؛ وقد نعى الله في غير ما آية على أولئك الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله »

وفي الحديث : لا حسدَ إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آتاء الليل وأطراف النهار ، ورجل آتاه الله قرآنا فهو يتلوه ... قال الإمام الأزهري : هو أن يتمنى الرجل أن يرزقه الله مالا يُنْفِقُ منه في سبيل الخير أو يتمنى أن يكون حافظاً لكتاب الله فيتلوه آتاء الليل وأطراف النهار ، ولا يتمنى أن يُرزأ صاحب المال في ماله أو تالي القرآن في حفظه . وقال ثعلب : معناه ليس حسد لا يضر إلا في اثنتين ، أقول : ومعنى ذلك أن كل حسد ضار إلا في هاتين أى أن حسد صاحب المال ينفقه في سبيل الخير وحافظ القرآن يتلوه ، غير ضار ، لأن هذين على سبيل سواء يستحقان معه أن يُحَسَدَا ، أى أن يُغْبَطَا ...

وقال حكيم : الحسد من تعادى الطبائع واختلاف التركيب وفساد مزاج البلية وضعف عقيد العقل . والحاسد طويل الحسرات .

وقال حكيم : الحسد جرح لا يبرأ ، وحسب الحسود ما يلقى . وقال الحسن البصرى : يا ابن آدم ، لِمَ تَحْسُدُ أَخَاكَ ؟ إن كان الله أعطاه لكرامته عليه ، فليَمَّ تَحْسُدُ مَنْ أكرمَهُ اللهُ ؟ وإن كان غير ذلك فليَمَّ تَحْسُدُ مَنْ تَصِيرُهُ إلى النار وفي الأثر : الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وقال علي بن أبي طالب : ما رأيت ظالماً أشبهَ بمظلوم من الحاسد ، نفس دائم ،

وعقل هاشم، وحزن لازم، وقالوا: الحسود لا يسود... قال رَوْحُ بْنُ زُبَاعِ
 الْجُدَيْمِيُّ: كُنْتُ أَرَى قَوْمًا دُونِي فِي الْمَنْزِلَةِ عَنِ السَّاطَانِ يَدْخُلُونَ مَدَاخِلَ
 لِأَدْخُلُهَا، فَلَمَّا أَذْهَبْتُ عَنِّي الْحَسَدَ دَخَلْتُ حَيْثُ دَخَلُوا... وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ:
 أَقَلُّ مَا لِتَارِكِ الْحَسَدِ فِي تَرْكِهِ أَنْ يَصْرِفَ عَنِ نَفْسِهِ عَذَابًا لَيْسَ بِمُدْرِكٍ بِهِ
 حِظًّا وَلَا غَائِظَ بِهِ عَدُوًّا، فَإِنَّا لَمْ نَرَ ظَالِمًا أَشْبَهَ بِمُظْلَمٍ مِنَ الْحَاسِدِ،
 طُولُ أَسْفٍ، وَمُخَالَفَةُ كِتَابِهِ وَشِدَّةُ تَحْرِيقِهِ، وَلَا يَبْرَحُ زَارِيًا عَلَى نِعْمَةِ اللَّهِ
 وَلَا يَجِدُ لَهَا مَزَالًا، وَيُكَدِّرُ عَلَى نَفْسِهِ مَا بِهِ مِنَ النِّعْمَةِ فَلَا يَجِدُ لَهَا طَعْمًا وَلَا
 يَزَالُ سَاخِطًا عَلَى مَنْ لَا يَبْرِضَاهُ وَمُسَخِطًا لِمَا لَنْ يَنَالَ فَوْقَهُ، فَهُوَ مُنْقَضُ
 الْمَعِيشَةِ دَائِمُ السَّخَطِ مَحْرُومُ الطَّلِبَةِ، لِأَنَّهَا قُسِمَ لَهُ يَقْنَعُ وَلَا عَلَى مَا لَمْ
 يُقْسَمَ لَهُ يَغْلِبُ؛ وَالْمَحْسُودُ يَتَقَلَّبُ فِي فَضْلِ اللَّهِ مُبَاشِرًا لِلشَّرِّ مُنْتَفِعًا بِهِ
 مُهَلَّأً بِهِ إِلَى مُدَّةٍ وَلَا يَقْدِرُ النَّاسُ لَهَا عَلَى قَطْعٍ وَانْتِقَاصٍ... وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أَتَاحُ لَهَا لِسَانُ حَسُودٍ
 لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيهَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرَفِ الْعُودِ
 لَوْلَا التَّخَوُّفُ لِلْعَوَاقِبِ لَمْ تَزَلْ لِلْحَاسِدِ النُّعْمَى عَلَى الْمَحْسُودِ
 وَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ:

وَلَنْ يَسْتَبِينَ الدَّهْرَ مَوْضِعُ نِعْمَةٍ إِذَا أَنْتَ لَمْ تُدَلِّلْ عَلَيْهَا بِحَاسِدٍ
 وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمَعْتَرِ:

أَصْبِرْ عَلَى كَيْدِ الْحُسُودِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
 فَالنَّارُ تَأْكُلُ نَفْسَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

وقال ابن المقفع أيضا: الحسدُ والحِرْصُ دعامتَا الذنُوبِ، فالحِرْصُ
 أخرج آدم عليه السلام من الجنة، والحسدُ نَقَلَ إبليسَ من جوار الله تعالى

وقال الجاحظ : من العدل المحض والإنصاف الصريح - الخالص - أن
تَحُطَّ عن الحاسد نصف عقابه ، لأن ألم جسمه قد كفاك دُونَ شطر
غَيْظك ؛ وللجاحظ رسالة مطولة في الحسد تراها في رسائله
وقيل للحسن البصرى : أَيَحْسُدُ المؤمنُ أخاه ؟ قال : لا أبالك ،
أَنَسِيتَ إِخْوَةَ يوسف ؟ وقالوا : الحسود غَضبانُ على القدر ، والقدرُ
لا يُعْتَبِرُهُ - أى لا يزال عَتَبه : أى لا يرضيه - أخذ هذا المعنى منصور
الفقيه فقال :

ألا قل لمن بات لي حاسداً أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في فعله إذا أنت لم ترض لي ما وهب
وقال معاوية : كل الناس يمكنى أن أَرْضِيه ، إلا الحاسد الذى لا يردّه
إلى مودتى إلا زوال نعمتى . وقال المتنبى :

سِوَى وَجَعِ الْحَسَادِ دَاوٍ فَإِنَّهُ إِذَا حَلَّ فِي قَلْبٍ فَلَيْسَ يَحْوُلُ
وقال آخر :

كل العداوة قد تُرجى إِمَاتَتُهَا إلا عداوة من عاداك من حَسَدٍ
ويقال : إذا أراد الله أن يسلط على عبده عدواً لا يَرْخُمُه سَلْطُ عليه
حاسداً ... وقال العُتْبِيُّ - وذكر وُلْدُ الذين ماتوا - :

وحسى بكى لى حَسَادِهِمْ وقد أترعوا بالدموع الغيونا
وحسبك من حادثٍ بامرئ يرى حاسديه له راحينا
وقالوا : من دَعَمَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى تَرْكِ الدنْيَا فَلْيَنْظُرْ : هلْ يَحْسُدُ أَحَدًا ، فَإِنْ
حَسَدَ كَانَ تَرْكُهُ عَجْزًا ، لَأنه لو زهدَ فيها ما حَسَدَ عليها
وقال البحترى :

مُسْتَرِيحُ الْأَحْسَادِ مِنْ كُلِّ ضَنْغِينٍ بَارِدُ السَدْرِ مِنْ غَلِيلِ الْحَسُودِ

وقيل لسفيان بن معاوية : ما أسرع حسدَ الناس إلى قومك ! فقال :
إن العرائن تلقاها مُحْسَدَةً ولا ترى للناس حُسَاداً^(١)

وقال آخر :

وترى اللبيب مُحْسَدًا لم يجترم شتم الرجال وعرضه مشتموم
جسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فاقوم أعداء له وحُصوم
كضرائر الحسنة قلن لوجهها حسدا وظلمًا : إنه لدميم

وقال آخر :

إن تحسدوني فإني لا ألومكم

قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا

فدام لي ولهم مابى وما بهم ومات أكثرنا غيظا بما يحسد
أنا الذى تجيدونى فى حلوقكم لا أرتقى صدرًا عنها ولا أريد^(٢)

وخطب الحجاج يوماً برُسْتَقْبَادَ بقولِ سُويْدِ بنِ أبى كاهل - شاعر

جاهلي إسلامي - :

كيف يرجون سقاطى بعد ما جَلَلِ الرأسِ بياضُ وصاعُ
رُبَّ من أنضجتُ غيظًا صدره قد تمنى لى موتًا لم يُطعُ
ويرانى كالشجأ فى حلقه عسرًا نخرجه ما يُستزغُ
مُزبداً يحطُرُ ما لم يرنى فإذا أسمعته صوتى انقمعُ

(١) عرائن القوم : سادتهم وأشرافهم . وأصل العرائن الأنف حيث يكون فيه

الشم يقال : هم شم العرائن

(٢) لا أرتقى صدرًا ولا أريد : أى فأنا كالشجى الدائم الذى لا منجاة لأعدائى منه

لم يَضُرَّنِي غَيْرَ أَنْ يَحْسُدَنِي

فَهُوَ يَزُقُّوْهُ مِثْلَ مَا يَزُقُّوْهُ الضُّوْعُ (١)

وَيُحْيِيْنِي إِذَا لَا قَيْتُهُ وَإِذَا يَخْلُوْهُ لَهْجِي رَتَعٌ

قَدْ كَفَانِي اللهُ مَا فِي نَفْسِهِ وَإِذَا مَا يَكْفِيْ شَيْئًا لَا يُضْعُ

وقال ابن الرومي لصاعد بن مخلد :

وَصِدِّ لَكُمْ لِإِزَالِ يَسْفُلُ جَدُّهُ وَلَا بَرِحَتْ أَنْفَاسُهُ تَصْعَدُ (٢)

يَرَى زَبْرِجَ الدُّنْيَا يُزِفُ إِلَيْكُمْ

وَيُغْضِيْ عَنْ اسْتِحْقَاقِكُمْ فَهُوَ يُفَادُ (٣)

وَلَوْ قَاسَ بِاسْتِحْقَاقِكُمْ مَا مُنِحْتُمْ لِأَطْفَأُ نَارًا فِي الْحَشَا تَتَوَقَّدُ

وَآتَقُ مِنْ عِقْدِ الْعَقِيْلَةِ جِيْدِمَا وَأَحْسَنُ مِنْ سِرْبَالِهَا الْمُتَجَرَّدُ (٤)

وقال الأصمعي : رأيت أعرابياً قد أتت له مائة وعشرون سنة ،

فقلت له : ما طول عُمرِكَ ؟ فقال تركتُ الحسدَ فبقيتُ . وكانوا يقولون :

سِتَّةٌ لَا يَخْلُونُ مِنَ الْكِتَابَةِ : رَجُلٌ افْتَمَرَ بَعْدَ غِنَى ، وَغِنَى يُخَافُ عَلَى مَا لِهَ النَّوَى

— الهلاك والضياع — وحقودٌ ، وحسودٌ ، وطالبٌ مرتبته لا يبلغها قدره

وُمُخَايَظُ الْأَدْبَاءِ بِغَيْرِ أَدَبٍ .

ومن ألفاظهم في وصف الحسد : قَدْ دَبَّتْ عِقَارِبُ الْحُسْدِ ، وَكُمُنَتْ

(١) زقا الديك والطار ونحوهما : صاح ، وكذلك الصبي إذا اشتد بكأوه ، والضرع

طار من طير الليل إذا أحس بالصبح صدح

(٢) جدّه : حظه

(٣) يفاد : يحرق فزاده

(٤) يقول : إن جيد العقيلة أجمل من العقد الذي يظن أنه يربنه ، والمتجرد -

أي الجسم العريان - أجمل من السربال ، وهو القميص

أفَاعِيهِمْ بِكُلِّ مَرَصِدٍ : فَلَانِ قَدْ وَكَلِ بِي لِحَظًا يَنْتَظِلُ بِأَسْهُمِ الْحَسَدِ ...

ومن وصاياهم في باب الحذر من الأعداء الحسد قول أعرابي يعظ رجلاً : وَيَتَحَكَّ ، إِنْ فَلَانًا وَإِنْ ضَحِكَ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ يَضْحَكُ مِنْكَ ، وَإِنَّ أَظْهَرَ الشَّفِيقَةَ عَلَيْكَ ، إِنْ عَقَّارِبُهُ لَتَسْمُرِي إِلَيْكَ ، فَإِنْ لَمْ تَتَّخِذْهُ عَدُوًّا فِي عِلَائِنَيْتِكَ فَلَا تَجْعَلْهُ صَدِيقًا فِي سِرِّرَتِكَ ...

وحذر بعض الحكماء صديقاً له صحبته رجل ، فقال : احذر فلاناً ، فإنه كثير المسألة ، حسن البحث ، لطيف الاستدراج يحفظ أول كلامك على آخره ، ويعتبر ما أخرت بما قدّمت ، فلا تُظهِرَنَّ لَهُ الخِيفَةَ فَيَرَى أَنَّكَ قَدْ تَحَرَّزْتَ . راعلم أن من يقظة الفطنة إظهار الغنلة مع شدة الحذر . فبأنه مباتة الآمن ، وتحفظ منه تحفظ الخائف . فإن البحث يظهر الخفي الباطن ، ويبيد المستكن الكامن .

هذا ، وقد عقد الإمام الغزالي للحسد باباً زاخراً في كتابه الإحياء حال فيه على طريقته هذا الداء - داء الحسد - وبين أسبابه وأعراضه وعلاجه ولماذا كان شائعاً بين الأقران والإخوة والأقارب فارجع إليه إذا أردت التوسع في هذا الباب ، ولنختبر منه هذه الحكاية الطريفة ، قال : كان رجل يغشى بعض الملوك ، فيقوم بحذاء الملك فيقول : أحسن إلى المحسن بإحسانه ، فإن المسمى سيكفيك إساءته ، فحسده رجلٌ على هذا المقام ، وذلك الكلام ، فسعى به إلى الملك فقال : إن هذا الذي يقوم بحذائك ويقول ما يقول ، زعم أن الملك أبخَر ، فقال له الملك : وكيف يصح ذلك عندي ؟ قال تدعوه إليك ، فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البخر ، فقال له :

انصرف حتى أنظر ، فخرج من عند الملك ، فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم ، فخرج الرجل من عنده ، وقام بجذاء الملك على عادته ، فقال : أَحْسِنُ إِلَى المحسن بإحسانه فإن المسيء سيكفيكه إساءته ، فقال له الملك : آذُنُ مني ، فدنا منه ووضع يده على فيه ، مخافة أن يَشْمَّ الملك منه رائحة الثوم فقال الملك في نفسه : ما أرى فلاناً إلا قد صدق ، وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صلّة ، فكتب له كتاباً بخطه إلى عامل من عمّاله : إذا أتاك حامل كتابي هذا فاذبحه وأسلخه وأحش جلوده تبناً وأبعث به إليّ ، فأخذ الكتاب وخرج ، فلقى الرجل الذي سعى به فقال : ما هذا الكتاب ؟ قال : خط الملك لي بصلّة ، فقال : هب لي ، فقال : هوك ، فأخذه ومضى إلى العامل ، فقال العامل : في كتابك : أن آذبحك وأسأخك ، قال : إن الكتاب ليس هو لي ، فالله الله في أمري حتى تراجع الملك ، فقال : ليس لكتاب الملك مراجعة فذبحه وسأخه وحشا جلوده تبناً وبعث به ، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته ، وقال مثل قوله ، فعجب الملك وقال : ما فعل الكتاب ؟ فقال : لقيني فلان فاستوهبته مني ، فوهبته له ، قال الملك : إنه ذكر لي أنك تزعم أني أبخر ، قال : ماقلت ذلك ، قال : فلم وضعت يدك على فيك ؟ قال : لأنه أطعمني طعاماً فيه ثوم ، فكرهت أن تشمه ، قال : صدقت ، أرجع إلى مكانك فقل : كُفِيَ المسيء إساءته ... ومثل هذه الحكايات كثير ويصح أن توضع في باب السعاية والمكر ، وناقبة الماكرين .

« وبعد » فإن ما نورده ههنا من عقرياتهم في الحسد والحقد وما إليهما إنما هو قليل من كثير تراه في باب الطبائع وإنما نورد ما نورد من هذه العقريات لنستوفي باب العداوات ..

المزاح

ولأنَّ المزاحَ في الكثير الأعمَّ الأغلِبِ مدْرَجَةٌ البغضاءِ رأينا أن نورد هنا صدرا من عبقرياتهم فيه .

قال الزبيدي شارحُ القاموس : المزاحُ : المُبَاسِطَةُ إلى الغَيْرِ على جهة التَّأطِفِ والاستعطافِ دون أذِيَّةٍ ، حتى يَخْرُجَ الاستِهْزَاءُ والسُّخْرِيَّةُ . قال : وقد قال الأئمَّةُ : الإِكْتِثَارُ منه وَالْحُرُوجُ عن الحَدِّ مُخِلٌّ بِالْمُرُوءَةِ وَالْوَقَارِ ، وَالتَّنَزُّهُ عنه وَالتَّقَبُّضُ مُخِلٌّ بِالسُّتَةِ .

ويقال : مَزَحَ يَمْزِجُ مَزْحًا وَمِزَاحًا وَمِزَاحًا وَمُزَاحَةً ، وَقَدْ مَازَحَهُ مُمَازِحَةٌ وَمِزَاحًا ، وَالاسْمُ الْمُزَاحُ بِالضَّمِّ وَالْمُزَاحَةُ أَيْضًا :

نهيهم عن المزاح

جاء في الأثر : إِبَاكَ وَالْمُزَاحَ فَإِنَّهُ يَذْهَبُ بِيَهَاءِ الْمُؤْمِنِ وَيُسْقِطُ مُرُوءَتَهُ وَيَجْرُثُ غَضَبَهُ .

وقالوا : الْمُزَاحُ مجلبةٌ للبغضاءِ مَثَلِبَةٌ لِلبَهَاءِ (١) نَقْطَعَةُ الإِخَاءِ .

وقالوا : الْمُزَاحُ أولُه فَرَحٌ وَآخِرُه تَرَحٌ ، وَهُوَ نَقَائِضُ السُّفْهَاءِ مِثْلُ نَقَائِضِ الشُّعْرَاءِ . (٢)

وقالوا : لا تَمَازِحْ صَغِيرًا فَيَجْتَرِيَّ عَلَيْكَ ، وَلا كَبِيرًا فَيَحْقِدَ عَلَيْكَ

(١) مثلية : منقصة ومسبة

(٢) القبيضة في الشعر : ما ينقض به واجمع القنائض ومن ثم قالوا : نقائض جرير والفرزدق ، وأصل النقض : إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء ومنه المناقضة في القول وهو أن ينقض الآخر ما قاله الأول

وقال مسعرُ بنُ كدّام لابنه :

ولقد حَبَّوْتُكَ يا كِدّامُ نصيحتي فاسْمَعْ لِقَوْلِ أبِ عَليكَ شَفِيقِي
أما المِزاحَةُ والمِراءُ فدَعَهُما حُلُقانِ لِأَرْضائِهِما لِصَدِيقِي^(١)
ولقد بَلَوْتُهُما فلم أَحْمَدُهُما لِجَوارِ جَوارِ ولا لِرفِيقِي
وقالوا: المِزاحُ سِبابُ النَّوَكِي^(٢)

وقال عُمرُ بنُ عبدِ العَزيزِ: لا يَكُونُ المِزاحُ إلاّ من سَخَفٍ أو بَطَرٍ.
وقالوا: الغالبُ فيه واِترُ. والمُغلوبُ نائِرُ. وقال أبو نَواسِ:
رُبّما اسْتَفْتِجِحَ بالمِزحِ مِغالِقُ الجِمامِ

حمدهم القصد في المزح

ومُزاحُ الأماثل

جاء في الأثر: إني لا مِزحُ ولا أقول إلا حقا ...

ومن مُزارحه صلوات الله مارُوى: أنَّ عَجوزاً من الأَنْصارِ آتَتْهُ فقالت:
يا رسولَ الله، اذْعُ لي بالمِغْفرةِ، فقال: أما عَلِمْتِ أَنَّ الجَنَّةَ لا يَدْخُلُها
العَجائِزُ ا فَصَرَخَتْ، فتَبَسَّم رسولُ الله وقال: أَمَا قَرَأْتِ القرآنَ؟ « إِنَّا
أَنشَأناهُنَّ إِنْشاءً فَجَعَلناهُنَّ أَبْكاراً عَرُباً أَتراباً،^(٣)

وأَتَتْهُ أُخرى في حاجَةٍ لِزَوجِها فقال لها: وَمَنْ زَوجُكِ؟ فقالت:
فلان، فقال لها: الَّذي في عَينِهِ بياضُ؟ فقالت: لا، فقال: بَلَى، فانصَرَفَتْ
عَجلىَ إلى زَوجِها، وجعلت تَتأملُ عَينِيه، فقال لها: ماشَأُ نَك؟ فقالت:

(١) المراء: الجدال وترى عبقرياتهم في المراء في كتاب العلم والأدب

(٢) الحق (٣) عرب جمع عرب وهي: المرأة الحسنة المنتجة إلى زوجها

المطبعة له، أو العاشقة، أو المغتلمة، أو الغنجة. والأتراب: الامثال

أخبرني رسول الله أن في عَيْدِكَ بِيَاضًا ، فقال : أَمَا تَرَيْنِ بِيَاضَ عَيْنِي
أَكْثَرَ مِنْ سَوَادِهِمَا !

وقال صلوات الله عليه لُبْنَى كَانَ لِأَبِي طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيِّ ، وَكَانَ لَهُ
نَعْرَةٌ (١) فَهَاتِ : مَا قَعَلَ النَّغِيرُ يَا أَبَا عُمَيْرٍ ؟

وَقَالُوا : النَّاسُ فِي سِجْنٍ مَا لَمْ يَتَمَازَحُوا .

وَقَالَ رَجُلٌ لِأَبِي عُمَيْرَةَ . الْمُرَاحُ سُبَّةٌ ، فَقَالَ : بَلِ سُنَّةٌ لِمَنْ يُحْسِنُهُ .

يَا سَاعَتِي فِي مَجُونِي قَدْ طَبْتُ فَيْكَ وَطَبْتُ

إِنِّي إِذَا ضَاقَ صَدْرِي قَطَمْتُ بِالسُّخْفِ وَقَتِي

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ لِأَبْنِهِ : أَفَتَصِدُّ فِي مُزَاحِكَ فَالْإِفْرَاطُ فِيهِ يَذْهَبُ
الْبَهَاءُ وَيُجَرِّئُ عَلَيْكَ السُّفَهَاءَ ، وَتَرَكَهُ يَقْبِضُ لِلْوَانِسِينَ وَيُوحِشُ الْمُخَاطِبِينَ

نهيهم عن الغضب في المزح

قال ابن سيرين : ليس من حُسنِ الخُلُقِ الغضبُ مِنَ المَزْحِ

الممدوح بأن فيه الجِدَّ والهزل

قال شاعر :

أَخُو الجِدِّ إِنْ جَادَدْتَ أَرْضَاكَ جِدَّهُ

وَذُو بَاطِلٍ إِنْ شَدَّتْ أَهْلَاكَ بَاطِلُهُ

وقال أبو تمام :

الجِدُّ شَيْمَتُهُ وَفِيهِه فُكَاهَةٌ سُجِّحٌ وَلَا جِدُّ مَنْ لَمْ يَلْقَبِ (٢)

(١) النغر : البلبل (٢) السجج : اللين السهل

عذر من يضحك وهو محزون

✽ وقد يضحك الموتور وهو حزبن ✽

وقال آخر :

ورُبِّمَا ضَحِكَ الْمَكْرُوبُ مِنْ سَجَبِ السُّنِّ تَضَحُّكَ وَالْأَحْشَاءُ تَضْطَرُّمُ

نهيهم عن كثرة الضحك

في الأثر : إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الضَّحِكِ فَإِنَّهَا تُمَيِّتُ الْقَلْبَ وَتُورِثُ الدَّيَّانَ .
وفيه أيضاً : وَبِلُّهُ الَّذِي يُحَدِّثُ فَيَسْكَذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ ،
وَبِلُّهُ لَهُ ، وَبِلُّهُ لَهُ .

وقال عمرُ بن الخطاب : مَنْ كَثُرَ ضَحِكُهُ قَلَّتْ هَيْبَتُهُ

وقال علي : إِذَا ضَحِكَ الْعَالِمُ ضَحِكَةً مَجَّ مِنَ الْعِلْمِ نَجَّةً .

وقالوا : كَثْرَةُ الضَّحِكِ تُورِثُ الرُّعُونَةَ .

وقيل لأبي العيَّان : فَلَانُ يَضْحَكُ مِنْكَ ! فَقَالَ : إِنَّ الَّذِينَ أُجْرَمُوا
كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وَهَذَا مِنَ الْأَجُوبَةِ الْمُسَكَّتَةِ ، وَكَانَ
أَبُو الْعَيَّانِ ذَا نَوَادِرَ .

إيراد جدّ في مسلك هزل

قال خالد بن صفوان : رَمَانِي بِأَصْلَابٍ مِنَ الْجَنْدَلِ ، وَنَشَّقَنِي بِأَحْرَمٍ مِنَ

الْحَزْدَلِ ، ثُمَّ قَالَ إِنِّي أَمَارُحُكَ !

لي صاحب ليس يخلو لسانه من جراحی

مُجِدِّدٌ تَمْرِيْقٌ عَرَضِيٌّ عَلَى سَيْلِ الْمُرَاحِ-

صدر من عبقرياتهم في الغيبة والنميمة

ولأن الغيبة والنميمة مدرجتان غالباً للعداء بادرنا بإيراد صدر من عبقرياتهم في هاتين الخلتين الذميتين .

حقيقة الغيبة والنميمة

الغَيْبَةُ الاسم من الاغتياب وهو : أن يتكلمَ خلفَ إنسانٍ مَسْتُورٍ بِسُوءٍ أو بما يُغْمُه، لوسمته وإن كان فيه ، فإن كان صدقاً فهو غَيْبَةٌ وإن كان كذباً فهو البُهْتُ والبُهْتان . كذلك جاء عن سيدنا رسول الله صلوات الله عليه . وقال بعض الفقهاء : الغَيْبَةُ : أن تذكرَ الإنسانَ بما فيه من العيب من غير أن تُحَوِّجَ إلى ذلك ، وفي هذا احترازٌ مما يقوله الشاهد عند الحاكم . والنميمة : نقلُ الحديث من قوم إلى قوم على جهة الإفساد والشر ، ونَمَّ الحديثُ يَنْمُوه ويَنْمُوهُ نَمًّا : نقله ، والاسم النميمة ؛ والنَّعْتُ : نَمَامٌ ، ويقال للنمَّام : القَتَاتُ يقال : قَتَّ : إذا مَشَى بالنميمة ، ويقال له : قَتَّاسٌ ودرَّاجٌ وغَمَّازٌ وهَمَّازٌ ومَأْتِسٌ ومِمَّاسٌ .

ذم الغيبة والنميمة

قال الله جل شأنه : ولا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ، يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ . « قوله سبحانه : يُحِبُّ أَحَدُكُمْ ... الآية : تمثيلٌ وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أنفطع وجهه وأخفشه ، قال الإمام الزمخشري : وفيه مُبالغات شتى : منها الاستنهام الذي معناه التقرير ، ومنها جعلُ ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة ، ومنها إسنادُ الفعل إلى

أجدكم والإشعار بأن أحداً من الأَحْدِيدِ لا يُحِبُّ ذلك ، ومنها أنه لم يُقْتَصِرْ على تمثيل الاغتيال بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أخصاً ، وحتى جعل الأخ ميتاً . قال قتادة : كما تَكَرَّهَ إن وَجَدْتَ جيفةً مُدَوِّدةً أن تأكلَ منها فأكْرَهَ لحمَ أخيك وهو حيّ .

وفي الحديث : « إنَّ الغيبةَ أشدُّ من الزَّنا » قيل : كيف ذلك ؟ قال : « لأن الرجلَ يزني فيتوبُ ، فيتوبُ اللهُ عليه ، وصاحبُ الغيبة لا يُغْفَرُ له حتى يغْفِرَ له صاحبه » وفي الحديث المرفوع : أن امرأتين صامتا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وجعلتا تغتابان الناس فأخبر النبي بذلك فقال : صامتا عما أحلَّ لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما . واغتَابَ رجلٌ رجلاً عند قُتَيْبَةَ بن مسلم فقال قُتَيْبَةُ : أمسِكْ أيها الرجل ، فوالله لقد تَكَلَّفْتَ بِمُضْغَةٍ طالما لفظها الكِرَامُ .

وقال عليُّ بن الحسين رضى الله عنه : إِيَّاكَ وَالْغَيْبَةَ نَانِهَا إِدَامُ كِلَابِ النَّارِ « وهذا تمثيل جميل ، وقال الشاعر :

لَا تَهْتِكُنْ مِنْ مَسَاوِي النَّاسِ مَا سَتَرُوا فَيَهْتِكَ اللهُ سِتْرَهُ مِنْ مَسَاوِيكَ
وَإِذْ كُرُّ مَحَاسِنَ مَا فِيهِمْ إِذَا ذُكِرُوا وَلَا تَعِبْ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا فِيكَ

وقالوا : الغيبة مَرعى اللثام وَجهدُ العاجز .

وقال تعالى « هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ »

وقال سيدنا رسولُ الله : من كان يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر فلا يَرَقَعَنَّ إلينا عورة أخيه المؤمن ... وقال صلى الله عليه وسلم : لا يَرَأِحُ القَتَاتِ رائحةُ الجنة . والقَتَاتُ : النَّمَامُ ،

من سمحت نفسه بأن يكون في حلِّ

ومن لا تسمح نفسه

كان أبو الدرداء رضى الله عنه إذا خرج يقول : اللهم إني قد تصدقتُ
بِعِرْضِي عَلَى عِبَادِكَ .
وقال كُثَيْرُ عَزَّةَ :

هَيْئاً مَرِيئاً غَيْرَ دَاءٍ مُخَايِرٍ لِعَزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ
« خَاتِرَهُ الدَّاءُ : خَالِطَ جَوْفَهُ »

وقيل لرجل : فلانُ سَتَمَكَ واغْتَابَكَ ، فقال : هو في حلِّ . فقيل : أتَحِلُّ
مِنْ اغْتَابِكَ وَبِهِ يَثْبُلُ دِيَارُكَ ؟ فقال : لِأَجِبَ أَنْ أُنْقَلَ مِيزَانِي
بِأَرْزَارِ إِخْوَانِي .

وقال رجلٌ لابن سيرين : قد زِلْتُ مِنْكَ فَاجْعَلْنِي فِي حِلِّ ، فقال : لِأَحِلِّ
مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكَ . أَمَا مَا كَانَ إِلَيَّ فَهُوَ لَكَ .

من قلت مبالاته بمن اغتابه

قيل للحكيم : فلانٌ يَشْتِمُكَ بِالْغَيْبِ ، فقال : لَوْضُرْبِي بِالسِّيَاطِ فِي
الْغَيْبِ لَمْ أُبَالِ بِهِ .

وقال شاعر قديم وأنشد هذا الشعر لسيدنا رسول الله العلاء بن الحضرمي :
حَى ذَرَى الْإِضْغَانِ تَسْبِ قُلُوبِهِمْ تَحِيَّتِكَ الْقُرَى فَقَدْ تُرْتَعُ النَّعْلُ
وإن دَحَسُوا بِاللَّشْرِ فَأَعْفُ تَسْكَرَمَا وإن خَلَسُوا عَنكَ الْحَدِيثَ فَلَا تَسَلْ
فإن الذي يُؤْذِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ وإن الذي قالوا وَرَأَيْكَ لَمْ يُقَلْ

«دحس بين القوم : أفسد بينهم ، وخذسوا : أخفقوا ، يريد : إن فعلوا الشر من حيث لا تعلمه » وقد تقدمت هذه الآيات
وقال المتوكلُ الخليفة العباسي لأبي العيناء : ما بقيَ أحدٌ إلا آغتابك ا
فقال :

إذا رَضَيْتَ عَنِّي كِرَامَ عَشِيرَتِي فلا زال غضباناً عليَّ لثامها
وقيل لرجل : فلانٌ يَغتابك : فقال : دَعْنِي يَسْتَرْفَعْنِي اللهُ بذلك ، فمن
أَكثَرَتِ النَّاسُ فِيهِ الْوَقِيعَةَ رَفَعَهُ اللهُ ، وإن بنى أُمِّيَّةَ ما زالوا يَشْتَمُونَ عَلَيَّ
ابن أبي طالب سَتَيْنَ سَنَةً فلم يَزِدْهُ اللهُ إِلَّا رِفْعَةً . وقيل لآخر ذلك فقال :
* ولم يَمْحُ من نورِ النَّبِيِّ أبو جهل *
وقيل لآخر مثله فقال : لا ضَيْرَ ، إنه أراد أن يَمْتَحِنَ وُدِّي ...

ذم ناقص يَغتاب فاضلاً

قال المتنبي :

وإذا أمتك مذمتني من ناقصٍ فهُيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلٌ
وقبله يقول أبو تمام :

لقد آسف الأعداءَ فضلُ ابنِ يوسُفَ

وذو النَّقِصِ فِي الدُّنْيَا بِذِي الْفَضْلِ رُواعُ

وقبل أبي تمام يقول مروان بن أبي حفصة :

ما ضرتني حسدُ اللثامِ ولم يزلْ ذو الفضلِ يحسده ذرُّو النَّقِصِيرِ

وأصل هذا المعنى من قول الطرماح بن حكيم :

لقد زادني حباً لنفسي أني بغيضٍ إلى كُلِّ امرئٍ غير طائلٍ

وَأَنْتَى شَقِيٌّ بِاللثَامِ وَلَا تَرَى شَقِيًّا بِهِمْ إِلَّا كَرِيمَ السَّمَائِلِ
وقد تقدم .

وقالوا : كفى بالمرء شراً أن لا يكون صالحاً وهو يقع في الصالحين .
ويبلغ الاحنف بن قيس أن رجلاً يفتابه فقال : عُثَيْمَةٌ تَقْرُضُ جِلْدًا
أَمْلَسًا ... « عثيمة تصغير عثة وهي دويبة تلحس الشباب والصوف وأكبر
ما تكون في الصوف ، وهذا مثل قد يضرب للرجل يجتهد أن يؤثر في
الشيء فلا يقدر عليه »

وما يتصل بهذا قولهم :

✽ وما زالت الأشراف تهجى وتمدح ✽

✽ إنما الغيبة تلقح الشرف ✽ .

من رمى غيره بعيبه

من هذا قولهم : رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَأَنْسَلَّتْ ^(١)

وقولهم : عَيْرٌ مُبْجِرٌ بُجْرَةٌ وَنَيْسَى مُبْجِرٌ خَبْرَةٌ . ، قال المُفَضَّلُ الصَّبِي :
مُبْجِرٌ وَبُجْرَةٌ كَانَا أَخْوَيْنِ فِي الدَّهْرِ الْقَدِيمِ وَلَهَا رِقْصَةٌ ذَكَرَهَا ، وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ
مُبْجِرٌ تَصْغِيرُ الْأَبْجَرِ وَهُوَ النَّاتِي السَّرَّةَ وَالْمَصْدَرُ : الْبُجْرُ فَالْمَعْنَى : أَنْ ذَا
مُبْجِرَةٍ فِي سُرَّتِهِ عَيْرٌ غَيْرُهُ بِمَا فِيهِ « وَقَوْلُ السَّيِّدِ الْمَسِيحِ مَا مَعْنَاهُ : أَتُبْصِرُ
الْقَدَاةَ فِي عَيْنِ أَخِيكَ وَتَدَعِ الْجِدْعَ الْمُعْتَرِضَ فِي حَلْقِكَ »

اغتياب المرء غيره يدل على عيبه

قولوا : مَنْ وَجَدْتُمُوهُ عَيَابًا وَجَدْتُمُوهُ مَعِيًّا ، لِأَنَّهُ يَعْيبُ النَّاسَ

(١) إذا أردت الوقوف على أصل هذا المثل فإلى أمثال الميداني

بِقَضَلِ عَيْبِهِ . وفي هذا المأني يقول الشاعر :

وَيَأْخُذُ عَيْبَ النَّاسِ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ مُرَادُهُ لَعَمْرِي مَا أَرَادَ قَرِيبُ
وَقَالُوا : أَعْرِفُ النَّاسَ بِعُورِ النَّاسِ الْمُعُورِ . « العُورُ : العيب ،
والمُعُورُ : ذو العيب القبيح السريرة »

واعتابَ رجل آخر عند بعض الأشراف ، فقال له : يا هذا ، أَوْحَشْتَنَا
مِنْ نَفْسِكَ ، وَأَيَّاسْنَا مِنْ مَوَدَّتِكَ ؛ وَدَلَلْتَنَا عَلَى كَثْرَةِ عُيُوبِكَ بِمَا تَذَكَّرُ مِنْ
عُيُوبِ النَّاسِ ، لِأَنَّ الطَّالِبَ لِلْعُيُوبِ إِنَّمَا يَطْلُبُهَا بِقَدْرِ مَا فِيهِ مِنْهَا
وقال شاعر :

وَأَجْرًا مِنْ رَأَيْتُ بَظْهَرِ عَيْبٍ عَلَى عَيْبِ الرَّجَالِ ذُورِ الْعُيُوبِ
يقول : أجزأ الناس على عيب الناس بظهور الغيب هم ذور العيوب ،
والظهور : ما غاب عنك .

ومما يذكر هنا قول بعض الحكماء : الأشرارُ يَتَّبِعُونَ مَسَارِي النَّاسِ
وَيَتْرَكُونَ مَحَاسِنَهُمْ ، كَالذُّبَابِ يَتَّبِعُ الْمَوَاضِعَ الْمَاسِدَةَ مِنَ الْجَسَدِ وَيَتْرَكُ
الصَّحِيحَةَ .

تشهية الغيبة واستطابتها

قَالُوا فِي ذَلِكَ : الْغَيْبَةُ فَكَّهُهُ الثُّسَاكُ وَالْقُرَاءُ ...
وَقَصَدَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ مُسْتَرْفِدًا ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا رَجَعَ سُئِلَ ،
فَقَالَ : مَنَعَنِي التَّلَذُّذُ بِالْغَيْبَةِ وَالشُّكُورَى .

وقال رجلٌ لِبَنِيهِ : إِذَا اجْتَمَعْتُمْ فَعَلَيْكُمْ حَدِيثَ أَنْفُسِكُمْ وَدَعُوا
الِاغْتِيَابَ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : نَحْنُ نَحْتَاجُ فِي هَذِهِ السَّنَةِ إِلَى كَذَا وَكَذَا ، وَنَفْعَلُ
وَنَصْنَعُ كَذَا وَكَذَا ، فَقَدْ فَرغْنَا مِنْ حَدِيثِنَا ، فِيمَاذَا نَشْتَعِلُ !

من اغتاب فاغتاب

قيل : مَنْ رَمَى النَّاسَ بِمَا فِيهِمْ رَمَوْهُ بِمَا لَيْسَ فِيهِ
 وقيل : بَحْتُكَ عَنْ عِيُوبِ النَّاسِ يَدْعُو إِلَى بَحْتِهِمْ عَنْ عِيُوبِكَ .
 وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذَمِّهِ ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ
 وقال شاعر ظريف :

تَحَلَّلْتَ بِالسَّبِّ لَمَّا رَأَيْتَ أَدِيمَكَ صَحَّ وَمَنْ سَبَّ سُبَّ
 فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِيكَ مِنْ مَغْمَزٍ سَلَكْنَا إِلَيْكَ طَرِيقَ الْكَذِبِ

نهيهم عن الإصغاء إلى المغتاب

قالوا : إِذَا رَأَيْتَ مَنْ يَغْتَابُ النَّاسَ فَاجْهَدْ جُهِدَكَ أَنْ لَا يَعْرِفَكَ ، فَأَشَقَى
 النَّاسَ بِهِ مَعَارِفَهُ .

وقال عمرو بن عُبيد لرجل يَسْتَمِعُ إِلَى آخِرِ يَغْتَابِ : وَبَلَّكَ ، نَزَّهُ أُذُنَكَ
 عَنْ اسْتِمَاعِ الْخَنَا كَمَا نَزَّهُ لِسَانَكَ عَنِ النَّطْقِ بِهِ .

وقالوا : * وَالسَّامِعُ الذَّامُ شَرِيكُ لَه *

وقال بعض الْمُتَصَوِّفَةِ : الرَّجُلُ يَقُولُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَأَخْشَى عَلَيْهِ بِذَلِكَ
 النَّارَ ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتَمِعُ بِذَلِكَ الْغِيْبَةَ إِذَا سَمِعَهَا ...

الممدوح بصيانة مجلسه عن الغيبة

مَدَحَ بَعْضُهُمْ رَجُلًا فَقَالَ : يَنْزُهُ بِجَارِسِهِ عَنِ الْغِيْبَةِ وَمَسَامَعَهُ عَنِ النِّيمَةِ .

وقال الشاعر :

إِذَا مَا تَرَاهُ الرِّجَالُ تَحْفَظُوا فَلَمْ تُنْطَقِ الْعَوْرَاءُ وَهُوَ قَرِيبٌ

« العوراء : الكلمة القبيحة »

حشهم على التثبت فيما يسمع من السعاية

وُشِيَ بِرَجُلٍ إِلَى بِلَالِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ ، فَلَمَّا أُتِيَ بِهِ قَالَ : قَدْ أَتَاكَ كِتَابٌ
 مِنَ اللَّهِ فِي أَمْرِنَا ، فَاعْمَلْ بِهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَدَلًا فَتَبَيَّنُوا
 أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » ، فَقَالَ : صَدَقْتَ .
 وَأُبْلَغَ أَحَدُ الْمَلُوكِ عَنْ رَجُلٍ مَنْكَرًا ، فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ ، فَقَالَ : إِنْ قَتَلْتَنِي
 وَمَنْ سَعَى بِي كَاذِبٌ يَعُظُّمُ وَيُزْرِكُ ، وَإِنْ تَرَكْتَنِي وَهُوَ صَادِقٌ قَلَّ وَيُزْرِكُ
 وَأَنْتَ مِنْ وَرَاءِ مَا تُرِيدُ ، وَالْعَجَلَةُ مُوَكَّلٌ بِهَا الزَّلِيلُ ، فَأَمَرَ بِإِبْقَائِهِ .
 وَقَالَ كَثِيرٌ عَزَّةً :

وَإِنْ جَاءَكَ الْوَأَشُونَ عَنِ الْبَكْدِيَّةِ فَرَوْهَا وَلَمْ يَأْتُوا لَهَا بِحَوِيلٍ (١)

فَلَا تَعْجَلْ يَا عَزَّ أَنْ تَتَفَهَّمِي بِنُصْحِ أَنْي الْوَأَشُونَ أَمْ بِحُبُولٍ (٢)

وقال عبدة بن الطبيب من أبيات يعظ فيها بنيه :

وَأَعْصُوا الَّذِي يُزِيحِي النَّمَائِمَ بَيْنَكُمْ مُتَنَصِّحًا وَهُوَ السَّمَامُ الْمُنْتَمِعُ (٣)

يُزِيحِي عِقَارِيهِ لِيَتَبَعَتْ بَيْنَكُمْ حَرْبًا كَمَا بَعَثَ الْعُرُوقَ الْأَخْدَعُ (٤)

حِرَانَ لَا يَشْفِي غَلِيلَ فُؤَادِهِ عَسَلٌ بِمَاءٍ فِي الْإِنَاءِ مُشْعَشِعٌ (٥)

(١) فروها من الغرية ، والحويل : المحالة

(٢) الحبول : الدواهي

(٣) يزحي : يسوق ، والسمام : السم ، والمنتمع : المرابي

(٤) الأخدع : عرق في العنق في موضع الحجامة

(٥) مشعشع : ممزوج

لا تأمنوا قومًا يَشِبُّ صِدْيَهُمْ بين القبائل بالعداوة يُدْشَعُ (١)
 إن الذين تَرَوْنَهُمْ إِخْوَانَكُمْ يُشْفِي غَلِيلَ صَدُورِهِمْ أَنْ تُصَدَّعُوا (٢)
 فَضَلَّتْ عِدَاؤُهُمْ عَلَى أَحْلَامِهِمْ وَأَبَتْ ضَبَابُ صَدُورِهِمْ لَا تُنَزَّعُ (٣)
 قَوْمٌ إِذَا دَمَسَ الظَّلَامُ عَلَيْهِمْ هَدَجُوا قَنَافِدًا بِالنَّمِيمَةِ تَمَزَّعُ (٤)

وسعى رجل بالإمام الليث بن سعد إلى وإلى مصر ، فأحضره ، فقال
 الإمام : إن رأيت أن تسأله : أَسِرُّ آتَمَّتَمَّتُهُ عَلَيْهِ خَفَاةٌ ، أم كَذِبٌ افْتَرَاهُ ؟
 والخائن والكاذب لا يُقْبَلُ قَوْلُهُمَا ...

وَوَشَى وَإِشٍ إِلَى بَعْضِ الْأَمْرَاءِ وَقَالَ : إِنَّ فَلَانًا هَجَاكَ ، فأحضره
 وأعلمه ، فقال الرجل : كلا ، فقال : أَخْبَرَنِي بِذَلِكَ النِّقْمَةُ ، فقال : الثِّقَّةُ
 لا يكون نَمَامًا .

وكان الفضل بن سهل الوزير يُبَغِضُ السُّعَاةَ ، فإذا أتاه سَاعٍ يَقُولُ :
 إن كنت صادقاً لم ينفعك ذلك عندنا ، وإن كنت كاذباً عاقبناك ، وإن
 شدت أفلناك .

(١) ينشع من نشع فلان بكذا : أولع به

(٢) هذا البيت من شواهد المستند إليه في علم المعاني والشاهد فيه تنبيه المخاطب
 على الخطأ في ظنه ، إذ في قوله : إن الذين من التنبيه على الخطأ ما ليس في قولك
 إن القوم الفلانيين ، وتروونهم : تظنونهم

(٣) الضباب جمع ضب ، والمراد به : الغل المعبر في الصدر إمعان الضب
 في حجره

(٤) دمس الظلام : اشتدت ظلمته ، وهدجوا : مشوا مشية الشيوخ الراجفة
 المتقاربة الخطى ، وهو الهدجان برواية المفضليات : حدجوا قال شارحها حدجوا :
 رحلوا : أراد : أنهم يسهرون بالنميمة والاحتيال في الشر كما يسهر القنفذ لأنه يسير
 ولا ينام ليله أجمع ، وتمزع ، تسرع

وسأل رجل عبد الملك بن مروان الخَلْوَةَ ؛ فقال لأصحابه : إذا شتمت^(١)
فلنأتمها الرجل للكلام قال له : إياك وأن تمدحني ، فإني أعرف بنفسى منك
أو تكذبني فإنه لا رأى لكذوب ، أو تسعى بأخيد إلى ، وإن شئت
أن أقيلك أقبلتك ، قال : أقلني :

وَوَسَّيْ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ وَأَشْرَفِي فِي أَحَدِ الْكُتَّابِ ، فَرَقَعَ :

أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لَأَيِّكُمْ

مِنَ اللَّوْمِ أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سُدُّوا^(٢)

وقال الواثق لأحمد بن أبي دواد القاضي : مازال القوم في ثلبك إلى
الساعة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ،
والله ولي جزائه ، وعقابك من ورائه ، فما الذي قلت لهم ؟ قال :
قلت :

وَسَعَى إِلَى بَصْرَمِ عَزَّةَ نِسْوَةَ جَعَلَ الْمَلِكُ خُدُودَهُنَّ نَعَالَهَا^(٣)

صعوبة التخلص من اغتياب الناس

سأل بعض الأنبياء ربّه عز وجل أن يدفع عنه ألسنة الناس فلا
يغتابوه ، فقال عز وجل : هذه حصلة لم أجمعها لنفسى فكيف
أجمعها لك !

وقالوا : ليس إلى السلامة من ألسنة الناس سبيل . فانظر إلى ما فيه
صلاحك فالزمه .

(١) تلك كانت عادته إذا أراد انصراف أصحابه يقول : إذا شتمت

(٢) للحطية

(٣) لكنير عزة

وقال شاعر :

إذا كنت ملجياً مسيئاً ومُحْسِناً . فغشياناً ماتموى من الأمر أكيسُ
« ملجياً : ملوماً ، ومسيئاً ومحسناً : حالان »

ذم ناقلِ الغيبة

قالوا : من بلَّغك فقد شتمك . وفي هذا المعنى يقول شاعر :
لعمرك ما سبَّ الأميرَ عدوُّه ولكنَّما سبَّ الأميرَ المُبلِّغُ
وقيل لحكيم : فلان عابك بكذا ، فقال : لقد رأيتك تفحطني بما
استحى الرجلُ من استقبالي به .

الموصوف بالنيمة

قال سبحانه : (ولا تُطعْ كلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ مَهْمَا زَعَمَ)
وقال بعضهم لآخر : فلانُ نَمَّ بك ، فقال : إن فلاناً لو كان بينك
وبين الله واسطة لَسَعَى بك إليه .

وقال السري الرفاء :

أنمَّ بما استودعتهُ من زُجاجةٍ ترى الشيء فيها ظاهراً وهو باطنُ
وقال العباس بن الأحنف :

أناسٌ أمِنَّاهم فنمُّوا حديثنا فلما كتمنا السر عنهم تقوُّلوا

من اغتاب غيره فرآه

اغتاب أعرابي رجلاً ، فالتفت فرآه ، فقال لو كان خيراً ما حضرته .

من لا يحرم اغتيا به

قال الحسن البصرى : لا غيبة في ثلاثة : فاسقٍ بجاهر ، وإمامٍ جائر ،
وصاحب بدعة .

حشهم على التحرز

بما يقتضى الغيبة

قال الحسن البصرى : من دخل مداخِلَ التُّهْمَةِ لم يكن له أجرُ الغيبة .
وقالوا : من عَرَّضَ نفسه للتُّهْمَةِ فلا يلومَنَ مَنْ أساءَ به الظنَّ
واغتابه .

الباب السادس

في التواضع والكبر

وما إليهما

ولما كان التواضعُ مجلبةً للوادة ، والكبرُ مَدْرَجَةً للعداء ، حتى قال بعضهم — وقد قيل له : ما التواضع ؟ فقال : اكتساب المودّة ، فقيل : ما الكبر ؟ فقال : اكتساب البغض — لما كان ذلك كذلك ألحَقْنَا عبقرياتهم فيهما بباب الحلم وما إليه .

حدّ التواضع والكبر

التواضع فضيلة بين الضّعة والكبر ، قال الراغب : التواضع مُشْتَقٌّ من الضّعة وهو : رضا الإنسان بمنزلةٍ دون ما يستحقّه فضلُهُ ومنزِلَتُهُ ، وهو فضيلة لا تكاد تظهر في أفناء الناس ، لانحطاطِ درجاتهم ، وإنما يتّبينُ ذلك في الملوك وأجلاء الناس وعلماهم . وهو من باب التفضّل ، لأنه يتركُ بعض حقّه ، قال : وهو بين الكبر والضّعة : فالضّعة : وضعُ الإنسان نفسه بمحلّ يُزري به ، والكبر : وضعُ نفسه فوق قدره ، أو هو : ظنُّ الإنسان أنه أكبر من غيره ، والتكبر : إظهار ذلك . وهذه صفةٌ لا يستحقّها إلا الله عز وجل ، ومن ادعاهما من المخلوقين فهو فيها كاذب ، وكذلك صارَ مدحاً في البارئ تعالى ، وذمّاً في البشر ، وإنما شرفُ المخلوق في إظهار العبودية كما قال تعالى : لَنْ يُسْتَنَكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ

ولا الملائكة المقربون ، تنبيها على أن ذلك لهم رفعة لأضعة : قال : والتكبر يتولد من الإعجاب ، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن ، والجهل رأس الانسلاخ من الإنسانية ، ومن الكبر الامتناع من قبول الحق ، وأقبح كبر ما كان معه بُخلٌ ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : تَخَصَّاتَانِ لا يجتمعان في مؤمن : الكبر والبخل ، واستُجِيبَ قول الشاعر :

جَمَعَتِ أَمْرَيْنِ ضَاعَ الْحَزْمُ بَيْنَهُمَا نَفْسُ الْمَلُوكِ وَأَخْلَاقُ الْمَمَالِكِ

ومن تكبر لرياسة نالها دل على دناءة عُصْرِهِ ، ومن تكبر لِقِنْيَتِهِ جهل أن ذلك ظل زائل وعارية مُسْتَرَدَّةٌ ، ومن تفكّر في ذاته فعرف مَبْدَأَهُ وَمُنْتَهَاهُ وَأَوَاسِطَهُ عرف نفسه وروض كِبَرَهُ ، وقد نبّه الله على ذلك بقوله : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) (١) ، وقال : (قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ) ، وقال : (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ) (٢) ، ثم قال : وأما العِزَّةُ فهي : الترفع بالنفس عما ياحقه منه غَضَاضَةٌ ، والعِزَّةُ منزلة شريفة ، وهي نتيجة معرفة الإنسان بقدر نفسه وإكرامها عن الضراعة للأعراض الدنيوية ، قال الله تعالى : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) ، وفي الحديث : « لا ينبغي للمؤمن أن يُذِلَّ نفسه » ولذا قالوا : التكبر على الأغنياء تواضع ، تنبيها على أن هذا التكبر عِزَّةٌ

(١) الترائب موضع الفلادة من الصدر ، وقيل : الترائب : أربع أضلاع من يمنة الصدر وأربع من يسرته وقال الفراء : يعني صلب الرجل - العظم من لدن الكاهل إلى المعجب - وترائب المرأة

(٢) الامشاج : الأخلاط : ماء الرجل وماء المرأة أو النطفة

نفس ، وقال ابن مسعود : من خضع لغني فوضع نفسه عنده طمعاً فيه ذهب ثلثا دينه وشَطْرُ مُرْوَةٍ تَه . أقول ولهذا باب سيمر عليك .

حشهم على التواضع

قال سيدنا رسول الله : « طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ فِي غَيْرِ مَنَقَصَةٍ ، وَذَلَّ فِي نَفْسِهِ فِي غَيْرِ مَسْكَنَةٍ . » في غير منقصة : بأن لا يضع نفسه بمكان يُزْرَى به ، وَيُودَى إلى تضييع حق الحق — الله سبحانه — أو الخلق ، فإن القصد بالتواضع خفض الجناح للمؤمنين مع بقاء عزة الدين . روى أن رجلاً مر على عمر وقد تخشع وتذلل وبالغ في ذلك ، فقال عمر : ألسنتُ مُسْلِماً ؟ قال بلى ، قال : فارْفَعْ رَأْسَكَ وَاْمُدِّ عُنُقَكَ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ عَزِيزٌ مَنِيعٌ ؛ أما كلمة طوبى فللعلماء فيها كلام كثير فمن ذلك قول بعضهم : طوبى : اسم الجنة بالهندية ، قال الصاغاني : فعلى هذا يكون أصلها توبى ، بالتاء ، فإنه ليس في كلام العرب طاء ، وقال قتادة : طوبى كلمة عربية تقول العرب : طوبى لك إن فعلت كذا وكذا ؛ قالوا : ومعنى طوبى لفلان : الحسنى والخير له . وكان رسول الله صلى عليه وسلم مثلاً أعلى للتواضع ، قال أبو أمامة رضى الله عنه : خرج علينا رسول الله مُتَّكِنًا عَلَى عَصَا ، فَقَمْنَا لَهُ ، فَقَالَ : لَا تَقْرُمُوا كَمَا تَقْرُمُ الْأَعَاجِمُ يُعْظَمُ بِعَظْمِهِمْ بَعْضُهُمْ ، وَقَالَ : إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ آكَلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ^(١) وكان صلوات الله عليه يركب الحمار وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ ،

(١) اختلف العلماء في القيام للتعظيم المعتاد ، فقبل : مكروه استدلالاً بهذا الحديث ونظائره ، وذهب بعضهم إلى حرمة وقال بعض الأئمة : إنه مستحب لأهل العلم والصلاح

ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم ، حينما انتهى به المجلسُ جلس... ومن حديث عمر عنه صلى الله عليه وسلم : لا تُظُرُونِي كَمَا أَطَرَّتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ^(١) ، إنما أنا عبدٌ ، فقولوا : عبدُ الله ورسوله .

وعن عائشة رضى الله عنها : أنه صلوات الله عليه كان في مَهْمَةٍ أهله - خدمتهم - يَفْقَى ثوبه ، وَيَحْلِبُ شَاتِه ، وَيَرْقَعُ ثوبه ، وَيَخْصِفُ نَعْلَه ؛ وَيُقِمُّ البيت - يَكْنَسُه وَيَزِيلُ قَامَتَه - وَيَخْدُمُ نفسه ، ويعقل البعير - يربطه من رجله بالعقال - ويملف ناضجاً - الجمل الذي يُسْتَقَى عليه الماء - ويأكل مع الخادم ، وَيَعِينُ معها ، ويحمل بضاعته في السوق . وأخباره في تواضعه صلوات الله عليه كثيرة متوافرة تراها في كتب الشمايل والحديث .

وفي المثل : تواضع الرجل في مرتبته ذبٌ للشماطة عند سَقَطِيهِ .

وقال عروة بن الزبير : التواضع أحد مصائد الشرف ، وفي لفظ :

« سُلِّمُ الشرف »

وقال عبد الله بن المعتز : مُتَوَاضِعُ العلماء أكثرهم علماً ، كما أن المكان

المنخفض أكثر الأماكن ماءً .

وللحكام العدول ، بل قد يجب إذا خشي من تركه ضرر كجسارة الملوك ، ويستحب

لمن قدم من سفر ولذوى الأرحام تكريماً لهم وبراؤهم ، والمنهى عنه إنما هو ما كان

على سبيل الرياء والتكبر ، وإنما ناهم صلوات الله عليه لثلاث يظنوه سنة

(١) الاطراء : مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه وبذلك فسر الحديث وفي

معنى الحديث قال الأبو بصيرى :

دَعَّ مَا دَعَّتهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ وَأَحْكَمُ بِمَا شِدَّتْ مَدْحَافِهِ وَأَحْتَمِكُمْ

وقالوا: من وضع نفسه دون قدره رفعه الناس فوق قدره، ومن رفعها عن حده وضعه الناس دون قدره .

وقال جعفر بن محمد: رأس الخير التواضع، فقليل له: وما التواضع؟ فقال أن ترضى من المجلس بدون شرفك، وأن تُسَلِّمَ على من لقيت، وأن تترك المراءَ وإن كنت مُحِقًّا، وأن تكره الرياءَ والشُّمعةَ .

وقالوا: التواضعُ نعمةٌ لا يفطنُ لها الخبيدُ .

وقالوا: التواضعُ كالوهدةٍ يجتمعُ فيها قطرها وقطرُ غيرها .

وقال عمر: أريدُ رجلاً إذا كان في القومِ وهو أميرهم كان كبعضهم، فإذا لم يكن أميراً فسكانه أميرهم .

وقال رضى الله عنه حين نظر إلى بعض السراةِ مُبتدلاً لأصحابه: هذا رجلٌ يفرُّ من الشرفِ والشرفُ يتبعه .

وقد مدح الشعراءُ المتواضعين فن ذلك قولُ أبي تمام:

مُتَبَدِّلٌ فِي الْقَوْمِ وَهُوَ مُبَجَّلٌ مُتَوَاضِعٌ فِي الْحَيِّ وَهُوَ مُعْظَمٌ

وقال آخر:

مُتَوَاضِعٌ وَالنُّبْلُ يَحْرُسُ قَدْرَهُ وَأَخُو النَّبَادَةِ بِالنَّبَاهَةِ يَلْبُسُ

وقال البحتري:

دَانَتْ تَوَاضِعًا وَعَلَوَتْ بَجْدًا فَشَانَاكَ انْحِدَارُ وَارْتِفَاعُ

كَذَلِكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تُسَاسَى وَيَدْنُو الضَّوُّ مِنْهَا وَالشُّعَاعُ

وقال أبو محمد التيمي:

تَوَاضِعٌ لَمَّا زَادَهُ اللَّهُ رِفْعَةً وَكُلُّ رَفِيعٍ قَدْرُهُ مُتَوَاضِعٌ

وقال أبو بكر الخوارزمي :
عَجِبْتُ لَهُ لَمْ يَلْبَسِ الْكِبَرَ حُلَّةً وَفِينَا إِذَا جُرْنَا عَلَى بَابِهِ كَسْبُرُ

ذمهم التكبر

قال الله تعالى : إنه لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ . وقال سبحانه : كَذَلِكَ نَطْبَعُ
عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مَتَكَبِّرًا جَبَّارًا . وقال : فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
فِيئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ . وقال : سأصريف عن آياتي الذين يتكبرون في
الأرض بغير الحق .

ودخل الفضل بن يحيى ذات يوم على أبيه وهو يتبختر في مُشَيِّتِهِ ، فقال له
يحيى : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، إِنَّ الْبُخْلَ وَالْجَهْلَ مَعَ التَّوَاضُعِ ، أَرْزِينُ بِالرَّجْلِ مِنَ
الْكِبَرِ مَعَ السَّخَاةِ وَالْعِلْمِ ، فَيَالِهَا مِنْ حَسَنَةِ غَطَّتْ عَلَى عَيْنَيْنِ عَظِيمَيْنِ ، وَيَالِهَا
مِنْ سَيِّئَةِ غَطَّتْ عَلَى حَسَنَتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ ، ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَيْهِ بِالْجُلُوسِ وَقَالَ : احْفَظْهُ
يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ فَإِنَّهُ أَدَبٌ كَبِيرٌ أَخَذْنَاهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ ...

وهذا كما قال حكيم : وَجَدْنَا التَّوَاضُعَ مَعَ السَّخَاةِ وَالْبُخْلِ أَحْمَدَ عِنْدَ الْعُقَلَاءِ
مِنَ الْكِبَرِ مَعَ الْأَدَبِ وَالسَّخَاةِ ، فَأَنْبِلُ بِحَسَنَةِ غَطَّتْ سَيِّئَتَيْنِ ، وَأُقْبِحُ
بَسِيئَةِ غَطَّتْ عَلَى حَسَنَتَيْنِ |

وقال علي بن أبي طالب : عَجِبْتُ لِلْمَتَكَبِّرِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ نَطْفَةً
وهو غداً حَيْفَةً . وقال بعض الشعراء :

يَا مُظْهِرَ الْكِبَرِ إِعْجَابًا بِصُورَتِهِ أَنْظُرْ تَحْلَاةَكَ إِنْ النَّسْنَانَ تَشْرِبُ
لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ فِيهَا فِي بُطُونِهِمْ مَا اسْتَشْعَرَ الْكِبَرُ شُبَابًا وَلَا شَيْبُ
هَلْ فِي ابْنِ آدَمَ غَيْرَ الرَّأْسِ مَكْرُمَةٌ وَهُوَ بِخَمْسٍ مِنَ الْأَدْنَى مَشْرُوبُ

أَنْفٌ يَسِيلُ وَأُذُنٌ رِيحُهَا سَهْكٌ وَالْعَيْنُ مُرْدَصَةٌ وَاللِّغْزُ مَلْعُوبٌ
يَابِنُ الشَّرَابِ وَمَا كَوَلَّ التَّرَابِ غَدًا أَقْصَرَ فَإِنَّكَ مَا كَوَلَّ وَمَشْرُوبٌ
وَقَالُوا : دَعِ التَّكْبَرَ ، فَتَى كُنْتَ مِنْ أَهْلِ التُّبُلِ لَمْ يَضُرَكَ التَّبْدُلُ ، وَمَتَى
لَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ لَمْ يَنْفَعَكَ التَّنْبُلُ .

بعض دواعي التكبر

قال المأمون : ما تكبر أحدٌ إلا لِنَقْصِ وَجَدِهِ فِي نَفْسِهِ .
وقال حكيم : ما تعظم أحدٌ على مَنْ دونه إلا تصاغَرَ مَنْ فَوْقَهُ
وقالوا : ما تاءٌ إلا وَضِيعٌ ، ولا فآخِرٌ إلا سَقِيطٌ ، ولا تَعَظَّمَ إلا
لَقِيطٌ . « السقيط : الأحمق الناقص العقل ، واللقيط : الطفل الذي يُوجَدُ
مَرْمِيًّا عَلَى الطَّرْقِ لَا يُعْرِفُ أَبُوهُ وَلَا أُمُّهُ »
وقال يحيى بن خالد بن برمك : لَسْتُ تَرَى أَحَدًا تَكَبَّرَ فِي إِمَارَتِهِ
إِلَّا وَهُوَ يَمْلِكُ أَنْ الَّذِي نَالَ هُوَ فَوْقَ قَدْرِهِ ، وَلَسْتُ تَرَى أَحَدًا يَضَعُ
نَفْسَهُ فِي إِمَارَةٍ إِلَّا وَهُوَ فِي نَفْسِهِ أَكْثَرَ مِمَّا نَالَ .
وقيل لِبَعْضِهِمْ : فَلَانٌ غَيْرَتُهُ الْإِمَارَةُ فَقَالَ : إِذَا وَلِيَ الرَّجُلُ
وَلَايَةً فَرَأَاهَا أَكْثَرَ مِنْهُ تَغَيَّرَ ، وَإِذَا وَلِيَ وِلَايَةً يَرَى أَنَّهُ أَكْثَرُ مِنْهَا
لَمْ يَتَغَيَّرْ .

وقالوا : مَنْ نَالَ مَنْزِلَةً فَأَبْطَرَتْهُ دَلَّ عَلَى رِدَاةِ أَصْلِهِ وَعُضْصِرِهِ .
وقال بعض المتصوفة : اللثام إذا تَمَلَّوْا اسْتَطَالُوا ، وَإِذَا افْتَقَرُوا تَوَاضَعُوا
وَالكِرَامُ إِذَا تَمَلَّوْا تَوَاضَعُوا ، وَإِذَا افْتَقَرُوا اسْتَطَالُوا .
وقال الجاحظ من كلمة له : والكبر في الأجناس الذليلة أرسخ ، ولكن

الْقِلَّةَ وَالذَّلَّةَ مانعتان من ظهور كِبَرِهِمْ ، وَمَنْ قَدَرَ مِنَ الْوَضْعَاءِ أَدْنَى قَدْرَةَ
ظَهَرَ مِنْ كِبَرِهِ مَا لَا خِفَاءَ بِهِ ، وَلَمْ أَرَ ذَا كِبَرٍ قَطُّ عِلًّا مَنْ دُونَهُ إِلَّا وَهُوَ
يَبْدُلُ لِمَنْ فَوْقَهُ بِمِقْدَارِ ذَلِكَ وَوَزْنِهِ ...

متكبر ذنى أو فقير

قالوا : أبغض الناس ذو عُسْرٍ يَخْطُرُ فِي رِءَاءِ كِبَرٍ .
ومن قولهم في ذلك : أَنْفٌ فِي السَّمَاءِ وَأَنْتُ فِي الْمَاءِ

مدحهم معرفة الرجل قدر نفسه

وذمهم الصلف

وبعض نوادر المزهوين

قال علي بن أبي طالب : لَنْ يَمَلَكَ امْرُؤٌ عَرَفَ قَدْرَهُ .

وقال المتنبي :

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

وقال سيدنا رسول الله : ثلاثٌ مهلكات : سُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوَى مُتَّبَعٌ ،

وإعجاب المرء بنفسه .

وقالوا : عَجِبُ الْمَرءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَادِ عَقْلِهِ .

وقال أعرابي لرجل مدحجٍ بنفسه : يُسْرِنِي أَنْ أَكُونَ عِنْدَ النَّاسِ مِثْلَكَ

فِي نَفْسِكَ ، وَعِنْدَ نَفْسِي مِثْلَكَ عِنْدَ النَّاسِ ...

وكان رجل يسمى أبا ثَوَابَةَ أَقْبَحَ النَّاسِ كِبَرًا ، مَعْنًا فِي الصَّلَافِ ،

رَوَى أَنَّهُ قَالَ لِمُسْلِمِهِ : آسَقِنِي مَاءً ، فَقَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : إِنَّمَا يَقُولُ « نَعَمْ »

من يقدر على أن يقول «لا» وأمر بضربه ... ودعا أكاراً فكلمه ، فلما فرغ دعا بماء وتمضمض ، استنظاراً لمخاطبته ...

ومن المعجيين بأنفسهم المغالين في العزة وإن كان إلى ذلك من الشخصيات الضخمة الكريمة النبيلة المحترمة عمارة بن حمزة^(١)، روى: أنه دخل على المهدي الخليفة العباسي ، فلما استقر به الجلوس ، قام رجلٌ كان المهدي قد أعد له ليهنئهم به ، فقال : مظلومٌ يا أمير المؤمنين قال : من ظلمك ؟ قال : عمارة غَصَبَنِي ضَيْعَتِي ، وذكر ضيعةً من أحسن ضياع عمارة وأكثرها خراجاً ، فقال المهدي لعمار : قُمْ فَاجْلِسْ مَعْ تَخْصِيكَ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما هو لي بِخُصْمٍ ، إن كانت الضيعةُ له ، فلستُ أنازعه فيها ، وإن كانت لي فقد وهبتها له ، ولا أقوم من مجلسٍ شرفني به أمير المؤمنين ، فلما انصرف المجلس سأل عمارةً عن صفة الرجل ، وما كان لبأسه ، وأين كان موضعُ جلوسه ... وكان من تبهه أنه إذا أخطأ يمر على خطئه ، تكبراً عن الرجوع ويقول : نقض وإبرام في ساعة واحدة ! الخطأ أهون من ذلك ...

ومن المفرطين في الكبر رجل يسمى عبيد الله بن زياد بن ظبيان ، قال له رجل من قومه وقد رأى منه ما أعجبه : كَثُرَ اللهُ فِينَا مِثْلَكَ ، فقال : لقد كلفتمُ اللهُ شَطَطاً ...

وهناك من نوادر المتكبرين المستطرفة ما لا يتسع له معجمنا هذا .

(١) ترجم له ياقوت في معجم الادباء ترجمة وافية

معتذر لعجبه وعزته

قيل لإياس بن معاوية^(١) : ما فيك عيب غير أنك مُعَجَّبٌ ، فقال :
أُيَعِّبُكُمْ مَا أَقُولُ ؟ قالوا : نعم ، فقال : فأنا أحقُّ أن أُعَجَّبَ به ...
وقال بعض المعجبين :

يقولون : ذو كِبْرٍ ولو خُصَّ بعضهم ببعضِ خِصَالِي ما استفاق من الكبر
وقال رجل لبعض المزهَّوين : ما أعظمتك في نفسك ! فقال : لست
بعظيمٌ ، ولكني عزيزٌ ، لقوله تعالى : والله العزَّةُ ولرسوله وللمؤمنين . وفي
هذا المعنى يقول بعضهم :

وما أنا مَزْهُوٌّ ولكني فتيُّ أَبْتَلِي نَفْسَ حُرَّةٍ أَنْ أُذِيلَهَا
« أذيلها : أهينها » وهذا من قبيل قول القائل :
وأَكْرِمُ نَفْسِي أَنْيَ إِنْ أَهَنْتَهَا وَحَقَّتْ لَمْ تَكْرُمِ عَلَى أَحَدٍ بَعْدِي
ولمثل هذا المعنى باب سلسلوعب عقرياتهم فيه .

التكبر على ذوى الكبر

سُئِلَ الحِسنُ البصرى عن التواضع ، فقال : هو التكبر على الأغنياء
« يريد : الترفع وعدم التذلل لهم طمعاً في ما لهم أو جاههم »
وأنشد المبرد :

إِذَا تَأَهَّ الصَّدِيقُ عَلَيْكَ كِبْرًا فَتَهُ كِبْرًا عَلَى ذَاكَ الصَّدِيقِ

(١) الذى يضرب به المثل فى الذكاء والفتنة ، ولاءه عمر بن عبد العزيز قضاء
البصرة ، ترجم له ابن خلكان .

فإيجابُ الحقوق إغير راعٍ حُقُوقَكَ رَأْسُ تَضِيعِ الْحَقُوقِ
وقال الأصمعي : قال رجل : ما رأيت ذا كبر قط إلا تحول داؤه
في . « يريد : أنى أتكبر عليه » ، وقال آخر : ماتاه أحدٌ قط على مرتين
« يريد : أنه إذا تاة مرة لم أعاوده وتركته وأعرضت عنه »
وقال عدى بن أرطاة وهو أمير لوكيح بن الأسود : سَوَّ عَلِيَّ ثِيَابِي ،
فقال : * ذَكَرْتُ الطَّعْنَ وَكُنْتُ نَاسِيًا * (١) فِي خَفِي ضَيْقِي فَلَيْمُدَّهُ الْأَمِيرُ حَتَّى
أَنْزِعَهُ ، فقال له عدى : إن الجليسَ لَيَلِي من جلسه أكثر من هذا ، فقال
ياعدى ، إذا عُرِلْتَ عَنَا فَكَلِّفْنَا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا ، أَمَا وَأَنْتَ تَرَى لَكَ عَلَيْنَا
بسطة فلا ...

ذمهم الإفراط في التواضع

قالوا : مِنَ التَّوَاضِعِ مَا يَضَعُ
وقال عبد الله بن المقفع : الإفراط في التواضع يوجب المذلة ، والإفراط في
المؤانسة يوجب المهانة .

حمد تعظيم الكبار

قَدِمَ قَيْسُ بْنُ عَاصِمِ الْمِنْقَرِيِّ سَيِّدَ أَهْلِ الْوَبْرِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(١) قال الميداني - وأورده في أمثاله - : أصله أن رجلا حمل على رجل ليقتله ،
وكان في يد المحمول عليه رمح ؛ فأنساه الددش والجرجع ما في يده ، فقال له الحامل :
ألق الرمح ، فقال الآخر . وأن معي رمحا لا أشعربه؟ ذكرتني الطعن ... المثل وحمل
على صاحبه فطعنه حتى قتله . يضرب في تذكرو الشيء بغيره .

وسلم ، فبسط له رداءه ، ثم قال : إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه .
 ورُوِيَ أن مجوسياً دخل على رسول الله . فأخرج صلوات الله عليه
 من تحته وسادةً حَشُوها ليف ، وطرحها له ، وأقبل عليه يحدّثه ، فلما نهض
 قال عمر : إنه مجوسى ! فقال عليه الصلاة والسلام : قد علمت ، ولكن
 جبريل يأمرنى أن أكرم كل كريم قوم إذا أتى ، وهذا سيد قومه .
 وركب زيد بن ثابت رضى الله عنه ^(١) ، فدنا منه عبد الله بن عباس
 يأخذ بركابه ، فقال : ما تفعل يا ابن عم رسول الله ؟ فقال . هكذا أمرنا
 أن نفعل بأمرائنا ^(٢) ، فقال زيد : أرني يدك ، فأخذها وقبّلها ، وقال : هكذا
 أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

(١) هو الصحابي العالم الجليل ، كاتب الوحي ، وجامع القرآن في عهد أبي بكر
 وقال فيه أبو بكر : إنك شاب عاقل لا تهملك ، وكان أحد فقهاء الصحابة الجليلة
 الفراض — علماء المواريث — مات في عهد مروان بن الحكم
 (٢) ورد أن النبي صلوات الله عليه ، سلم زيد بن ثابت الراية في إحدى الغزوات
 وأمره على الجيس فيها

الباب السابع

في الشجاعة وعبقرياتهم فيها

وفي الصبر في القتال

وسائر ما يتصل بالحرب

ودونك ما وقع عليه الاختيارُ من عبقرياتهم في الشجاعة والصبر في الحروب، وسائر ما يعطف على هذه المعاني وينشعب به القول فيها وأنت فقد علمت مما أسلفنا عليك في باب الصبر أن الشجاعة لون من ألوانه . ومن ثم أردفنا القول على الأبواب السابقة — وهي جميعاً من ألوان الصبر — بالقول على الشجاعة وما إليها .

حقيقة الشجاعة

قالوا : الشجاعة : فضيلةٌ بين التهور والخبين .
وفي الأثر : الشجاعة غريزة يضعها الله فيمن يشاء من عباده .
وسُئِلَ بعضهم عن الشجاعة فقال : جِبِلَّةٌ نفسُ أبيَّةٍ .
وقيل لبعضهم : ما الشجاعة ؟ فقال : صبر ساعة .
وقال بعض المجريين : الرجال ثلاثة : فارس ، وشجاع ، وبطل ؛ فالفارس الذي يَشُدُّ إذا شَدُّوا ، والشجاع : الداعي إلى السِّراز والمُجيب داعيَهُ ،

والبطل : الحامى لِظهور القوم إذا ولّوا ...

ويروى أن زياد بن أبيه كتب إلى ابن عباس : أن صِف لي الشجاعة والجهن والجود والبُخل ، فكتب إليه : كتبت تسألني عن طبائِع رُكبتُ في الإنسان تركيبَ الجوارح ، اعلمُ أن الشجاع يقاتلُ عن لا يعرفه ، والجهن يَفِرُّ عن عَرِسِه — زوجه — وأن الجواد يُعطى من لا يلزمُه وأن البخيل يُمسِكُ عن نفسه .

الأسباب المشجعة :

قال الجاحظ : الأسباب المشجعةُ قد تكون عن الغضب ، والشراب^(١) والهوج^(٢) ، والغميرة ، والحمية ، وقد تكون مرقوة النَفج^(٣) وحبُّ الأحدوثة ؛ وربما كان طبعاً ، كطبع الرحيم ، والسَّخيِّ ، والبخيل ، والجزوع والصبور ؛ وربما كان للدين ، ولكن لا يَباغُ الرجلُ للدينِ ما لم يُشيعه بعض ما تقدّم ، لأن الدينَ مُجْتَلَبٌ مُكْتَسَبٌ ، ولا يكاد يباغ الطَّبيعة .
وقالوا : لا يصدُقُ القتالُ إلا ثلاثة : مُتَدِينٌ ، وَغَيْرَان ، وَمُتَعَصِّصٌ من ذلِّ .

(١) المراد : الخمر

(٢) الهوج : الطيش والحق والتسرع

(٣) النَفج : افتخار المرء بما ليس فيه .

حثهم على الثبات والإقدام

ونهيهم عن الإحجام والفسكر في العواقب

قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تؤاؤهم الأديبار) ... « زحفاً حال من الذين كفروا ، والزحف : الجيش الكثير الذي يرى لكثرتته كأنه يزحف ، : أى يدب ديباً ، من زحف الصبي : إذا دب على آسته قليلاً قليلاً ؛ سُمي بالمصدر ، والجمع : زحوف ، والمعنى : إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير متوافرون وأنتم قليل فلا تفرّوا ، فضلاً أن تدأؤهم في العدد ، أو تسأؤهم » ... وقال سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تقاتلون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) ... « إذا لقيتم فئة : إذا حاربتهم جماعة ، فاثبتوا : لا تفرّوا ، واذكروا الله كثيراً : اذكروه سبحانه في مواطن الحرب ، مستظهريين بذكره مستترقين لنصره ، وفي هذا إشعارٌ بأن على الإنسان أن لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلباً وأكثر ما يكون همّاً ، وأن تكون نفسه مجتمعةً لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره ، وفشل يفشل : ضعف وجبن وذهبت قواه ؛ يقول سبحانه : إذا اختلفتم ضعفتم وإذا انفقتم كنتم أفوياء ، والريح : الدولة ، شبهت في نفوذ أمرها وتمشييه بالريح وهبوبها ، ومن ذا يقال : هبت ريح فلان : إذا دالت له الدولة ونفذ أمره »

وقال أبو بكر الصديق لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة :

أَحْرِصْ عَلَى الْمَوْتِ تُوَهِّبْ لَكَ الْحَيَاةَ .

وقالوا : من فَسَّكَرَ فِي الْعَوَاقِبِ لَمْ يَشْجُعْ .

وقالوا : السَّلَامَةُ فِي الْإِقْدَامِ ، وَالْجَمَامُ فِي الْإِحْجَامِ .

وتقول العرب : الشُّجَاعُ مُوَفَّى . «أَي تَمَّهِيبُهُ الْأَقْرَانُ فَيَتَحَامَوْنَهُ

فَيَكُونُ ذَلِكَ وَفَايَةً لَهُ»

وَأَسْتَشِيرَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ فِي حَرْبِ أَرَادُوهَا فَقَالَ : أَقْلُوا الْخِلَافَ

لَا مَرَاتِكُمْ وَاعْدُوا أَنْ كَثْرَةَ الصِّيَاحِ مِنَ الْفِشْلِ ، وَالْمَرءُ يَعْجِزُ لِاحْمَالَةٍ (١)

وَأَدْرِعُوا اللَّيْلَ فَإِنَّهُ أَخْفَى لِلرَّيْلِ .

وقال هانئ بن مسعود الشيباني يومَ ذِي قَارٍ يُحَدِّثُ قُوَّةَهُ : إِنْ الْخِذَرَ

لَا يُنْجِي مِنَ الْقَدْرِ ، وَالصَّبْرُ مِنْ أَسْبَابِ الظَّفَرِ ، وَالنَّمِيَّةُ وَاللَّدْنِيَّةُ ، وَاسْتِقْبَالُ

الْمَوْتِ خَيْرٌ مِنْ اسْتِدْبَارِهِ ، وَالطَّعْنَ فِي نُغْرِ النَّحُورِ أَكْرَمُ مِنْهُ فِي الْأَعْيَازِ

وَالظُّهُورِ ، وَهَالِكٌ مَعْدُورٌ خَيْرٌ مِنْ نَاجٍ فَرُورٌ ...

وقال أبو مسلم الخراساني لبعض قواده : إِذَا عَرَضَ لَكَ أَمْرٌ نَازِعٌ

فِيهِ مَنَازِعَانِ ، أَحَدُهُمَا يَبْعَثُ عَلَى الْإِقْدَامِ وَالْآخَرُ عَلَى الْإِحْجَامِ ، فَاقْدُمْ ،

فَإِنَّهُ أَدْرَكَ النَّارَ ، وَأَنْفَى لِلْعَارِ .

وقالت الخنساء :

نُهَيْنَ النَّفُوسَ وَهَوْنَ النَّفْرَ سِ يَوْمَ الْكُرَيْمَةِ أَوْقَى لَهَا

وقيل للمهلب بن أبي صفرة : إِنَّكَ كَلَّمْتَنِي نَفْسَكَ فِي الْمَهَالِكِ ، فَقَالَ :

إِنْ لَمْ آتِ الْمَوْتَ مُسْتَرَسِلًا ، أَنَا نِي مُسْتَعِجِلًا ، إِنِّي لَسْتُ آتِي الْمَوْتَ مِنْ

(١) مثل معناه : لا تضيق الخيل ومخارج الأمور إلا على العاجز ، والمحالة :

حُبِّهِ وَإِنَّمَا آتِيهِ مِنْ بُغْضِهِ ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْخُصَيْنِ بْنِ الْحُمَامِ الْمُرِّيِّ (١) :
تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أُجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَ
« وَهِيَ أَيْبَاتٌ مَشْهُورَةٌ يَقُولُ فِيهَا :

فَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُّوْمُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدَّمَا
نُفَلِّقُ هَامًا مِنْ رِجَالِ أَعِزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَى وَأَظْلَمًا
« وَمَعْنَى تَأَخَّرْتُ ... أَلْبَيْتِ : لَمَّا تَأَخَّرْتُ طَمَعْتُ فِي الْعَدُوِّ ، وَظَنَنْتِي
جَبَانًا فَاجْتَرَأْتُ عَلَيَّ ، لِأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَطْمَعُ فِي الْجَبَانِ ، وَمَنْ ثُمَّ كَانَ الْقَتْلَ
إِلَى الْجَبَانِ أَسْرَعُ ، فَتَقَدَّمْتُ ، فَكَانَ التَّقَدُّمُ أَنْجَى لِي ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ
الْمَعْنَى : أَحْتَمَمْتُ مُسْتَبْتَهِيًا لِحَيَاتِي ، فَلَمْ أُجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً كَمَا يَكُونُ فِي الْإِقْدَامِ
وَذَلِكَ أَنَّ الْأَحْدَوْتَةَ الْجَمِيلَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِالتَّقَدُّمِ لَا بِالتَّأَخُّرِ . وَمَعْنَى فَلَسْنَا
عَلَى الْأَعْقَابِ ... أَلْبَيْتِ : نَحْنُ لَا نُؤَلِّى فَنُجْرَحَ فِي ظَهْرِنَا فَتَقْطُرَ دِمَاؤُنَا
عَلَى أَعْقَابِنَا ، وَلَسَكُنَّا نَسْتَقْبِلُ السُّيُوفَ بِوُجُوهِنَا ، فَإِنَّ أَصَابَتِنَا جِرَاحٌ
تَقَطَّرَتْ دِمَاؤُنَا عَلَى أَقْدَامِنَا ، وَقَوْلُهُ نَفَلِّقُ هَامًا ... أَلْبَيْتِ فَالْهَامُ جَمْعُ هَامَةٍ ،
وَهِيَ : الرَّأْسُ يَقُولُ : نُشَقِّقُ هَامَاتٍ مِنْ رِجَالِ يَكْرُمُونَ عَلَيْنَا ، لِأَنَّهُمْ مَنَا
وَهُمْ كَانُوا أَسْبَقَ إِلَى الْعُقُوقِ : وَيُقَالُ : عَقَّ الرَّحْمُ كَمَا يُقَالُ : قَطَعَهَا .
وَيُقَالُ الْكَلْحَبَةُ الْيَرْبُوعِيُّ — شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ — :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَغْشَ الْكَرِيمَةَ أَوْشَكَتْ جِبَالُ الْهُوَينِ بِالْفَتَى أَنْ تَقَطَّعًا
« الْغُشْيَانُ : الْإِتْيَانُ ، وَالْكَرِيمَةُ . الْحَرْبُ ، وَقِيلَ : شِدَّتُهَا ، وَقِيلَ
النَّازِلَةُ أَوْ أَوْشَكَتْ : قَارِبَتْ وَدَنَتْ ، وَالْجِبَالُ جَمْعُ جَبَلٍ ، بِمَعْنَى : السَّبَبُ ،
اسْتَعْبِيرَ لِكُلِّ شَيْءٍ يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَالهُوَينِ : الْخَفِضُ وَالرَّاحَةُ

(١) شاعر فارس جاهلي كان يقال له : مانع الضمير

والباء في بالفتى : للمصاحبة فيكون حالا، أو بمعنى عن فيتعلني بها بعدما
وجاز لأنه ظرف ، وتقطعا بحذف إحدى التاءين والفاعل ضمير حيال ،
وقوله : بالفتى فقد كان يجب أن يقول بدل الفتى : به ، أو : بالمرء ولكنه
عدل عن المضممر والظاهر إلى لفظ آخر لأنه أشبه المضممر ، وقال ابن
رشيق : قوله بالفتى حشو وكان الواجب أن يقول : به لأن ذكر المرء قد
تقدم ، إلا أن يريد بالفتى معنى الزاوية والأطنوزة — السخرية — فإنه
محتمل . وهذا تخيلٌ دقيق من ابن رشيق ،

المبادر إلى الحرب غير مهال بها

قال البُحْتَرِيُّ :

تَسْرَعُ حَتَّى قَال مَنْ شَهِدَ الْوَعَى لِقَاءِ أَعَادِ أُمَّ لِقَاءِ حَبَائِبِ
وَقَالُوا : أَشَجَعُ بَيْتِ قَالْتَهُ الْعَرَبُ قَوْلِ الْعَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسِ :

أَشْدُّ عَلَى الْكَتِيبَةِ لَا أَبَالِي أَحْتَفِي كَانَ فِيهَا أُمَّ سِوَاهَا

ووصف أعرابي قوماً فقال : ما سألوا قطكم القوم ؟ وإنما يسألون :

أين هم ؟

وسأل رجلٌ يزيد بن المهلب فقال : صف لي نفسك ، فقال : ما بارزت

أحداً إلا ظننت أن رُوْحَهُ فِي يَدِي ...

ولما بلغ فتية بن مسلم حدود الصين قيل له : قد أوغلت في بلاد

الترك ، والحوادثُ بين أجنحة الدهر تُقْمِلُ وتُدِيرُ ، فقال : بشقي بنصر

الله أوغلتُ ، وإذا انقضت المدة لم تنفع العدة ، فقال الرجل : أسلكُ حيث

شدتُ ، فهنا عزمٌ لا يفُلهُ إلا الله ...

حث من دعى إلى المبارزة على الإجابة

قال علي بن أبي طالب لبعض بنيه : لا تَدْعُونَ أَحَدًا إِلَى الْمُبَارَاةِ ،
وَلَا يُدْعُو تِلْكَ أَحَدٌ إِلَّا أَجَبْتَهُ ، فالداعي باغ ، والباغي مصروع .
وقال طَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ :

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا : مَنْ فَتَى ؟ خِلْتُ أَنِّي

عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدْ (١)

وقال بَشَّامَةُ بْنُ حَزْنِ النَّهْشَلِيِّ - شاعر إسلامي - :

إِنَّا لَمِنْ مَعْشَرٍ أَفْنَى أَوَائِلِهِمْ قَوْلُ السَّكَاةِ : أَلَا ابْنَ الْمُحَامُونَا ؟
لَوْ كَانَ فِي الْأَلْفِ مِنْنًا وَاحِدٌ فَدَعَوْا مَنْ فَارِسٌ خَالَهُمْ إِيَّاهُ يَمُونَا

المنازل وقت المنازلة

قال زهير بن أبي سلمى من قصيدة يمدح هَرِمًا :

لَيْتَ لِي بِمَشْرِ يَصْطَادُ اللَّيْثَ إِذَا

مَا اللَّيْثُ كَذَّبَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا

يُطْفِقُهُمْ مَا ارْتَمَوْا حَتَّى إِذَا آطَمَسُوا

ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا آعْتَمَقًا

« عَمَّرَ : وضع باليمن ، وقيل : مأسدة بناحية تبالة . وقوله : كَذَّبَ

أى لم يصدق الجملة ، يقال : كَذَّبَ الرَّجُلُ عَنِ كَذَا : إِذَا رَجَعَ عَنْهُ ،

(١) من معلقته ، يقول : إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا : مَنْ فَتَى بِكَفَى مَهْمَا أُوَيْدِفَعُ شَرًّا ؟ خِلْتُ

أَنِّي الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ ، فَلَمْ أَكْسَلْ فِي كِفَايَةِ الْمَهْمِ وَدَفَعُ الشَّرِّ ، وَلَمْ أَتَبَلَّدْ فِيهِمَا .

يقول : إذا رجع الشجاع عن قرنه ولم يصدق الحلة عليه فهذا الممدوح يصدقها . واعتق : التزم قرنه ، يقول : إذ ارتمى الناس في الحرب بالنبل دخل هو تحت الرمي فجعل يطاعنهم ، فإذا تطاعنوا ضارب بالسيف ، فإذا تضاربوا بالسيف اعتنتى قرنه والتزمه ، أى أنه يزيد عليهم فى كل حال من أحوال الحرب «

صدر من عبقرياتهم فى الصبر

من أحسن ما قيل فى الصبر يوم اللقاء قول نهمشل بن حرمي بن ضمرة (١) :

ويوم كأن المصطليين بحره - وإن لم تكن نار - قيام على الجمر
صبرنا له حتى يبوخ وإنما نفرج أيام الكريمة بالصبر
« باخت الحرب والنار تبوخ بوخا وبووخا وبوخا : سكنت وقبرت
وكذلك الحر والغضب والحمي »
وقال من لا أذكر اسمه :

بكي صاحبي لما رأى الموت فوقنا مُطلاً كإطلال السحاب إذا اكفهر
فقلت له : لا تبك عينك إنما يكون غداً حسن الثناء لمن صبر
فا آخر الإحجام يوماً ممجلاً ولا عجل الإقدام ما آخر القدر

(١) شاعر شريف مشهور من المخضرمين بقى إلى أيام معاوية وكان مع علي فى حروبه ، وأبوه شاعر شريف وجده ضمرة ضخم الشرف وكان من خير بني دارم ، دخل على النعمان بن المنذر فقال له : من أنت ؟ قال : أنا حزة ، قال النعمان : تسمع بالمعيدي لا أن تراه فقال : أبيت اللعن ، إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، إن نطق نطق ببيان وإن قاتل قاتل بجهان الخ .

فَأَسَى عَلَى حَالٍ يَقِلُّ بِهَا الْأَسَى وَقَاتَلَ حَتَّى اسْتَبْتَهُمُ الْوَرْدُ وَالصَّدْرُ
وَكَّرَ حِفْظًا تَحْشِيَةً الْعَارِ بَعْدَمَا رَأَى الْمَوْتَ مَعْرُوضًا عَلَى مَنَهِجِ الْمَكْرَرِ
وَقَالَ قَطْرِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ: (١)

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شِعَاعًا مِنْ الْأَبْطَالِ: وَيَحْكُ لَنْ تُرَاعِي
فَإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الْأَجْلِ الَّذِي لَكَ إِنْ تُطَاعِي
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
وَلَا تَوْبُ الْبَقَاءِ بِتَوْبِ عِزٍّ فَيُطَوَّى عَنْ أَخِي الْخَنْعِ الْبِرَاعِ
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةٌ كُلُّ حَيٍّ فِدَاعِيهِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ دَاعِي
وَمَنْ لَا يُعْتَبَطُ بِسَأْمٍ وَيَهْرَمُ وَتُسَلِمُهُ الْمُنُونُ إِلَى انْقِطَاعِ
وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ إِذَا مَا عُدَّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ

« أقول لها ، أى للنفس ، والشعاع : المتفرق ، وهذا مثل ، ومعناه المبالغة في الفرع ، وإن تراعى من الروح ، وهو : الفرع . يذكُر تشجيعه نفسه وتعريفه إياها — بعد ما استشعرت الفرع — أن الأجل مُقدَّر وأن الزيادة لا تلحقه كما بين ذلك في البيت التالي . وأخو الخنع : الذليل ، والخنوع : الذلة ، ولا يكاد الخنوع يُستعمل إلا في ذلة في غير موضعها ، واليراع : القصبَةُ التي لا جوف لها ، والرجل الجبان لا قلب له ؛ فكأنه لا جوف له ، فوضع اليراع مكان الجبان ، لأنه بمعناه . والاعتباط : الموت من غير علة يقول : مَنْ لَمْ يَمُتْ شَابًّا مَاتَ هَرَمًا ، وبسأم : أى يسأم ما يعتريه من تكاليف

(١) فارس شاعر مشهور ، وشخصية ضخمة في الإسلام ، كان رأساً من رؤس الخوارج ، وسلم عليه بالخلافة ثلاث عشرة سنة .

الحياة ولا بُدَّ أن تُسَلِّمَهُ المنونُ يوماً إلى الانقطاع، أي لا بد في النهاية من الموت .

وقال نَحْمَرُ بنُ الإطنابة - شاعر جاهلي ، والإطنابة : أمه - :

أَبْتُ لِي عِفَّتِي وَأَبِي بِلَائِي وَأَخَذِي الْحَدَّ بِالثَّمَنِ الرِّيْحِ (١)

وإقدامي على المسكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح (٢)

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريجي (٣)

لأدفع عن مآثر صالحات وأحبي بعدد عن عرض صحيح.

يروى أن معاوية قال : اجعلوا الشعرَ أكبرَ همِّكم وأكثرَ آدابكم فإن

فيه مآثر أسلافكم ومواضع إرشادكم ، فلقد رأيتني ليلة الحرير وقد عزمتُ

على الفرار فما ردني إلا قولُ ابن الإطنابة ، وأنشد الأبيات .

وقيل لبعض بني المهلب : بمَ نِلْتُم ما نلْتُم ؟ قال : بصبر ساعة

(١) بلائي : بأسى في الحروب ، واستعار الثمن لما يبذله في المكارم على طريق

التصريح ، والرييح الزائد منه

(٢) وإقدامي يروى : وإجشامي ، ويروى بدل هذا السطر

« وإعطائي على الإعدام مالى »

والهامة : الرأس ، والمشيح : المبادر المنكش الجاد في القتال ،

(٣) وقولي كلما جشأت وجاشت يروى « وقولي كلما جشأت لنفسى »

وهي رواية جيدة ومعنى : جشأت وجاشت : كلما تطلعت ونهضت جزعا وفزعا وعن

بعضهم : جاشت نفسه : غثت أو دارت للغثيان : فإن أردت أنها ارتفعت من حزن

أو فزع قلت جشأت . ومكانك اسم فعل أى : الزمى يانفس مكانك يحمدك الناس

أن ظفرت أو تستريجي إن مت

الخدعة والحيلة والتحرز في الحرب

قال سيدنا رسول الله : (الحرب خدعة) « خُدْعَةٌ وَخُدْعَةٌ ، والفتح أفصح ، وخُدْعَةٌ مثل هَمْزَةٍ ، قال علماءنا : ورُوِيَ عن النبي صلى الله عليه وسلم : خُدْعَةٌ ، ومعناها : من خُدِعَ فيها خُدْعَةٌ فزَلَّتْ قَدَمُهُ وعَطِبَ فليس لها إقالة ؛ قال ابن الأثير : وخُدْعَةٌ . أفصح الروايات وأصحها ، ومن قال خُدْعَةٌ أراد . هي خُدِعَ ، كما يقال : رجلٌ لُعِنَ : يُلَعَنُ كثيراً ، وإذا خُدِعَ أَحَدُ الفريقين صاحِبُهُ في الحرب فكأنما خُدِعَت ؛ ومن قال : خُدْعَةٌ أراد أنها تُخَدَع أهلها ، كما قال عمرو بن مَعْدِيكَرِب ^(١)

الحربُ أولَ ما تكونُ فتيمةٌ تَسَعَى بِزِيَمَتِهَا لكلِّ جهول
حتى إذا استعرت وشبَّ ضرامُها

عادت عجزوا غيرَ ذاتِ خليلٍ

شمطاءً جَزَّتْ رأسها وتسكرت مكرهةً للشِّمِّ والتقبيلِ

وقالوا : إذا لم تغلب فاخلب « أى إذا أعياك الأمرُ بغالبةِ فاطلبه
تخادعة » .

وقال بعضهم : كُنْ بحيلتك أوثقْ منك بِشِدَّتِكَ ، وبخدرك أفرح

منك بِبِنَجْدَتِكَ ، فإن الحربَ حربٌ لِلْمُتَهَوِّرِ وَغَنِيمةٌ لِلْمُتَحَدِّرِ

وقالوا : حازمٌ في الحربِ خيرٌ من ألفِ فارسٍ ، لأن الفارسَ يَقْتُلُ

عشرةً وعشرين ، والهازمَ قد يَقْتُلُ جيشاً بِحِزْمِهِ وتدييره .

(١) هو الفارس المشهور صاحب الغارات والوفائع في الجاهلية والإسلام وهو

صحاح . رضى الله عنه .

وقالوا : القائد العظيم ينبغي أن تكون فيه خصال من أخلاق الحيوان :
شجاعة الديك ، وتحنن الدجاجة ، وقلب الأسد ، وحملة الخنزير ، وروغان
الثعلب ، وحنث الذئب ، وجمع الذرة ، وبكور الغراب .

وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه : عليكم في الحرب بالمكيدة فإنها
أبلغ من النجدة ... وسئل بعض أهل التمرس بالحروب : أى المكائد
فيها أحزم ؟ فقال : إذكاء العيون ، — بث الجواسيس — وإفشاء الغلبة
واستطلاع الأخبار ، وإظهار السرور ، وإماتة الفرق — الخوف —
والاحتراس من البطانة ، من غير إقصاء المستنصح ولا استنصاح
المستغش ، وإشغال الناس عما هم فيه من الحروب بغيره .

وكان مالك بن عبد الله الحنصلي وهو على الصافية — الجماعة تُقام
وتُصنف للحرب — يقوم في الناس — إذا أراد أن يرحل — فيحمد الله
ويثنى عليه ، ثم يقول : لئن دأرت بالغداة درب كذا : فيتفرق الجواسيس
عنه بذلك ، فإذا أصبح سلك بالناس طريقاً غيرها ، فكانت الروم تُسميه :
الثعلب ...

وقال حكيم : اللطف في الحيلة ، أجدى للوسيلة .

وقالوا : من لم يتأمل الأمر بعين عقله لم يقع سيف حيلته إلا على مقاتله
والثبت يُسهل طريق الرأي إلى الإصابة ، والعجلة تضمن العثرة .
« وبعد ، فإن هذا الباب متسع جداً ، ومن أحب التوسع فيه والوقوف
على أخبارهم في المكائد ، وأساليبهم العجيبة فيها فعليه بالموسوعات — مثل
نهاية الأرب للنويري ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، وبكتب التاريخ ،
فتلك مجالاتها .

ما ينبغي أن يتصف به

أمرأءُ الجيوش

من أجود ما قيل فيما ينبغي أن يتصف به أمرأءُ الجيوش قول لقيط
ابن يعمر الإيادي - وهو شاعر جاهلي قديم مُقلِّدٌ - كان كاتباً في ديوان
كسرى سابور بن هرمز الملقب بذي الأكتاف - وكانت إياد غلبوا على
سواد العراق ، وقتلوا من كان به من الفرس ، فلما بلغ خبرهم سابور أجمع
على غزو إياد فكتب إليهم لقيط قصيدة ينذر قومه غزو سابور إليهم ،
فوقع الكتاب بيد كسرى فقطع لسان لقيط وغزا إيادا وهي قصيدة جيدة
جداً يقول فيها :

أَبْلَغُ إِيَادًا وَخَلَّلٌ فِي سَرَاتِهِمْ إِنِّي أَرَى الرَّأْيَ إِنْ لَمْ أُعْصَ قَدَنْصَعًا^(١)
يَالْهَفَ نَفْسِي إِنْ كَانَتْ أُمُورُكُمْ شَيْئًا وَأُحْكِمَ أَمْرُ النَّاسِ فَاجْتَمَعَا
إِنِّي أَرَاكُمْ وَأَرْضًا تُعْجَبُونَ بِهَا مِثْلَ السَّفِينَةِ تَغْشَى الْوَعْثَ وَالطَّلَبَا^(٢)
أَلَا تَخَافُونَ قَوْمًا لَا أَبَالِكُمْ أَمَسُوا إِلَيْكُمْ كَأَمْثَالِ الدَّبَابِ سِرْعًا^(٣)

(١) خلل في سراتهم : خصص يقال : خلل في دعائه ، أي خصص ، قال :

كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَلَمْ تَكْ شَاهِدًا غَدَاةَ دَعَى الدَّاعِيَ فَعَمَّ وَخَلَّلَا
والسراة جمع سري ، وقيل : اسم جمع والجمع سرواء وأسرياء وهم الأشراف أو لولا
المروءة ، ونصحا : وضع من نصع اللون نصوعاً ونصاعة : اشتد بياضه

(٢) الوعث من الرمل : ما غابت فيه قوائم الدواب . والطبع في الأصل : ما يغشى
السيف من الصدأ ، استعاره لما يعلو الماء من الغناء والزبد ، شبه سرورهم وهم
بأرضهم غير مفكرين فيما يحوطها وفيما يحفظها من العدو بالسفينة تغشى - وهي سائرة -
ما يمنع حركتها ويصد جريتها

(٣) الدبى : الجراد قبل أن يطير ؛ وسرعا : مصدر سماعي لسرع سراعاً وسرعة :

أبناء قوم تآيؤكم على حنقي لا يشعرون أضل الله أم نقعا (١)
أحرار فارس أبناء الملوك لهم من الجوع جوع تزدهي القلعا (٢)
إلى أن يقول :

خزر عيونهم كأن أحظهم حريق غاب ترى منه السنأ قطعاً (٣)
لا الحرث يشغلهم بل لا يرون لهم من دون بيضتكم ريباً ولا شبعاً (٤)
وأتم تحرثون الأرض عن سقه في كل معتمل تبغون مزرعا (٥)
وتلبسون ثياب الأمن ضاحية لا تفزعون وهذا الليث قد جمعا (٦)

إذا عجل ، يريد : أمنوا مسرعين

(١) تآيؤكم : تعمدوكم وقصدوكم ، يقال : تآيئت بوزن تفاعله ، وتآيئته - بالتشديد - إذا تعمدت آيته ، وآيته : شخصه .

(٢) تزدهي : تستخف ، وقد زهاه زهواً وازدهاه : استخفه وتماون به . والقلع جمع قلعة - بالتحريك - : صخرة عظيمة صعبة المرتقى تتقلع عن الجبل

(٣) خزر عيونهم من الخزر - بالتحريك - وهو : ضيق الجفون لتحديد النظر ، والغاب جمع غابة وهي . أجمة القصب أو ذات الشجر المتكاتف ، سميت بذلك لأنها تغيب من فيها ، والسنا : ضوء النار ولعان البرق

(٤) بيضتكم : مجتمعتكم وموضع عزمكم ، على المثل بيضة الدجاجة إذا سلبت سلم ما فيها من طعم أو فرخ ، وفي الحديث : ولا تسلط عليهم عدواً فيستبيح بيضتهم ، يريد : موضع سلطانهم ومستقر عزمهم ، واستباحتها : استنصاها

(٥) معتمل : موضع احتمال ، وهو أن يعمل الرجل لنفسه كاختدم إذا خدم نفسه وأنشدوا :

إن الكريم وأبيك يعتمل إن لم يجد يوماً على من يتكل
و أراد من يتكل عليه فحذف عليه هذه وزاد على متقدمة أي أنه يعتمل إن لم يجد
من يتكل عليه

(٦) ضاحية : علانية

مالي أراكم نيباءاً في بلهنيّةٍ وقد ترون شهابَ الحربِ قد سَطَعَا (١)
 فاشْفُوا غليلي برأى منكم حصيدٍ يُصْبِحُ نَوَادِي له رِيَانٌ قد نَقَعَا (٢)
 ولا تكونوا كمن قد باتَ مُكْتَنِعَا إذا يُقَالُ له : اْفُرُجْ عُجْمَةً كُنَعْنَا (٣)
 يسعى ويحسب أن المالَ مُخْلِدُهُ إذا استفادَ طريقاً زادَه طَمَعَا (٤)
 فاقتنوا جِيادكمُ واحموا ذِمَارَكُمُ

واستشعروا الصبرَ لا تستشعروا الجرعا (٥)

إلى أن قال :

لا تألهكم إيلٌ ليست لكم إيلٌ إن العدوَّ يعظم منكم قرعاً (٦)
 لا تُثْمِرُوا المالَ الأعداءِ لهم إن يظهوروا يَحْتَوِكُمْ والبِلَادَ مَعَا

(١) بلهنية : رخاء وسعة عيش وغفلة من حوادث الدهر

(٢) الغليل في الاصل : شدة العطش وحرارته ، أراد : شدة الحزن وحرارته
 وحصد - بكسر الصاد - : محكم ، من الحصد - بالتحريك - وهو في الاصل : اشتداد
 قتل الحبال واستحكام الصناعة في الاوتار والدروع ، وكذلك رأى حصيداً مستحصداً ،
 ونقع الماء العطش : أذهب وسكته ، بحثهم على توحيد الرأي لا تختلف بهم الاهواء
 (٣) مكنتماً : منقبضاً مجتمعا ، وكنع الرجل : قبض واجتمع ، وقال ابن الاثير :
 جبن وهرب .

(٤) الطريف من المال : ما استطرفته واستحدثته كالطارف ، خلاف التليد
 والتلاد والتالد ، وهو : ما ورثته عن الآباء قديما

(٥) فاقتنوا جِيادكم : الزمواها ، والذمار : ما يلزم حفظه وحمايته من مال وأهل
 وعسيرة ، واستشعروا الصبر : مستعار من استشعر الثوب : لبسه على شعر جسده ،
 وهو الشعار دون الدثار ، يقول : وطنوا أنفسكم على الصبر ولا تضمروا الجزع
 في أنفسكم

(٦) إن العدو الخ يريد : إن قرع العدو عظمكم ، والقرع : الضرب ، كنى
 بذلك عن إذلالهم وإهانتهم

والله ما انفكت الأموال منذ أبدٍ لأهلها إن أصدبوا مرةً تبعاً
يا قوم إن لكم من إرث أولكم مجدداً قد آشفقت أن يفنى وينقطعاً
ماذا يرؤد عليكم عز أولكم إن ضاع آخره أو ذل واتسعا
يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً على ريسكم كسرسي وما جمعاً (١)
يا قوم بيضتكم لا تُفجعن بها إني أخاف عليها الأزلم الجدعا (٢)
هو الجلاء الذي يجتث أصلكم فمن رأى مثل ذا رأياً ومن سمعاً (٣)
قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا (٤)

ثم قال يصف أمير الجيش — وهو شاهدنا — :

وقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب، مضطلعا (٥)

- (١) غير - بضمين - جمع غير، من الغيرة وهي: الحمية والآنفة
(٢) تقدم معنى البيضة آنفاً، والأزلم الجذع في الأصل: الوعل، وهو تيس
الجيل، وذلك أن له زلمتين. وهما هنتان معلقتان في حلقه، وهو مادام حياً جذع
لا تسقط له سن. استعير ذلك للدهر الشديد، وذلك أن البلايا منوطة به تابعة له
وأنه باق على حاله لا يتغير على طول إناه كأنه فني لم تسقط له سن، ومن كلاهم:
أودى به الأزلم الجذع يريدون: أهلكه الدهر
(٣) يجتث أصلكم: يقتله ويستأصله، ومعنى اجتث في اللغة: أخذت جثته
(٤) أمشاط جمع مشط - بضم الميم - وهي: سلاميات ظهر القدم، وهي
العظام الرقاق المفترشة فوق القدم دون الأصابع، وقوله: ثم افزعوا يريد: هبوا
وانتبهوا كما يفزع النائم، وكأنه من الفزع - الخوف - لأن الذي يهب وينتبه لا يخلو
من فزع ما
(٥) رحب الذراع كناية عن إطاقته وسعة قوته، ومضطلع مفتعل من الضلعة
وهي قوة الأضلاع، وقد اضطلع بحمله: قوى عليه ونهض به

لا مُتَرَفًّا إِنْ رَعَاءُ الْعَيْشِ سَاعَدَهُ ولا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعَا^(١)
لا يُطْعَمُ النَّوْمُ إِلَّا رَيْثَ يَبْعَثُهُ هَمٌّ يَكَادُ شَبَاهُ يَفْصِمُ الضَّلْعَا^(٢)
مُسَهَّدُ النَّوْمِ تَعْنِيهِ أُمُورُكُمْ يرومُ منها إلى الأعداءِ مُطَاعَا
ما زال يحلبُ هذا الدهرَ أشطَرَهُ يكونُ مُتَّبِعًا طوراً ومُتَّبِعَا^(٣)
حتى استمترتْ على شَرِّ مَرِيرَتِهِ مُسْتَحْكِمِ الرَّأْيِ لا قَهْمًا ولا ضَرَعَا^(٤)
وليس يشغله مالٌ يُشْمَرُهُ عنكم ولا ولدٌ يَبْنِي له الرِّفْعَا

إلى أن قال :

(١) المترف : المتنعم المتوسع في ملاذ شهواته

(٢) ريث يبعثه : مقدار ما يبعثه ، يقول : لا يطعم النوم إلا يسيراً حتى يبعثه
الهم الماضي ، والشبا جمع شباة وهي حد كل شيء وطرفه كحد السيف والسنان ، تحيل
أن لهما حداً ، ويفصم من الفصم - بالفاء - وهو أن ينصدع الشيء من غير أن يبين
خلاف الفصم - بالقاف - وهو كسر الشيء الشديد حتى يبين ، والضلع والضلع لغتان
وهي : مخنية الجنب

(٣) يحلب هذا الدهر أشطره يريد : خبر ضروبه ، يعني أنه مر به خيره وشره
وشدته ورنخاؤه : تشبيهاً بحلب جميع أخلاف الناقة ما كان فيها حفلاً وغير حفلاً وداراً
وغير دار ، وأصله من أشطر الناقة ، ولها خلفان قادمان وآخران كأنه حلب القادمين
وهما الخير والآخرين وهما الشر ، وكل خلفين شطر ، وجعل الأشطر موضع - الشطرين
كما تجعل الحواجب موضع الحاجبين ، وقوله : يكون متبعاً طوراً ومتبعاً ، أى قد
اتبع الناس فعلم ما يصلح به أمر الناس ، واتبع فعلم ما يصلح الرئيس ، كما قال عمر بن
الخطاب رضى الله عنه : قد أنا وإبل علينا ، أى : سسنا وسس علينا فأصلحنا أمور
الناس وأصلحت أمورنا ، وكل ذلك كناية عن جودة الرأى وإحكام الأمر

(٤) المريرة من الحبل : ما طال واشتد فتله والجمع المرائر ، واستمرت : استحكمت
والشزر : الفتل ، ضرب ذلك مثلاً لاستجماع قوته واستحكام عزمته ، والقهم : الكبير
المسن ، والضرع هنا : الصغير السن الضعيف

لقد بَدَلْتُ لَكُمْ نُصِيحِي بِلا دَخَلٍ . فَاسْتَيْقِظُوا إِن خَيْرِ الْعِلْمِ مَا نَفَعَا
 هَذَا كِتَابِي إِلَيْكُمْ وَالنَّذِيرُ لَكُمْ لِمَنْ رَأَى رَأْيَهُ مِنْكُمْ وَمَنْ سَمِعَا
 وَلِما أَوْفَدَ الْمُهَاجِرُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ كَعْبَ بْنَ مَعْدَانَ الْأَشْقرِيَّ حِينَ
 هَزَمَ عَبْدَ رَبِيهِ الْأَصْغَرَ وَأَجَلِيَّ قَطْرِيَّ بِنَ الْفُجَاءَةِ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ كِرِمَانَ
 نَحْوِ أَرْضِ خِرَاسَانَ إِلَى الْحِجَاجِ بْنِ يَوْسُفَ ، قَالَ لَهُ الْحِجَاجُ : كَيْفَ كَانَتْ
 مُحَارَبَةُ الْمُهَاجِرِ لِلْقَوْمِ ؟ قَالَ : كَانَ إِذَا وَجَدَ الْفُرْصَةَ سَارَ كَمَا يُسُورُ اللَّيْثَ ،^(١)
 وَإِذَا دَهَمَتْهُ الطَّخِمَةُ^(٢) رَاعَى كَمَا يَرُوعُ الثَّلَبُ ، وَإِذَا مَادَهُ الْقَوْمُ صَبَرَ صَبْرَ
 الدَّهْرِ . قَالَ : وَكَيْفَ كَانَ فِيكُمْ ؟ قَالَ : كَانَ لَنَا مِنْهُ إِشْفَاقُ الْوَالِدِ الْحَدِيبِ
 وَلَهُ مَنَاطَعَةُ الْوَالِدِ الْبَرِّ . قَالَ : وَكَيْفَ أَفْلَيْتُمْ قَطْرِيَّ ؟ قَالَ : كَادَنَا يَبْعُضُ
 مَا كَدَنَاهُ بِهِ ، وَالْأَجَلَ أَحْصَنُ جُنَّةً وَأَنْفَذُ عُدَّةً . قَالَ : فَكَيْفَ اتَّبَعْتُمْ
 عَبْدَ رَبِيهِ وَتَرَكْتُمُوهُ ؟ قَالَ آثَرْنَا الْحَدَّ عَلَى الْفَلِّ^(٣) ، وَكَانَتْ سَلَامَةُ الْجُنْدِ
 أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ شَجَبِ الْعَدُوِّ^(٤) . فَقَالَ لَهُ الْحِجَاجُ : أَكُنْتَ أَعَدَدْتَ هَذَا
 الْجَوَابَ قَبْلَ لِقَائِي ؟ قَالَ : لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ...

حشهم على التفكير قبل التقدم

قالوا : من قاتل بغير نجدة ، وخاصم بغير حجة ، وصارع بغير قوة
 فقد أعظم الخطر ، وأكبر الفرر ... الفرر : الخطر ،

(١) سار : وثب وثار

(٢) الطخمة : جماعة الناس ، يربد جند العدو

(٣) الفل : القوم المنهزمون

(٤) الشجب : الهلاك

وقالوا :

إذا ما أردت الأمر فأذرعهُ كُلَّهُ وقِسهُ قِياسَ الثَّوبِ قبلَ التَّمَدُّمِ
لعلَّكَ تنجُو سالماً من نَدَامَةٍ فلا خَيرَ في أمرٍ أتى بالتَّنَدُّمِ

من يؤثر الموت في العز

على الحياة في الذل

قال المتنبي :

عِشْ عَزيزاً أومُتْ وَأَنتَ كَرِيمٌ بَينَ طَعنِ القِنا وَخَفَقِ البَنودِ
فُرُوسُ الرِّماحِ أَذْهَبُ لِلغَيبِ يَظِ وَأُشَقُّ لِغَلِّ صَدْرِ الحَقودِ
لَا كَما قَدِ حَييتَ غَيرَ حَميدِ وَإِذا مُتَّ مُتَّ غَيرَ فَقيدِ
فَاظَلِّبِ العِزَّ في لَظَى وَدَرِ الذِّ لَّ وَلو كانَ في جِنانِ الخُلودِ

وقال أبو تمام :

يَرى العَلَمُ المَأدومَ بِالعِزِّ أَرِيَّةً يَمَانِيَّةً وَالأَرِيَّ بِالضَّيْمِ عَلَمًا^(١)
وَنظَرَ عبدَ اللَّهِ بنَ عَلي العِبايِّ إلى قَتَى عَليه أِبْهَئَةُ الشَّرَفِ وَهُوَ يقاتِلُ
مُسْتَبْسِلًا^(٢) ، فناداهُ : يا قَتَى ، لَكَ الأمانُ وَلو كَنتَ مَرُوانَ بنَ مُحَمَّدٍ - آخِرُ
الدولةِ الأُمويَّةِ - فقالَ : إَلا أَكُنُّهُ ، فَلستُ بِدُونِهِ ، قالَ : فَلكَ الأمانُ
مَنْ كَنتَ ؛ فَأطرقَ ثُمَّ قالَ :

(١) المأدوم: المخلوط، والأرية: واحد الأري، وهو: العسل، وقلباتستعمل
واحدة، ووصفها باليمانية لأن النحل تعسل في جبال الشراة وهي باليمن
(٢) المستبسِل الذي يطرح نفسه في الحرب: يريد أن يقتل أو يقتل لا محالة

أُذِلَّ الحَيَاةِ وَكُرُوهَ المَآتِ وَكُلًّا أَرَاهُ طَعَامًا وَبَيْلًا
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرُ إِحْدَاهُمَا فَسِيرًا إِلَى المَوْتِ سِيرًا جَمِيلًا
ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ؛ قَالَ : فَإِذَا هُوَ ابْنُ لَمَسَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ
مِرْوَانَ .

نهيهم عن مخافة القتل

وحثهم على تصور الموت

وتمدحهم بذلك

قيل لعلي بن أبي طالب : أُنْقَاتِلُ أَهْلَ الشَّامِ بِالْغَدَاةِ وَتَظْهَرُ بِالعَشِيِّ .
فِي ثُوبٍ وَرَدَاءٍ ؟ فَقَالَ : أَبِالمَوْتِ أَخَوَفُ اللهُ ، مَا أَبَالِي أَسَقَطْتُ عَلَى
المَوْتِ أَمْ سَقَطَ المَوْتُ عَلَى أَوْ كَثِيرًا مَا كَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِتَمَثُّلِ :
أَيُّ يَوْمِي مِنَ المَوْتِ أَفْزَرُ يَوْمَ لَمْ يُقَدَّرْ أَمْ يَوْمَ قُدِرَ (١)

(١) هذا البيت من أبيات نسبه السيوطي في شواهد المغني لشاعر اسمه الحارث
ابن منذر الجرمي ونسبها ابن سيده - اللسان مادة عفر - لشاعر آخر اسمه ضباب بن
واقد الطهوي وقد أورد السيوطي بعده هذه الأبيات :

إِنَّ أَخَوَالِي جَمِيعًا مِنْ شَقِيرٍ كَبِسُوا لِي عَمَسًا جِلْدَ النَّمِيرِ
تَحْتَوُوا أَنْزَلْتَنَا بَغِيًّا وَلَمْ يَرَهُبُوا غَبَّ الوَبَالِ المُسْتَعْرِ
فَلَمَّا بَدَأَ طَاطَأْتُ فِي قَتْلِهِمْ لَتَهَاضَى عِظَامِي عَنْ عَضْرِ
وَلَمَّا غَادَرْتُهُمْ فِي وَرْطَةِ لِاصِيرِنُ نَهَزَةَ الذَّنْبُ القَفِيرِ
وَلَمَّا أَعْرَضْتُ عَنْهُمْ بَعْدَمَا أَوْهَنْتَنِي لِتُصِيبَنِي بِقُسْرِ

.أورد ابن هشام وغيره هذا البيت هكذا :

يَوْمَ لَمْ يُقَدَّرَ لَا أَرْهَبُهُ وَمِنَ الْمَقْدُورِ لَا يُنَجِّي الْحَذَرُ
وقال المتنبي :

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرِّفِ مَرُومٍ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ صَغِيرٍ كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ
« يقول : إذا حاولت الشرف وخاطرت بنفسك في سبيل الحصول
عليه فلا تقنع بما دون أعلاه ، ولا ترخص باليسير منه ، فإن طعم
الموت في الأمر الهين كطعمه في الأمر الصعب ، وإذن فلا سبيل للغامر
إلا أن يقصد إلى أسهى الأمور »
وقال :

رَى الْجُبْنَاءُ أَنَّ الْعَجْزَ عَقْلٌ وَتِلْكَ حَٰدِئَةُ الطَّبَعِ اللَّئِيمِ

في أى يومى من الموت أفر أى يوم لم يُقدَّر أم يوم تُدر
بفتح راء يقدر شاهد على أن لم قد ينصب بها المضارع في لغة وأورد ابن هشام كلاماً لأئمة
النحاة في تخريج البيت على نصب يقدر « راجعه في المعنى في الكلام على لم ، وفي اللسان
مادة قدر ، والآن لنشرح هذه الآيات الجميلة فنقول : قوله : لبسوا لى عمساً جلد
النمر ، فالعمس : الشدة يقول : أبطنوا لى العداوة ، وأئمة كل شىء : أصله ، ويقال :
فلان ينحت أثلتا : إذا قال في حسبه قبيحاً ، وطأطأ في قتلهم : أسرع واشتد ، وقوله
* لثماض عظامى عن عفر *

أى : عن بعد من أخوال لأنهم وإن كانوا أقرباء فليسوا في القرب مثل الأعمام ، والورطة
الامر تقع فيه من هلكة وغيرها أو هى الهلكة ، ونهزة : أى صيد وفي الأصل :
اسم للشىء الذى هو لك معرض كالغنيمة ، والفرصة تجدها من صاحبك ويقال :
نهزة المختلس أى : هو صيد لكل أحد ، والذئب القفر : المنسوب إلى القفر - المفازة
لانبات بها ولا ماء - وقوله : لتصينى بقر فإنه يقال للشدة إذا نزلت : صارت بقر
أى : صارت الشدة في قرارها ، وقال أبو عبيد : إنما هو مثل ، وربما قالوا : وقعت
بقر . وقال ثعلب معناه : وقعت في الموضع الذى ينبغى

وقال : من قطعة جيدة نوردها كُفَّها لبراعتها :
 صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّيْمَانِ وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَيْنَانَا
 وَتَوَلَّوْا بِفُصَّةٍ كُلُّهُمْ مِنْهُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضَهُمْ أَحْيَانَا
 رَبَّمَا يُحْسِنُ الصَّنِيعَ لِيَالِيهِ هـ وَلَكِنْ تُسَكِّدُرُ الْإِحْسَانَ
 وَكَأَنَّمْ يَرِضُ فَيُنَابِرِيبُ الدَّهْرَ رَحَى أَعَانَهُ مِنْ أَعَانَا (١)
 كُلَّمَا أَنْبَتَ الزَّمَانُ قَنَاةً رَكَّبَ الْمَرْءُ فِي الْقَنَاةِ سِنَانَا (٢)
 وَمُرَادُ النَّفْوِسِ أَصْغَرَ مِنْ أَنْ تَتَعَادَى فِيهِ وَأَنْ نَتَفَانَا
 غَيْرَ أَنْ الْفَتَى يَلِاقِي الْمَنَائِي كَالْحِلَاتِ وَلَا يُلَاقِي الْهَوَانَا (٣)
 وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبَقَى لِحَيِّ لَعَدَدْنَا أَضْلُنَا الشُّجْعَانَا (٤)
 وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدْ فَمِنَ الْعَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانَا (٥)

(١) في د يرض ، ضمير هو فاعل يرض يفسره د من أعانا ، وأضمره قبل الذكر على شريطة التفسير ، أو تقول : إن د من أعانا ، فاعل يرض وأعانه على التنازع ، يقول : هذا الذي أعان على الدهر كأنه لم يرض بما يصيبني من محنه حتى أعانه على كما قال الآخر :

أَعَانَ عَلَى الدَّهْرِ إِذْ حَكَ بَرَكَةٌ كَفَى الدَّهْرُ لَوْ وَكَلَّمْتُهُ بِي كَافِيَا

و البرك : كمثل البعير و صدره الذي يدوك به الشيء تحته ،

(٢) القناة : عودالريح ، والسنان : زجه الذي يطعن به يقول : إذا انتدب الزمان للإساءة بما جبل عليه صارت عداوة المعادى مدداً لقصدته نحوك ، فجعل القناة مثلاً لما في طبع الزمان وجعل السنان مثلاً للعداوة
 (٣) كالحات : عابسات .

(٤ و٥) يقول : لو كانت الحياة باقية لكان الشجاع الذي يتعرض للقتل أضل الناس ، يعني أن الحياة فانية وإن جبن الإنسان ولزم عمر داره وحرص على البقاء ثم أكد هذا بالبيت التالي يقول : إذا كان الموت لا يحيص عنه ولا ينجو منه شجاع ولا جبان فإن الجبن يكون من ضعف الهمة وعجزها .

كُلُّ مَالٍ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي الْإِنْفِ

س سهلٌ فيها إذا هو كانا ^(١)

وبعثت بنو حنيفة بالفند الزماني ^(٢) حين طلبت بكر بن وائل إليهم
يستنصرونهم، وقالوا - بنو حنيفة - : قد بعثنا إليكم ألف فارس - وكان
يقال له : عديد الألف - فلما ورد قالوا له : أين الألف ؟ قال : أنا ، فلما
كان الغد وبرزوا حمل على ألف فارس مُردِّفٍ فانتظمهم ...

(١) كل : مبتدأ ومن الصعب خبرها وسهل خبر ثان ويكن تامة وكذا وكانا ،
يقول : إنما يصعب الأمر على النفس قبل وقوعه فإذا وقع سهل وهان كما قال
البحرئى :

لَعَمْرُكَ مَا الْمَسْكُورَةُ إِلَّا ارْتِقَابُهُ وَأَبْرُحٌ مِمَّا حَلَّ مَا يُتَوَقَّعُ

(٢) الفند الزماني - واسمه شهل بن شيبان بن ربيعة ... بن بكر بن وائل - شاعر
جاهلي قديم ، وفارس من فرسان ربيعة المشهورين المعدودين ، شهد حرب بكر وتغلب
وهو صاحب هذه الأبيات الحماسية المشهورة ، قالها في حرب البسوس وإنما لنوردها
هنا على شهرتها :

صفحتنا عن بني ذهل	وقلنا : القوم إخوان
عسى الأيام أن يرجع	من قوماً كالذي كانوا
فلما صرح الشر	فأمسى وهو عريان
ولم يبق سوى العدو	ن دناهم كما دانوا
مسيننا مشية الليث	غدا والليث غضبان
بضرب فيه توهين	وتخضيع وإقران
وطعن كغم الزق	غدا والزق ملان
وبعض الحلم عند الجه	ل للذلة إذعان

.....

وفي الشر نجاسة ح بين لا يُنجيك إحسانُ

والصفح : العفو ، ويقال : أعرضت عن هذا الأمر صفحا : إذا تركته ، ويقال : أصفحت عنه كما يقال : أضربت عنه ، ويقال : أبدى لي صفحته : إذا أمكنك من نفسه يقول : صفحتنا عنهم فلم نؤاخذهم بما كان منهم لأنهم إخواننا عطفتنا عليهم الرحم . ويرجعن : يرددن ، يقال رجح فلان ورجعت فلانا يقول : صفحتنا عنهم للرحم فعسى أن تردم الأيام إلى ما كانوا عليه من قبل من التواتر . وصرح البشر : انكشف ويقال صرح الشيء : إذا كشفه وصرح هو ، كما تقول : بين الشيء وبين هو : أى تبين وقيل : صرح : خلص ، شبهه باللبن الصريح وهو الذى قد ذهب رغوته وإذا ذهب الرغوة فاللبن عريان ، وقوله : فأسمى وهو عريان : أى منكشف لاستردونه ، ويروى : فأضحى ، بدل فأسمى ، وهو أحسن وإن كان أصبح وأمسى وأضحى وظل يراد بها فى مثل هذا الموضع معنى صار . وقوله : دناهم كما دانوا : جواب لما فى قوله : فلما صرح الشر : أى فعلنا بهم مثل فعلهم بنا . يقول : صفحتنا عنهم وقعدنا عن ضربهم وذكرنا الرحم والقراية بيننا وظننا أن حالهم ترجع إلى الحسنى فلما أبوا إلا الشر ركبناه معهم وقوله : مشينا مشية الليث يروى :

• شددنا شدة الليث • وعلى هذه الرواية يكون عدا بدل غدا وتوهين تفعيل من الوهن وهو الضعف ، ونخضيع تفعيل من الخضوع وهو الذل والاقران : اللين والاسترخاء ، والباء فى بضرب تتعلق بمشينا أى مشينا بضرب فى ذلك الضرب تضعيف للبضروب وتذليل ، قال بعض النقاد . والأجود أن يقول ما معناه : بضرب يفلق الهام ويبر العظم مثلا فأما أن يقول : ضرب يوهى ويرخى فإن أدنى الضرب يوجب هذا ، وإذن فمن الجائز أن يكون المعنى : فيه توهين وصوت فى القطع وكسر العظام ويكون معنى إقران : غلبة أو مواصلة لا فتور فيها ويكون تخضيع من الخضعة وهو اختلاط الصوت فى الحرب ، ويروى البيت :

بِضْرَبٍ فِيهِ تَفْجِيعٌ وَتَأْيِيمٌ وَإِرْتَانٌ

أى يفجع الأخ بالأخ والولد بالوالد ، والتأيم قتل الأزواج ، والإرتان : من الرنين وهو رفع الصوت بالبكاء . وغدا بالذال المعجمة : سال وصف الطعن بالسعة وذكر أن الدم يسيل من موضع الطعنة كما يسيل الماء من قم القرية

الجود بالنفس

وحب الموت في الوغى
وأنفتَهُمْ من الموت على الفراش

قال أبو تمام :

يُسْتَعْدِبُونَ مَنَايَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَأْسُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قَتَلُوا

وقال :

وَحَنَّ لِلْمَوْتِ حَتَّى ظَنَّ مُبْصِرُهُ كَأَنَّهُ حَنَّ مُشْتَاقًا إِلَى وَطَنِ
لَوْ لَمْ يَمُتْ تَحْتَ أَسْيَافِ الْعِدَا كَرَمًا
لَمَاتَ إِذْ لَمْ يَمُتْ مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ

وقال :

قَوْمٌ إِذَا لَبَسُوا الْحَدِيدَ حَسِبْتَهُمْ لَمْ يَحْسَبُوا أَنَّ الْمَنِيَّةَ مُخَاقٌ
انظُرْ بِحَيْثُ تَرَى السُّيُوفَ لَوَاعِمًا أبدأً وَفَوْقَ رُؤُسِهِمْ تَتَأَقُّ

وقال بشامة بن حزن النهشلي :

إِنَّا لَنُرْخِصُ يَوْمَ الرُّوعِ أَنْفُسَنَا وَلَوْ نُسَامُ بِهَا فِي الْأَمْنِ أَغْلَيْنَا (١)

(١) يقول : إذا كان يوم الروع تقدمنا للقضاء ، فإن ذهبنا ذهبنا وخيصة
لأننا بذلناها بالاندام ولم نمنعها بالإحجام ، وإكها يوم الأمن غالية ، والائف في
وأغلينا : للاطلاق ، والنون ضمير النفس ، ومعنى أغلين وجدت غالية وليس يريد أنهم
مع الغلام يمكنون منها بل المراد قطع المقدره عنها كما قال القائل :

نُعْرَضُ لِلْسُّيُوفِ إِذَا التَّقَيْنَا نَفُوسًا لَا نُعْرَضُ لِلْسَّبَابِ

وكما قال الأجدع والدمسوق للفتية .

وقال عبد الله بن محمد بن أبي عيينة بن المهلب بن أبي صفرة :
 ولأني من قوم كأن أنفسهم بها أتفت أن تسكن اللحم والدم
 وقال عبد الملك بن عبد الرحيم الخارثي — شاعر إسلامي — :^(١)
 ومامات منا سيد حتف أنفه ولا طل يوماً حيث كان قتيل^(٢)

لقد عيّلت نسوان همدان أوت

لهن عداة الروع غير بدول

وأبدل في الهيجاء وجهي ولأني له في سوى الهيجاء غير بدول

(١) تروى هذه الآيات للسموأل بن عادي اليهودي الجاهلي ، قال الخطيب
 التبريزي : وإذا كانت هذه الآيات جاهلية - أي للسموأل - فتروى :
 • ومامات مناسيد في فراشه •

أي بدل • ومامات مناسيد حتف أنفه • أي لأن النبي صلى الله عليه
 وسلم هو أول من قال : مات حتف أنفه

(٢) قلنا : إن أول من قال : حتف أنفه هو سيدنا رسول الله ، قال ابن الأثير :
 هو أن يموت على فراشه ، كأنه سقط لأنه فات ، والحتف : الهلاك ، قال : كانوا
 يتخيّلون أن روح المريض تخرج من أنفه ، فإن جرح خرجت من جراحته ؛ وعبارة
 غير ابن الأثير كما في اللسان : إنما قيل للذي يموت على فراشه : مات حتف أنفه
 — ويقال : مات حتف أنفه — لأن نفسه تخرج بنفسه من فيه وأنفه ، قال : ويقال
 أيضاً : مات حتف فيه ، ومن قال : حتف أنفه أراد سمي أنفه وهما : منخراه ، ويحتمل
 أن يراد : أنفه وفمه ، فغلب أحد الاسمين على الآخر ، وعبارة الخطيب التبريزي :
 والمعنى : كان حتفه - أي هلاكه - بأنفه ، أي بالانفاس التي خرجت من أنفه عند
 نزوع الروح ، لا دفعة واحدة ، قال : ويقال : خص الانف بذلك لأنه من جهته
 يتقضى الرمق وقوله :

• ولا طل يوماً حيث كان قتيل •

فانه يقال : طل دمه : إذا بطل ولم يطلب به يقول : لا يبطل دم قتيل منا وحاصل

تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الظُّبَاتِ نَفُوسَنَا وَأَيَّسَتْ عَلَى غَيْرِ الظُّبَاتِ تَسِيلٌ^(١)
وقال عنتره :

بِكَّرْتُ مُتَخَوِّفِي الخُتُوفِ كَأَنِّي أَصْبَحْتُ عَنْ عَرَضِ الخُتُوفِ بِمَعزِلِ
فَأَجِبْتُهَا : إن المنيّة مَنْهَلٌ لا بُدَّ أَنْ أُسْقَى بِكأسِ المَنْهَلِ
فَأَنَّى حَيَاءَكَ لا أَبَالِكَ وَأَعْلَمِي أَنِّي امرؤٌ سأءوت إن لم أُقْتَلِ
إن المنيّة لو تُمَثَّلُ مُثَلَّتْ مِثْلِي إذا نزلوا بَصْنِكَ المَنْزِلِ
« الختوف : المكاره والمآلف ، و « عن عرض » أى ما يعرض منها
وبمعزل ، أى فى ناحية منعزلة عن ذلك ، و : منهل : مورد ، وقوله :
فَأَنَّى حَيَاءَكَ ، أى احفظيه ولا تُضيعيه ، والضمنك : الضيق يقول : إن
المنيّة لو حُلِقَتْ مِثَالاً لكانت فى مِثْلِ صورتي ...

وقال خالد بن الوليد وهو فى مرض الموت : لقد آقيتُ كذا وكذا
زَحْفًا ، وما فى جسدى موضعُ شِبْرٍ إلا وفيه طَعْنَةٌ أو ضربةٌ أو رميةٌ ،
ثم دا أنا ذا أموت على فراشى حتف أنفى ! فلا نامت أعينُ الجبناء ...
« وقد تقدم ذلك »

وقال المفضل بن المهلب بن أبي صفرة :

معنى البيت : نحن لانهوت ولكن نقتل ، ودم القتيل منالايبطل
(١) نفوسنا : أرواحنا أو دماؤنا ، والظبات جمع ظبة : وهى حد السيف وفى
إضافة الحد إلى الظبات إما أن يكون المراد بالظبات السيوف كلها ثم أضاف الحد
إليها وأما أن تكون إضافة الحد إلى الظبات من إضافة البعض إلى الكل ويكون
التقدير : يسيل على الحد من الظبات وتكون الظبات مضارب السيوف ، والمصراع
الأول يدل على الشجاعة والثانى على العز والمنعة

هَلِ الْجُودُ إِلَّا أَنْ تَجُودَ بَأَنْفُسٍ عَلَى كُلِّ مَاضِي الشَّفَرِ تَيْنِ قِضِيبِ
 وَمَنْ هَرَّ أَطْرَافَ الْقَنَاخَشِيَّةِ الرَّذَى فَالَيْسَ لِمَجْدٍ صَالِحٍ بِكَسُوبِ
 وَمَاهِي إِلَّا رَقْدَةٌ تُورِثُ الْعَلَى لِرَهْطِكَ مَاخَنَتْ رَوَائِمُ نَيْبِ

« هر أطراف القنا يقال : هر الشيء يهر - بالكسر والضم - هراً
 وهريراً : كرهه يقال : هر فلان الكأس والحرب هريراً : أى كرهها قال
 عنتره :

حَلَفْنَا لَهُمْ وَالْحَيْلُ تُرْدِي بِنَامِعًا نُزَايِلِكُمْ حَتَّى تَهْرُوا الْعَوَالِيَا (١)
 عَوَالِي زُرْقًا مِنْ رِمَاحِ رُدَيْنَةٍ هَرِيرِ الْكِلَابِ يَتَّقِينَ الْأَفَاعِيَا

وقوله : وماهى إلا رقدة ... البيت قال المبرد : مأخوذ من قول
 أخيه يزيد بن المهلب ، وذلك أنه قال فى يوم العقر ، وهو اليوم الذى
 قُتِلَ فِيهِ - : قَاتَلَ اللَّهُ ابْنَ الْأَشْعَثِ - عبد الرحمن بن الأشعث -
 مَا كَانَ عَلَيْهِ لَوْ غَمَضَ عَيْنَيْهِ سَاعَةً لِلْبُوتِ وَلَمْ يَكُنْ قَتِيلَ نَفْسِهِ ... وذلك
 أَنَّ ابْنَ الْأَشْعَثِ قَامَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ فِي سَطْحِ اللَّبُولِ ، فزعموا أنه رَدَى
 نَفْسَهُ ، وَغَيْرُ أَهْلِ هَذَا الْقَوْلِ يَقُولُونَ : بَلْ سَقَطَ مِنْهُ بِسِنَّةِ النَّوْمِ . وقوله
 تُورِثُ الْعَلَى لِرَهْطِكَ ، فالمعنى : تورث العلى رهطك ؛ ومنله قوله تعالى :
 (إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْبَا تَعْبُرُونَ) والنَّيْبُ جَمْعُ نَابٍ وَهِيَ : الْمُسْتَهْ مِنْ الْإِبْلِ
 سَمَّوْهَا بِذَلِكَ حِينَ طَالَ نَابُهَا وَعَظُمَ ، وَالرَّوَائِمُ : الْعَاطِفَاتُ عَلَى أَوْلَادِهَا ۝

(١) الرديان : ضرب من السير وهو أن يرحم الفرس الأرض رجماً بحوافره
 من شدة العدو ، وقوله : نزايلكم دو جواب القسم أى لانزايلكم فخذف لا على
 حد قولهم نالته أبرح قاعداً : أى لا أبرح ، ونزايلكم : نبارحكم يقال : ما زايلته : أى
 ما بارحته ، والعوالى جمع عالية : الرمح رهى مادون السنن بقدر ذراع

من يخوض الحرب لا بُدَّ أن يُوطن نفسه على الموت

قالت الخنساء :

ومن ظنَّ من يُلاقى الحروب بأن لا يصاب فقد ظنَّ عجزاً
وقالوا : * إنَّ الشجاعة مقرون بها العَطْبُ * (١)
وقال تابط شراً من أبيات اختارها أبو تمام في حماسته :
ومن يُغزَّ بالاعداء لا بُدَّ أنَّهُ سَيَلْقَى بهم من مَضْرَعِ الموتِ مَضْرَعاً

في القتل حياة

قال المهلب بنُ أبي صُفرة : ليس شيء أنتمى من سيف ! ولقد صدق
فما نال السيف أنتمى عدداً وأكرم ولداً من ولد المهلب ... وقال الحجاج
لا امرأة من الخوارج : والله لأحصدنكم حصداً ، فقالت : أنت تحصد
والله يزرع ، فانظر أين قُدرة المخلوق مع قدرة الخالق !
ومما يصح أن يورد هنا وإن كان من وادٍ آخر قوله تعالى : « ولكم

(١) من أبيات لشاعر جبان يكنى أبا الغمر :

أضحت تُشجِّعني هندٌ وقد علمت أن الشجاعة مقرون بها العَطْبُ
لا والذي منَع الأَبصارَ رُؤْيَتَهُ ما يَشْتَهِي الموت عندى من له أَرْبُ
لِلْحَرْبِ قَوْمٌ أَضَلَّ اللهُ سَعْيَهُمْ إذا دَعَتهم إلى نيرانها وثبوا
ولمستُ منهم ولا أبغى فِعَالَهُمْ لا القتلُ يُعْجِبني منها ولا السلبُ

في القصاص حياةً يا أولى الألباب ، (١)

تأثير الخوف والخوف منه

والموفى على الجماعة

قيل لعلي بن أبي طالب : بِمَ غَلَبْتَ الأقران ؟ قال : بِتَمَكُّنِ هَيْبَتِي فِي قُلُوبِهِمْ ... وَبَعَثَ أَمِيرٌ فِي طَلَبِ قَوْمِ رَجُلًا ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِرَجُلٍ أَطْوَلَ مَا يَكُونُ ، فَقَالَ : كَيْفَ تَمَكَّنْتَ مِنْهُ ؟ فَقَالَ : وَقَعَ فِي قَلْبِي أَنْ أَخْذَهُ ، وَقَعَ فِي قَلْبِهِ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ ، فَنَصَرَنِي عَلَيْهِ خَوْفُهُ وَجُرَأَتِي ... وَنَظَرَ رَجُلٌ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَقَدْ شَتَّى العسْكَرَ ، فَقَالَ : قَدْ عَمِلْتُ أَنْ مَلَكَ المَوْتِ فِي الجَانِبِ الَّذِي فِيهِ عَلِيٌّ .

ومن المأثور عن المصطفى صلوات الله عليه قوله : « نَصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ » ... قَالَ ابْنُ الأَثِيرِ : كَانَ أَعْدَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَوْقَعَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمُ الخَوْفَ مِنْهُ ، فَإِذَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مَسِيرَةَ شَهْرٍ هَابُوهُ وَفَزِعُوا مِنْهُ .

(١) قال الزمخشري : كلام فصيح لما فيه من الغرابة ، وهو أن القصاص قتل وتفويت للحياة وقد جعل مكانا وظرفا للحياة ، ومن إصابة محر البلاغة بتعريف القصاص وتنكير الحياة لأن المعنى : ولكم في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة ، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة ، وهم قتل مهلهل بأخيه كليب حتى كاد يفنى بكر بن وائل وكان يقتل بالمتقول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع بينهم التناحر ، فلما جاء الإسلام شرع القصاص كانت فيه حياة أي حياة ، أو نوع من الحياة وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاقصاص من القاتل ، لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص منه فارتدع سلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود فكان القصاص سبب حياة نفسين ...

وقال المتنبي : * وَيَسْتَعْظُمُونَ الْمَوْتَ وَالْمَوْتَ خَادِمُهُ *
 وقال سلم الخاسر : * كَأَنَّ الْمَنَايَا جَارِيَاتٌ بِأَمْرِهِ *
 وقال الفرزدق :

تَسَلَّطَ السَّيْفُ مِنْ شَمُوقِي إِلَى أَنْسِ

فَالْمَوْتُ يَلْحَظُ وَالْإِقْدَارُ تَلْتَضِرُّ

أَظْلَهُ مِنْكَ حَتْفٌ قَدْ تَجَلَّاهُ حَتَّى يُؤَامِرَ فِيهِ رَأْيِكَ الْقَدْرُ (١)

وقيل الأسكندر : إن في عسكر دارا ألف مقاتل ، فقال : إن القصاب

الحاذق وإن كان واحداً لا يهوله كثرة الغنم... وقال شاعر :

فَوَاحِدُهُمْ كَالْأَلْفِ بِأَسَاءٍ وَنِجْدَةٍ وَالْفُهُمُ لِلْعُجْمِ وَالْعُرْبُ قَاهِرٌ

وقال أبو تمام يمدح أبا سعيد الطائي ويذكر ما صنع بالخرميمة :

أَقِيَّتَهُمْ وَالْمَنَايَا غَيْرُ دَافِعَةٍ لِمَا أَمَرَتْ بِهِ وَالْمُلْتَقَى كَبِدٌ (٢)

في موقفٍ وَقَفَ الْمَوْتُ الزُّوَامُ بِهِ

فَالْمَجْدُ يُوَجِّدُ وَالْأَرْوَاحُ تُفْتَقِدُ (٣)

مُسْتَضِحِبًا نِيَّةً قَدْ طَالَمَا ضَمِنَتْ لَكَ الْخُطُوبَ فَأَوْفَتْ بِالذِي تَعِدُ

وَرُحْبَ صَدْرٍ لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ وَاسِعَةٌ

كَوَسْعِهِ لَمْ يَضُقْ عَنْ أَهْلِهِ بَلَدٌ (٤)

صَدَعَتْ جَرِيَّتَهُمْ فِي عُصْبَةِ قُلُوبِ

قَدْ صَرَّحَ الْمَاءُ عَنْهَا وَأَنْجَلَى الزُّبْدُ

(١) يؤامره : يشاوره فيأتمر وينفذ رأيه ويروى بدل رأيك : ربه

(٢) الكبدة : الشدة والمشقة

(٣) الزوام : الكريه أو السريع

(٤) رحب صدر : سعة صدر

مِنْ كُلِّ أَرْوَغٍ تَرْتَاغِ الْمَنُونِ لَهُ

إِذَا تَجَرَّدَ، لَا نِيْكَسُ وَلَا جِيْجِدُ (١)

يَكَادُ حِينَ يُبْلَقِي الْقُرْنَ مِنْ حَقِّقِ

قَبْلَ السَّنَانِ عَلَى حَوَابِيهِ يَرِدُ (٢)

تَقَلُّوا وَلَسْكَنَهُمْ طَابُوا فَأَنْجَدَهُمْ

جَيْشٍ مِنَ الصَّبْرِ لَا يُحْصَى لَهُ عَدَدُ

المتهبرم بالحرب والسخرية منه

قال سعد بن مالك أحد سادات بكر بن وائل في الجاهلية وفرسانها (٣)

يَا بُؤْسَ لِلْحَرْبِ الَّتِي وَضَعْتَ أَرَاهِطَ فَاسْتَرَأَحُوا

وهو من أبيات جيدة اختارها أبو تمام في حماسته وبعده :

(١) النيكس : الضعيف ، والججد : القليل الخير

(٢) الحواباء : النفس والجمع حوابوات

(٣) قال سعد هذه الأبيات في حرب البسوس حين هاجت الحرب بين بكر وتغلب لقتل كليب واعتزل الحارث بن عباد وقال هذا أمر لاناقة لي فيه ولا اجل فعرض سعد في هذا الشعر بعود الحارث . وهذا الحارث بن عباد كان من حكام ربيعة وفرسانها المعدودين ، وكان قد اعتزل حرب ابني وائل ثم حدثت أمور أفضت به إلى خوضه هذه الحرب ، وهو القائل من أبيات :

قَرَّبًا مَرَبِطَ النَّعَامَةِ مِنِّي لَقِيحَتْ حَرْبٌ وَائِلٍ عَنِ حِيَالِ

لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عِلْمَ اللَّهِ وَإِنِّي بِحَرْهَا الْيَوْمَ صَالِي

ولما فعل ما فعل قال لسعد بن مالك : أتراني ممن وضعته ا - يشير إلى قول سعد : التي وضعت أراهط - قال سعد : لا ، ولكن لا نجأ لعطر بعد عروس ، ومعناه : إن لم تنصر قومك الآن فلن تدخر نصرك ...

والحربُ لا يَبْقَى لِحَا جِمِهَا التَّخْيِيلُ والمِرَاحُ
إِلا الفَتَى الصَّبَارُ فِي النَّجْدَاتِ وَالْفَرَسُ الْوَقَاحُ
مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لِابْرَاحِ
الْمَوْتِ غَايَتُنَا فَلَا قَصْرَ وَلَا عَنْهُ جِمَاحُ
وَكَأَنَّمَا وِرْدُ الْمِنِيَةِ عِنْدَنَا مَاءٌ وَرَاحُ

« قوله يا بُؤْسَ للحرب ، أصله : يا بُؤْسَ الحرب ، فأُقِحِمَت اللام
بين المتضايقين ، يدعو على الحرب وَيُذَمُّ نكباتها سخرية ؛ ومعنى وضعت
أراهط : حَطَّتْهُمُ وَأَسْقَطْتَهُمْ فلم يكن لهم ذكر ولا شرف في هذه الحرب
فاستراحوا من مكابذتها كاللساء ، قال بعض الأعراب لرجل : إنه قد وضع
المكارم فاستراح ، وقال رجل للأحنف : لا أبالي أهجيت أم مُدِحت ،
فقال : استرحت من حيث آوَبَ الكرام ، وأراهط إما جمع أرهط جمع
رهط وإما جمع ردهط على خلاف القياس ، والردهط : النفر من ثلاثة إلى
عشرة ، والجاحم : المكان الشديد الحر ، من جَحَمَت النار فهي جاحمة :
إذا اضطربت ، ومنه الجحيم ، والتخييل : التكبير ، من الخيلاء . يقول :
إنها لا تُبْقَى على نخوة المنخو ، وذلك أن أولى الغناء يتكرمون عن
الخيلاء . ويختال المغرور فإذا جُرِّبَ فلم يُحَمَّدَ افْتَضَحَ وسقط ، أو تقول
مَنْ كان ذا خَيْلاء ومرح ثم بُلِيَ بالحرب شَغَلَتْهُ عن خَيْلَانِهِ ومرحه .
والمراح بكسر الميم : النشاط ، أى أنها تكف حدة البطر النشط ، وهذا
تعريض بالحارث بن عباد بأنه صاحب خيلاء ومرح . والصبار مبالغة صابر
والنجدة : الشدة والبأس في الحرب ، والوقاح : الفرس الذى حافره صُلْبٌ
شديد ، ومنه الوقاحة .

وقوله : فأنا ابنُ قيس لا براح ، أى : أنا المشهور فى النجدة كما سمعت
وأضاف نفسه إلى جدّه الأعلى لشهرته به ، وجملة لا براح حال مؤكدة
لقوله : أنا ابن قيس كأنه قال : أنا ابن قيس ثابتاً فى الحرب ، والبراح
مصدر بَرِح الشيء بَرِحا : إذا زال من مكانه . وقوله : فلا تَصُرُّ هناك
ولا جماح فالقَصْر . الحبس ، والجماح مصدر جَمَحَ : إذا انفلت وهرب يريد :
لا يمكن حَبْسُ نفس عن الموت ولا مهربَ عنه . والورد : الورد وهو دخول
الماء ، وقيل : حُضوره وإن لم تُدْخِله .

وقال شاعر :

ماذا قَ هَمًّا كالشَجَاعِ وَلَا خَلَا بِمَسْرَةٍ كالعَاجِزِ الْمُتَوَانِي

الممدوح بقوة نفسه دون جسمه

قال أبو تمام :

والصَّبْرُ بِالْأَرْوَاحِ يُعْرَفُ فَضْلُهُ صَبْرُ الْمُلُوكِ وَلَيْسَ بِالْأَجْسَامِ

وقال شاعر :

وإِنِّي لِلْقَوِيِّ عَلَى الْمَعَالِي وَمَا أَنَا بِالْقَوِيِّ عَلَى الصَّرَاعِ

وقال معاوية رضى الله عنه : ما كان فى الشبان شيء إلا وكان فى منه
مُسْتَمْتَعٌ ، إلا أنى لم أكن نُكَّحَةً ولا صُرْعَةً . « رَجُلٌ نُكَّحَةٌ : كثير
النكاح — الوطء — ورجل صُرْعَةٌ : يصرع الناس »

وأورد أبو تمام فى حماسه لبعض الشعراء :

لَا قُوَّةَ قُوَّةُ الرَّاعِي قَلَائِصَهُ يَاوِي فَيَاوِي إِلَيْهِ الْكَلْبُ وَالرُّبْعُ
مِنَّا الْإِنَاءُ وَبِمَضِّ الْقَوْمِ يَحْسَبُنَا أَنَا بِطَاءُ وَفِي إِبْطَانِنَا سَرَعُ

« يقول : ليس غَنَائِي فِي الْمُهَيَّمَاتِ غَنَاءَ الرَّعَاءِ الَّذِينَ سَعِيهِمْ مَقْصُورٌ عَلَى
ضَمِّ الْقَلَاصِ وَحَفْظِهَا فِي مِرَاعِيهَا فَإِذَا أَوَى إِلَى مَوْضِعٍ أَوَى إِلَيْهِ كَلْبُهُ الَّذِي
يَحْرَسُهُ وَرُبَّعَهُ ، وَهُوَ مَا نُتَشَجَّ فِي الرَّبِيعِ ، وَالسَّرْعُ : السَّرْعَةُ »

القصيد إلى العدي مجاهرة

قال السري الرفاء : من أبيات يمدح بها سيف الدولة بن حمدان :
وَيَجْعَلُ بِشْرَهُ نُذْرًا لِأَعَادِي فَيَبْعَثُهُ جَنُوبًا أَوْ شِمَالًا
وَلَمْ يُنْذِرْهُمْ مِقَّةً وَلَسْكَنَ تَرَفَعُ أَنْ يُصِيبَهُمْ اغْتِيالًا (١)
وأشار على الإسكندر المقدوني أصحابه أن يُبَيِّتَ الفُرسَ (٢) ، فقال :
ليس من الإنصاف أن أجعل غَلَبَتِي سِرْقَةً ...

المقاتل عن حريمه

لِإِمَامِ الْإِسْكَانْدَرِ عَلَى مُبَاشَرَتِهِ الْحُرُوبِ بِنَفْسِهِ ، فَقَالَ : لَيْسَ مِنَ الْإِنْصَافِ
أَنْ يَقْتُلَ قَوْمِي عَنِّي وَأَتْرِكَ الْقِتَالَ عَنْهُمْ وَعَنْ أَهْلِي وَنَفْسِي ...
وقيل للحسن البصري : يَا أَبَا سَعِيدٍ ، إِنْ أَنْتَ نَكُونُ فِي هَذِهِ الْبَعُوثِ
وَالسَّرَايَا فَتُصِيبُ الْمَرْأَةَ مِنَ الْعَدُوِّ ، وَهِيَ ذَاتُ زَوْجٍ ، أَفَتَجِلُّ لَنَا مِنْ قَبْلِ
أَنْ يُطَلَّقَهَا زَوْجُهَا ؟ وَكَانَ الْفَرَزْدَقُ حَاضِرًا ، فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ : قَدْ قَلْتُ أَنَا

(١) المقة : المحبة

(٢) تبئيت العدو : أن يقصد في الليل من غير أن يعلم فيؤخذ بغتة ، والاسم :
البيات ، وأما قولهم : بيت الامر فمعناه : دبره بليل قال تعالى : إذ يبيتون ما لا يرضى
من القول ، قال الزجاج : كل ما فكر فيه أو خيض فيه بليل فقد بيت ، يقال : هذا
امر دبر بليل وبيت بليل ، بمعنى واحد .

في مثل هذا شعراً ، وأنشد :

وذا تِ حَلِيلٍ أَنْكَحَتْهَا رَمَاحُنَا حَلالًا لِمَنْ يَبْنِي بِهَا وَلَمْ تُطَلِّني (١)
 فقال الحسن : أَصَبْتَ ، كُنْتُ أَرى أَنَّكَ أَشَمَرُ مِنى فَإِذا أَنْتَ أَفْقَهُ
 قال ابن رشيقي في العمدة : وما أُظُنُّ الفِرْزَدَقَ إِلاَّ أَرادَ مَذْهَبَ الجاهلية في
 السبايا ...

وقال زياد الأعمى من كلمته التي يرثى بها المغيرة بن المهلب بن
 أبي صفرة :

صَفْمانِ مُحَمَّدانِ حِينَ تَلَقَّيا آبا بَوْجِهِ مُطَلِّقِ أَوْ نَكِحِ

المستنكف من السلب

قال أبو تمام من بانيته المشهورة التي يهني فيها المعتصم بفتح عمورية :
 إِنَّ الأَسودَ أَسودَ الغابِ هَمَّتْها يَوْمَ الكَريمَةِ في المَسلوبِ لا السَّلبِ
 وَقَتَلَ عَلِيُّ بنَ أَبي طالِبِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَجُلًا فَأَرادَ قَتَبُ أَنْ ياأُخَذَ سَلْبَهُ ،
 فقال : يا غلام ، لا تُعَرِّ فرائي ... وقال عنبرة في معلقته :

هَلَّا سَأَلتِ الحَيْلَ ياأَبْنَةَ مالِكِ إِنَّ كُنْتَ جاهِلَةً بِمالِ قَعَلِي (٢)
 يُخْبِرُكَ مِن شَهِدِ الوَقيعةِ أَنِّي أَغشى الوَغى وَأَعفَى المَنَمِ

• جهاراً بأيدينا ولما تطلق

(١) يروى العجز هكذا :

(٢) الحيل يريد : الفرسان

الشبان والكهول في الحرب

قال رجلٌ لآخر : لأغزُونَكَ بِمُرْدٍ عَلَى جُرْدٍ^(١) ، فقال له : لَأَلْقِيَنَّكَ
بِكِهولٍ عَلَى نُحُولٍ .
وقال المتنبي :

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَا وَمَشَايِخٍ كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا التَّشَمُّوا مُرْدٍ^(٢)
تَقَالٍ إِذَا لَاقُوا خِفَافٍ إِذَا دُعُوا
كثِيرٍ إِذَا شَدُّوا قَلِيلٍ إِذَا عُذُّوا^(٣)
وَطَئِنَ كَانَ الطَّعْنَ لَا طَئِنَ عِنْدَهُ
وَضَرْبٍ كَانَ النَّارَ مِنْ حَرِّهِ بَرْدٌ^(٤)

(١) الجرد جمع أجرد والأجرد من الخيل : السباق .

(٢) يقول : سأطلب حقي بالرمح وبصحب لي لا يفارقون الحروب فلا يفارقهم اللثام ولا ترى لحام فكأنهم مرد ، واللثام في الحرب عادة العرب لئلا تسقط عما تمهم وقال الواحدى : كنى بالقنا عن نفسه وبالمشايخ عن أصحابه يعنى : أنه يطلب حقه بنفسه وبغيره ، وأراد : أنهم محنكون مجربون ولذلك جعلهم مشايخ

(٣) مراده بكونهم ثقالا : شدة وطأتهم على العدو أو ثباتهم لدى اللقاء ، وكنى بالخفة عن سرعة الإجابة إذا دعوا للنجدة ، وبالكثرة عن سد الواحد مسد الجماعة أى أنهم على قلتهم في العدد يغنون غناء السواد الأعظم

(٤) وطعن : عطف على القنا والضمير في عنده يعود إلى الطعن الأول يقول : وأطلب حقي بطعن شديد كأن كل طعن غيره بالنقياس إليه لا شيء ، وبضرب حاز كأن حر النار بالإضافة إليه برد

إِذَا شِدْتُ حَمَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِجٍ

رِجَالُ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي فَمِهَا تَشْهَدُ^(١)

وهم يفضلون الثُّبَاتَ على السُّكُوهِ في الحروب ، وقد أورد الراجز في محاضراته أبياتاً عزاه إلى طاهر بن الحسين ، في هذا المعنى^(٢) ، والآيات وإن كانت في معناها تد أصابت مقطع الحق والسداد بَيِّنَةٌ أن معناها ليس من الجمال في شيء ومن تمَّ استَحْسَنًا أن نُشْرَها ونوردها عليك منشورةً بألفاظنا مع المحافظة على المعنى ، وهاكها : مِنْ صَائِبِ الرَّأْيِ أَنْ تَنْتَظِرَ فِي تَدْبِيرِ حَرْبِكَ بِالشُّيُوخِ الْمُحْزَنِينَ الَّذِي تَمَرَّسُوا بِالْأَيَّامِ حُلُومِهَا وَمُرَّهَا ، وَالَّذِينَ نَفْسِي آرَأُوهُمْ غَمَاءَ الْعَمَلِ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْشَى الْوَعْيَ إِلَّا بِحَدِيثِ السَّنِّ مُقْتَبِلِ الشَّبَابِ ، فَإِنَّ السُّكُوهِ الَّذِينَ تَنْفَسُ بِهِمُ الْعُمُرَ وَاقْتَرَبُوا مِنْ مَنَاهِلِ الْمَوْتِ تَرَاهُمْ يَتَمَثَّلُونَ الْمَوْتَ أَبَدًا بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ خَوْفًا وَجَزَعًا ، وَمِنْ جَرَاءِ ذَلِكَ يُحِبُّونَ ، أَمَا حَدِيثُ السَّنِّ فَإِنَّ لَهُ شَأوًا بَعِيدًا يُرِيدُهُ ، وَأَمَّا لَعْنَةُ عِرَاضًا بِحَاوِلِ تَحْقِيقِهَا ، وَمِنْ هُنَا كَانَ جَرِيئًا طَمُوحًا بِعَيْدِ مُرْتَقَى الْهَمَّةِ فَهُوَ لَا يَبَالِي أَسْقَطَ عَلَى الْمَوْتِ أَمْ سَقَطَ الْمَوْتُ عَلَيْهِ ، لِأَنَّ الْمَوْتَ لَيْسَ مِنْهُ عَلَى بَالٍ ...

(١) في فمها أراد : في أفواهها فأوقع الواحد موقع الجماعة ، والسابج : الفرس

السريع الجرى كأنه يسبح

(٢) هو والد عبد الله بن طاهر ، وكان من أكبر أعوان المأمون وهو الذي تولى محاربة الأمين حتى قتله وهو وإن كان أديباً يحب الشعر إلا أنه لم يرد له شعر فلعل هناك تحريفاً في المحاضرات ولعل الآيات لابنه عبد الله بن طاهر الذي كان له شعر مليح .

العاجز أعاديه عن إصلاح ما أفسده وعكس ذلك

قال علي بن جبلة المعروف بالعكوك من أبيات يمدح بها أبا غانم
حميد بن عبد الحميد الطوسي :

يَرْتَقُ مَا يَفْتَقُ أَعْدَاؤُهُ وليس يَأْسُو فِتْقَهُ آسَى (١)
فالنَّاسُ جِيسْمُهُ وإمام الهدى رَأْسُهُ وَأَنْتَ الْعَيْنُ فِي الرَّأْسِ
وقال السُّكْمَيْتُ :

لَا يَهْدِيُمُ النَّاسُ مَا تَبْنَى أَكْفُهُمُ مِنَ الْفَعَالِ وَلَا يَبْنُونَ مَا هَدَاهُ (٢)
وقال أشجع السلمي من قصيدة يمدح بها جعفر بن يحيى البرمكي وزير
الرشيد :

وَلَا يَرْفَعُ النَّاسُ مَنْ حَطَّه وَلَا يَضْمُونَ الَّذِي يَرْفَعُ
وباعده :

تَرِيدُ الْمَلُوكَ مَمْدَى جَعْفَرِي وَلَا يَصْنَعُونَ كَمَا يَصْنَعُ
وليس بأَوْسَعِيهِمْ فِي الْغِنَى وَلَكِنَّ مَعْرُوفَهُ أَوْسَعُ
وهذا البيت الثالث من قول ابن زياد الأعرابي :
لَمْ يَلِكْ أَكْثَرَ الْفَتْيَانِ مَالًا وَلَكِنْ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعًا

(١) الرتق ضد الفتق وهو : لام الفتق وإصلاحه ، وياسو فتمه مجاز من أسا
الجرح يأسوه : داواه . والآسى : الطبيب المداوى
(٢) الفعال : الفعل الحسن

وقال المتنبي :

لا يجبرُّ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ ولا يهَيِّضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَائِرُهُ^(١)

من تصحبه الطيور والسباع في القتال

أولُ من وَصَفَ المحارِبَ تَصَحَّبَهُ الطيورُ والسباعُ رِقَّةً بانتصارِهِ ،
وبالشَّبَعِ من فرائسِهِ : النابغة الذبياني إذ يقول في قصيدة له يمدح بها عمرو
ابن الحارث الأصغر من ملوك غَسَّان بالشام :

عصائبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ	إذا ما عَزَّوْا بِالْجِيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُمْ
مِنَ الضارياتِ بِالدِّمَاءِ الدَّوَارِبِ	يُصاحِبِنَهُمْ حَتَّى يُغْرِنَ مُغَارَهُمْ
جلوسَ الشيوخِ في ثيابِ المِرابِ	تَرَاهُنَّ خَلْفَ القَوْمِ حُزْرًا عِيونِها
إذا ما التَّتَى الجمعانِ أولُ غالبِ	جوانِحِ قَدْ أيقَنَ أَنْ قيسِلَهُ
إذا عَرَّضَ الحَطِيَّ فوقَ الكواثِبِ	لَهْنٍ عَلَيْهِمُ عَادَةٌ قَدْ عَرَفْنَهَا

« العصائب : الجماعات . وقوله : يصاحبنهم يقول : تسير جماعاتُ
الطير معهم كأنما تغير ياغارتهم على الأعداء ، وهذه الطيور من المتدربات
الضاريات المولعات بدماء القتلى . والخزر جمع أخزر وخزراء أى : ضيقة
العيون خلقة ؛ أو أنها تتخازر ، أى تقبض أجفانها ، لتحدّد النظر ، وقوله
جلوس الشيوخ ، أى أنها لدى اشتداد القتال تقعُّ على أعلى الأرض والهضاب
كأنها في ريشها ووقوفها وتحديد النظر تترقب القتلى جالسة جلوس
الشيوخ إذا التفوا بأكسيّة المِرابِ يحدّدون النظر إلى شيء بعيد ، والمِراب

(١) هاض العظم : كسره بعد الجور

جمع سَرَبَانِيّ ، وهو الثوب المبطن بفراء الأرانب . وجوانح : مائلات للوقوع . والخطى : أى القنا المنسوبة إلى الخط - بلد بالبحرين - والكواثب — بالشاء المئانة — جمع كاثبة ، وهى من جسم الفرس ماتحت الكاهل . إلى الظهر بحيث إذا نُصِبَ عليه السرجُ كانت أمام القَرَبُوسِ يضع الفارس عليها رُفْحَهُ مُسْتَعْرِضاً ، يقول : اعتادت الطير أن الرماح إذا عُرِضت على الكواثب كان ذلك لِرِزْقِ يُساق إليها .

وقال أبو تمام :

وقد ظَلَلتْ عِقْبَانُ أَعْلَامِهِ ضُحَى بَعِيقَانِ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ نَوَاهِلِ (١)
أَقَامتْ مَعَ الرَايَاتِ حَتَّى كَانَهَا مِنْ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهُمْ تَقَاتِلُ
وَقَالَتْ جَنُوبُ أُخْتُ عَمْرٍو ذِي السَّكْبِ تَرِيهِ :

تَمَشَّى الذُّورُ إِلَيْهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ مَشَى العَذَارَى عَلَيْهِنَّ الجَلَابِيبُ

« الجلابيبُ : ثوبٌ أَوْسَعُ مِنَ الخِثَارِ دُونَ الرِّدَاءِ تُغَطِّي بِهِ المَرَأةُ رَأْسَهَا وَقِيلَ : المَلَاعَةُ الَّتِي تَشْتَمِلُ بِهَا ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ وَهِيَ لَاهِيَةٌ : أَنَّ الذُّورَ آمَنَةٌ مِنْهُ لَا تَفَرِّقُهُ لِكَوْنِهِ مَيْتًا فَهِيَ تَمَشَّى إِلَيْهِ مَشَى العَذَارَى ، وَأَوَّلُ هَذِهِ المَرْتَبَةِ :

كُلُّ امْرِئٍ يَطْوَالِ العَيْشِ مَكْذُوبٌ

وَكُلُّ مَنْ غَابَ الأَيَّامَ مَغْلُوبٌ

وقال المتنبي :

(١) العقبان الأولى جمع عقاب : الراية الضخمة ، والثانية جمع عقاب أيضاً : سباع الطير .

تَرَكَتْ جَمَاجِمَهُمْ فِي النَّقَا . وَمَا يَتَخَلَّصَنَّ لِلنَّائِخِلِ (١)
فَأَنْبَتَ مِنْهُمْ رَيْبَعَ السَّبَّاعِ فَأَنْبَتَ يَا حَسَانُكَ الشَّامِلِ

وقال :

سحابٌ مِنَ الْعِقْمَانِ يَرْحُبُ تَحْتَهَا سحابٌ إِذَا امْتَدَّتْ سَقَتُهَا صَوَارِمُهُ
وقال في صفة جيش وقد ألم بهذا المعنى :

وَذِي لَجَبٍ لَا ذُو الْجِنَاحِ أَمَامَهُ بِنَاجٍ وَلَا الْوَحْشُ الْمُتَارُ بِسَالِمِ (٢)
تَمْرٌ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ تُطَالَعُهُ مِنْ بَيْنِ رَيْشِ الْقَشَاعِ (٣)
إِذَا ضَوْؤُهَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةَ
تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ (٤)

وقال :

يُطَمَّعُ الطَّيْرَ فِيهِمْ طَارُلٌ أَكْلُهُمْ حَتَّى تَكَادُ عَلَى أَحْيَانِهِمْ تَقَعُ

(١) النقا: الكثيب من الرمل يقول: دست رؤسهم بجوافر الخيل فطاحتها
وامتزجت بالرمل حتى لو نخل الرمل لم يتخلص من رؤسهم شيء، ثم قال في البيت
التالي: تركتهم جزراً للسباع فأخصبت بكثرة القتلى فكانت أنبت لها ربيعاً فلو قدرت
السباع لأنبت عليك بما شملتها من إحسانك

(٢) اللجب: اختلاط الأصوات، والمثار: الذي أثاره الخوف من مكنه يقول
إذا طار ذو الجناح وسأيره فليس بناج لكثرة الرماة في الجيش، وإن نار
وحش أخذ

(٣) القشاع: النور يقول: تمر الشمس على هذا الجيش وهي ضعيفة من كثرة
عقبانه التي تخيم عليه وتتبعه ولا ينفذ ضوءها إليه إلا في خلال النور كما ذكر في
البيت التالي

(٤) البيض جمع بيضة وهي: الخوذة، شبه ما يتساقط من الضوء في فرج أجنحة الطير فوفه
بالدراهم يقول لكثرة اشتباك الطير لا يصل إليه ضوء الشمس إلا من منافذ ضيقة فمقع مستديراً

وقال أبو نواس :

تَمَّأَيَا الطَّيْرُ عُذْرَتَهُ نَفْسَةً بِالشَّبْعِ مِنْ جَزْرِهِ
« تَمَّأَيَا الشَّيْءُ : قَصَدَ آيَتَهُ ، أَيْ شَخَّصَهُ . وَالْجَزْرُ : قِطْعَ اللَّحْمِ »

عذر من يلبس الدروع

ونحوها في الحرب والمستغنى بشجاعته ويقينه عنها

قال أبو تمام في المستغنى بجلادته عن الدروع :

إِذَا رَأَوْا لِلنَّبَايَا عَارِضًا لِيُسُوا مِنْ اليَقِينِ دَرُوعًا مَالَهَا زَرَدُ
وَسُؤِيلَ بَعْضِ الأَبْطَالِ : فِي أَيْ الجُنَنِ تُحِبُّ أَنْ تَلْقَى عَسَدُوكَ ؟
قال : فِي أَجْسِلٍ مُسْتَأْخِرٍ ... وَقِيلَ لِآخِرٍ : لَوْ احْتَرَسْتَ أَ فَقَالَ : كَفَى
بِالأَجْلِ حَارِسًا ...

ومما يؤثر في كثرة لبس الدروع والاستعداد للحرب أبدأ قول مسلم بن
الوليد من تصيدته التي يمدح بها يزيد بن يزيد الشيباني وهو ابن أخي معن
ابن زائدة :

تراه في الأمانِ فِي دِرْعٍ مُضَاعَفَةٍ
لا يَأْمَنُ الدَّهْرَ أَنْ يُدْعَى عَلَيَّ عَجَلٍ

وبعده :

لا يَعْْبِقُ الطَّيْبُ حُدَيْدِيَّ وَهَفْرِقَهُ وَلَا يُسَّحُ عَيْلِيَّ مِنَ السَّكْحَلِ
يُرَوَّى أَنَّ عَمَّهُ مَعْنَ بْنَ زَائِدَةَ كَانَ يُقَدِّمُهُ عَلَيَّ أَوْلَادِهِ فَعَاتَبَتْهُ امْرَأَتُهُ
فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهَا : فَأَرِيكَ مَا تَبْسُطِينَ بِهِ عِذْرِي ، يَا غَلَامَ ، إِذْهَبْ فَادْعُ
حَسَّاسًا وَزَائِدَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ وَفُلَانًا وَفُلَانًا حَتَّى آتِيَّ عَلَيَّ جَمِيعَ أَوْلَادِهِ لِمَا لَسْتُ بِهَا

أن جاؤا في الغلائل الْمُطَيَّبَةِ والنَّعالِ السُّنْدِيَّةِ ، وذلك بعد هُدَاةٍ من الليل ، فسَلَّهُوا وجلسوا ، ثم قال مَعْن ، يا غلام ، ادع يزيدَ ، فلم يلبث أن دخلَ عَجِلاً وعليه سلاحُه ، فوضع رُئُوحَه بباب المجلس ، ثم دخلَ ، فقال مَعْنُ له : ما هذه الهيئة يا أبا الزبير ، فقال : جاءني رسولُ الأمير فسبق وَهَمِي إلى أنه يُريدني لِمْهَمٍ فَلَبِستُ سلاحِي وقلت : إن كان الأمر كذلك مَضَيْتُ ولم أُعْرَجْ وإن كان غيرُ ذلك فَنَزَعُ هذه الآلة عني من أيسر الأشياء ، فقال مَعْن : انصرفوا في حفظ الله ، فلما خَرَجُوا قالت زوجته قد تَبَيَّنَ لي عُذْرُكَ ، فَأَنشدُ مُتَمَثِّلاً :

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَدَتْ عِصَامَا وَعَلَبَتْهُ الْكِرُّ وَالْإِقْدَامَا
وَصَيْرَتْهُ مَلِكًا مُهَامَا

وإلى ذلك أشار مسلم بالبيتين المذكورين : ويُروى : أن مُسْلِمًا لما انتهى في إنشاد هذه القصيدة إلى البيت الأول قال له يزيد المددوح : هَلَا قَلْتَ كما قال أعشى بكر بن وائل في مدحه قيس بن معد يكرب ^(١) وإذا تجيءُ كَتِيبَةٌ مَلُومَةٌ شَهَبَاءُ تَجْتَلِبُ الْكَمَاءُ نِزَالَهَا ^(٢) كنت المُقَدَّمُ غيرَ لابسِ جُنَّةٍ بالسيفِ تُضْرِبُ مُعَلِبًا أَبْطالَهَا ^(٣)

(١) هذا قيس هو والد الأشعث بن قيس الكندي الصحابي

(٢) الكتيبة : القطعة العظيمة من الجيش ، وكتيبة ملومة : مجتمعة مضموم بعضها الى بعض ، وشهباء : لما فيها من بياض السلاح والحديد في حال السواد ، والكماء : الأبطال مدججين بالسلاح

(٣) رحل معلم : يعلم مكانه في الحرب بعلامة جعلها لنفسه وهو شأن الشجعان وأبطالها مفعول تضرب .

فقال مسلم : قولى أحسن من قوله لأنه وَصَفَهُ بِالْحَرْقِ وَأَنَا وَصَفْتَهُ
بِالْحَزْمِ . وَيُرْوَى مِثْلَ هَذَا لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ مَعَ كَثِيرِ عِزَّةٍ ...

تحريم الملاهي على المحارب

قال معاوية رضى الله عنه : مَاذُقْتُ أَيَّامَ صِفِّينَ ^(١) لِحْمًا وَلَا حَلْوَاءَ
بَلْ أَتَّصَرْتُ عَلَى الْخُبْزِ حَتَّى فَرَعْتُ .

وَكَتَبَ عَامِلُ الْبَيْتِ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي وَقْتِ مُحَارَبَتِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
ابْنَ الْأَشْعَثِ : إِنِّي قَدْ وَجَّهْتُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِجَارِيَةٍ اشْتَرَيْتُهَا بِمَالٍ عَظِيمٍ ،
وَلَمْ يُرَ مِثْلُهَا قَطُّ ، فَلَمَّا دُخِلَ بِهَا عَلَيْهِ رَأَى وَجْهَهَا جَمِيلًا وَخَلَقًا نَدِيمًا ،
فَأَتَى إِلَيْهَا قَضِييَا كَانَ فِي يَدِهِ فَسَكَّسَتْ لَتَأْخُذَهُ ، فَرَأَى جَسْمًا قَدْ بَهَّرَهُ ،
فَلَمَّا تَمَّ بِهَا أَعْلَبَهُ الْإِذْنُ أَنْ رَسُولَ الْحِجَابِ بِالْبَابِ فَأَذِنَ لَهُ ، وَنَحَى
الْجَارِيَةَ ، فَأَعْطَاهُ كِتَابًا مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ كِتَابًا ، ثُمَّ
بَاتَ يُقَلِّبُ كَفَّ الْحَارِيَةَ وَيَقُولُ : مَا أَقْدَتُ فَائِدَةَ أَحَبِّ إِلَيَّ مِنْكَ ، فَتَقُولُ :
فَمَا بِالْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا يَمْنَعُكَ ؟ فَقَالَ : يَمْنَعُنِي مَا قَالَهُ الْأَخْطَلُ ، لِأَنِّي
إِنْ خَرَجْتُ مِنْهُ كُنْتُ أَلَّامَ الْعَرَبِ :

قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا شَدُّوا مَآزِرَهُمْ دُونَ النِّسَاءِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارٍ
فَمَا إِلَيْكَ سَبِيلٌ أَوْ يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ غَدُوِّ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشْعَثِ ،
فَلَمْ يَقْرَبْهَا حَتَّى قَتِلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، قَوْلَ الْأَخْطَلِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارٍ ،

(١) صفين : موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي وأيام
صفين : أيام الحرب بين علي بن أبي طالب وبين معاوية وكانت مدتها مائة يوم وعشرة
أيام وكانت وقائعها تسعين وقعة وكانت في سنة ٣٧ هـ .

يعنى : أنه يجتنبها في طهرها وهو الوقت الذى يستقيم له غشياً فيها
 وفي هذا المعنى يقول الأعشى من كلمة له يمدح بها هُوْدَةَ بن على الحنفي :
 وفي كلِّ عامٍ أنتَ جاشِمٌ غزوةٍ تشدُّ لأفصاها عَزِيمَ عَوَائِكَا
 مُورِثَةٌ مالاَ وفي الحى رِفْعَةٌ لِمَاضَاعِ فِيهَا مِنْ قُرُوءِ نِسَائِكَا

« جاشم اسم فاعل جَشِمَ الأمر - بالكسر - تكلفه على مَشَقَّةٍ ،
 والعزيم كالعزيمة مصدر عزم على الأمر : جدَّ في عمله ، والعزاء : الصبر
 يقول الأعشى : أنت في كل عام تُكَلِّفُ نَفْسَكَ الغزوَ واتِّحَامَ مَكَارِهِه
 تشدُّ وتوثقُ عزيمة صبرك لأفصاها ، أى أبعدها وأعلاها ، أو غايتها
 ومُنْتَهَاهَا ، وهذه الغزوات تُورِثُك مالا كثيراً بغنائها ، ورفعاً لك في
 الحى . والقروء جمع قرء وهو : الطهر هنا ، وقوله تعالى : والمطلقات
 يتربصنَّ بأنفسهنَّ ثلاثة قُرُوءٍ اختلف العلماء فقال الجوازيون القروء :
 الأطهار ، وقال أهل العراق الحِيض ، أما في قول الأعشى فالقروء : الأطهار
 لا الحِيض لأن النساء إنما يُؤْتَيْن في أطهارهنَّ لاني حِيضهنَّ فإنما ضاع
 بغزوه وغلبته عنهن أطهارهنَّ . هذا واللام في قوله : لما ضاع فيها لام
 العاقبة مثلها مثل اللام في قوله تعالى : وما خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلا
 لِيَعْبُدُون ، وقوله تعالى : لِيَكُونَ لَهُمْ عِدْوًا وَحَزَنًا . هذا وقوله تعالى ثلاثة
 قروء قال الأصمعي : جاء هذا على غير القياس والقياس : ثلاثة أقرء ولا
 يجوز أن يقال : ثلاثة فلوس ، إنما يقال : ثلاثة أدلس فإذا أكثرت فهى
 الفلوس ، ولا يقال : ثلاثة رجال إنما هى ثلاثة رَجُلَةٍ ، ولا يقال ثلاثة
 كلاب إنما هى ثلاثة أَكْلَبُ . وقال النحويون : في قوله تعالى : ثلاثة قروء
 أراد : ثلاثة من القُروء »

طائفة من عبقرياتهم في الصلح

والتحذير من الحرب

قال عز وجل : « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا . « التلم : الصلح ، بفتح السين وكسرها ، وتذكّر وتوث ، وقال : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . « نزلت هذه الآية الكريمة في قتال حدث بين الأوس والخزرج في عهده عليه الصلاة والسلام بالسَّعْفِ والنَّعَالِ ، والجمع في اقتتلوا باعتبار المعنى فإن كل طائفة جمع ، وبغت : تعدت ، وتفيء : ترجع ، وأقسطوا : أعدلوا »

ومن كلامهم : الحربُ صعبةٌ مُرةٌ ، والصلحُ أمنٌ ومَسْرَةٌ ومنه : إياك والمعاداة ، فإنك لنْ تعدمَ مَكْرَ حليم ، أو مُفاجأةَ لثيم .
ومنه : لا تَسْتَيْبِرُوا السَّبَاعَ من مَرَايِضِهَا فَتَنْدُمُوا ، ودارُوا الناسَ في جميع الأحوال

ومنه : الفِتْنَةُ نائمةٌ ، فمن أيقظها فهو طعامُها ، الفِتْنَةُ هنا : ما يقع بين الناس من القتال والحروب .

وقال زهير بن أبي سلمى في معلقته :

وما الحرب إلا ما عابستُمُ وذُقتمُ وما هو عنها بالحديثِ المرْجَمِ
متى تبغثوها تبغثوها ذميمةً وتَضَرَّ إذا ضَرَّه يَتُمُوها فتَضَرُّمُ
فتَعْرُ كُكُمْ عَرَكُ الرَّحَى بِئْفَالِهَا وتَلْتَحُ كِشَافاً ثم تُلْتَجُ فُتْسِمُ

فَتَنْتِجُ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كَأُخْمَرٍ عَادٍ، ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَقْطِعُ.
فَتُغْلِلُ لَكُمْ مَا لَا تُغِلُّ لِأَهْلِهَا قُرَى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِينٍ وَدِرَّهَمٍ.
إِنَّ أَنْ قَالَ :

وَمَنْ يَعِصِ أَطْرَافَ الرَّحَاجِ فَإِنَّهُ يُطِيعُ الْعَوَالِي رُكِبَتْ كُلُّ لَهْدَمٍ
« المرجع من الحديث : المَقُولُ بطريق الظَّنِّ لا عن تحقيق ، يقول :
وما حديثي عن الحرب وتخويفكم أهوالها بالحديث المُفْتَرَى ، وإنما أتم قد
علمتم ويلات الحرب وذقتموها فلا تقرّبوها ؛ وَضَرِي يَضْرِي : اشتد حرصه
والنضرية : الحمل على الضراوة . وَضَرِمَتِ النَّارُ تَضْرَمُ : التَّهَيَّبَتِ يقول :
متى تهيجوا الحرب تهيجوها مدمومة ، أى تُذْمُونَ على إضرارها ، ويشد
حرصها إذا حملتموها على شدة الحرص فيشتد حرها وتذهب نارها ، يُحْتَمُّهُمْ
على التمسك بالأصالح وينذرهم بسوء عاقبة إيقاد نار الحرب . وقوله : فتعركم
ألبت ، فالعرك : الدلك ، والثفال : الجلد أو الخِرْقَةُ توضع تحت الرحي
ليقع عليها الطحين ، والباء في « بثفالها » بمعنى مع ، واللقاح : حمل الولد
يقال : لَقِحَتِ النَّاقَةُ تَلْقَحُ : إذا حملت ، وتلقح كِشَافًا : أى تلقح لِقَاحًا
كِشَافًا ، بأن تحملَ في عَافِينَ مُتَوَالِيَيْنِ ، وتُتَمِّمُ : أى تأتي في كلِّ مرة
بِتَوَاتُؤَيْنِ ، يقول : إذا هجتم الحرب طخنتكم طحن الرحي الحَبَّ مع نِفَالِهَا
وتطول شدتها وويلاتها وتتولد من جرّاتها صنوف وضروب من الأهوال
والشُرور ، ومثلها في ذلك مثلُ الناقة تحملُ خَلِينَ في عامين متواليين ثم
لا تلد إلا توأمين ، جعل إفناء الحرب إِيَابَهُمْ بِمَنْزِلَةِ طَحْنِ الرحي الحَبِّ
وجعل صنوف الشر تتولد من الحرب بِمَنْزِلَةِ الأَوْلَادِ النَّاشِئَةِ مِنَ الأُمَّهَاتِ
وبالغ في وصفها باستتباع الشر شيئين : أحدهما جعله إِيَابًا لاقحة كِشَافًا ،

والآخر إتمامها . وأشأم مصدر من الشؤم ، على وزن أفعال ، أو صفة
 لمخزوف ، واحمر عاد : لقب لعافر ناقة صالح عليه السلام نبيّ ثمود وأسمه
 قِدَار ، وكان عقره لهذه الناقة إشيؤماً على قومه ، ويريد بعاد ثمود إما توهُمها
 وخطأ وإما لأن ثمود من عاد ، يقول : إن هذه الحرب تطول ويلاتها
 وشُرورها وتلتج لكم غلبان شؤم أو غلبان أب أشأم شؤم قidar
 عافر الناقة ، ثم تعيش هذه الغلبان فتترضعهم الحرب وتقطعهم ، وكل
 ذلك كناية عن طول ويلات الحرب وطول شرورها . وقوله : فتغلل
 لكم ... ألبيت يقول : فتغلل لكم هذه الحرب ضرورياً من الغلات ليست
 كغلات قري العراق من الحلب الذي يكال بالقفيز ، أو من ثمن الخلة وهي
 الدراهم ، يعني : أن المضار المتولدة من هذه الحرب تُربى على المنافع المتولدة
 من هذه القري ، وكل هذا حدث منه لهم على الاعتصام بعري الصلح وزجر
 عن إيقاد نار الحرب التي تلك أنواعها وأموالها . وقوله : ومن يعص ...
 ألبيت فالزجاج جمع زجاج وهو الحديد المركب في أسفل الرمح ، واللهدم : السنان
 الطويل يقول : من يعص أطراف الزجاج أطاع عوالم الرماح التي ركبت فيها
 الأسنة الطوال الحادة والمعنى : من أبي الصلح ذلته الحرب ولينته ، وكانت
 العرب إذا التقت إبتان منهم سدّت كل طائفة منهما نحو صاحبها زجاج
 الرماح وسعى الساعون في الصلح ، فإن أبتا إلا التادى في القتال قلبت كل
 وإحدة منهما الرماح واقتلتا بالأسنة . ، وقال كثير :

رَءَيْتَ بِأَطْرَافِ الزَّجَاجِ فَلَمْ يُفِيقْ مِنْ الْجَهْلِ حَتَّى كَلَّمْتَهُ نِصَالُهَا
 وَحَطَبَ بَعْضُهُمْ حُطْبَةً طَوِيلَةً أُصْلِحَ أُمَّةً ، إققال له رجل : أنت مُدْ
 اليوم ترعى في غير مرعاك ... أفلا أدلك على المقال ؟ فقال : نعم ، فقال :

«أما بعد» فإن الصلح بقاء الآجال، وحفظ الأموال، والسلام. فلما سمع القوم ذلك تعانقوا وتواهبوا الديات.

وكتب سلم بن قتيبة بن مسلم إلى سعيد المهلبى لما تحاربا بالبصرة:
تُخَذُوا حَظَّكُمْ مِنْ سَلِينَا إِنْ حَزَبْنَا

إذا زبنته الحرب: نارٌ تسعُرُ (١)

وإني وإياكم على ما يسوءكم لعملان أو أنتم إلى الصلح أفقر
وقال حكيم: دافع بالحرب ما أمكن، فإن النفقة في كل شيء من
الأموال، إلا الحرب، فإن النفقة فيها من الأرواح، علامة على
الأموال.

وقال النابغة الجعدي:

وَأَسْتَلِبُ الْمَالَ الَّذِي كَانَ رِثْمًا ضَمِينًا بِهِ وَالْحَرْبُ فِيهَا الْحِرَائِبُ
وقد تبعه أبو تمام فقال:

والحرب مشتقة المعنى من الحرب *

«الحرب: أن يسلب الرجل ماله»

وقال شاعر يُسمى حاحلة بن قيس الكِنَانِي (٢)

دعاني أئسب الحرب بيني وبينه فقلت: لا، بل هلم إلى السلم
ومهلا عن الحرب التي لا أديها صحیح وما تنفك تأتي على سقم
فإن يظفر الحزب الذي أنت منهم وآبوا بدهم من سبأ ومن غنم

(١) زبنته: دفعته وصددمته، وحرب زبون: شديدة يدفع بعضها بعضاً من

الكثرة. (٢) هذه الأبيات تراها كاملة في حماسة البحري

فلا بُدَّ من قتلى لعلَّك فيهمُ وإلا فُجرح ليس يَكْنِي عَنِ العَظْمِ (١)
 فلما أبى أرسلتُ فضلةً تُؤبِّيه إليه فلم يرجع بعزم ولا حزم
 فلما رمانها رَمَيْتُ سواده ولا بُدَّ أن ترمي سوادَ الذي يرمي
 فبيئنا على لحم من القوم غودرت أسنننا فيه وباتوا على اللحم-
 وكان صريع الجهل أول وهلة فبعداً له مختار جهل على علم-

الحرب تصيب جانبيها وغير جانبيها

العرب تقول : الحرب عَشومٌ ، لأنها قد تنال غير جانبيها .
 وتقول : * وليس يَصْلِي بنارِ الحرب جانبيها *
 * وأصبح من لم يَجِنِ فيها كذى الذئب * .

وقال الحارث بن عبَّاد :

قرباً تَرِيطَ النعامة هـنى لَقِحتُ حرب وائلٍ عن حِيال
 لم أكن من جُناتِها عَليمَ الله ولما يَحْررها اليومَ صال
 قرباها إن كـفى رَهـنُ أذ تزلّ الجبالُ قبلَ الرجالِ
 « البعامة : فرسه ، ولقحت : حملت ، وحربُ لايحُ ؛ مثلُ بالائشي الحامل ،
 وعن حِيال : بعد حِيال ، أى بعد أن لم تُجمل ، وصلى بالنار : قاتى حرها
 أو احترق بها »

وقال ابن الرومى :

رأيتُ جُناةَ الحُرْبِ غيرَ كُفاتها إذا اُخْتَلَفَتْ فيها الرماحُ الشواجرُ

(١) ليس يَكْنِي عن العظم لعله يريد : إن جروح الحرب ليست من الجروح
 المعروفة ولكنها جروح تصمى وتقتل

كذلك زناد النار عنها بنجوة ولكنها يصلي صلاحها المساعِرُ
 « المساعِر : جمع مسعر ، وهو : ما تحرك به النار من خشب ونحوه ، ومُسَعَّرُ
 الحرب : موقدها »

الممتنع من الصلح

قال أبو زيد الطائي — شاعر مخضرم ، كان في الجاهلية مقيماً في أخواله
 بني تغلب بالجزيرة ، وفي الإسلام منقطعاً إلى الوليد بن عتبة بن أبي معيط
 في ولاية الجزيرة وولاية الكوفة ، ولم يزل به الوليد حتى أسلم ، وقد كان
 نصرانياً ، والأكثر على أنه مات على نصرانيته — :

بعثوا حربنا إليهم وكانوا في مقام لو أبصروا ورخاء
 ثم لما تشذرت وأنافت وتصلوا منها كرية الصلاء
 طلبوا صلحنا ولات أوان فآجبنا أن ليس حين بقاء
 فاحنا الله طالب الصلح منا ما أطف الميس بالدهناء

« لو أبصروا فلر للتمنى ، ورخاء : عطف على مقام ، وتشذرت يقال :
 تشذرت فلان إذا تمياً للقتال ، وتشذرت القوم في الحرب : أى تطاولوا
 وشرأبوا ، وأنافت : زادت ، وتصلوا : من صلى النار صلاً ، من باب
 تعب : قامى حرها ، والصلاء ككتاب : حر النار ، وطلبوا صلحنا :
 جواب لما ، وقوله : ولات أوان فللنحويين في تخريجها كلام كثير
 وأوجهها أن أصلها : ولات أوان صلح ، أخذت الجملة وبني أوان
 على الكسر ، وليس حين بقاء : أى ليس الحين حين بقاء ، والبقاء :
 اسم من قولهم أقيمت على فلان إبقاء : إذا رحمته وتلطفت به ، والمشهور

أن الاسم منه : البُقياء والبُقوى ، ولحا الله : أى قبَّحَ الله ، وما أطاف :
فما مُصدَرة ظرفية ، وأطاف وطاف : بمعنى دارَ على الشيء ، والمُبش
حادى الإبل ، وهو فى الأصل اسم فاعل من أبَسْتُ الإبل : إذا زَجَرْتَهَا
والدهناء : موضع فى بلاد بنى تميم «

وقال الزُّبرقان :

فَلَنْ أَصَالِحُهُمْ مَا دُمْتُ ذَا فَرَسٍ وَأَشْتَدَّ قَبْضًا عَلَى الْأَسْيَافِ إِبَاهِي

ضارع يطلب الصلح

قال المتنبي :

من أطاق التماس شيء غلاباً واغتصاباً لم يَلْتَمِسْهُ سُؤالا

التحذير من صغير يفضى إلى كبير

قال الفرزدق :

تَصَرَّم عَنِّي وَدُّ بَكْرٍ بِنِ وَاثِلٍ وَمَا كَادَ عَنِّي وَدُّهُمْ يَتَصَرَّمُ
تَوَارِصُ تَأْتِيَنِي وَتَحْتَقِرُونَهَا وَقَدْ يَلَأُ الْفَطْرُ الْإِنَاءَ فَيُفْعَمُ

« يفعم : يمتلئ ، والقوارص جمع قارصة : الكلمة المؤذية »

وقال آخر :

ذروا الأمر الصغيرَ وزمّلوه فتلقيحُ الجليل من الدقيق

« زمّلوه : أخفوه »

وقال آخر :

قد يَحْقِرُ الْمَرْءُ مَا يَهْوَى فَيَرُ كَبُهُ حَتَّى يَكُونَ إِلَى تَوْرِيطِهِ سَبِيَا

وقال آخر :

إِنَّ الْأُمُورَ دَقِيقَهَا مِمَّا يَبْهَجُ بِهِ الْعَظِيمُ

ومن كلامهم : من الحَبِيبَةِ تَنْبِتُ الشَّجَرَةَ الدَّمِيمَةَ ؛ ومن الجِزْرِ تَكُونُ
النَّارُ الْعَظِيمَةَ . وَالتَّمْرَةَ إِلَى التَّمْرَةِ تَمْرٌ ، وَالذَّوْدَ إِلَى الذَّوْدِ إِبِلٌ .

و * أَوَّلُ الْغَيْثِ قَطْرُهُ ثُمَّ يَنْسَكِبُ *

و * كَمْ يَذِي الْأَثْلُ دَوْحَةً مِنْ قَضِيبٍ *

طائفة من عبقرياتهم في التهديد والوعيد

قلة غناء الوعيد

من أمثالهم : الصَّدَقُ يُبَيِّئُ عَنْكَ لِالْوَعِيدِ ، أَيْ : إِذَا بَيَّئُ عَدُوَّكَ
عَنْكَ أَنْ تَصُدَّقَ فِي الْفِتْنَةِ ، لَا أَنْ تُوعِدَهُ وَلَا تُنْفَذَ مَا تُوَعِدُهُ بِهِ «
وقالوا : من علامات العاقل ترك التهديد قبل إمكان الفِرَصِ ، وعند
إمكانها الوُثُوبُ مع الثَّيْقَةِ بِالظَّفْرِ .

وقالوا : * إِنْ أُوْعِدَ سِلَاحُ الْعَاجِزِ الْحَمِيْنِ *

« الْحَقُّ : الْأَحْمَقُ »

وقالوا : * إِنْ الْكُتَائِبَ لَا يُهْزَمَنَّ بِالْكَتُبِ *

من يتهلّد بظهر الغيب ولا يغني غناءً

قال عنبرة في معلقته :

ولقد خشيتُ بأن أموت ولم تكن

للحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي صَمَّصَمِ

الشامى عَرَضِي ولم أَشْتَمَهُمَا والناذِرِينَ إِذَا لَمْ أَلْقَهُمَا دَمِي
 « الدائرة : اسم للحادثة ، سميت بها لأنها تدور من خير إلى شر ومن
 شر إلى خير ، ثم استعملت في المكروهة دون المحبوبة ، والدائرة : الهزيمة .
 والشؤم يقال : عليهم دائرة السوء ، وفي الحديث : فيجعل الدائرة عليهم ،
 أى الدولة بالغلبة والنصر ، وقوله سبحانه : وَيَتْرَبُصُ بِكُمْ الدَوَائِرُ . قيل :
 الموت أو القتل ، وقوله : والناذرين يقول : والموجبان على أنفسهما سفك
 دمي إذا لم ألقهما ، يريد : أنهما يتوعدانه حال غيبته أما في حال حضوره
 فلا يتجاسران على ذلك ،
 وقال القَرْمِطِيُّ :

تَتَمَنَّانِي إِذَا لَمْ تَرِنِي فَإِذَا جِئْتُ قَطَعْتَ الْقَنْطَرَةَ
 يَا بَنِي الْعَبَّاسِ مَنْ يَنْصُرُكُمْ أَصْبِيَّ أُمَّ خَصِيٍّ أُمَّ مَرَّةٍ

وقال آخر :

كَأَصْدَى يُسْمَعُ مِنْهُ صَوْتُهُ فَإِذَا طَالَبْتَهُ لَمْ يَسْتَبِينَ
 « الصدا : ما يُجِيبُكَ مِنْ صَوْتِ الْجَبَلِ وَنَحْوِهِ بِمِثْلِ صَوْتِكَ »

من لا يبالي بتهديده

قال جرير :

زَعِمَ الْفِرْزَدِقُ أَنَّ سَيَقْتُلُ مِرْبَعًا

أَبْشِرْ بِطُولِ سِلَانَةِ يَامِرْبَعٍ

وقال مقاتل بن مسمع لعبد بن الحصين : لولا شيء لأخذت رأسك

فقال : أجل ، ذلك الشيء سيبنى ...

وقال ابن أبي عيينة :

فَدَعِ الوَعِيدَ فَمَا وَعَيْدُكَ ضَارِي أَطِينُ أَجْنِحَةِ الذُّبَابِ يَضِيرُ

وقال الفرزدق :

مَا ضَرَّ تَغْلِبَ وَائِلَ أَهْجَوْتَهُمَا أُمُّ بُلْتِ حَيْثُ تَنَاطَحَ البَحْرَانِ

وَأَبْرَقَ رَجُلٌ لِآخِرٍ وَأَرْعَدَ فَلَمَّا زَادَ أَنْشَدَ :

قَدِ هَبَّتِ الرِّيحُ طَوَلَ الدَّهْرِ وَاخْتَلَفَتْ عَلَى الجِبَالِ فَمَا نَالَتْ رِوَاسِيهَا

طائفة من عبقرياتهم

في الهزيمة والخوف وأن الفرار لا يبقى من الموت

قال جل شأنه : قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَنْ لَا تُنْتَمِعُونَ إِلَّا قَلِيلًا . « يقول سبحانه : إن ينفع الناس الفرار فإنه لا بد لكل شخص من حتف أنف أو قتل في وقت معين سبق به القضاء وجرى عليه القلم ، ثم قال جل شأنه : وَإِنْ نَفَعَكُمْ الْفِرَارُ مِثْلًا فَمَتَّعْتُمْ بِالتَّأخِيرِ لم يكن ذلك التمتع إلا تمتيعاً وزماناً قليلاً . وقال سبحانه : أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ . « البروج : الحصون ، والمشيَّدة المرتفعة » .

وقال عليُّ يوم الجمل : إن الموت طائبٌ حثيثٌ ، لا يُعْجِزُهُ الْمُقِيمُ وَلَا يَهْوِيهِ الْهَارِبُ ، وَإِنْ لَمْ تُقَاتِلُوا تَمُوتُوا ، وَإِنْ أَثْمَرَفَ الْمَوْتَ الْقَتْلُ .
ومن أمثال العرب : فلانٌ أجراً من فارسٍ خِصَافٍ . « وخِصَافٍ كَقَطَايِمِ فَرَسٍ قَالَ التَّسَابُونُ : كَانَ مَالِكُ بْنُ عَمْرِو النَّسَائِيُّ يُقَالُ لَهُ : فَارِسُ خِصَافٍ ، وَكَانَ مِنْ أَجْبَنِ النَّاسِ ، فَغَزَا يَوْمًا ، فَأَقْبِلَ سَهْمٌ حَتَّى وَقَعَ

عند حافرِ فريسه فانغرزَ في الأرض وجعل يَهْتَزُ حيناً فقال : إن لهذا السهم سبباً يَنْجُوهُ — يُحَرِّكُهُ — فاخترني عنه ، فإذا هو قد وقع على نفق يَرْبُوع فأصاب رأسه ، فتحرك الربوع ساعةً ثم مات ، فقال : هذا في جوفِ جُحْرٍ جاءه سهمٌ فَمَتَّلَهُ ، وأنا ظاهرٌ على فرسِ المارءِ في شيء ولا الربوعُ ، ولا أُقْتَلُ إلا بأجلى ، ثم شدَّ عليهم فأنتكى في القوم ، فكان بعد ذلك من أشجعِ الناس ... وكان معاوية يتمثل بهذين البيتين كثيراً :

أكانَ الجبانُ يرى أنه سَيُقْتَلُ قبلَ انقضاءِ الأجلِ
فقد تُدرِكُ الحادِثاتُ الجبانَ وَيَسْلَمُ منها الشجاعُ البَطَلُ

تفضيل القتل على الهرب

قال سُقراط لرجل هرب من الحرب : الهرب من الحرب فضيحة !
فقال الرجل : شر من الفضيحة الموت ، فقال سُقراط : الحياة إذا كانت
صالحة فسلمٌ ، وإذا كانت رديئةً فالموت أفضلٌ منها .
ولما قتل الاسكندرُ المقدونيُّ ملكَ الهند قال لحبائمه : لِمَ مَنَعْتُمُ الملكَ
من الطاعة ؟ قالوا : ليموتَ كريماً ولا يعيشَ تحت الذلِّ .

الممتنع من الفرار

قالت امرأة من عبد القيس :

أَبُوا أَنْ يَفْرُوا وَالْفَنَا فِي نُحُورِهِمْ ولم يَبْتَغُوا من حَشِيَّةِ الموتِ سُلْماً
ولو أَنَّهُمْ فَرُّوا لكانوا أَعْرَةً ولكن رأوا صبراً على الموتِ أَكْرَمًا

« ولم يبتغوا يروى : ولم يرتقوا ،

المعير بأهزامة

من كلام الحجاج : وَكَيْسُمُ كَالِإِبْلِ السَّوَارِدِ إِلَى أوطانها ، النوازع إلى أعطانها ، لا يَلْوِي الشَّيْخُ على بنيه ، ولا يسألُ المرءَ عن أخيه ... وقال أبو تمام من قصيدته البائية التي يمدح بها المعتصم ويذكر فتح عمورية :
وانهزام ملك الروم :

وَلَى وَقَدْ أَلْجَمَ الْخَطِيئَةَ مَنْطِقَهُ بِسَكْتَةٍ تَحْتَهَا الْأَحْشَاءُ فِي صَخَبِ (١)
أَحَدِي قَرَابِينَهُ صَرَفَ الرَّدَى وَمَضَى يَحْتَثُّ أَنْجَى مَطَايَاهُ مِنَ الْهَرَبِ (٢)
مَوْكَلًا بِيَفَاعِ الْأَرْضِ يُشْرِفُهُ مِنْ خِيفَةِ الْخَوْفِ لِأَمِنْ خِيفَةِ الطَّرَبِ (٣)

وقال البحترى من أبيات يمدح بها أحمد بن طولون :

تَخْطَى حُزُونَ الْأَرْضِ رَاكِبًا وَجْهَهُ لِيَمْنَعَ مِنْهُ الْبُعْدُ مَا يَبْذُلُ الْقُرْبُ
ولو كان حُرًّا النَّفْسِ وَالْعَيْشِ مُدْبِرًا لِمَاتِ وَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَفْهِ عَذْبُ
وقال أبو جعفر المنصور لبعض الخوارج : عَرَفْنِي : مَنْ أَشَدُّ أَحْسَابِي

إِقْدَامًا ؟ فقال : لأعرفهم بوجوههم ، فإنى لم أرَ إلا أقباءهم ...

وقال ابن الرومي في سليمان بن عبد الله بن طاهر :

قَرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ أَضْرَبَهُ شَوْقٌ إِلَى وَجْهِهِ سَيُذْنِفُهُ
لا يَعْرِفُ الْقَرْنَ وَجْهَهُ وَيَرَى قَفَاهُ مِنْ فَرَسِهِ فَيَعْرِفُهُ

وقال المتنبي لما أوقع سيف الدولة بيني عقيل وقشير وبني العجلان

(١) ولَى : أى ملك الروم ، وألجم الخطى منطقه : أخرسه السيف

(٢) أَحَدِي : أعطى ، وقرابينه : المقربون له جمع قربان وهو جليس الملك

الخاص يقول : أن ملك الروم قدم المقربين إليه هدية للبوت وفر على أحسن مطاياها وأنجمها .
(٣) يَفَاعُ ما ارتفع من الأرض ، ويشرفه : يعلوه

وبنى كلاب ويذكر إجفأهم من بين يديه :

فَلَزَّهُمُ الطَّرَادُ إِلَى قِتَالٍ أَحَدٌ سِلَاحِهِمْ فِيهِ الْفِرَارُ
مَضَوْا مُتَسَابِقِ الْأَعْضَاءِ فِيهِ لِأَرْؤُسِهِمْ بَأَرْجُلِهِمْ عِشَارُ

« لَزَّهُ إِلَى الشَّيْءِ : الْجِئَاءُ إِلَيْهِ وَأَدْنَاهُ مِنْهُ يَقُولُ : أَحْوَجَهُمْ طَرَادُكَ
لِيَاهِمُ إِلَى قِتَالٍ شَدِيدٍ لَمْ يَسْكُنْ لَهُمْ سِلَاحٌ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ غَيْرَ الْفِرَارِ ، ثُمَّ قَالَ
فِي الْبَيْتِ الثَّانِي : لِإِسْرَاعِهِمْ فِي الْهَرْبِ وَالْهَزِيمَةِ خَوْفًا مِنَ الْقِتَالِ كَانَتْ
أَعْضَاؤُهُمْ كَأَنَّمَا يَسَابِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، الْأَرْجُلُ تُسَابِقُ الرَّؤُوسَ وَالرُّؤُوسُ
تُسَابِقُ الْأَرْجُلَ ، وَكَأَنَّ الرَّؤُوسَ تَتَعَثَّرُ بِالْأَرْجُلِ حِينَ تَرِيدُ الرَّؤُوسُ
الْإِسْرَاعَ فَتَمْتَنِعُهَا الْأَرْجُلُ ، .

وقال زيد بن علي بن الحسين حين خرج من عند هشام مُغَضَّبًا :

مَا أَحَبَّ أَحَدُ الْحَيَاةِ إِلَّا ذَلًّا ، وَتَمَثَّلُ :

شَرَّدَهُ الْخَوْفُ فَأَزْرَى بِهِ كَذَاكَ مَنْ يَكْرَهُ حَرَ الْجِلَادِ
قَدْ كَانَ فِي الْمَوْتِ لَهُ رَاحَةٌ وَالْمَوْتُ حَتْمٌ فِي رِقَابِ الْعِبَادِ

« شَرَّدَهُ : جَعَلَهُ شَرِيدًا طَرِيدًا وَيُقَالُ : شَرَّدَهُ : إِذَا سَمِعَ بِهِ ، وَأَزْرَى بِهِ :
قَصَّرَهُ وَحَقَّرَهُ وَهَوَّنَهُ ، وَحَرَ الْجِلَادَ : شَدَّتَهُ ، وَالْجِلَادُ : الْقِتَالُ بِالسَّيْفِ ،

ترك اتباع المنهزم

قيل لعلي بن أبي طالب : أنت رجل محربٌ وتركبُ بغلة ، فلو اتخذتُ
الحيلَ لَفَقَالَ : أَنَا لَا أُفِرُّ مِنْ كَرٍّ وَلَا أَكْرُرُ عَلَى مَنْ فَرَّ . « مُحْرَبٌ
شَدِيدُ الْحَرْبِ مُشِجَاعٌ ، وَكَرَّ عَلَى الْعَدُوِّ يَكْرُرُ : عَطَفَ .
وَأَرْضَى الْإِسْكَندَرَ صَاحِبَ جَيْشِ لَهْ فَقَالَ : حَبَّبَ إِلَى أَعْدَائِكَ الْهَرْبَ .

قال : كيف أصنع ؟ قال : إذا ثَبَّتُوا جِدًّا في قنَاهِم وإِذَا أَنهَزُوا لَا تَتَّبِعَهُمْ .
وعَاتَبَ الحِجَاجَ المَهَلَّبَ بنَ أَبِي صُفْرَةَ في تَرْكِهِ اتِّبَاعَ الخَوَارِجِ . لَمَّا
أَنهَزُوا ، فَكَنَبَ إِلَيْهِ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الكَلْبَ إِذَا أَجْحَرَ عَقْرَ ...
« أَجْحَرَ : دَخَلَ الجُبْحَرُ » ،

الفارّ وقت الفرار والثابت وقت الثبات

قالوا : الهربُ في وقته خير من الصبر في غير وقته .
وقالوا : من هرب من معركة فعرف مصيره إلى مستقره فهو شجاع .
وقال معاوية يوماً : لقد عَلِمَ النَّاسُ أَنَّ الخَيْلَ لَا تَجْرِي بِمِثْلِي ، فَكَيْفَ
قال النجاشي : (١)

وَنَجَّى ابْنَ حَرْبٍ سَابِقِ ذُو عُلَّالَةٍ أَجَشُّ هَزِيمٌ وَالرَّمَّاحُ دَوَانِي (٢)
فقال عمرو بن العاص له : لقد أَعْيَانِي أَنْ أَعْلَمَ أَجْبَانَ أَنْتَ أَمْ

شجاع ؟ فقال :

شُجَاعٌ إِذَا مَا أَمْسَكْتَنِي فُرْصَةٌ ، وَإِلَّا تَكُنْ لِي فُرْصَةٌ بِجَبَانٍ
وقال المهلب بن أبي صفرة : الإقدام على الهلكة أضييع ، كما أن

(١) هو قيس بن عمرو بن مالك ... أحد بني الحارث بن كعب ، نسب إلى أمه
وكانت من الحبشة ، وكان من أشراف العرب ، إلا أنه كان فاسقاً ، وهو الذي أتى
به على رضى الله عنه وهو سكران في شهر رمضان ، فضربه ثمانين وزاد عشرين ،
فقال : ماهذه العلاوة يا أبا حسن ؟ قال : لجرأتك على الله وشربك في رمضان ، ولأن
ولدنا ناصيام وأنت مفطر . وبيته هذا من أبيات تراها في مجموعة المعاني طبع الجوائب
(٢) يقال لأول جرى الفرس : بدايته وللذي يكون بعده : علالته و فرس
أجش : غليظ صهيل وهو مما يحمى في الخيل . والهزيم من الخيل : الشديد الصوت

الإحجام عن الفرصة عجز .

وقال المتوكل الخليفة العباسي لأبي العيناء : إني لأفرقُ من أسارك ا
فقال : يا أمير المؤمنين ، الكريم ذو فرّقٍ وإحجام ، واللئيم ذو وقاحة وإقدام .
وقال الشاعر :

أفارتلُ حتى لا أرى لي مُقَاتِلاً وأنجو إذا غمَّ الجبانُ من الكَرْبِ

المتفادى من حضور الحرب

والمحتجُ لانهبائه بالخوف من القتل

قيل لأعرابي : ألا تغزو فإن الله قد أنذرك ؟ فقال : والله إني لأبغض
الموتَ على فراشي فكيف أهضي إليه ركضاً ا
ورأى المعتصم الخليفة العباسي في بعض مُتَنَزِهَاتِهِ أسداً ، فنظر إلى
رجل أعجبه زِينُهُ وقوامُهُ وسلاحُهُ فقال له : أفيك خيرٌ ؟ فعلم الرجل
مُرَادَهُ ، فقال : لا ، فقال : لا قَبَّحَ اللهُ سِوَاكَ .

واجتازَ كِسْرَى في بعض حُرُوبِهِ برَجُلٍ قد استَظَلَ بشجرة وأتى
سلاحه ورَبَطَ دَابَّتَهُ فقال له : يأنذل ، نحن في الحرب وأنت بهذه الحالة ا
فقال : أيها الملك ، إنما بلغت هذه السنَّ بالتوقّي ، فقال : زِهْ ،
وأعطاءه مالاً...

وقيل لرجل : إنك انهزمت اقال : غَضِبُ الأبهيرِ علي وأنا حتى خَيْرٌ من
أن يرضى وأنا نَيْت .
وقال أبو دلامة :

قالوا : تَقَدَّمْتُ قَلْتُ : لستُ بِفَاعِلٍ أخافُ على فَنَخَارَتِي أن تَحَطَّأَ

فلو كان لي رأسان أتلفتُ واحداً ولكنه رأسٌ إذا زال أعقما
ولو كان مُبتاعاً لدى السوقِ مثله فقلتُ ولم أخفِـل بأن أتقدّمَا
وقال :

يقول لي الأميرُ بغير نُصحٍ : تقدّم حين جدّ بنا المرأس
ومالي إن أطعتك من حياةٍ ومالي بعد هذا الراس رأس
وقيل لجبان : لم لا تُقاتل ؟ فقال : عند الطّاح يُغلب الكبشُ الأجم
« الأجم » : الذي لا قرن له ، وهذا مثل يُضرب لمن غلبه صاحبه بما أعدّه له
وقالوا : الشجاع مُلقبٌ والجبانُ موقى ، وقال البديع الهمداني :
ماذا قَهما كالشجاع ولا خلا بسمرة كالعاجز المتواني
وهرب سليمان بن عبد الملك من الطاعون ف قيل له : قُلْ لَنْ ينفَعكم
الفرارُ إن فررتم من الموت أو القتلِ وإذا لا تُمتعون إلا قليلا . فقال
ذلك القليلُ تُريد .

هارب يعتذر عن هربه

بأنه نبوة أو قدر

قال زُفر بن الحارث وقد فرّ يوم مرج راهط عن رقيقه :
أيذهبُ يومٌ واحدٌ إن أسأتهُ بصالحِ أيتامٍ وحُسينِ بَلائيا
فلم تُرَ مني زلّةٌ قبلَ هذه فرارى وتركي صاحبي ورائيا
وقديماً قال عمرو بن معديكرب — وكان قد فرّ من بني عبس :
وليس يُعابُ المرءُ من جبنِ يومه إذا عرِفَتْ منه الشجاعة بالأمس
وقد تقدّم قول الشاعر الجبان :

قَامَتْ تُشَجِّعُنِي رَهْدَ فَقَلْتُ لَهَا : إِنَّ الشَّجَاعَةَ تَمَرُونَ بِهَا الْعَطْبُ
 لَا وَالَّذِي مَنَعَ الْأَبْصَارَ رُؤْيَتَهُ مَا يَشْتَهَى الْمَوْتَ عِنْدِي مَن لَه أَرَبُ
 لِلْحَرْبِ قَوْمٌ أَضَلَّ اللَّهُ سَعِيَهُمْ إِذَا دَعَتَهُمْ إِلَى نِيرَانِهَا وَثَبُّوا
 وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلَا أَهْوَى فَمَا لَهُمْ لَا الْقَتْلُ يُعْجِبُنِي مِنْهَا وَلَا السَّلْبُ
 وَجَاءَ فِي كَلِيلَةِ وَدِمْنَةَ : إِنَّ الْحَازِمَ يَكْرَهُ الْقِتَالَ مَا وَجَدَ بُدًّا مِنْهُ ،
 لِأَنَّ النَّفَقَةَ فِيهِ مِنَ الْأَنْفُسِ وَالنَّفَقَةَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَالِ . وَفِي هَذَا الْمَعْنَى
 يَقُولُ أَبُو تَمَّامٍ :

كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ إِنَّمَا تَفَقَّاتُهُمْ مَالٌ وَقَوْمٍ يُنْفِقُونَ نَفْسًا

المتخلف عن قومه

قَالُوا : الشُّجَاعُ يُقَاتِلُ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ ، وَالْجَبَانُ يَفِرُّ مِنْ عِرْسِهِ ، وَالْجَوَادُ
 يُعْطَى مَنْ لَا يَسْأَلُهُ ، وَالْبَخِيلُ يَمْتَنِعُ مِنْ نَفْسِهِ . وَقَالَ الشَّاعِرُ :
 يَفِرُّ جَبَانُ الْقَوْمِ عَنْ أُمَّ نَفْسِهِ وَيَحْمِي شُجَاعُ الْقَوْمِ مَنْ لَا يَتَأَسَّبُهُ
 وَيُرْزَقُ مَعْرُوفَ الْجَوَادِ عَدُوَّهُ وَيُحْرَمُ مَعْرُوفَ الْبَخِيلِ أَقَارِبُهُ
 وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعْتَبِرُ الْحَارِثُ بْنُ إِهْشَامٍ حِينَ
 فَرَّ يَوْمَ بَدْرٍ :

إِنَّ كُنْتُ كَاذِبَةً الَّذِي حَدَّثَنِي فَتَجَوَّتِ مَنْجَى الْحَارِثِ بْنِ إِهْشَامٍ
 تَرَكَ الْأَحْبَبَةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ وَنَجَا بِرَأْسِ طِمْرَةٍ وَجِلَامٍ
 مَسَلَتْ بِهِ الْفَرَجَيْنِ فَارْمَدَتْ بِهِ وَتَوَسَّى أَحِبَّتُهُ بَشَرًا مُقَامِ
 « الطَّمْرَةُ : الْفَرَسُ الْكَثِيرُ الْجَرَى ، وَالْفَرَجَانُ : مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا
 وَمَلَأْتُهُمَا : مَلَأْتُهُمَا جَرِيًا . وَارْمَدَتْ : أَسْرَعَتْ ، وَتَوَسَّى : أَقَامَ »

وقال أبو تمام من تصيدة يمدح بها المعتصم ويذكر هزيمة بابك
الْحُرْمِيِّ :

ونجا ابنُ خائنةِ البُعولةِ لو نجا بِمُهْفَهْفِ الكَشْحَيْنِ والآطالِ
تركُ الأَحْبَةَ سَالِيًا لا ناسِيًا عُدْرُ الدُّسِيِّ خِلافُ عُدْرِ السَّالِيِ
« خائنة البعولة : كناية عن الزانية ، والكشحان : جانبا البسطن من
ظاهر وباطن ، والمهفف : الضامر الدقيق ، والآطال جمع لاطل وإطل كإبل
ولإبل : الخاصرة ، والدسي : الناسي ،

من نجا وقد استولى عليه الخوف

قال أبو تمام من قصيدة يمدح بها أبا ذؤف ويذكر هزيمة بابك
الْحُرْمِيِّ كذلك :

ظَلَّ القَا يَسْتَقِي من صَفِّهِ مُهْجَا إِمَّا مُسَادًا وإِمَّا ثَرَّةً خُسُفَا
مِنْ مُشْرِقِ دَمِهِ فِي وَجْهِهِ بَطْلٌ ووَاهِلٍ دُمُهُ لَلرُّعْبِ قَدْ نَزِفَا
فَذَاكَ قَدْ سَقَيْتَ مِنْهُ القَنَا جُرْعَاً وَذَاكَ قَدْ سَقَيْتَ مِنْهُ القَنَا نُطْفَا
« من صفه : من صنف بابك ، والمهج جمع هجة : دم القلب . والشماد :
الماء القليل ، والثرة : من قولهم : عين ثرة : كثيرة الماء ، والخسف
جمع خسيف وخسوف : البئر لا ينقطع ماؤها ، والواهل : الخائف جداً ،
ونزف : ذهب دمه ، وبطل إما قرأته بالرفع على أن دمه مبتدأ وبطل خبر
ولك أن تقرأه بالخفض على أنه مردود إلى مشرق ويكون دمه فاعل مشرق
وقوله : فذاك ... ألبيت أراد أبو تمام أن يقول : البطل الذي دمه في
وجهه سقيت الرماح منه جرعاً ، أى كثيراً ، والجبان الذي طار دمه من

الفرع سقيت منه نطفاً أى قليلاً، وتد يدير عن الكثير بالنطفة فيكون د
الأولُ مراداً به الجبان والثانى مراداً به البطل ،
وقيل لرجل تعرّض له الأسد فأفقت منه : كيف حالك ؟ قال
تسلّيتُ غير أن الأسدَ تحراً في سراويلي ...
وقالت امرأةٌ من بنى المهلب :
فإن ثبّتوا فعمّرهم قصيرٌ وإن هربوا فويلهم طويلٌ

تسليّة المنهزم

قال المتنبي يعتذر عن سيف الدولة في هزيمة وقعت لجماعة من جيشه
قلّ للدمستق إنّ المسلمين لكم خانوا الأميرَ فجازاهم بما صنعوا
وجدتموهم زبياً في دمايتكم كأنّ قتلاكم إياهم فجعوا
لا تحسبوا من أسرتكم كان ذا رمقٍ
فليس يأكل إلاّ الميت الصبغُ
وإنما عرض الله الجنودَ بكم لكتى يكونوا بلا قسلي إذا رجعوا
فكلّ غزو إليكم بعدّ ذا فله وكلّ غازٍ لسيف الدولة التبعُ
« الدمستق : قائد جيش الروم ؛ و : المسلمين — بفتح السلام — :
الذين أسلّهم سيف الدولة للعدو لتخاذلهم عنه ، وقوله : وجدتموهم ... البيت
هو بيان لما صنعوا ، وقوله : في دمايتكم : أى في دماء قتلاكم وذلك أنهم
تخلّوا قتلى الروم فملطخوا بدمايتهم ، وألقوا أنفسهم بينهم تشبها بهم خوفاً
من الروم ، ثم قال : كأنهم كانوا مفجوعين بقتلاكم فهم فيما بينهم يتوجعون
لهم ، وقوله : لا تحسبوا من أسرتكم ... البيت ، يقول : ليس لكم أن تفخروا

بهؤلاء الذين أسرتهم ولا تظنّوهم كان فيهم رَمَقٌ - بقیة حياة - وإنما هم
 أموات، من الجبن والخوف، وأنتم إِيْحَسْتِيكُمْ ودناءة نفوسكم لا تقدرون إلا
 على أمثالهم، كما أن الضبُع لا تفترس إلا الجثث الميتة. وقوله: وإنما
 عَرَّضَ اللهُ... ألبیت يقول: إنما خذله الله هؤلاء الجنود وجهلهم لكم
 عرضة ليظهر الله عسكر سيف الدولة من أمثالهم فيعود إليكم بجنود أبطال
 ليس فيهم فَنَسْلٌ ولا نذل. وقوله: فكل غزو إليكم... ألبیت يقول
 فكل غزوة إليكم بعد اليوم تكون له لا عليه لأن الأدياء من جنوده قد
 أسروا ولم يبق إلا المختارون من الأخيار، وكل غاز تبع له لأنه سيّد
 الغزاة.

ولما انهمز بعض القواد دخلَ عليه بعض الأفاضل فقال: الحمدُ
 لله الذي نظر لنا عليك ولم ينظر لك علينا، فقد تقدّمت للشهادة بجهدك
 ولكن علمَ اللهُ حاجتنا إليك فأبقاك لنا.

صدر من عبقرياتهم في الجبن

قال سبحانه وتعالى: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو...
 . وقالت عائشة رضی الله عنها: إنَّ الله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير،
 كلما خَفَقَتِ الریحُ خَفَقَتْ معها، فأفٍ للجبناء، أفٍ للجبناء.
 وبما قيل في الجبن من الشعر القديم قول القائل:
 ولو أنها عصفورةٌ لحسبتُها مُسَوِّمةٌ تدعو عُبيداً وأرئماً
 «يقول لورأيت عصفورة لحسبتُها من جُبنك خيلاً مُسَوِّمةً؛ وعبيد
 وأرئم: قبيلتان»

ومثله قول عروة بن الورد :

وأشجعُ قد أدركتهم فوجدتهم
يخافونَ خطفَ الطير من كلِّ جانبٍ
وقال الآخر :

ملزمتَ تحسبُ كلَّ شيءٍ بعدهمُ
خيلاً تكثرُ عليهم ورجالا
وقال ابنُ الرومي :

وفارسٍ أجهنَ من صفرٍ
يحول أو يغور من صفرة

لو صاح في الليل به صاحُ
لكانت الأرض له طافراً

يرحمه الرحمن من جبينه
فيرزقُ الجندَ به النصراً

« الصَّفَرِدُ : طائر جبان يقال له : أبو المليح ،

وقال أبو تمام :

حيرانُ يحسبُ ينجفَ النقعِ من دَهَشِ

طُوداً يُحاذِرُ أن ينقضَ أو جُرُفاً

« السجف : الستر ، والنقع : غبار الحرب ، والطود : الجبل ، والجرف :

جانب الجبل الأملس »

وقال دَعْبِل :

كانَ نَفْسَهُ مِنْ طُولِ حَيْرَتِهَا
مِنها على نفسه يومَ الوغى رَصْدُ

وأنى الحجاجُ برجلٍ من أصحابِ ابنِ الأشعثِ ، فقال للحجاج : أسألكَ

أنْ تَقْتُلَنِي وَتُخَلِّصَنِي ، فقال له الحجاج : لِمَ ؟ فقال : إني أرى كلَّ ليلةٍ

في المنام أنك تقتلني ، وقِتْلَةٌ واحدةٌ خير ، فَضِحِكَ وَخَلَى سَبِيلَهُ .

من يظهر الشجاعة خارج الحرب

ويجبن فيها

قالوا : فلان يتتعاب في الهيجاء ويتنمر في الرخاء .

وقال دُعبل :

أسودٌ إذا ما كان يومُ كريمةٍ ولسكنهم يوم اللقاعِ ثمالِبُ

وقال :

غيرُ رأى أسدَ العرينِ فراعهُ حتى إذا وتى تولى ينهَى

وقال آخر :

يفرُّ بحيثُ تختلفُ العرالي وإن ياتنُ فذر كبروتيه

عقريات شتى

في الشجاعة والحرب

قالوا : أحسن ما قيل في وصف الحرب والمتحاربين قول الأول :

كان الأُفقُ محفوفٌ بنارٍ وتحت النارِ آسادٌ تزيُرُ^(١)

ومما يتصل بذلك ما قيل في ليالى صفين :

الليلُ داجٍ والكباشُ تلتطِجُ نطاحَ أسدٍ ما أراها تَصْطَلِجُ

فمن يُقَاتِلُ في وعاها مانجا ومن نجا برأسه فمقد ربيح^(٢)

(١) تصحيح غضباً. وأصله مهموز من زار الأسد يزيرو بزارة : صاح وغضب
(٢) في أمثال الميداني : قال أبو عبيد : وهذا الشعر أراه قبل في ليالى صفين ثم

وكان يزيد بن عُمَرَ بن هُبَيْرَةَ والى العراقين من قِبَلِ بَنِي أُمَيَّةَ لَا يُعِيذُ
نَصْرَ بَنِي سَيَّارٍ وَالِىَ خُرَّاسَانَ مِنْ قِبَلِهِ بِالرُّجَالِ ، وَلَا يَرْفَعُ مَا يَرُدُّ عَلَيْهِ
مِنْ أَخْبَارِ خُرَّاسَانَ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ آخِرِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ ، فَلَمَّا كَثُرَ
ذَلِكَ عَلَى نَصْرِ كَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا وَفِيهِ هَذِهِ الْأَيَّاتُ :

أَرَى تَحَالَ الرَّمَادِ وَمِیْضَ جَمْرِ (١) وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامٌ (٢)
فَإِنَّ النَّارَ بِالْعُودَيْنِ تُنذَكِي وَإِنَّ الْحَرْبَ أَرْهَابُ الْكَلَامِ (٣)
فَإِنْ لَمْ يُطْفِئْهَا عُقْلَاءُ قَوْمٍ يَكُونُ رَفُودَهَا جُبْتٌ وَهَامٌ
فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شِعْرَى أَأَيْقَاطُ أُمَيَّةَ أُمَ نِيَامٌ
« قَوْلُهُ : وَإِنَّ الْحَرْبَ أَرْهَابُ الْكَلَامِ نَحْوُهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : إِنَّ الْفِتْنَةَ تُتْلَقُ حُجًّا
بِالنَّجْوَى وَتُنْتَجُّ بِالشُّكْوَى ... »

وَمَا قِيلَ فِي كَثْرَةِ الْجَيْشِ مِنْ قَدِيمِ الشَّعْرِ قَوْلُ الْأَخْضَسِ بْنِ شَهَابِ
التَّمْلِيحِيِّ وَهُوَ مِمَّنْ حَضَرَ حَرْبَ الْبَسُوسِ :

بِجَاوَاءَ يَتَفَنَّى وَرُدُّهَا سَرَعَانَهَا كَأَنَّ وَمِیْضَ الْبَرْقِ فِيهَا كَوَاكِبُ
« الْجَاوَاءُ : السَّكْتِيَّةُ يَضْرِبُ لَوْنُهَا إِلَى الْكُلْفَةِ — اللَّوْنُ السَّكْدِرُ —
وَذَلِكَ مِنْ صَدَأِ الْحَدِيدِ ، وَالسَّرَعَانُ : الْأَوَائِلُ ، يَقُولُ : إِنَّ الْمِيَاءَ لَا تَسْتَمُهِمُ
وَالْأَمَاكِنُ تَضِيقُ بِهِمْ فَكَلَّمَا نَزَلَتْ فَرَقَهُ مِنْهُمْ رَحَلَ مِنْ تَقَدَّتْهُمْ ،
وَقَوْلُ أَوْسِ بْنِ حَجْرٍ :

قال : وقوله « ومن نجبا برأسه فقد ربح »
هو مثل يضرب في إبطاء الحاجة وتعذرها حتى يرضى صاحبها بالسلامة منها .
(١) خلل الرماد : خلاله
(٢) تذكى : تلهب وتضرم

ترى الأرض منا بالفضاء مريضة

مُضِنَّةٌ مِنَّا بِجَمْعِ عَرْمَرِمٍ

« عَضَّتِ الأَرْضُ بأهلها : إذا ضاقت بهم لكثرتهم ! وعَضَّتِ المرأة بولدها تعضيلًا : إذا كَثِبَ الولد فخرج بعضه ولم يُخْرَجْ بعض فبقِيَ مُعْتَرِضًا ، وقال أبو نُوَاس :

أمامَ تَحْمِيْسِ أَدْجَوَانٍ كَأَنَّهُ قَمِيصٌ مَحُوكٌ مِنْ تَمًا وَجِيَادٍ

« الأَدْجَوَانُ : الأسود ، واشتقاقه من الدُّجَى ، وُبروى : أَرْجَوَانٍ ،

وهو : الأحمر .

وقال ابن الرومي :

فَلَوْ حَصَبْتَهُمْ بِالْفَضَاءِ تَحَابَةً لَطَلَّ عَلَيْهِمْ حَصْبُهَا بِتَدْحَرُجٍ

وهو من قول قيس بن الخطيم :

لَوْ أَنكَ تُنَلِّقِي حَنْظَلًا فَوْقَ بَيْضِنَا تَدْحَرُجٌ عَن ذِي سَامِهِ المَتَقَارِبِ

« البَيْضُ جمع بَيْضَةٍ : الخُوذة ، سميت بذلك لأنها على شكل بَيْضَةِ

النعام ، والحَنْظَلُ ثمر يشبه البطيخ لكنه أصغر منه جدًا ويضرب المثل

بمرارته ، وقوله : عَن ذِي سَامِهِ ، أى على ذِي سَامِهِ ، فِدْنٌ فِيهِ بِمَعْنَى عَلَى وَالْهَاءِ

فِي سَامِهِ يَرْجِعُ إِلَى البَيْضِ المَمَّوهِ بِهِ ، أى البَيْضِ المَمَّوهِ بِالسَّامِ ، وَالسَّامُ :

عُرُوقُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَهِيَ هُنَا الطَّرَائِقُ المَذْهَبَةُ فِي البَيْضِ ، قَالَ الإِمَامُ

ثَعْلَبُ : مَعْنَاهُ : أَنَّهُمْ تَرَاثَرُوا فِي الحَرْبِ حَتَّى لَوْ وَقَعَ حَنْظَلٌ عَلَى رُؤُوسِهِمْ

عَلَى إِمْلَاسِهِ وَاسْتَوَاءِ أَجْزَائِهِ لَمْ يَنْزِلْ إِلَى الأَرْضِ ،

وقال أبو عمرو بن العلاء : أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي صِفَةِ الجَيْشِ قَوْلُ النَابِئَةِ :

إِنِّي لِأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ مِنْ أَجْلِ بَنَضَائِكُمْ يَوْمٌ كَأَيَّامِ

أَوْ تَزْجُرُوا مُكْفَهَرًا لَا كِفَاءَ لَهُ كَاللَّيْلِ يَخْطِطُ أَصْرَامًا بِأَصْرَامٍ
تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ نُورًا بِنُورٍ وَإِظْلَامًا بِإِظْلَامٍ
« أَوْ تَزْجُرُوا عَطْفَ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، وَالْمَكْفَهَرُ : الْجَيْشُ الْعَظِيمُ ، وَلَا
رِكَفَاءَ لَهُ : لَا نَظِيرَ لَهُ ، وَيَخْطِطُ أَصْرَامًا بِأَصْرَامٍ إِمَّا جَعَلْتَهُ صِفَةً لِلَّيْلِ وَالْأَصْرَامُ
جَمْعُ صَرِيمٍ وَهُوَ اللَّيْلُ الْمَظْلَمُ فَيَكُونُ الْمَعْنَى يَخْطِطُ مُظْلِمًا بِمُظْلِمٍ ، وَإِمَّا جَعَلْتَهُ
صِفَةً لِلجَيْشِ تَكُونُ الْمَعْنَى : يَخْطِطُ كُلَّ حَتَّى بِقَبِيلَتِهِ خَوْفًا مِنَ الْإِغَارَةِ عَلَيْهِ ،
وَقَوْلُهُ : تَبْدُو كَوَاكِبُهُ ... الْبَيْتُ يَرِيدُ : شِدَّةَ الْحَوْلِ وَالْكَرْبِ ، وَهَذَا كَمَا
تَقُولُ الْعَامَّةُ : أَرَيْتَهُ النُّجُومَ وَسَطَ النَّهَارِ .

قال الفرزدق : * أربك نجوم الليل والشمس حية *

وقال طرفة : * وتربك النجم يجرى بالظهور *

وفي هذا المعنى يقول جرير :

والشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمر
يقول : إنَّ الشمس طالعة وليست بكاسفة نجوم الليل ، لشدة الغم
والكرب الذي فيه الناس ، فنجرم مفعول كاسفة ،

قالوا : وأحسن من قول النابغة قول زيد الخيل :

بني عامر دل تعرفون إذا غدا أبو مسكئف قد شدَّ عقد الدوائر
بجيش تضلُّ البلق في حجراته ترى الأكم منه سجداً للحوافر
وجمع كمثل الليل من تجس الوغى كبير تواليه سريع البوادر
« قوله : قد شدَّ عقد الدوائر أراد : شدَّ دوائر البيضة — أى
مآخبرها — بالدرع اثلاً تسقط إذا ركض الفارس : وقوله : تضلُّ البلق
في حجراته فجراته : نواحيه جمع حجرة يقول لكثرت له لا يرى به إلا البلق

والأبلق مشهور المنظر لاختلاف لونه — السواد والبياض — وكان رؤساء العرب لا يركبون البلق في الحرب لئلا تنيم عليهم فيقتصدوا بشراً، وقوله: ترى الآكم منه سجداً للحرافر يقول: لكثرة الجيش يطحن الآكم حتى يابصقها بالأرض: * يدع الآكام كأنهن صحارى * وقوله: كمثل الليل يريد: ظلمة يكاد سواده لكثرتيه يسد الأفق، والوعى: الأصوات، والارتجاس: صوت الشيء المختلط العظيم كالجيش والرعد، والتوالى: اللواحق «

ومن بارع ما قيل في السكيد في الحرب قول أبي تمام:

هَزَزَتْ لَهُ سَيْفًا مِنَ السَّكِيدِ إِنَّمَا يُجَادُّ بِهِ الْأَعْنَاقُ مَا لَمْ يُجَرِّدِ
يَسْرُ الَّذِي يَسْطُو بِهِ وَهُوَ مُعَمَّدٌ وَيَفْضَحُ مَنْ يَسْطُو بِهِ غَيْرَ مُعَمَّدِ

«يقول: إن أخفقت السكيد ظفرت وسررت، وإن أظهرته انتضحت وخبث، وقال يصف أفاعيل رُوح الممدوح في أعدائه:

أَنْهَبَتْ أَرْوَاحَهُ الْأَرْوَاحُ إِذْ سُرِعَتْ فَمَا تُرَدُّ لَرَيْبِ الدَّهْرِ عَنْهُ يَدُ^(١)
كَأَنَّهَا وَهِيَ فِي الْأَوْدَاجِ وَالغَيْةُ وَفِي السُّكِيِّ تَجِدُ النِّيْظَ الَّذِي تَجِدُ
مَنْ كُلِّ أَرْزَقٍ نَظَارٍ بِلَا نَظَرٍ إِلَى الْمَقَاتِلِ مَا فِي مَتْنِهِ أَوْدُ^(٢)
كَأَنَّهُ كَانَ خِدْنِ الْحَبِّ مُذْ زَمَنِ فَلَيْسَ يُعْجِزُهُ فُلْبٌ وَلَا كَكِيدُ

(١) أرواحه: أرواح بابك الخزى ومن معه، وقوله فما ترد الدهر عنه يد (١) الخزى يعد هذه الواقعة وما نزل به من أفاعيلك ستتوالى عليه نوب الدهر فلا ترد يد لريب الدهر عنه (٢) أود: اعوجاج

ماغزى قوم قط في عقر دارهم

إلا ذلوا

ومن حُظبة لعل بن أبي طالب رضى الله عنه وقد انتهى إليه: ^(١) أن خيلا لمأوية ^(٢) وردت الأنبار فقتلوا عايلا له يُسمى حسان بن حسان، فخرج مُغضباً يجر ثوبه حتى أتى الأُخيلة ^(٣)، وأتبعه الناس فرقى رِبارة من الأرض ^(٤) فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال: «أما بعد، فإن الجها بابٌ من أبواب الجنة، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله الذلَّ، وسيمَّ الخسفَ، ودُيِّتَ بالصغار، وقد دعوتكم إلى حربٍ هؤلاء القوم ليلا ونهاراً وسراً وإعلناً وقلت لكم: أغزوه من قبل أن يغزوكم فالذى نفسى بيده: ماغزى قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا، فتخاذلتم وتواكمتُم وثقلَ عليكم قولى واتخذتموه وراعكم ظهيراً، حتى شدت عليكم الغارات، هذا أخو غامد قد وردت خياله الأنبارَ وقتلوا حسان بن حسان ورجالا منهم كثيرا ونساءً، والذى نفسى بيده: لقد بلغنى أنه كان يُدخِل على المرأة المسلمة والمعاهدة ^(٥) فتتزوج أحجأهما ورعتهما ثم أنصرفوا

(١) أنها إلى عالج من الأنبار، وكان على يرمثد بالكوفة وقد تفرقت أصحابه عنه بعد حرب صفين وحكومة الحكيمين (٢) بروى أنه وجه سفيان بن عوف ابن المغفل الغامدى فى ستة آلاف وأمره أن يتجدر إلى دهيت، ثم إلى الأنبار، فيوقع بأهلها فقتل من أصحاب على حسان عامله عليها وثلاثين رجلا واحتمل ما فيها من الأموال؛ ودهيت - بكسر الهاء - بلد على شاطئ الفرات، والأنبار: مدينة بالعراق كذلك على شاطئ الفرات غربى بغداد بينهما عشرة فراسخ
(٣) اسم موضع خارج الكوفة (٤) اسم لكل مرتفع من الأرض كالرُبوة
(٥) المرأة الذمية ذات العهد

مؤثورين لم يسكنهم منهم أحد كلاً ، فلو أن امرأً مسليماً مات من دون هذا أسفاً ما كان فيه ملوماً بل كان به عندي جديراً . يا عجبا كل العجب ، عجبٌ يُميت القلبَ وَيَشغَلُ القومَ وَيَكثيرُ الأحرانَ ، من تضافرٍ هؤلاء القومِ على باطلهم وفشلهم عن حَقِّكم حتى صبحتم غرَضاً تُرون ولا ترون ، وبُغارٍ عليكم ولا تُغيرون ، ويُعصى اللهُ عز وجل فيكم ولا ترضون ، إذا قلتُ لكم : اغزوم في الشتاء قاتم : هذا أو أن قرو وضراً ، وإن قلتُ لكم : اغزوم في الصيف قاتم : هذه سخارة القيظ أنظرنا ينصرمُ الحرُّ عنا ، فإذا كنتم من الحر والبرد تفرّون فأنتم والله من السيف أفرّ : يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا طغاة الأحلام ، ويا عقول ربّات الحجال ، والله لقد أفسدتم على رأى بالعصيان ، ولقد ملأتم جوفى غيظاً ، حتى قالت قريش : ابنُ أبي طالب رجلٌ شجاعٌ ولكن لا رأى له في الحرب ! الله درهم ، ومن ذا يكونُ أعلمَ بها مِنِّي أو أشدَّ لها مراساً ! فوالله لقد تمضتُ فيها وما بلغتُ العشرين : ولقد نيفتُ اليوم على السنين ولكن لا رأى لمن لا يطاع ... » وإليك شرح بعض ألفاظ هذه الخطبة الخالدة ، قوله : وسيم الخسف معناه : كُلفٌ وألزمٌ وجشَمٌ قال تعالى : يسومونكم سوء العذاب . أى يجشمونكم أشدَّ العذاب ، فسيمٌ : كُلفٌ وألزمٌ ، والخسف : الذل والهوان ، وأصله أن تُحبس الدابة على غير علف ثم استعير فوضع موضع الهوان : ودَيْتٌ : دُلِّلٌ . ومنه اشتقاق الدُّيوت وهو : الرجل الذى لا غيرة له . وقوله : فى عُقرِ دارهم : أى فى أصل دارهم ، والعُقر : أصل كلِّ شيء ومن ثم قيل . لفلان عُقارٌ : أى أصل مالٍ يعتمد عليه من منزلٍ وضيعةٍ ونخيلٍ ونحو ذلك . وقوله : وتواكلتم يقال : وتكَلتُ

الأمر إليك ورَكَتْهُ أَنْتَ إِلَى : أى لم يَتَوَلَّهُ واحد منا دون صاحبه
ولكن أحوال به كل واحد منا على الآخر : وقوله : واتخذتموه وراءكم
ظهيرًا : أى رَمَيْتُمْ به وراء ظهوركم ، أى لم تلتفتوا إليه ، ويقال فى المثل :
لا تجعل حاجتى منك يَظْهَرُ : أى لا تَطْرَحْهَا غَيْرَ نَاطِرٍ إِلَيْهَا ، وقوله : حتى
شُدَّتْ عَلَيْكَ الْغَارَاتُ : أى صُدَّتْ وَبُدَّتْ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ وَجْهِ . وقوله :
فتنزع أحجالها معنى : الخلائيل واحدها حجل . والرَّعْتُ : جمع رعات
جمع رَعَيْتُهُ والرَّعَيْتُهُ : الشَّنْفُ أى القُرْطُ الذى يوضع فى الأذن : وقوله :
وانصرفوا موفورين أى : لم يُرْزَوْا ، أى لم يُصَابُوا ولم يُنَلَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ
فى بدنه ولا ماله . ولم يُكَلِّمْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أى لم يُخَدِّشْ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَدَشًا .
وكلُّ جُرحٍ صَغُرَ أو كَبُرَ فهو كَلِمٌ . وقوله : مات من دون هذا أَسْفًا يريد :
تَحْسُرًا . وقوله : من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم أى : من تعاونهم
وتظاهروهم . ويقال : نَشِلَ فلان عن كذا : إذا هَابَهُ جُبْنًا وفزعاً فأَحْجَمَ
عنه وامتنع من المضى فيه . والقَرَّ — بضم القاف — البرد أما القَرَّ
— بالفتح — فهو اليوم البارد . والقَرَّ — بكسر الصاد — شدة البرد
قال تعالى : كمثل ريحٍ فيها صِرٌّ . والقيظ : الصيف ، وسمَّارته : اشتداد حره
وأحتدأته . والطَّغَامُ : من لا عقل له ولا معرفة عنده . وقوله : وباعقول
رَبَاتِ الْحِجَالِ : فالحجال جمع الحَجَلَة وهى كَالْقَبَّةِ ويبت للدروس يُزَيْنُ بِالشَّيَابِ
وَالسُّتُورِ ، يُنْسَبُهُمْ إِلَى ضَعْفِ النِّسَاءِ «

ومن رائع الشعر القديم فى باب الحثِّ على الإقدام والذود عن الذمَّار
ووصفِ الأبطال والمتخاذلين المتباطئين قول شاعر من بنى العنبر اسمه

قُرَيْطُ بْنُ أُنَيْفٍ — شاعر إسلامي — وكان ناسٍ من بني شيبان قد أغاروا عليه فأخذوا له ثلاثين بعيراً فاستنجد قومه فلم يُنجدوه فأتى مازنَ تميم فركب معه نفرًا فأطردوا لبني شيبان مائة بعير فدفعوها إليه فقال هذه الآيات التي افتتح بها أبو تمام حماسته :

لو كنتُ من مازنٍ لم تَسْتَبِجْ لِإِبِلِي	بنو الشَّقِيقة من ذُهَلِ بنِ شيبانا
إِذَا لَقَامَ بِنَصْرِي مَعْشَرُ خُشْنٍ	عند الحَفِيظَةِ إِنَّ ذُو لُؤْتَةَ لَنَا
قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِدِيهِ لَهْمٌ	طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوَحْدَانَا
لَا يَسْأَلُونَ أَحَاهِمَ حِينَ يَتَدُبُّهُمْ	فِي النَّائِبَاتِ عَلَى مَا قَالِ بُرْهَانَا
لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ	لِيُسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا
يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً	وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ السُّوءِ إِحْسَانَا
كَأَنَّ رَبَّكَ لَمْ يَخْلُقْ لِحَشِيَّتِهِ	سِوَاهُمْ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ إِنْسَانَا
فَأَيَّتَ لِي بِهِمْ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا	شَنُّوا الْإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانَا

« بنو الشقيقة هي الرواية الصحيحة وإن كانت رواية شراح الحماسة : بنو اللقيطة ، والشقيقة : امرأة من بني ذهل بن شيبان ، وبنوها كانوا سيارة مردة ليس يأتون على شيء إلا أفسدوه ، وأما اللقيطة فهي امرأة من فزارة ، هكذا زعم أبو محمد الأعرابي . والاستباحة : في معنى الإباحة وهي شياؤها ، استباحه : انتهبه حتى لكانه مباح لا تبعه عليه فيه ، وخشن جمع أخشن وهو من صفات الرجال مثل يراد به امتناع الجانب وإبائه الضم . ورجل ذو لؤثة : بطيء متمكث ذو ضعف واسترخاء ، يقول : لولم أكن من بني العنبر وكنت من بني مازن ثم نالني من بني الشقيقة مانالني من استباحتهم لإبلي لكان لي منهم من ينصرني عليهم ويأخذ بحق اقتساراً منهم

إذا لَانَ ذُو الضَّعْفِ وَالرَّهْنُ فَلَمْ يَدْفَعْ ضِيماً وَلَمْ يَحْمِ حَقِيقَةً ، وَمُرَادُ الشَّاعِرِ تَسْبِيحُ قَوْمِهِ عَلَى الْإِتْتِقَامِ لَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ لِأَنَّ ذَمَّهُمْ ، وَالْحَفِيزَةَ : الْغَضَبَ وَالْحَمِيَّةَ وَالْمَنْعَ لِلشَّيْءِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَحَاطَظَ عَلَيْهِ . وَقَوْلُهُ : قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَدْبَى نَاجِدِيهِ لَمْ يَأْبِدْ الشَّرَّ نَوَاجِدَهُ مِثْلُ لَشِدَّتِهِ وَصَوْلَتِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ السَّبُوحَ إِذَا صَالَ أَوْ شَدَّ كَثَرَ عَنْ أَنْيَابِهِ ، فَشَبَّهَ الشَّرَّ بِهِ فِي حَالِ شِدَّتِهِ ، وَطَارُوا إِلَيْهِ يَرِيدُ : أَسْرَعُوا إِلَيْهِ ، وَوَحْدَانَا جَمْعٌ وَاحِدٌ كِرَاكِبٌ وَرُكْبَانٌ ، وَالزَّرَافَاتُ : الْجَمَاعَاتُ ، يَقُولُ فِي هَذَا الْبَيْتِ . لَأَنَّهُمْ لِلْحَرِصِمْ عَلَى الْقِتَالِ وَحُبِّهِمْ لِيَاةٍ لَا يَلْتَمِظُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، لِأَنَّ كَلَامًا مِنْهُمْ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْإِجَابَةَ تَعَيَّنَتْ عَلَيْهِ ، فَإِذَا سَمِعُوا بِذِكْرِ الْحَرْبِ أَسْرَعُوا إِلَيْهَا مُجْتَمِعِينَ وَمُتَفَرِّقِينَ ؛ وَمِثْلُهُ قَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ ثَوْرٍ الْهَلَالِيِّ الصَّحَابِيِّ :

قَوْمٌ إِذَا هَتَفَ الصَّرِيحُ رَأَيْتَهُمْ مَا بَيْنَ مُلْجِمٍ مُهْرِهِ أَوْ سَافِعٍ^(١)
 وَقَوْلُهُ : لَا يَسْأَلُونَ أَحَاهُمْ... أَلَيْتَ يَقُولُ : إِذَا دُعُوا إِلَى الْحَرْبِ أَسْرَعُوا
 إِلَيْهَا غَيْرَ سَائِلِينَ مَن دَعَاهُمْ لَهَا ، وَلَا بَاحِثِينَ عَنْ سَبَبِهَا ، لِأَنَّ الْجَبَانَ رُبَّمَا
 تَعَلُّ بِذَلِكَ فِتْبَاطًا عَنِ الْحَرْبِ . وَنَحْوُهُ قَوْلُ سَلَامَةَ بْنِ جَنْدَلٍ :
 إِنَّا إِذَا مَا أَنَا صَارِحٌ فَرِحُ كَانَ الصَّرَاخُ لَهُ قَرُوعُ الظَّنَائِبِ
 « يَقُولُ سَلَامَةُ : إِذَا دَعَانَا إِلَى إِعَاتَتِهِ أَجَبْنَاهُ إِلَيْهَا مُجِدِّينَ ، وَالظَّنَائِبُ :
 عَظْمُ السَّاقِ ، يَقَالُ : قَرَعَ لِهَذَا الْأَمْرِ ظُنْبُوبَهُ : إِذَا جَدَّ فِيهِ »

(١) هتف : صاح وبرى نفع : أى ارتفع والصريح : الصياح أو بمعنى الصارخ وبرى
 إذا سمعوا الصريح . وسافع : أخذ بناصية فرسه ، من قوله تعالى : لنسفعا بالناصية ،
 يقول : هم قوم إذا ارتفع الصياح للحرب أسرعوا إليه فتراهم دائرين بين ملجم مهرة
 وقابض بناصية مهرة يجذبه إليه بسرعة .

وقوله : لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَرِيَّ عَدَدٍ ... أَلَيْتَ وَصَفَ قَوْمَهُ
بأنهم يُؤْزِرُونَ السَّلَامَةَ وَالْعَفْوَ عَنِ الْجُنَاةِ مَا وَجَدُوا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، وَلَوْ
أَرَادُوا الْإِنْتِقَامَ لَقَدَرُوا بِعَدَدِهِمْ وَعُدَدِهِمْ . هَذَا إِذَا كَانَ الشَّاعِرُ لَا يَرِيدُ كَمَا
قُلْنَا هِجَاءَ قَوْمِهِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ حَتِّهِمْ عَلَى الْإِنْتِقَامِ ، أَمَا إِذَا كَانَ يَرِيدُ ذَمَّهُمْ
فَإِنَّهُ يَهْجُوهُمْ وَيُعَيِّرُهُمْ بِالْجُبْنِ فِي هَذَا الْبَيْتِ . وَقَوْلُهُ : كَأَنَّ رَبَّكَ ... الْبَيْتِ
تَهْكُمُ مِنْهُ وَسُخْرِيَّةٌ . وَمَعْنَى قَوْلِهِ : فُرْسَانًا وَرُكْبَانًا : أَنَّهُمْ كَانُوا يَقَاتِلُونَ
عَلَى الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ ، وَمِنْ ذَا قَوْلِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ
فِي حَرْبِ الْقَادِسِيَّةِ : أَخْبِرْنِي : أَيُّ فَارِسٍ كَانَ أَشْجَعًا ؟ وَأَيُّ رَاكِبٍ كَانَ
أَشَدَّ غَنَاءً ؟ وَأَيُّ رَاكِبٍ كَانَ أَصْبَرَ ؟ فَذَكَرَهُمْ لَهُ وَمَيَّزَهُمْ .

وَمِنْ طَرِيفِ آيَاتِ الْحَمَاسَةِ الَّتِي أوردَهَا أَبُو تَمَّامٍ فِي حَمَاسَتِهِ وَالْمُبَرَّدُ فِي
الْكَامِلِ آيَاتٌ قَالَ الْمُبَرَّدُ : إِنَّهَا لِأَعْرَابِيٍّ مِنْ بَنِي سَعْدٍ ^(١) وَنَسَبَهَا أَبُو تَمَّامٍ
إِلَى الْهُذُلُولِ بْنِ كَعْبِ الْعَنْبَرِيِّ - وَكِلَاهُمَا شَاعِرٌ جَاهِلِيٌّ - وَكَانَ هَذَا
الْقَائِلُ مُنْمَاكَ - أَيُّ عَقِيدَةٍ لَهَا عَلَى امْرَأَةٍ وَلَمْ يَبَيِّنْ بِهَا - فَنَزَلَ بِهِ أَضْيَافٌ
فَقَامَ إِلَى الرَّحَى فَطَحَنَ لَهَا ، فَمَرَّتْ بِهِ زَوْجَتُهُ فِي إِسْرَافَةٍ ، فَقَالَتْ لَهَا :
أَهَذَا بَعْلِي ؟ فَأُعْلِمَ بِذَلِكَ فَقَالَ :

تَقُولُ : وَصَكَّتْ نَحْرَهَا بِيَمِينِهَا : أُبَعْلِي هَذَا بِالرَّحَى الْمُتَقَاعِسُ ؟
فَقُلْتُ لَهَا : لَا تَعْجَلِي وَتَبَيَّنِي فَعَالِي إِذَا تَنَقَّتْ عَلَيَّ النَّوَارِسُ
أَلَسْتُ أُرِدُّ الْقَرْنَ يَرَكِبُ رَدْعَهُ

وَفِيهِ سِبْطَانٌ ذُو غِرَارَيْنِ نَارِسُ

(١) قَالَ ابْنُ بَرِيٍّ : هُوَ نَعِيمُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ يَزِيدِ السَّعْدِيِّ

وَأَحْتَمَلُ الْأَوْقَ الثَّقِيلَ وَأَمْسَرِي
 خُلُوفَ الْمَنَابِي حِينَ فَرَّ الْمُغَامِسُ
 وَأَقْرِي الْهُمُومَ الطَّارِقَاتِ حَزَانَةً
 إِذَا كَثُرَتْ لِلطَّارِقَاتِ الْوَسَاوِسُ
 إِذَا حَامَ أَقْوَامٌ تَقَحَّمْتُ غَمْرَةً
 يَهَابُ حُمَيَّاهَا الْأَكْثُ الْمُدَاعِسُ
 لَعَمْرُ أَيِّكَ الْخَيْرِ إِنِّي لَخَادِمٌ
 لِضَيْفِي وَإِنِّي إِنْ رَكِبْتُ لِفَارِسُ
 وَإِنِّي لِأَشِيرِي الْجِدَّةَ أَبْنِي رَبَّاحَهُ
 وَأَتْرُكُ رِقْرِي وَهُوَ خَزْيَانُ نَاعِسُ

« الْقَعَسُ : دخولُ الظهرِ وخروجُ الصدرِ ، وهو تقيضُ الحدبِ ،
 وقولُ المرأةِ : أبعليَ هذا ؟ إشارةٌ تحقيرٍ ، تعجبُ بما رأت ، وقوله : بالرحى
 المتقاعسُ فإن « بالرحى » تبيينٌ ومعنى ذلك أن كلمة « المتقاعس » تدلُّ على
 أن هناك تقاعساً ولما قال بالرحى دلَّ ذلك على أن التقاعس حدث
 بالرحى ، ولم يُرد أن يُعْمَلَ المتقاعسَ في قوله بالرحى لأن ذلك على
 ما قال النحاة ممنوع ، لأن الـ في المتقاعس اسم موصول كالذى وبالرحى
 صلة ولا يجوز أن تنقدم الصلة على الموصول . وقوله : ألسنتُ أرددُ القرن
 يركبُ رُدَّعه ، فالقرن : مَنْ يقاومُكَ في قتالٍ ، وقوله : يركبُ رُدَّعه ،
 قيل : الرُدَّعُ ههنا : الدمُ على سبيلِ التشبيهِ بِرُدَّعِ الزعفرانِ ، ومعنى ركوبه
 دَمَهُ : أَنَّهُ جُرِحَ فَسَالَ دَمُهُ فَسَقَطَ فَوْقَهُ مُتَشَجِّجاً بِهِ ، وقيل : الرُدَّعُ : العُنُقُ
 أَيْ سَقَطَ عَلَى رَأْسِهِ فَأَنْدَقَّتْ عُنُقُهُ ، وقيل معناه : صُرِعَ مَنْكُوساً رَأْسَهُ

أَسْقَلَهُ ، مِنْ ارْتَدَعَ السَّهْمُ : إِذَا رَجَعَ النَّصْلُ مُتَأَخَّرًا فِي السَّنَخِ .
 وَذُو غِرَارَيْنِ : ذُو حَدَّيْنِ ، وَنَارِئُسُ : مُضْطَرَبٌ ، مِنْ نَاسٍ يَنُوسُ : إِذَا
 تَحَرَّكَ وَاضْطَرَبَ ، وَتُرُوى : يَابِسُ وَمَعْنَاهُ : صُلْبٌ ذَكَرُ لَا تَأْنِيكَ فِيهِ .
 وَالْأَوْقُ : الثَّقَلُ وَقَدْ آقَى عَلَيْهِ يَوْقُ : مَالٌ بِشَقِيلِهِ ، وَوَصَفَهُ بِالْثَقِيلِ مَبَالِغَةً .
 وَالْخُلُوفُ جَمْعُ خِلْفٍ — بِالْكَسْرِ — وَهُوَ فِي الْأَصْلِ : ضَرْعُ النَّاقَةِ ،
 وَأَمْتِرَاوَهُ : اسْتِخْرَاجُ مَا فِيهِ مِنَ اللَّيْنِ . يَرِيدُ : أَنَّهُ يَسْتَخْرِجُ خَبِيثَاتِ الْمَنَائِي
 بِأَفَاعِيلِهِ الْمُدْهِشَةِ وَقَدْ جَدَّ الْخُطْبُ وَاشْتَدَّتْ الْحَرْبُ ، وَالْمَغَامَسُ : الَّذِي
 يَنْغَمَسُ فِي لُجَّةِ الْحَرْبِ لَا يَبَالِي أَصَابَ أَمْ أُصِيبَ ، وَقَوْلُهُ : وَأَقْرَى الْهَمْرَمِ
 الطَّارِقَاتِ حَزَامَةً ... أَلَيْتَ يَقُولُ : أَحْزَمُ عِنْدَهَا إِذَا اشْتَدَّتْ وَكَثُرَتْ
 أَحَادِيثُ النَّفْسِ بِهَا . وَخَامٌ : جَبِينٌ وَنَكَصَ يَقَالُ : خَامَ عَنِ الْقِتَالِ يَخِيمُ
 خَيْمًا وَخِيَانًا : جَبِينٌ . وَالْحَمِيَا : صَدْمَةُ الشَّرِّ ، وَالْأَلْدُ فِي الْأَصْلِ : الشَّدِيدُ
 الْخِصُومَةِ الَّذِي يَحِيدُ عَنِ الْحَقِّ ، وَالْمَرَادُ هُنَا الَّذِي لَا يَلْتَمِئُ عَنِ الْحَرْبِ .
 وَالْمَدَاعِسُ : الْمَطَاعِنُ يَقَالُ : دَعَسَهُ بِالرِّيحِ : إِذَا طَعَنَهُ . وَالرِّبَاحُ مَصْدَرٌ كَالرِّيحِ
 وَقَوْلُهُ : وَأَتْرَكَ قِرْنِي الْخِ يَقُولُ : أَهَيْئُهُ فَأَكْسِرُهُ حَتَّى يَبْقَى مَطْرَقًا مُتَمَدِّمًا
 كَمَنْ غَلَبَهُ النَّعَاسُ ، وَقِيلَ مَعْنَى نَاعَسَ : مُشْرِفٌ عَلَى الْمَوْتِ يَقَالُ طَعَنْتُ
 صَاحِبِي فَأَمْتَمْتُهُ : أَي قَتَلْتُهُ . »

وقالت ليل الأُخَيْلِيَّةِ وَهِيَ مِنْ آيَاتِ الْحَمَاسَةِ :

لَا تَغْرُوْنَ الدَّهْرَ آلَ مُطَرِّفٍ لَا ظَالِمًا أَبَدًا وَلَا مَظْلُومًا
 قَوْمٌ رِبَاطُ الْحَيْلِ وَسَطَ بِيوتِهِمْ وَأَسِنَّةُ زُرُقٍ تُخَالِ نَجُومًا
 وَتُخَرِّقُ عَنْهُ الْقَمِيصُ تَخَالَهُ وَسَطَ الْبُيُوتِ مِنَ الْحَيَاءِ سَمِيمًا
 (٢-١٩)

حتى إذا رُفِعَ اللّوَاءُ رَأَيْتَهُ تَحْتَ اللّوَاءِ عَلَى الخَيْسِ زَعِيمًا
 « قولها : لا تَغْزُونَ بِرُؤْيِ لا تَقْرَبَنَّ وَقَوْلها : لا ظالماً أبداً ولا مظلوما
 تريد : لا بُتْدِنًا لهم بالحرب من غير أن يحاربوك ولا مُنْتَقِمًا منهم إن
 حاربوك ، لأنهم أولوا بأس شديد لا يطاقون على أن حاء : ويروى :
 « لا ظالماً فيهم ولا مظلوما »

قال البكري شارح الأملی : وهذه الرواية هي حيدة لوجهين أحدهما :
 أنها أفادت معنى حسناً ، لأنه قد يكون ظالماً أو مظلوماً من غيرهم فيستجیرُ
 بهم لردِّ ظلامته ، أو لاستدفاع مكروه عقوبته فلا بدُّ لهم من إجارتته ،
 والوجه الثاني أن قوله : لا تَقْرَبَنَّ الدهر قد أغنى عن قوله : أبداً ، فصار
 حشواً لا يفيد معنى ، وقولها : قومٌ رِبَاطُ الخيل ... البيت تقول : إنهم
 أصحابُ خيل ورماح مستعدون أبداً لدفع الأعداء والذود عن حياضهم ،
 وأسنّة زُرُق : صافيةٌ لا معةٌ كأنها نجوم في الصفاء واللبان ، وقولها :
 ومُخَرَّقٌ عنه القميص فيه قولان : أحدهما : أن ذلك إشارةٌ إلى جذبِ
 العُفْصَةِ لَهُ ، والثاني : أنه يُؤَثِّرُ بجيد ثيابه فيكسوها ويكتفي بمعاوِزها
 — أي الثياب البالية منها لأنها ثياب المُعْوزِينَ — وقولها : تخاله من الحياء
 سقيماً تريد أنه لإمعانه في الكرم والسخاء تظنه سقيماً من الحياء تخشية أن
 لا يكون قد بلغ من إكرام الضيف ما ينبغي ، تمدحه بالجوود كما تمدحه
 بالشجاعة . والخيس : الجيش ، والزعيم : الكفيل والرئيس . «

وقال بعضُ بني مازن :

وقد علموا بأن الحربَ ليست لأصحابِ المَجَامِرِ والخَلُوقِ
 ضربناكم على الإسلامِ حتى أقنناكم على وَضَحِ الطريقِ

« المجامر : المباخر ، أى التى توضع فيها النار والبخور لِئِيَسْتَبَخَّرَ بِهَا
وَيُطَيَّبَ ، وَالْخَلُوقُ : طَيْبٌ مَعْرُوفٌ يُتَّخَذُ مِنْ أَلْوَانِ شَيْءٍ مِنَ الطَّيِّبِ ،
وقيل : الزعفران »

وقال أبو تمام فى مرثيته المشهورة لمحمد بن حميد الطوسى التى أولها :
كذا فَلْيَجِلَّ الخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ الأَمْرُ
فليس لعينٍ لم يَفِضْ مأوئها عُذْرُ

قال :

قَتَى ماتَ بين الطعنِ والضربِ مَيِّتَةً
تقوم مقام النصرِ إذ فاته النصرُ
وما مات حتى ماتَ مَضْرِبُ سَيْفِهِ
من الضربِ ، واعتَلَّتْ عليه القنا السمرُ
وقد كان فوتُ الموتِ سهلاً فَرَدَّهُ
إليه الحِفاظُ المرُّ والحُلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تعاف العارَ حتى كأنما
هُوَ الكُفْرُ يومَ الرّوعِ أو دونه الكُفْرُ
فأثبَّتَ فى مُسْتَنْقَعِ الموتِ رِجْلَهُ
وقال لها : من تحت أنْخِصِكَ الحِشْرُ

غدا عُذْوَةٌ والحمدُ نَسِجُ ردايهِ فلم يَنْصَرِفْ إلا وأكفأته الأجرُ
تَرَدَّى ثيابَ الموتِ مُحرراً فادجأ لها الليلُ إلا وهى من سُندسِ حُضْرُ
« قوله : تقوم مقام النصر : لأنه قُتِلَ قِتْلَةً بطل شجاع ، إذ لم يُقْتَلْ
حتى تَشَلَّمَ حُدَّ سَيْفِهِ مِنْ شِدَّةِ ما ضَرَبَ بِهِ وحتى تَقَصَّصَتِ الرماح فى يديه

كما قال في البيت التالي ، قال نَقْدَةَ الشعر : إن أبا تمامَ نظر في هذا المعنى إلى قول عُرْوَةَ بن الورد :

ومن بكِ مثلي ذا عيالٍ ومُقْتَرًا من المالِ يَطْرَحُ نفسه كلَّ مَطْرَحٍ
لِيَبْلُغَ عُذْرًا أو يَنَالَ رَغِيْبَةً ومُبْلِغُ نفسِ عُذْرَها مثلُ مُنْجِحِ

قالوا : إن عُرْوَةَ جعل اجتهاده في طلب الرزق عُذْرًا يقوم مقام النجاح وأبو تمام جعل الموت في الحرب الذي هو أفصى اجتهاد المجتهد في لقاء الأعداء قائمًا مقام النصر . هذا ، ومضربُ السيف : حذو ، وقوله : واعتلت عليه الفنا السُمُرُ بمعنى اعتلال الفنا أن العلة أصابها فلم تستطع العمل معه وتحقيق مطالبِ همته من الصمود للأعداء ، أو تقول : معنى اعتلالها : أنها تجنّبت عليه الذنوب واتخذت ذلك ذريعة إلى العصيان والخلاف عليه ، وما ذنبه عندها إلا كثرة تكاليفها الطعن لا يريحها من ذلك ، والحفاظ : الحمية والغضبُ محافظة على الحرمة وكل ما يجب على المرء حمايته ، والخلق الوعر : الشديد الأنفة ، ولا يُمدح به إلا في العداوة . قال المازني :

تُعَاتِبُنِي فِيمَا تَرَى مِنْ شِرَاسَتِي وَشِدَّةِ نَفْسِي أُمُّ سَعْدٍ وَمَا تَدْرِي
فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ الْكَرِيمَ وَإِنْ حَلَا لِيُوجَدُ أَحْيَانًا أَمْرًا مِنَ الصَّبْرِ

« الروع هنا : الحربُ وفي الأصل : الخوف . وقوله : فأثبت في مُسْتَنْقَعِ الموتِ رجله ... ألبيت . جعلَ للبوْتِ مُسْتَنْقَعًا كَمُسْتَنْقَعِ الْمَاءِ ، وهو : مُجْتَمِعُهُ فِي بَطْنِ الْوَادِي ، وَأَخِصُّ الْقَدَمِ : مَا لَا يُصِيبُ الْأَرْضَ مِنْ بَاطِنِهَا يَقُولُ : إِنَّهُ لِشِجَاعَتِهِ قَدْ صَمَّسَدَ لِلْبُوتِ فَلَا تَتَحَوَّلُ رِجْلُهُ إِلَى أَنْ يَمُوتَ حَتَّى كَأَنَّ الْحَشْرَ — يَوْمَ يُحْشَرُ النَّاسَ إِلَى رَبِّهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ — مِنْ

تحت أنخصه . وقوله : غدا غدوة ... ألبيت يقول : إنه عاش محموداً مشكوراً
ومات مشوباً مأجوراً . وقوله : تردى ثياب الموت ... ألبيت يقول : إنه
ارتدى الثياب المأطخة بالدم فلم ينقض يوم قتله ولم يدخل في ليلته إلا
وقد صارت الثياب خضراً من سندس الجنة . قال علماء البيان : في هذا
البيت الطباق المسمى بالتدبيح ، وهو أن يذكر الشاعر أو الناثر في معنى من
المدح أو غيره ألواناً لقصد الكناية أو التورية ، ويسمى تدبيح الكناية
أيضاً ، فإنه هنا ذكر لون الحررة والخضرة والمراد من الأول الكناية عن
القتل ومن الثاني الكناية عن دخول الجنة ،



وقال البحتري :

مَمَشَرُهُمْ أَهَسَتْ حُلُومُهُمُ الْأَرْضَ ضَـ وَكَادَتْ لَوْلَاهُمْ أَنْ تَمِيدَا
فَإِذَا الْجَدْبُ جَاءَ كَانُوا غَيْرِنَا وَإِذَا التَّنُّعُ نَارَ تَارُوا أَسْوَدَا
وَكَأَنَّ الْإِلَهَ قَالَ لَهُمْ فِي الْـ حَرْبٍ كَرِنُوا حِجَارَةً أَوْ حَبْدَا

وقال مسلم بن الوليد :

لَوْ أَنَّ قَوْمًا يَخْلُقُونَ مَدِينَةً مِنْ بَأْسِهِمْ كَانُوا بَنِي جَبْرِيلَا
قَوْمٌ إِذَا حَجَى الْوَطِيسُ لَدَيْهِمْ جَعَلُوا الْجَاهِمَ لِلسُّيُوفِ مَقِيلَا

وقيل للهلب بن أبي صفرة : إنك لتلقى نفسك في المهالك ا قتال :
إن لم آت الموت مسترسلاً ، أتاني مستعجلاً ، إنى لست آتى الموت من
حبه ، وإنما آتته من نغضه ، وتمثل بقول الحصين بن الحمام :
تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ تَقْدَمَا

وقد تقدم

وقال المتنبي :

شجاعٌ كأنَّ الحربَ عاشقَةٌ له إذا زارها فدَّتُهُ بالخيلِ والرَّجْلِ
« المراد بالخيل : الفرسان ، والرجل جمع راجل يقول : هو شجاع يُقتل
ولا يُقتل فكأن الحرب تعشقه فإذا زار الحرب استبقتته وأفنت من سواه
من الفرسان والرجال ، فكأنما جعلتهم فداء له . »

وقال :

وكم رجالٍ بلا أرضٍ أكثرتهم تركت جمعتهم أرضاً بلا رجلٍ
ما زال طرفك يجرى في دماؤهم حتى مشى بك مشى الشاربِ الثمِّلِ
« قوله : وكم رجال ... أبيت يقول : كم جمع الأعداء لك جموعاً
تغيب الأرض من كثرتهم وتخفى على الأبصار حتى كأنهم رجال بلا أرض
فقتلتهم وأفنيتهم حتى خليت أرضهم فبعيت ولا رجل فيها ، وفي هذا البيت
نظر من ناحية كثرة الجيش إلى قول أبي تمام في صفة جيش :
ملاً الملاً عصباً فكاد بأن يرى لا خلفَ فيه ولا له قدامٌ
وقوله : ما زال طرفك ... أبيت ، فالطرف : الفرس الكريم ، والتمل
السكران ، يقول ما زلت تخوض دماءهم بفرسك حتى تعثر بالقتل وأمالته
دماؤهم عن سنن جزيه وأزلقته حتى مشى بك مشى السكران ،
وقال الشاب الظريف من قصيدة له يمدح بها ابن عبد الظاهر :

ومعشرٍ لم تزل للحربِ يبضهمُ
حمرَّ الحدودِ وما من شأنها الخجلُ^(١)

(١) البيض : السيوف ، وجعلها حمر الحدود لما يسيل فوقها من دماء الأعداء.

إِذَا انْتَضَرُّمَا بُرُوقًا صُيِّرَتْ سُجُبًا

يَسِيلُ مِنْ جَارِنَيْبِهَا عَارِضٌ هَطِلٌ^(١)

يَثْنِي حَدِيثُ الرَّغَى أَعْطَافَهُمْ طَرِبًا

كَأَنَّ ذِكْرَ الْمَنَايَا بَيْنَهُمْ غَزَلٌ^(٢)

كَمْ نَارِ حَرْبٍ بِهِمْ شُبِّتَ وَهُمْ سُجُبٌ

وَأَرْضِ قَوْمٍ قَاضَتْ وَهُمْ شُعَلٌ^(٣)

وقال الشاعر أبو الفرج الببغاء شاعر اليتيمة :

يَسْعَى إِلَى الْمَرْتِ وَالْقَنَا قَصْدُهُ وَخَيْلُهُ بِالرُّؤْسِ تَنْتَبِهُلُ

كَأَنَّهُ وَائِقٌ بِأَنَّ لَهُ عُمْرًا مُقِيمًا وَمَالَهُ أَجَلٌ

« وَالْقَنَا قَصْدٌ : أَيْ قَطْعٌ ، وَالْمَفْرَدُ : تَصَدَّةٌ وَهِيَ : الْقِطْمَةُ مِنَ الشَّيْءِ »

إِذَا انْكَسَرَ ،

وقال آخر :

كَأَنَّ سَيُوفَهُ صِيغَتْ عَقُودًا تَجُولُ عَلَى التَّرَائِبِ وَالنُّجُورِ

وَسُمِّرَ رِمَاحِهِ جُعِلَتْ هُمُومًا فَمَا يَخْطُرَنَّ إِلَّا فِي صَمِيرِ

ومن كلام علي بن أبي طالب : رَبِّ حَيَاةٍ سَبَّبُهَا التَّعَرُّضُ لِلْمَوْتِ ،

وَرُبَّ مَنِيَّةٍ سَبَّبَهَا طَلْبُ الْحَيَاةِ .

« وبعده » فإن عقرياتهم في الشجاعة والتمدح بها لا تكاد تُحصى كثرة ،

وإن الناظر في الأدب العربي ولا سيما المنظوم منه يتحقق من أن الشجاعة

(١) انتضى السيف : استله من غمده ، والعارض السحاب والمراد هنا الدماء

(٢) الأعطاف جمع عطف وهو الجانب

(٣) وهم سحب أى فى الكرم ، وهم شعل أى كالنار فى استئصال أعدائهم .

والإشادة بها تكاد تكون أحد شطري ما يتمدحون به وينوّهون بفضله ،
أما الشطر الآخر فهو الجرد والكرم ، وبحبك بهاتين الخلتين ، وإنهما
دعامتا سائر الفضائل ، ولنجزئ بهذا المقدار وإن كان قَطْرًا من بحرٍ ،

صدر من عبقرياتهم في وصف آلات الحرب

قال البُحْتَرى يَصِفُ السيف :

يَتَنَاوَلُ الرُّوحَ البَعِيدَ مَنَالُهُ عَفْوًا ، وَيَفْتَحُ فِي القَضَائِ المَقْفَلِ
مَاضٍ وَإِنْ لَمْ تَمُضْهُ يَدُ فَارِسٍ بَطْلٍ ، وَمَصْقُولٌ وَإِنْ لَمْ يُصْقَلِ
يَغْشَى الوَعْيَ فَالْتَرُسُ لَيْسَ بِجُنَّةٍ مِنْ حَدِّهِ وَالدَّرْعُ لَيْسَ بِمَعْقِلِ
مُضْعِغٍ إِلَى حُكْمِ الرَّدَى ، فَإِذَا مَضَى

لَمْ يَلْتَمِثْ ، وَإِذَا تَضَى لَمْ يَغْدِلِ
مُنَاقِقٌ يَنْفِرِي بِأَوَّلِ ضَرْبَةٍ مَا أَدْرَكَتْ وَلَوْ أَنَهَا فِي يَدِ بِلِ
وَإِذَا أَصَابَ فَكُلُّ شَيْءٍ مَقْتَلٌ وَإِذَا أُصِيبَ فَمَا لَهُ مِنْ مَقْتَلِ
وَقَالَ عبد الله بن المعتز يصفه :

وَلِي صَارِمٌ فِيهِ المَنَايَا كَوَامِنٌ فَمَا يُنْتَضِي إِلَّا لِسَفْكِ دِمَائِهِ
تَرَى فَوْقَ تَتَلِيهِهِ الفِرْنِدَ كَأَنَّهُ بَقِيَّةُ غَيْمٍ رَقَّ دُونَ سَمَاءِ (١)
وَقَالَ ابن الرومي :

خَيْرٌ مَا اسْتَعَصَمَتْ بِهِ السَّكْبُ عَضْبٌ ذَكَرَ هَزَهُ أُنَيْثُ المَهْزِ (٢)

(١) فرند الشيف : وشي

(٢) الذكر من السيوف : الشديد الجيد الصارم ، وهزه أنيث المهز يريد : أنه

لين منقاد مطواع مع شدته

مَا تَأَمَّلْتَهُ بِعَيْنِكَ إِلَّا أُرْعِدَتْ صَفْحَتَاهُ مِنْ غَيْرِ هَزٍّ
 مِثْلُهُ أَفْزَعُ الشُّجَاعِ إِلَى الدَّرِّ عِزَّ فَعَالَى بِهَا عَلَى كُلِّ بَرٍّ (١)
 مَا يُبَالِي أَصَمَّتْ شَفْرَتَاهُ فِي مَحْزٍ أَمْ حَادَتَا عَنْ مَحْزٍ
 وَلَمَّا صَارَ الصَّمَامَةُ سَيْفُ عَمْرُو بْنِ مَعْدِيكَرْبَ إِلَى مَوْسَى الْهَادِي
 أَذِنَ لِلشُّعْرَاءِ أَنْ يَصِفُوهُ ، فَبَدَأَهُمُ ابْنُ يَامِينَ فَقَالَ :

حَازَ صَمَامَةَ الزُّبَيْدِيِّ مِنْ دُونِ جَمِيعِ الْأَنْامِ مُوسَى الْأَمِينُ
 سَيْفَ عَمْرُو وَكَانَ فِيهَا سَمِينَا خَيْرَ مَا أُعْجِدَتْ عَلَيْهِ الْجُفُونُ
 أَخْضَرَ الْمَتْنِ بَيْنَ حَدِيدِيهِ نُورٌ مِنْ فِرْنِدٍ تَمْتَدُّ فِيهِ الْعُيُونُ
 أَوْقَدَتْ فَوْقَهُ الصَّوَارِعُ نَارًا ثُمَّ شَابَتْ بِهِ الذُّعَافُ الْقُيُونُ (٢)
 فَإِذَا مَا سَأَلْتَهُ بِهَرِّ الشَّمْسِ ضِيَاءً فَلَمْ تَكُنْ تَسْتَسِينُ
 يَسْتَطِيرُ الْأَبْصَارَ كَالْقَبَسِ الْمُشْمَلِ مَا تَسْتَقِرُّ فِيهِ الْعُيُونُ
 وَكَانَ الْفِرْنِدُ وَالرُّوْنُقُ الْجَا رَى فِي صَفْحَتَيْهِ مَاءٌ مَعِينُ
 وَكَانَ الْمَنُونُ نَيْطَتْ إِلَيْهِ فَهُوَ مِنْ كُلِّ جَارِنِيهِ مَنُونُ
 مَا يُبَالِي مَنِ اتَّضَاءُ لَضَرْبِ أَشْمَالٍ سَطَطَتْ بِهِ أُمَّ يَمِينُ
 قَالَ أَبُو هَلَالٍ الْعَسْكَرِيُّ : وَقَدْ أُخِذَ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ تَشْبِيهُهُ
 السَّيْفِ بِالشَّمْسِ ثُمَّ بِالْقَبَسِ ، لِأَنَّهُ قَدْ حَطَّهُ دَرَجَاتٍ ... (٣) ،

ولمناسبة عمرو بن معديكرب وصمصامته يروى أن عمر بن الخطاب
 بعث إلى عمرو أن يبعث إليه بسيفه الصمصامة هذا ، فبعث إليه به ، فلما

(١) يقول : إن هذا السيف يلجئ الشجاع إلى أن يتقيه بأجود الدروع ، والبز :
 السلاح يدخل فيه الدرع والمغفر والسيف (٢) الذعاف : السم الذي يقتل من
 ساعته ، والقيون جمع قين وهو الحداد وكل صانع (٣) القبس : الجذوة من النار

ضرب به وتجدد دن ما بلغه عنه ، فكتب إليه في ذلك ، فأجابه يقول :
 إنما بعثتُ إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعثُ له بالساعد الذي يضربُ به .
 وسأله عمر يوماً عن السلاح فقال : ما تقول في الرُّمح ؟ قال : أخوك
 ورُبَّما خانتك فأنقِصْ ؛ قال : فما تقول في السُّترس ؟ قال : هو الحجُّن
 وعليه تدور الدَّوائر ، قال : فالنَّبل ؟ قال : منايا تُخَطِّطُ وتُصَيَّبُ ، قال :
 فما تقول في الدرع ؟ قال : مَشَقَّلَةٌ للراجل مَشَخَّلَةٌ للراكب ، وإِنها لِحِصْنُ
 حصين ؛ قال : فما تقول في السيف ؟ قال : هُنالك قارَعَتَكَ أملك عن
 الشُّكْلِ^(١) ؛ قال : بل أملك اقال : بل أملك يا أمير المؤمنين ! فعلاه أمير المؤمنين
 بالدِّرة ، وقيل : بل قال له — لما قال عمر بل أملك — قال : أمي
 يا أمير المؤمنين « الحمى أضرعتني لك » أراد : أن الإسلام قيّدني ، ولو
 كنت في الجاهلية لم تُكلمني بهذا الكلام ، وهو مشلٌ تضربه العرب إذا
 اضطرت للخضوع .

ورشلُ ذلك قول الأغر النهشلي لابنه لما بعثه لحضور ما وقع بين
 قومه فقال : يا بُني ، كُنْ يداً لأصحابك على مَنْ قاتلهم ، وإياك والسيف
 فإنه ظلُّ الموت ، واتقِ الرُّمح فإنه رِشاءُ المنيّة ، ولا تقربِ النِّهَامَ فإنها
 رُسُلٌ تعصى وتطيع ، قال : فبيمَ أقاتل ؟ قال : بما قال الشاعر :

جَلاميدُ أملاء الأكمِّ كأنها رؤسُ رجالٍ حُلِّمَتْ في الموائِمِ

(١) الشكل : الفقد ، ولعله يريد : أن يصف السيف بأنه أفنك أنواع الأسلحة
 وأروعها فسلك إلى ذلك سبيل الكناية فعبّر بجملة لازمها يدل على ما يريد أبلغ دلالة
 إذ يقول : هُنالك — أي إذا ذكر السيف ارتقارعت السيوف ، قارعته أملك ودافعته
 عن الشكل والهلاك إشفافاً عليه ، فإن الإشفاق أعظم ما يكون على المنازل إذا كان
 السلاح السيف ، لأن ضرباته صائبة قاتلة

فعلیک بہا وأصغها بالأعقابِ والسوق . « قوله : جلامید أملاء
الأكف ... البيت هو أحد أبيات أورکها المبرد وهي :

تُغَطِّي مُتَمَيِّرٌ بِالْعِمَامِ أَوَّهًا وَكَيْفَ يُغَطِّي اللُّؤْمَ طَىَّ الْعِمَامِ
فَإِنْ أَضْرِبُونَا بِالسَّيَاطِ فَإِنَّا ضَرَبْنَاكُمْ بِالْمُرَهَفَاتِ الصَّوَارِمِ
وَإِنْ تَحْلِقُوا مِنَّا الرُّؤْسَ فَإِنَّا حَلَقْنَا رُؤْسًا بِاللَّهْمَا وَالغَلَّاصِمِ
وَإِنْ تَمْنَعُوا مِنَّا السَّلَاحَ فَعِنْدَنَا سِلَاحٌ لَنَا لَا يُشْتَرَى بِالدَّرَاهِمِ
جَلَامِيدُ أَمَلَاءِ الْأَكْفِ كَأَنهَا رُؤْسُ رِجَالٍ حُلِقَتْ بِالْمَوَاسِمِ

« قوله : حلقتنا رؤسا : يريد أنزلناها بالسيوف ، واللها بفتح اللام
جمع لهاة وهي لحمه مُشرقة على عكدة اللسان ، والغلاصم جمع الغلصمة وهي
لحمه بين الرأس والعنق ، والجلاميد جمع جلود وهو الحجر تأخذه بيدك
وهو بيان لقوله سلاح لنا لا يشتري بالدرهم ،

وقال المعري :

كَأَنَّ أَرَاقِمًا نَفَخَتْ سِيمَامًا عَلَيْهِ فَعَادَ مُبَيِّضًا نَجِيمًا
وَمَنْ تَعَلَّقَ بِهِ حَمَّةُ الْأَفَاعِي يَعِشُ — إِنَّ فَاتَهُ أَجَلٌ — عَلِيلًا
كَأَنَّ فِرْنِدَةً وَالْيَوْمَ تَحْتُ أَفَاضَ بِصَفْحِهِ تَبْجِيلًا تَبْجِيلًا
تَرَدَّدَ مَأْوُهُ عَلُواً وَسُفْلًا وَهَمَّ فَمَا تَمَكَّنَ أَنْ يَسِيلًا
يَسْكَادُ سَنَاهُ يُجْرِقُ مَنْ فَرَاهُ وَيُغْرِقُ مَنْ نَجَا مِنْهُ كُلُّوَلًا

« كأن أراقما ... البيت يقول : كأن الحياتِ نفخت السمام على هذا
السيف فصار أبيض ناعلا ، وذلك أن السم عوصوف بالبياض ، ومن
ذكزته الحية ونفخت فيه ستمها تحل جسمه ، فجعل البياض في السيف لونا
للمم والنحافة فعمله ، قوله : ومن تعلق به : البيت لما وصف السف

بالنحول لما نَفَسَتْ الأَرَاقِمُ عليه سِمَاتِهَا حَقَّقَ وَجْهَ نَحْوِهِ ، وهو أن مَنْ خَالَطَهُ سُمُّ الأَفَاعِي هَلَكَ فِي غَايِبِ الأَمْرِ ، وَإِنْ فَاتَهُ الهَلَاكُ عَاشَ تَلِيْسِيَا ، والعَلِيْلُ نَحِيْلُ الجِسمِ لِاحْتِمَالِهِ ؛ وَقَوْلُهُ : كَأَنَّ فِرْدَنْدَهَ ... البَيْتِ فَالْفِرْدَنْدُ : جَوْهَرُ السِّيفِ وَمَاؤُهُ ، وَيَوْمَ تَحْتُ : شَدِيدُ الحَرِّ ، وَالسَّجْلُ : الدَّلْوُ ، إِذَا كَانَ فِيهَا مَاءٌ ، وَلَا يُقَالُ لَهَا وَهِيَ فَارِغَةٌ : سَبَجَلٌ وَلَا ذَنْوَبٌ ، وَالسَّجِيلُ : التَّضَخُّمُ العَظِيمُ ، يَصِفُ بِيَاضَ السِّيفِ وَبَرِيْقَهُ ، أَى كَأَنَّ جَوْهَرَ السِّيفِ وَقَدْ صُتِبَ بِوَجْهِهِ دَلْوٌ مِنَ المَاءِ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الحَرِّ ، فَهُوَ أبيضٌ بِرَاقٌ كَأَنَّهُ مَاءٌ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ شِدَّةَ الحَرِّ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ اليَوْمُ شَدِيدَ الحَرِّ كَانَتِ الحَاجَةُ إِلَى المَاءِ أَشَدَّ ، أَوْ لِأَنَّ المَاءَ مَعَ إِشْرَاقِ الشَّمْسِ أَشَدُّ بِرِيْقًا وَلَمَعَانًا . وَقَوْلُهُ : تَرَدَّدَ مَاؤُهُ ... البَيْتِ لَمَّا شَبَّهَ فِرْدَنْدَ السِّيفِ بِالمَاءِ وَصَفَّهُ بِأَنَّ المَاءَ كَأَنَّهُ يَتَرَدَّدُ فِيهِ مِنَ أعْلَاهُ إِلَى أسْفَلِهِ وَمِنْ أسْفَلِهِ إِلَى أعْلَاهُ ، وَيَهْتَمُّ المَاءُ أَنْ يَسِيْلَ مِنْ صَفْحَتِهِ فَلَا يَتِمَكَّنُ مِنَ السِّيْلَانِ ، لِأَنَّهُ مُحْصُورٌ فِي أَجْزَائِهِ ، وَقَوْلُهُ : يَكَادُ سَنَاهُ ... البَيْتِ فَالْسَّنَا : الضَّرْبُ ، وَفَرَاهُ : قَطْعُهُ ، وَكَلَّ السِّيفُ وَالرَّحْمُ يَكِلُّ كَلْوَالًا : إِذَا نَبَا عَنِ العَمَلِ ، يَقُولُ : إِنْ هَذَا السِّيفُ جَمَعَ بَيْنَ النَّارِ وَالمَاءِ فَهُوَ يُحْرَقُ مِنْ قَطْعِهِ وَيُفْرَقُ بِمَانِهِ مِّنْ كَلِّ السِّيفِ عَنْهُ قَتْبًا مِنْهُ .

وقال إسحاق بن خَلْفٍ :

أَلْقَى بِجَانِبِ حَاصِرِهِ أَهْضَى مِنَ الأَجْلِ المُنْتَاحِ
وَكَأَنَّمَا ذَرْتُ الهَبَا عَلَيْهِ أَنفَاسُ الرِّيحِ

وقال النابغة :

تَطِيرُ فِضَاضًا بَيْنَهُمْ كُلِّ قَوَائِسٍ وَيَتَّبِعُهَا مِنْهُمْ قَرَأْسُ الحَوَاجِبِ

تَقْدُ السَّلُوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ وَتَوْقِدُ الصَّفَاحِ نَارَ الْحُبَابِ
 « نَضَضْتُ الشَّيْءَ أَنْضَهُ نَضًّا فَهُوَ مَفْضُوضٌ وَفَضِيضٌ : كَسَرْتُهُ وَفَرَّقْتُهُ ،
 وَفَضَّضْتُهُ وَنَضَّضْتُهُ : مَا تَكْسَّرُ مِنْهُ وَتَفْرُقُ ، وَالْقَوْنِسُ : مُقَدِّمُ الرَّأْسِ ،
 وَقَوْنِسُ الْبَيْضَةِ مِنَ السَّلَاحِ : أَعْلَاهَا ، وَالْفِرَاشُ : عَظْمُ الْحَاجِبِ ، أَوْ قِشْرَةُ
 تَسْكُونُ عَلَى الْعَظْمِ دُونَ اللَّحْمِ ، وَيُقَالُ : ضَرَبْتُهُ فَأَطَارَ فِرَاشَ رَأْسِهِ وَذَلِكَ
 إِذَا طَارَتِ الْعِظَامُ رِقَاقًا مِنْ رَأْسِهِ ، وَالسَّلُوقِيُّ : الدَّرْعُ الْمُنْسُوبَةُ إِلَى سَلُوقٍ ،
 وَهِيَ قَرِيبَةٌ بِالْيَمِينِ تَعْرِفُ بِسَلْوَقِيَّةٍ وَإِلَيْهَا تَنْسَبُ أَيْضًا السَّلَابُ السَّلُوقِيَّةُ ،
 وَالصَّفَاحُ جَمْعُ صَفَاحَةٍ وَهِيَ : كُلُّ عَرِيضٍ مِنَ الْحِجَارَةِ وَنَحْوِهَا ، وَالْحُبَابِجُ :
 الشَّرَرُ الَّذِي يَسْقُطُ مِنَ الزَّنَادِ يَقُولُ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي : إِنَّ هَذِهِ السِّيُوفُ
 تَقْدُ — تَقْطَعُ — الدَّرْعَ الَّتِي ضَوْعَفَ نَسْجُهَا وَالْفَارِسَ وَالْفَرَسَ وَتَصِلُ
 إِلَى الْأَرْضِ فَتَقْدَحُ النَّارَ بِالصَّفَاحِ » .

وَقَالَ الْبُحْتَرِيُّ يَصِفُ الدَّرْعَ :

يَمْشُونَ فِي زَرْدٍ كَأَنَّ مَتُونَهَا فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ مَتُونُ نَيْبَاهِ
 بَيْضٌ تَسِيلُ عَلَى السُّكَاةِ فُضُونُهَا سَيْلَ السَّرَابِ بِقَفْرَةٍ بَيْدَاءِ
 وَإِذَا الْأَيْسَنَةُ خَالَطَتْهَا رَخِلَتْهَا فِيهَا تَحِيَالٌ كَوَارِكِبٍ فِي مَاءِ
 « نَيْبَاهُ جَمْعُ نَيْبٍ ، وَالنَّهْيُ : الْغَدِيرُ »

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ .

كَمْ بَطَلٍ بَارَزَنِي فِي الْوَعْيِ عَلَيْهِ دِرْعٌ خِلَتْهَا تَطْرِدُ
 كَأَنَّهَا مَاءٌ عَلَيْهِ جَرَى حَتَّى إِذَا مَا غَابَ فِيهِ جَمْدُ

وَقَالَ الْمُتَنَبِّي :

تَرُدُّ عَنْهُ قَنَا الْفَرَسَانِ سَابِقَةً صَوْبُ الْأَيْسَنَةِ فِي أُنثَاهَا دِيمُ

تُحْطُّ فِيهَا الْعَوَالِي لَيْسَ تَنْفُذُهَا كَأَنَّ كُلَّ سِنَانٍ فَوْقَهَا قَلَمٌ
 « يقول في البيت الأول : تمنع الرياح من النفوذ في عدو الممدوح
 درعٌ سابعة قد تلطخت بالدماء التي تسيل من الأستة عليها ، أو أن وقع
 الأستة في هذه الدرع كديممة المطر تتابعا . ويقول في البيت الثاني : إن
 الرياح تؤثر في درعه ، أي تجرحها ، ولا تنفذها إلى جسمه ، حتى كأن
 أسننتها أقلام تحط في القراطاس ولا تخزفه » . وقال المعري :

إِذَا طُوِيَتْ فَالْقَعْبُ يَجْمَعُ شِمْلَهَا وَإِنْ نُثِلَتْ سَأَلَتْ مَسِيلَ إِمَادٍ
 وَمَا هِيَ إِلَّا رَوْضَةٌ سَدِكُهَا ذُبَابُ حَسَامٍ فِي السَّوَابِغِ شَادٍ
 عَلَى أَنَّهَا أُمُّ الْوَعَى وَابْنَةُ اللَّظَى وَأَخْتُ الظُّبَى فِي كُلِّ يَوْمٍ جِلَادٍ

« القعب : القدح الصغير ، ونثل الدرع ينثلها : إذا ألقاها على نفسه
 وصبها عليه ، والثمد جمع ثمد وهو : الماء القليل . يقول : إذا طويت
 صغر حجمها بالظى حتى يسعها القعب . وإن لبست سألت على البدن
 كالماء . وقوله : وما هي إلا روضة ... البيت ، فسدك بالشيء : كزيمه ، وشدا
 يشدو فهو شاد : إذا رفع صوته بالغناء ، شبه هذه الدرع بالروضة ،
 والذباب يجتمع في الرياض ويصوت فيها ، يقول : إن هذه الدرع روضة
 قد أولع بها ذباب السيف ، وهو : حدّه الذي يمتعنى في الدرع ، أي أنها
 درع لاتزال على بطل محارب تردها سيوف الأقران وتقارعها فيسمع
 صوت وقعها . وقوله : على أنها ... البيت فالجلاد : الضراب بالسيوف ،
 وجعل الدرع أم الوعى — أي الحرب — إذ أنها تجرى تجرى الأصل
 والملجأ الذي يلجأ إليه ، وجعلها ابنة اللظى — أي النار — لأنها إنما
 حملت بالنار ، وأخت الظبي — جمع ظبة وهي حدّ السيف — إذ لاتزال

تردها طُبات السيوف وتقارنُها ولا تؤثر فيها ، وصَفها بهذه الأسماء المنبئِة
عن القرابات مُريداً بها ما يناسبُها من المعنى .

ولأبي العلاء المعرّي في الدروع مقطوعات كثيرة ، لقد أفنن فيها افتناناً ،
وأبدع ماشاءت عبقريته تراها في سقط الزند .

وإذا أردت التوسع في وصف آلات القتال من السيوف والدروع
والرماح والقسيّ والنبال وما إلى ذلك فارجع إلى الموسوعات العربية ودواوين
الشعراء فسوف ترى فيها الطمّ والرّم ، مما علّه ينقع عُلتك إن شاء الله .

تمّ الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث إن شاء الله



استدراكات وتصويبات أخرى

لما وقع في المجلد الأول من الأخطاء

جاء في صفحة ٤٢ من المجلد الأول من الذخائر هذا البيت هكذا :

إذا ظلم المولى فزعتَ لِظُلْمِهِ فحركَ أحشائي وهرتَ كلابيا

وقد نهينا في تصويبات المجلد الأول : إلى أن فزعت صوابها فزعتُ
وهنا نحاول أن نشرح هذا البيت شرحا آخر علاوة على الذي أوردناه هناك في
شرحه فقول : قال التبريزي : فحركَ أحشائي يروى « وحركَ أحشائي »
وهذا كما يقال : هذا أمرٌ قد حركَ مِنِّي : إذا اضطربت له ، وقوله :
حركَ أحشائي يجوز أن يكون تحركت أحشاؤه لوجيب قلبه وخفقانه ،
ونبعت كلابه لتبئته للانتقام وتدججه في السلاح وتجمع أصحابه ، والكلب
يُنكِرُ أصحابه إذا رآهم بهذه الحال ، وأنشد الأصمعي في مثله :
أناؤس إذا ما أنكرَ الكلبُ أهلهُ

حَمَمُوا جَارَهُمْ مِنْ كُلِّ شَنْعَاءٍ مُظْلِمٍ

ووجهٌ آخر ، وهو أن يكون تحركت أحشاؤه لإعداد ما يُعَدُّه .
والمتسرع يُلحِقُه ذلك

وجاء في صفحة ٦٠ : ورأى عُمرُ بنُ الخطابِ رجُلاً يقول : أنا ابن
بطحاء مسكنة ... الخ وصحة هذه الجملة كما جاء في الأغاني ج ٤ ص ٣١٨
طبعة دار الكتب هكذا : وسمع عُمرُ بنُ الخطابِ رضى الله عنه رجلا يقول
لآخر يفخرُ عليه : أنا ابنُ مُسَلِّطِيعِ البِطَّاحِ ، وابن كذا وكذا ، فقال له

عمر : إن كان لك عقل فلك أصلٌ ، وإن كان لك خُلُقٌ فلك شرفٌ ،
 وإن كان لك تقوى فلك كرمٌ ، وإلا فذاك الحمار خيرٌ منك ؛ أحببكم إلينا
 قبل أن نراكم أحسنكم سَمِينًا ، فإذا تكلمتم فأبديتكم منطِقًا . فإذا اختبرناكم
 فأحسنكم فعلاً .

وجاء في صفحة ٧٩ من المجلد الأول : وقال حمادٌ عَجْرِدٌ في ذلك
 من أبيات : بُثَّ النَّوَالِ وَلَا تَمْنَعَكَ قَلَّتُهُ الخ ، وصوابه هكذا : وقال بشار
 ابن بُردٍ يهجو العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان قد
 سَمَّنَحَهُ فلم يَمْنَحَهُ :

ظِلُّ الْيَسَارِ عَلَى الْعَبَاسِ مَمْدُودٌ	وَقَابُهُ أَبَدًا فِي الْبُخْلِ مَمْعُودٌ
إِنَّ الْكَرِيمَ لِيُخْفِي عَنْكَ عُسْرَتَهُ	حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ مَجْهُودٌ
وَلِلْبَخِيلِ عَلَى أُمَّوَالِهِ عِلَلٌ	زُرُقُ الْعَيُونِ عَلَيْهَا أَرْجَحُهُ سَوْدٌ
إِذَا تَكْرَهْتَ أَنْ تُعْطِيَ الْقَائِلَ وَلَمْ	تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرَ الْجُودُ
أَوْ رِقٌّ بِخَيْرٍ تُرَجِّى لِلنَّوَالِ قَمًّا	تُرَجِّى الثَّمَارَ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْعُودُ
بُثَّ النَّوَالِ وَلَا تَمْنَعَكَ قَلَّتُهُ	فَكُلُّ مَا سَدَّ فِقْرًا فَهُوَ مَحْمُودٌ

وجاء في صفحة ١٢١ هذا البيت هكذا :

وَمَا حُبِّزُهُ إِلَّا كَعَنْقَاءٍ مُغْرِبٍ تَصَوَّرُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ وَفِي الْمَثَلِ
 وصوابه هكذا :

وَمَا حُبِّزُهُ إِلَّا كَعَنْقَاءٍ مُغْرِبٍ تَصَوَّرُ فِي بُسْطِ الْمُلُوكِ وَفِي الْمَثَلِ

وهو أحد أبيات لأبي نواس يهجو بها إسماعيل بن سهل وقيل هذا البيت :

على حُبِّزِ إسماعيلَ وافيةُ البُخيلِ فقد حَلَّ في دارِ الأمانِ من الأكلِ

وبعده :

يُحَدِّثُ عَنْهَا النَّاسُ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ سَوَى صُورَةٍ مَا لَنْ تُمِرَّ وَلَا تُحَلِّيَ
إلى آخر الأبيات . والمُثَلُّ هِيَ المَثَلُ جمع ، بِمَثَلٍ وَهُوَ : مَا يُفْتَرَسُ مِنْ مَفَارِشِ
الصُّوفِ المُلَوَّنَةِ ، وَقَوْلُهُ : يُحَدِّثُ عَنْهَا النَّاسُ ... نَضْمِيرٌ عَنْهَا لِنَقَاءِ مُغْرِبِ ،
وَقَوْلُهُ : مَا لَنْ تُمِرَّ وَلَا تُحَلِّيَ : فَتَمَرٌ : تَجَمُّهُ مُرًا وَتَحَلِّيٌ : تَجَمُّهُ حُلُومًا وَالْمَعْنَى :
لَا تَأْتِي هَذِهِ الصُّورَةُ بِطَائِلٍ إِذْ أَنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لِنَقَاءِ مَغْرِبٍ فِي الْوَاقِعِ وَهَذَا
عَلَى حَدِّ قَوْلِهِمْ : فَلَا أَنْتَ حُلُومٌ وَلَا أَنْتَ مُرٌ : أَي لَسْتَ هُنَاكَ «

وجاء في صفحة ١٢٤ : فهى حق أريد بها باطل ، وصوابها : فهى حق أريد
به باطل .

وجاء في صفحة ١٥٩ : ولى حُمُرُ النَّعَمِ . وصوابها . ولى حُمُرُ النَّعَمِ

وجاء في صفحة ٣١٥ : لَمْ يَدْخُلْهُ بِإِذْنِي فَأُخْرِجُهُ بِإِذْنِي . وصوابها :
لَمْ يَدْخُلْهُ بِإِذْنِي فَأُخْرِجُهُ بِإِذْنِي .

وجاء في هذه الصفحة : قال ابن عباس رضى الله عنه ، وصوابها قال ابن
عبيد بن عمير رضى الله عنه ، « وهذا ابن عباس هو أبو بكر بن عباس المحدث
المتوفى سنة ١٩٣ هجرية وقد ترجم له ياقوت في معجم الأدباء « ج ٧ »

وقد وردت فيه حكايته هكذا : قال أبو بكر بن عياش : كنت إذا أنا شابُّ إذا أصابتنى مُصيبةٌ ، تصبَّرتُ ورَدَدْتُ البكاء ، فكان ذلك يرجعنى ويزيدنى ألمًا ، حتى رأيت بالكناسة — محلة بالكوفة — أعرابياً وافئاً وقد اجتمع الناس حوله فأنشد :

خليلي عوجا من صدور الرواحل بجهورِ حُزوى وأبكيا في المنازلِ

لعلَّ انحدارَ الدَّمعِ يُعقِبُ راحة من الوجدِ أو يشفِي نجيَّ البلابلِ

فسألت عنه فتميل : ذو الرِّمة ، قال : فأصابتني بعد ذلك مصائب فكنت أبكي فأجدُ راحة ، فقلت : في نفسي : قاتل الله الأعرابي ، ما كان أبصره وأعلمه !



أغلاط مطبعية

في هذا الجزء الثاني

صواب	خطأ	ص	سطر
وفي باب العزم	وفي باب الغرم	٧	١٢
فِيصِيرُكَ	فِيصِيرُكَ	١	٤٤
حَسَنُ الكِدْنَةِ - بكسر الكاف وضمها - : أى السَّمَن	حَسَنُ الكِدْنَةِ	٤	٤٦
فكأنها	فكأنه	٢٠	٤٨
عَلَّتْهُ	عَلَّتْهُ	٢٠	٦٠
عُلُوُّهُ	عُلُوُّهُ	١٢	١٠٠
فإن يكُ جُرْمٌ	فإن يكُ حُرْمٌ	١٤	١٢١
قال زُفَر بن الحارث	قال من لا أذكر اسمه	١٥	١٢٢
سطر أجنبي عنهما	١٩ و ١٨	١٦٢	
الشاعر الببغاء	الشاعر الببغاء	١٣	١٦٨
نهيهم عن الغضب من المرح	نهيهم عن الغضب في المرح	١١	١٨٤
أى يَوْمَى	أى يَوْمَى	١٠	٢٢٩
وانجلى الزُّبْدُ	وانجلى الزُّبْدُ	١٧	٢٤٠
إنِ العَدُوُّ	إنِ العَدُوُّ	٨	٢٤٤
بيد أن مبنها	بيد أن معناها	٥	٢٤٧
سحاب	سحاب	٤	٢٥١

فهرس الجزء الثاني

من الذخائر والعقريات

عقريات شتى

تندرج في الابواب السابقة

سهر أخلاق الخلفاء الراشدين ٢ طلحة بن عبيد الله ٣ حادث تلاقى فيه الكرم بالشفاعة والمروءة
والحياء والتبذل ٧ حلم وأدب وسمو خلق ٩ خير ما برزقه العبد ١٠ لاتزال العرب عربا ما حافظت
على زبها ١٠ توقيير العالم والشريف والكبير ١١ عيرة ١٤ لاتشك لى غير الله ١٥ نبالة
ومروءة ١٥ دعوة الله ١٦ كلمات فى السؤال ١٦ كانوا يرون أن الملوك لا يستحقن من مسألتهن ١٦
مثل فى الرضا ١٨ لهم نصف الحرم ١٩ مثل الدنيا وآفاتها ١٩ عمرو بن العاص يصف حاله فى
احتضاره ٢٠ ماذا قال عبد الله بن الزبير حين آتاه خبر مقتل أخيه المصعب ٢١ إذا ضيقت شيئا
ضاق جداً ٢٢ لاتلهفن على ما فاتك ٢٢ ومن قولهم فى الحث على التعمى ٢٣ لكل غد طعام ٢٤
الثام مولعون بايذاء الكرام ٢٥ آيات فى الصبر والشجاعة والكرم ٢٦ آيات حكيمة ٢٧
آيات من لم يروها فلا مروءة له ٣٠ حكم ومواعظ ٣٢ فى الموت ٣٥

طائفة من عقرياتهم فى التعازى

التسلية بعد وقوع الحذور ٣٧ من دواعى التسلى قرب الاحرق بالميت ٣٨ من تعازى الملوك
وتسليمهم بأن الناس جميعاً مصابون ٣٨ التسلى بأنهم ممرى لامرئى به ٣٩ التسلى عن معنى بمن بقى ٣٩
من تسلى بماله من الثواب وبعض تعازيهم ٤٠ من مات له كثير من أهله فصبر ٤١ ومن ادعيتهم
لذوى المصيبة ٤٢

عقرياتهم فى الطب والمرض وعبادة المرضى

معنى الطب ٤٢ وصف طبيب حاذق ٤٢ الطيب الجامل ٤٣ مدح الحية وذوها ٤٣ شرب
الدواء ٤٤ سياسة الأبدان بما يصلحها من الطعام وغيره ٤٥ من تناول طعاما وتحقق تولدعة
منه ٤٧ الحى ٤٨ الرمد ٥٠ النفوس ٥١ عود إلى عقرياتهم فى الشداوى والأدوية ٥١
شهرة المريض إلى الطعام ٥٢ شكوى العسلة ٥٢ فضل الصحة والعافية ٥٣ نفع للمرضى ٥٤
وصف العلة بأنها تال الأمانى ٥٤ وجوب عبادة المريض ٥٦ أدب عبادة المريض ٥٦ شكاية
من لا يعوده إخوانه ٥٧ الاعتذار عن ترك العبادة ٥٧ من عاده ممرضه ٥٧ مريض عاد صحيحا ٥٨
حثم العائد على تنفيط المريض ٥٨ حثهم على تخفيفه ليتحب الميئلا ٥٨ تغير اللون ٥٨ تنبئة
من برأ من المرض ٥٩ نفدية المريض ٦٠

عقبريات شتى }
٦١ { في الطب والمرض والعبادة

الباب الرابع في كتمان السر وإفشاءه

وعقبرياتهم في ذلك وفيما يجرى هذا الجرى

من الشورى والاستبداد بالرأى والنصح والأناة والعجلة

تمهيد ٦٤ حفظ اللسان ٦٥ منع إظهار السر قبل تمامه ٦٦ حثهم على حفظ السر ٦٦ من يكره اطلاعه على السر ٦٧ المفتخر بحفظ السر ٦٨ المدوح بحفظ السر ٦٨ صموية حفظ السر ٧٠ من لا يحفظ سره ويستحفظه غيره ٧٠ الأحوال التي يفشو فيها السر ٧١ المسارعة في الخافل ٧١ المتجسس باظهار أسرار أصدقائه ٧٢ الرخصة في إفشاء السر إلى الصديق ١٢ عقبريات شتى في كتمان السر ٧٣ عقبرياتهم في المشورة والاستبداد بالرأى ٧٦ مدح المشورة ٧٦ حثهم على مشاورة الخازم اللبيب ٧٧ استشارة الكبار والصغار ومن يعتمد على مشورته ورويته ٧٨ من يجب أن نجتنب استشارته ٨١ وجوب نصيحة مستشيرك ٨١ الحث على قبول النصح وإن كان مرأ ٨٣ عتاب من لم يقبل النصح ٨٣ ضياع النصح لمن لا يقبله ٨٣ معاتبه من يستنصح الناس ويستفتش الناصح ٨٤ الناصح منهم ٨٥ وصف غاش في نصحه ٨٦ الاستبداد وكراهة المشورة ٨٦ المتفادى من أن يستشار ٨٨ مدح الأناة والرؤية وذم العجلة ٨٨ مدح العجلة واشتزاز الفرص ٩٠ عقبريات شتى في المشورة ٩١

عقبرياتهم في الوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

نهي من لم يتعظ عن الوعظ ٩٥ حثهم على الوعظ بالفعال. دون المقال ٩٥ التلطف واللين في الوعظ ٩٦ الحث على الانماط ٩٦ وعظ من لا يتعظ ٩٦ حثهم على قبول وعظ من ليس يتعظ ٩٧ النهي عن الاقتداء بذوى الزلات ٩٧ الحث على الأمر بالمعروف والحال التي يجوز فيها ٩٧

الباب الخامس

في الحلم وكظم الغيظ والعفو والغضب والانتقام وما إلى هذه المعاني

تمهيد ١٠٠ المدوح بالحلم وتمدحهم به ١٠٢ فضل كظم الغيظ ١٠٤ الغضب وألوانه وما يسكن به ثورانه ١٠٥ من اجتهد في إغضابه فحلم ١٠٧ حثهم على ترك الغضب المزدى إلى الاعتذار ١٠٩ حثهم على التصامم عن الفبيح وتمدحهم بذلك ١١٠ حثهم على العفو مطلقاً ١١٠ التحمل عن الخدم ١١١ الرحمة ومدح ذريها ١١٢ ما يستحسن فيه الحلم من الكبار وما يستفح ١١٢ حثهم على دره الحدود ١١٣ حث القادر على العفو ١١٣ ذم المتشفي من قديط ١١٤ مدح من صفيح =

قدرة ١١٥ الحث على إقالة من سلم ظاهره ١١٥ العفو عن سلم باطنه ١١٦ عتب من يحفظ الذنب بعد تقادمه ١١٧ العفو عن المقر المعترف ١١٧ حسن العفو عن المصير ١١٨ استعفاء من خلط إقراراً بانكار ١١٨ معتذر مع إنكار ١١٩ معذّر بتكذيب نفسه ١٢٠ استعفاء من زعم أن ذنبه كان خطأ ١٢١ مستعف سأل أن يقوم ويؤدب ١٢٢ مستعف سأل العفو لفرط خوفه ١٢٢ مستعف اتكل على سالف حرمة ١٢٢ الاستعفاء المذنب من قوم محسنين ١٢٣ متوصل إلى العفو بمراجعة أو حجة ١٢٣ مستعف ذكر فرط خوفه من الوعيد ١٢٣ من استعفى واستوهب معاً ١٢٤ المتوصل إلى العفو بالتثبت إلى حين التبيين ١٢٥ نهي العاقب عن اتئيب ١٢٥ نهيهم عن الاعتذار وصعوبته ١٢٦ تأسف من يعاتب بغير ذنب ١٢٧ النبي عن الحلم إذا كان يسبب ذلاً أو ضراً ١٢٨ دفع الجهل بالجهل ١٢٩ من نهي عن الاعتذار بحله ١٣٠ الحلم مقر وضار مثل ١٣٠ نهيهم عن إكرام اللئيم ١٣١ الاستعانة بالجهل لدى الحاجة إليه ١٣٢ حث القادر على العقاب قبل فوته ١٣٢ التوجه بقسوة القلب وقلة الرحمة ١٣٣ أخذ البريء بذنب الجاني ١٣٤ عذر من بدر منه سخط ١٣٨ الاحتراس من غرس العداوة ١٣٨ نهيهم عن الاعتذار بأود تسيطن معه العداوة ١٣٩ نهيهم عن السكون إلى من تقدم منك إليه إساءة ١٤٢ نهيهم عن احتقار العدو ١٤٣ المتجهح باظهار اللئيم وإضمار العداوة ١٤٤ الممدوح يكاشرك إذا حضرك ١٤٥ من نظره بنبي عن عداوته ١٤٥ ثبات العداوة الذاتية ١٤٧ حد المداهمة طياً للفرصة ١٤٧ المصرة بربوع العداة بين أعدائك ١٤٨ ذنب يعاديك بلا سبب ١٤٨ تأسف من يعاديه لئيم أو ذنب ١٤٨ حثهم على العداوة بالقول لا بالفعل ١٤٩

طائفة من عقوباتهم

في الناس وما جبل عليه السواد الأعظم
من الحقد والحسد وسوء الظن والشتمة وما جرى هذا المجرى

الناس - لا يزال الناس بخير ما تابنوا ١٤٩ وجدت الناس أخبر نقله ١٥١ الناس كابل مائة لا تجد فيها راحلة ١٥١ لوتكاشتم ما تداغتم ١٥٢ تفريق في الناس وألوانهم ١٥٢ الفوغاه ١٦١ فلة الوفاء في الناس وشيوع النذر والمنكر في عامتهم ١٦٣ الأندال والثام ١٦٦ الظن ١٦٨ الشتمة ١٧٠ الحقد ١٧٠ ذم الحقد ومدحه ١٧١ الحسد ١٧٤ المزاح ١٨٢ نهيهم عن المزاح ١٨٢ حدهم القصد في المزاح والأمثال ١٨٣ نهيهم عن الغضب من المزاح ١٨٤ الممدوح بأن فيه الجحد والهزل ١٨٤ عذر من يضحك وهو محزون ١٨٥ نهيهم عن كثرة الضحك ١٨٥ إيراد جد في مسلك هول ١٨٥ صدر من عقوباتهم في الغيبة والنميمة - حقيقة الغيبة ١٨٦ ذم الغيبة والنميمة ١٨٦ من سمحت نفسه بأن يكون في حل ومن لا تسمع نفسه ١٨٨ من قلت مبالاته بمن اغتابه ١٨٨ ذم ناص بنصاب فاضلاً ١٨٩ من رمى غيره بغيره ١٩٠ اغتياب المرء غيره يدل على عيبه ١٩٠ شمهي الغيبة واستطابها ١٩١ من اغتاب فأغتيب ١٩٢ نهيهم عن الاصطفا إلى اغتياب ١٩٢ الممدوح بصيانة مجلسه عن الغيبة ١٩٢ حثهم على التثبت فيما يسمع من السامية ١٩٢ صعوبة التخلص من اغتياب الناس ١٩٥ ذم ناقل الغيبة ١٩٦ الموصوف بالنميمة ١٩٦ من اغتاب غيره فرآه ١٩٦ من لا يحوم اغتيابه ١٩٧ حثهم على التحرز عما يقتضى الغيبة ١٩٧

الباب السادس

في التواضع والكبر وما إليهما

- حد التواضع والكبر ١٩٨ حثهم على التواضع ٢٠٠ ذمهم التكبر ٢٠٣ بعض دواعي التكبر ٢٠٤
متكبر ذئب أو فقير ٢٠٥ مدحهم معرفة الرجل قدر نفسه وذمهم الصلف وبعض نوادر المزهوين ٢٠٥
معتذر لعجبه وعزته ٢٠٧ التكبر على ذوى الكبر ٢٠٧ ذمهم الافراط في التواضع ٢٠٨ حمد
تعظيم الكبار ٢٠٨

الباب السابع

في الشجاعة وعبقرياتهم فيما

وفي الصبر في القتال وسائر ما يتصل بالحرب

- حقيقة الشجاعة ٢١٠ الأسباب المذمومة ٢١١ حثهم على الثبات والاقدام ونهيمهم عن الاحجام
والفكر في العواقب ٢١٢ المبادر إلى الحرب غير مبال بها ٢١٥ حث من دعى إلى المبارزة على
الاجابة ٢١٦ المنازل وقت المنازلة ٢١٦ صدر من عبقرياتهم في الصبر ٢١٧ الخدعة والحيلة
والتحريز في الحرب ٢٢٠ ما ينبغي أن يتصف به أسراء الجيوش ٢٢٢ حثهم على التفكير قبل
التقدم ٢٢٧ من يؤثر الموت في الذر على الحياة في الذل ٢٢٨ نهيمهم عن مخافة القتل وحثهم على تصور
الموت وتعددهم بذلك ٢٢٩ الجود بالنفس وحب الموت في الوغى وأنفهم من الموت على الفرائس ٢٣٤
من يحوض الحرب لا بد أن يوطن نفسه على الموت ٢٣٨ في القتل حياة ٣٣٨ تأثير الخوف والخوف
منه والوفى على الجاعة ٢٣٩ المدرج بقوة نفسه دون جسمه ٢٤٣ اتصد إلى العدى مجاهرة ٢٤٤
المقاتل عن حريمه ٢٤٤ المستنكف من السلب ٢٤٥ الشبان والكهول في الحرب ٢٤٦ العاجز
أعداه عن إصلاح ما أفسده وعكس ذلك ٢٤٨ من أصبحه الطيور والسباع في القتال ٢٤٩ عذر من
يلبس الدروع ونحوها في الحرب والمستغنى بشجاعته وبثبته عنها ٢٥٢ تحريم الملاهي على المحارب ٢٥٤
طائفة من عبقرياتهم في الصلح والتحذير من الحرب ٢٥٦ الحرب تصيب جانبها وغير جانبها ٢٦٠
المنتع من الصلح ٢٦١ ضارع يطلب الصلح ٢٦٢ المعير بانتهزامه ٢٦٧ ترك اتباع المنهزم ٢٦٨
الفرار وقت الفرار والثبات وقت الثبات ٢٦٩ المتفادى من حضور الحرب والمحتج لانهزامه بالخوف من
القتل ٢٧٠ هارب يعتذر عن هربه ٢٧١ التخلف عن قومه ٢٧٢ من نجا وقد استولى عليه
الخوف ٢٧٣ تسلية المنهزم ٢٧٤ صدر من عبقرياتهم في الجبن ٢٧٥ من يظهر الشجاعة خارج
الحرب ويجهن فيها ٢٧٧ عبقريات شتى في الشجاعة والحرب ٢٧٧ ماغزى قوم فط في عقر دارهم
إلا ذلوا ٢٨٢ صدر من عبقرياتهم في وصف آلات الحرب ٢٩٦ استدراكات أخطأ في الجزء الأول ٣٠٤
استدراكات أخطأ في الجزء الثاني ٣٠٧ الفهرس ٣٠٨